

تأملات تربوية في سور من القرآن الكريم

(الجزء الأول)

الدكتور
عثمان قدرى مكانسي

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

عرفته مريباً فاضلاً يتقاطر الشباب حوله لحضور حلقاته في منزلنا ، ويحرصون على تنفيذ ما يكلفهم به ، فهم يرون فيه قدوة ، وكان له في البيت أكثر من لقاء أسبوعي لمجموعات مختلفة من الشباب . ومن مواقفه الطريفة في ذلك أن أحد مواعيد لقاءاته الأسبوعية كان يوم الجمعة فلم يتوان عن الالتقاء بطلابه صبيحة يوم عرسه ، وكان رأيته في ذلك أن الأولويات هي التي تحدد مسار الداعية . وهكذا كان .. واضطرتنا الظروف للخروج من سورية لبدء مرحلة الهجرة التي اخترناها ابتداء لتحسين وضعنا المعيشي، ثم تحولت إلى هجرة في سبيل الله بعد أن حدث ما حدث في أوائل الثمانينات في سورية . وكان أينما حل يترك - بفضل الله - أثراً تربوياً مميزاً ، سواء أكان ذلك مع تلاميذه في سورية أم في الجزائر في ثانويات بجاية أم في علاقاته مع الجالية السورية هناك ، أم في مهجره الثاني في الأردن ، أم في عمله التربوي في ثانويات دبي ومساجد الشارقة .

وفي عمله في الإمارات نال درجتي الماجستير ثم الدكتوراه { أدب الفتوحات العثمانية } وذلك لشغفه باللغة العربية التي تغلب على حديثه مع أصدقائه وإخوانه .

كان كتابه التربوي الأول { صور من تأذي النبي صلى الله عليه وسلم } فاتحة كتبه التربوية ، تبعه بعد ذلك كتابه { التربية النبوية } الذي نال به جائزة جمعية المعلمين في الشارقة / الإمارات ، مما شجعه على الاستمرار في هذا النهج الذي أحبه ، فكان كتابه القيم { من أساليب التربية في القرآن الكريم } الذي اغترفه من معين الكتاب العظيم الخالد ، وكان كتابه هذا فتحاً في التربية القرآنية ، وأزعم أنه كان سباقاً في هذا المجال التربوي . وما كتابه { قصص رواها النبي ﷺ } وكتابته { قصص رواها الصحابة رضوان الله عليهم } إلا لبنتان في سلسلة الكتب التربوية لبناء الشخصية الإسلامية التي قدمها المخلصون من علماء أمتنا ، وقد تناول فيهما من القصص ما يركز على الطرق التربوية فيها لبناء مجتمع طاهر نظيف .

شارك المؤلف في كثير من المؤتمرات والمخيمات الإسلامية في أوروبا وأمريكا ، فكان له بعون الله الأثر الجيد في نفوس إخوانه وخاصة من الشباب ، وخلّد هذه الزيارات في كتابه { أدب الرحلات } ، نشره في

حلقات في المواقع العنكبوتية الأدبية ، ثم طبع عام ٢٠١١ ميلادية .

أما كتابه هذا { تأملات تربوية في سور من القرآن الكريم } فقد نشر مقالاته في حلقات على صفحات " انت " على مدى سنتين تداولتها عشرات المنتديات ولاقت استحساناً كبيراً ، يتناول فيها بعض الأساليب القرآنية في الدعوة إلى الله والتربية الإخوانية والأسرية مع بعض اللفات الأدبية والبلاغية . ثم طبع في عمان ز

ولا يخلو كتابه الأدبي " رياض سندسية " من معان اجتماعية وفكرية وأدبية وسياسية نشرها في المجالات والمنتديات الالكترونية ، ولم يتسّر طبعه حتى الآن، بيد أنه نُشر في مواقع النت .
توالت كتبه التربوية في غزات النبي صلى الله عليه وسلم فكتب في غزوات بدر وخيبر وتبوك وفتح مكة .. وغيرها من غزوات النبي صلى الله عليه وسلم

بدأ أبو حسان - وهي الكنية التي يؤثرها على الألقاب الأكاديمية ويرتاح لها - نظراته وتأملاته التربوية في كتابه هذا بمقالات في " سورة مريم " التي يسميها سورة الأسرة ، ففيها قصة الأب زكريا وابنه يحيى، وقصة الأم مريم وابنها عيسى ، وقصة الأخوين موسى وهارون ، وقصة الولد الصالح إبراهيم مع أبيه آزر ، وقصة إسماعيل الأب المربي الفاضل ، يذكر العلاقة بينهم والمحور الذي يلتفون حوله ويسعون لإرضائه (إنه الله سبحانه وتعالى) ، ثم أتبعها بتأملات في " سورة طه " ، ولم تكن غايته أول الأمر أن يجعلها كتاباً ، لكن شاء الله سبحانه أن تُجمع هذه المقالات بين دفتين ينتفع بها المربون إن شاء الله تعالى .

فالمسلمون الآن وتحت وطأة الهجمة التجهيلية أشد ما يكونون بحاجة إلى وسائل تربوية من كتاب الله تعالى وسنة نبيه الكريم يجعلونها النور الذي ينهلون منه الأخلاق والأدب ، فهو المعين الذي لا ينضب ولا يبلى على مر الدهور وكرّ العصور . خاصة بعد أن انتشر اليوم من المربين أو مدعي التربية الحديثة من يعتمدون الاعتماد الكلي على الغربيين في أفكارهم وفي طرق تربيتهم ، وهم نوعان ، فمن كان منهم ذا أفكار سليمة إنما تتقارب أفكاره مع ما جاء به القرآن الكريم ... ومن كان غير ذلك فلا حاجة لنا إلى سمومه .. ولكن أمتنا التي تعاني الآن من التأخر والضعف أصبحت لا ترى من الجيد إلا ما كان قادمًا من وراء البحار ... فكان لا بد من أقلام مخلصات تملأ الساحة من خلال ما يقبسون من أدب ديننا وأخلاقه ، ليقدموا للمربين البديل الأصيل والمعين السلسيل ويأخذوا بأيديهم لبناء جيل قرآني طاهر .

أسأل الله عز وجل أن يعلمنا ما ينفعنا ، وينفعنا بما علمنا ، ويسدد خطانا ، وأن يجعلنا من دعائه
الذين قال فيهم { ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ، ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، وأولئك
هم المفلحون } . والله وليّ التوفيق

إلهام محمد صبري بيره جكلي

أم حسان

تأملات تربوية في سورة هود (١)

سُورَةُ هُود : مَكِّيَّةٌ إِلَّا الْآيَاتِ ١١٤ - ١٧ - ١٢ فَمَدَنِيَّةٌ وَأَيَّاتُهَا ١٢٣ نَزَلَتْ بَعْدَ يُنُوسَ

مَكِّيَّةٌ فِي قَوْلِ الْحَسَنِ وَعِكْرِمَةَ وَعَطَاءَ وَجَابِرٍ . وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَقَتَادَةُ : إِلَّا الْآيَةُ الرَّابِعَةُ عَشْرَةُ ؛ وَهِيَ قَوْلُهُ تَعَالَى : " وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ . وَرَوَى التِّرْمِذِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ قَالَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ قَدْ شَبْتُ . قَالَ : " شَيْبَتْنِي هُودُ وَالْوَأَقَعَةُ وَالْمُرْسَلَاتُ وَعَمَّ يَتَسَاءَلُونَ وَإِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ " . وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ رَوَاهُ سَفِيَانُ بْنُ وَكَيْعٍ : قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ نَرَاكَ قَدْ شَبْتَ ! قَالَ : (شَيْبَتْنِي هُودُ وَأَخَوَاتُهَا) . فَالْفَرْعُ يُورِثُ الشَّيْبَ وَذَلِكَ أَنَّ الْفَرْعَ يُذْهِلُ النَّفْسَ فَيُنَشِّفُ رُطُوبَةَ الْجَسَدِ ، وَتَحْتَ كُلِّ شَعْرَةٍ مَنَبَعٌ ، وَمِنْهُ يَعْرِقُ ، فَإِذَا انْتَشَفَ الْفَرْعُ رُطُوبَتُهُ يَبَسَتْ الْمَنَابِعُ فَيَبَسَ الشَّعْرُ وَابْيَضَّ ؛ كَمَا تَرَى الزَّرْعَ الْأَخْضَرَ بَسِيقَاتِهِ ، فَإِذَا ذَهَبَ سِقَاؤُهُ يَبَسَ فَابْيَضَّ ؛

وَأَمَّا يَبْيِضُ شَعْرُ الشَّيْخِ لِذَهَابِ رُطُوبَتِهِ وَيُبَسُّ جِلْدُهُ ، فَالْنَّفْسُ تَذْهَلُ بِوَعِيدِ اللَّهِ ، وَأَهْوَالِ مَا جَاءَ بِهِ الْخَبَرُ عَنْ اللَّهِ ، فَتَذُبُّ ، وَيُنَشِّفُ مَاءَهَا ذَلِكَ الْوَعِيدُ وَالْهَوَلُ الَّذِي جَاءَ بِهِ ؛ فَمِنْهُ تَشْيِبُ . وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : " يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا " [الْمُرَّمَّلُ : ١٧] فَإِنَّمَا شَابُوا مِنَ الْفَرْعِ . وَأَمَّا سُورَةُ " هُود " وَقَدْ شَبَّ هُودٌ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا حَلَّ بِالْأُمَمِ مِنْ عَاجِلِ بَأْسِ اللَّهِ تَعَالَى ، فَأَهْلُ الْيَقِينِ إِذَا تَلَوْهَا تَرَأَوْا عَلَى قُلُوبِهِمْ مِنْ مُلْكِهِ وَسُلْطَانِهِ قُوَّةً بَطَشَهُ بِأَعْدَائِهِ ، فَلَوْ مَاتُوا مِنَ الْفَرْعِ لَحَقَّ لَهُمْ ؛ وَلَكِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يُلْطِفُ بِهِمْ . وَأَمَّا أَخَوَاتُهَا فَمَا أَشْبَهَهَا مِنَ السُّورِ ؛ مِثْلُ " الْحَاقَّةِ " وَ " الْمَعَارِجِ " : وَ " التَّكْوِيرِ " وَ " الْفَارِعَةِ " ، فَفِي تِلَاوَةِ هَذِهِ السُّورِ مَا يَكْشِفُ لِقُلُوبِ الْعَارِفِينَ سُلْطَانَهُ وَبَطْشَهُ فَتَذْهَلُ مِنْهُ النَّفُوسُ ، وَتَشْيِبُ مِنْهُ الرُّؤُوسُ .

وَقَدْ قِيلَ : إِنَّ الَّذِي شَبَّ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ سُورَةِ " هُود " قَوْلُهُ فِي الْآيَةِ الثَّانِيَةِ عَشْرَةِ مِنْهَا : " فَاسْتَقِمْ كَمَا أَمَرْتُ " فَهُوَ أَمْرٌ بِالِاسْتِقَامَةِ وَالثَّبَاتِ عَلَى ذَلِكَ ، وَلَا يَصْبِرُ عَلَى الْاسْتِقَامَةِ إِلَّا عِظَمَاءُ الرِّجَالِ .

- وانظر معي إلى الأسلوب التربوي الأول في هذه السورة الذي نجده في الآية الأولى : التعظيم

للقرآن ، فهو " كتاب " لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، نزل به الروح الأمين بأمر الله تعالى

على الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم قد " أحكمت آياته " كلّها ، فلا خلل فيها ولا باطل ، نظمت نظاماً محكماً في اللوح المحفوظ ، فلا تناقض فيها ولا خطأ ، جمعت الأمر والنهي ، فأحكمت المطلوب ، " ثم فُصِّلَت " بما فيها من الدلائل على وحدانية الله تعالى والنبوة والبعث وما إلى ذلك من الإيمانيات ، وذكرت الوعد والوعيد والثواب والعقاب . فليكن القرآن عظيماً في قلوبنا ، عظيماً في نفوسنا ، عظيماً في أعمالنا فنلتزمه فهماً وعملاً ، فنعظم عند الله تعالى وعند الناس كما كان السلف الصالح رضوان الله عليهم .

- أما الأسلوب الثاني فهو التسلسل المنطقي ، فالإحكام والترتيب والتنظيم أولاً ، والتفصيل والتوضيح والبيان ثانياً . . ولا يكون العمل سليماً وناجحاً إلا بهذين الأمرين .

فما المطلوب بعد ذلك يا رب؟ إنه:

١- عبادة الله وحده فهو الخالق البارئ المستحق للعبادة .

٢- الإيمان بالحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم نبياً ورسولاً ، فهو البشير النذير .

٣- استغفار الله والتوبة إليه والعبودية له وحده .

٤- الاعتقاد بيوم القيامة ، والعمل للقاء الله تعالى ، فلا بد منه " إلى الله مرجعكم "

فإذا تم هذا كان العيش الهانئ في الدنيا " يمتعكم متاعاً حسناً إلى أجل مسمى " والتكريم في الآخرة " ويؤت كل ذي فضل فضله " وإلا كان التهديد والوعيد بعذاب الآخرة الدائم " وإن تولّوا فإني أخاف عليكم عذاب يوم كبير " . وأسلوب الترغيب والترهيب واضح في تفاعل النفس الإنسانية الواعية مع الأمور . وهذا هو الأسلوب الثالث الذي يدق على الوتر الحساس في الإنسان ويعيش معه في كل آن ... فبعد الحياة حساب ، فإما ثواب وإما عقاب . ولا يلتزم الصراط السوي إلا ذوو الألباب .

- الإنكار والصلف والعتو سبيل الجاهلين الذي يظلمون أنفسهم أولاً وآخرأ ،

١- إنهم ينكرون البعث ويسخرون منه ابتداءً " ولئن قلت : إنكم مبعوثون من بعد الموت ليقولن

الذين كفروا : إن هذا إلا سحر مبين ! "

٢- يتحدّون بكبرياء كل تهديد ووعيد وينكرون العذاب الذي ينتظرهم هازئين " ولئن أخرجنا عنهم

العذاب إلى أمة معدودة ، ليقولنّ : ما يحبسّه!! " .

٣- الإنسان سريع اليأس إن لم ينل بغيته ، أو نزعته منه النعمة . والبعدُ عن الصبر مقتل يقع فيه الكثرة الكاثرة - فالإنسان خلق من عجل - ولا بد من التحلي بالصبر وعمل الصالحات كي يزداد المؤمن إيماناً ، ويتجاوز ضعفه . وعلى رأس هذه السمات : اللجوء إلى الله والاتكال عليه : " ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة ثم نزعناها منه إن ليؤوس كفور ، ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولن : ذهب السيئات عني ، إنه لفرح فخور " فتراه ينسى مشاقه ويرفع رأسه خيلاء ، وينسب الفضل لنفسه " لفرح فخور " وينسى الخالق المنعم ، ويتجبر على أمثاله من البشر ، وكأنه من طينة أخرى غير طينتهم . أما المسلم فشيء آخر: " إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات ، أولئك لهم مغفرة وأجر كبير " ... إن الإنسان العاقل من يعرف قدر نفسه ، ويأرز إلى الحق، ويقر به . وهذا هو التأمل الرابع الذي ينبغي أن نقف عند نتائجه وآثاره وقوف المتأملين المتدبرين لنكون من المفلحين . إن هؤلاء الصابرين العاملين خيراً نماذج راقية من البشر ، وجودهم نادر ندرة المعدن النفيس بين المعادن الأخرى

- أما التأمل الخامس فواقفة متأنية أمام الآية الكريمة " فلعلك تاركٌ بعض ما يوحى إليك ، وضائق به صدرك أن يقولوا : لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك! إنما أنت نذير ، والله على كل شيء وكيل " .. ترينا الداعية يجد في سبيل دعوته الكثير من المتاعب ، والكثير من السخرية والاستهزاء ، والكثير من المثبطات فهل تفتّر همته ويتكاسل عن أدائها؟! وهل يتنازل عن بعض ما فيها ويتخفف منه لإرضاء أهل الأمزجة والأهواء؟! وهل تضيق نفسه فيقول : لم أتحمل هذا العبء وأسير عكس التيار؟! .. عقبات كثيرة ومعوقات عديدة تعترض مسيرة الدعوة والدعاة . فما ينبغي لحامل الدعوة المؤمن بها أن يعتريه ضعف ، أو تضيق نفسه بشرف حملها والنفخ عنها وبذل ما يستطيع في سبيل الوصول إلى نجاحها .. عليه فقط أن يبذل جهده وأن يخلص نيته ، فهو الأداة البشرية التي اختارها الله تعالى للتعامل مع أمثاله من الناس ، أما الهداية وقلوب البشر فبيد الله يهديها إليه سبحانه إن شاء ، ويضلها حين تستكبر وتجدد وتعرض عن منهجه القويم . " والله على كل شيء وكيل " .

- والتأمل السادس يتجلى في نفسية الكفار الواحدة التي لا تتغير في الأزمنة والأمكنة وإن تغيرت الأزمنة والأمكنة نفسها... إن أول الأنبياء نوح ، وآخرهم محمد عليهم الصلاة والسلام يلقون من المشركين " سيمفونية واحدة " هي التكذيب بالأنبياء وما جاءوا به ، فهذا الحبيب محمد عليه الصلاة والسلام يتهمه

كفار العرب ومشركوهم أنه افترى القرآن الكريم ، مع أن دعواهم ساقطة من أساسها . فهم قومه ولغته لغتهم ، فلو كان القرآن تأليفه لاستطاعوا الجيء بمثله ، ولكنهم لن يستطيعوا ذلك ، ولن يستطيعوا الجيء بعشر سور مثله ، ولا بسورة واحدة ، وإن جاهدوا ، وإذا عجزوا عن ذلك فالقرآن —إذاً— من عند الله تعالى" فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله ، وأن لا إله إلا هو فهل أنتم مسلمون ؟ ... " .. نعم يا رب : نحن بفضلك مسلمون .. وهذا النبي الكريم نوح يلقي من قومه اتهاماً بأنه يفترى على الله هذا الدين " أم يقولون افتراه؟! قل : إن افتريته فعليّ إجرامي ، وأنا بريء مما تجرمون " .. وهذا الاتهام لأول الأنبياء وآخرهم يندرج تحته وصم الكفار للأنبياء جميعاً بهذه الفرية ... وهذا هود عليه السلام الذي سميت السورة باسمه يرد على الكفار بأنه ليس مفترياً بل إنهم هم المفترون " ... إن أنتم إلا مفترون.. " . وقوم صالح يعزفون اللحن التكفيريّ نفسه فيقولون : " وإننا لفي شك مما تدعونا إليه مريب " . فهم بهذا يتهمونه بالافتراء ... وهؤلاء قوم لوط لما دعاهم إلى العفة ، والزواج الحلال من الفتيات الطاهرات كشفوا جانب الفجور، وأظهروا المستور دون رادع من أخلاق " قالوا : لقد علمت مالنا في بناتك من حق ، وإنك لتعلم ما نريد " وتراهم يرفضون مع شعيب التعامل بالمال الحلال ، ولا ينتهون عن تطيف الكيل والميزان ، ويهددون بالقتل لولا رهطه الذين يمنعونهم ...

فإذا أطل التأمل السابع — وهو مقولة الأنبياء الواحدة على مر الدهور — الدعوة إلى الله وإفراده بالعبادة والتوبة والإنابة إليه وجدنا المقولة عند نوح عليه السلام " أن لا تعبدوا إلا الله ، إن أخاف عليكم عذاب يوم أليم " ورأيناها نفسها عند هود عليه السلام " قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ، إن أنتم إلا مفترون " وألفيناها نفسها عند صالح عليه السلام " قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ، هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها " وكذلك نجد المقولة نفسها عند شعيب عليه السلام " يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره .. " .

كما أن الجميع يرددون الطلب إلى قومهم أن يتوبوا إلى الله ويستغفروه " فالله تعالى أمر محمداً عليه الصلاة والسلام في الآية الثالثة أن يذكر قومه بالاستغفار والتوبة " وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه .. " وكذلك يقول النبي هود عليه السلام في الآية الثانية والخمسين ، والنبي صالح عليه السلام في الآية الواحدة والستين ، والنبي شعيب عليه السلام في الآية التسعين ،

ونتيجة الاستغفار والتوبة في الآية الثالثة الحياة الطيبة في الدنيا والفضل العميم في الآخرة ، ونتيجته في الآية الثانية والخمسين الحياة الرغيدة والقوة العظيمة . ونتيجته في الآية الواحدة والستين التمكن في الأرض ورضاء الله تعالى ، ونتيجته في قصة شعيب الخير والنماء ، والرحمة والود ، والأمان من العذاب . ونجد مقولة الأنبياء واحدة في تطمين الناس أنهم لا يريدون منهم جزاء ولا شكوراً وأنهم لا يبتغون من ذلك الكسب الدنيوي ولن يكلفوا الناس شيئاً ، وهم ينتظرون الأجر العظيم من الله تعالى ، فنوح عليه السلام يقول لهم في الآية التاسعة والعشرين : " يا قوم لا أسألكم عليه مالاً إن أجري إلا على الله .. " ويكرر هود عليه السلام المقولة ذاتها في الآية الواحدة والخمسين " يا قوم لا أسألكم عليه أجراً إن أجري إلا على الذي فطرني .. " كما أن المشركين عرضوا على النبي صلى الله عليه وسلم المال الكثير والزعامة والسيادة والنساء والطب ، فأخبرهم أنه لا يريد منهم إلا أن يشهدوا لله بالوحدانية .

- فإذا توقفنا عند التأمل الثامن- وهو مقارنة بين خاتمة الجرمين والمؤمنين - وجدنا الكافرين -

والعياذ بالله - في النار،

١- ليس لهم أولياء يدفعون عنهم العقاب الأليم ، بل إن العذاب يضاعف ، فيزداد بلاؤهم .

٢- خسروا أنفسهم في جهنم خالدين ، فلم ينفعهم آلهتهم المزعومة .

٣- قد يخسر الإنسان ماله فيعوضه ، وقد يخسر أهله ، فيجد غيرهم .. ، لكنه إن خسر نفسه

فقد خسر كل شيء.

أما المؤمنون الذين عملوا الصالحات وأحبوا إلى ربهم ، وكانوا عباداً مرضيين ف " أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون " . نسأل الله تعالى أن نكون منهم . فالفريق الأول - الكفار - مثلهم كمثل الأعمى الأصم ، والفريق الثاني - المؤمنون - كالبصير السميع ، وشتان شتان بين هؤلاء وهؤلاء : " .. هل يستويان مثلاً ؟ أفلا تذكرون ؟ " .

- ونصل إلى التأمل التاسع فنرى الكبر عند الكفار الذين يأنفون أن يؤمنوا بما آمن به الضعفاء

من الناس " وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي .. " ويطلبون إليه أن يطردهم ، ولن يؤمنوا

بالله الواحد ولا نبوة نوح ولو طرد الضعفاء والفقراء . وهذا يذكرنا بالشيء نفسه الذي احتج به كفار

قريش ، وطلبوا من النبي صلى الله عليه وسلم أن يطرد البسطاء من ضعفاء المسلمين فكان رد القرآن

سريعاً وحاسماً في سورة الكهف: " واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه، ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ، ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطاً " فاحتفى بهم النبي صلى الله عليه وسلم وبالغ في إكرامهم . وكذلك فعل النبي نوح عليه السلام حين قال للملأ الكافرين من قومه : " وما أنا بطارد الذين آمنوا ، إنهم ملاقوا ربهم ، " ثم أنحى على الكافرين باللائمة ، ونعتهم بما يستحقون من توبيخ فقال : " ولكني أراكم قوماً تجهلون " .

- التأمل العاشر القدوة الصالحة . فشعيب عليه السلام حين دعا قومه إلى إيفاء المكيال والميزان ، وإعطاء الناس حقوقهم والبعد عن أكل الباطل قال : " وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنحكم عنه " فهو يأمر بالمعروف ويبذأ بنفسه ، وينهاهم عن المنكر ، وينتهي عنه أولاً .. وهكذا الداعية الصدوق ، ورحم الله الشاعر القائل :

يا أيها الرجل المعلم غيره	هلاً لنفسك كان ذا التعليم
أبدأ بنفسك فانها عن غيرها	فإذا انتهت عنه فانت حكيم
لا تنه عن خلق وتأتي مثله	عار عليك إذا فعلت عظيم

وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم القدوة في كل شيء ، ففي المعركة كان المقدم ، فقد روى الإمام علي رضي الله عنه قال : " كنا إذا حمي الوطيس واحمرت الحديق نتقي برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه " وحين نهي عن الربا نهي عمه العباس أول الناس ، وحين نهي عن الثأر في الدماء الجاهلية بدأ بدم ابن عمه .. وكان تلميذه النجيب عمر الفاروق رضي الله عنه حين يأمر أو ينهى يجمع أهل بيته فيأمرهم وينهاهم أولاً ، ويلوح بالعقوبة المضاعفة لهم إن خالفوا .. ومن هنا نجد قوله تعالى في الآية الثانية عشرة بعد المئة أمراً للنبي صلى الله عليه وسلم - وهو قدوتنا - بالاستقامة " فاستقم كما أمرت ، ومن تاب معك ، ولا تطعوا إنه بما تعملون بصير " فإذا استقام الرأس استقام ما بعده ، وإن فسد الرأس فسد ما دونه . ولن يتبع أحد أحداً ولن يصدقه ما لم يره يبدأ بنفسه قبل الآخرين في كل شيء ، وما لم يكن صادقاً في نفسه يتعهدا بالصلاح والتزكية قبل إصلاح الآخرين وتركيتهم ، ولن يثبت على الاستقامة إلا عظماء الرجال .



تأملات تربوية في سورة هود (٢)

طوفان نوح

- لا تكون العقوبة إلاّ بعد الإنذار والتحذير ، والله سبحانه وتعالى يرسل الرسل يعلمون الناس السبيل المستقيم ، وينذروهم الخروج عن الحق واتباع الأهواء " ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه إنني لكم نذير مبين " فيرشدونهم إلى عبادة الله ورضاه ، وإلا كان الهلاك مصيرهم ، وحلت العقوبة بساحتهم في الدنيا والآخرة " ألا تعبدوا إلا الله ، إنني أخاف عليكم عذاب يوم أليم. "

- ومضت السنون العجاف - المئات التسع والخمسون - قاسية على النبي نوح عليه السلام وعلى من آمن به - وعادة ما تُذكر السنة للجذب والتعب والنصب ، ويُذكر العام للخصب والنماء ، والدليل على ذلك في لغة العرب " فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً " فلم يشعر نوح بالراحة إلا بعد القضاء على القوم الكافرين في الخمسين عاماً الباقية من عمره بعد الطوفان ، كما يروي المفسرون .

- وتحق العقوبة حين يغلق الكافرون قلوبهم ، ويستكبرون على الحق ، ويصرون على العصيان ، فقد روي أن الرجل كان يأتي بابنه إلى حيث نوح عليه السلام ، ويشير إليه ويقول لابنه : هذا كذاب أشر ، نبهني منه جدك وحذرنِي ، وأنا أحذرك من اتباعه وتصديقه ، فيتألم النبي الكريم عليه السلام ، ويرفع يديه إلى السماء " فدعا ربه : أني مغلوب فانتصر " ، ثم يدعو عليهم ، فقد طفح الكيل ، وازدادوا عتوّاً وفساداً " رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً ، إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ، ولا يلدوا إلا فاجراً كفّاراً "

- ويوحى الله تعالى إلى نوح أن القوم استغلقت قلوبهم وتبلدت أحاسيسهم ، ولن يصدقه إلا من كان قد آمن به فقط " وأوحى إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن " فتنتهي مهمته في الدعوة بينهم ، وينصرف عن دعوتهم ، فلا زراعة في الصحور ، ولا إنبات في الأرض المالحة ، ولا يجوز لنبي داعية أن يجتهد في ترك قومه دون إذن من الله كما فعل يونس عليه السلام ، فعوقب ، ثم تاب الله عليه ونجّاه من الغم.

- لا شك أن الداعية يُسرُّ حين يستجيب له قومه ، ويتألم حين ينصرفون عن دعوته . ونشعر

بعميق ألم نوح عليه السلام إذ عاداه قومه ، وكذبوه " رب إني دعوت قومي ليلاً ونهاراً ، فلم يزدتهم دعائي إلا فراراً ، وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم ، وأصروا ، واستكبروا استكباراً " وسورة نوح في الجزء التاسع والعشرين تصور حزنه الشديد وحسرتة أن لم يكونوا مؤمنين ، وفي سورة هود يخفف الله تعالى عنه كي لا يحزن ويغتم : " فلا تبتئس بما كانوا يفعلون " ونوحٌ ليس بدعاً من الرسل ، فرسول الله محمد صلى الله عليه وسلم يحزن لتكذيب قريش له ، فيخفف الله تعالى عنه قائلاً " فلا تذهب نفسك عليهم حسرات " وينبئه إلى تحمل ذلك " فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً " وموسى عليه السلام يكاد يحس بالإحباط ، فيعبر عن ذلك بقوله " رب إني لا أملك إلا نفسي وأخي ، فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين "

- والأنبياء - ومن بعدهم الدعاة - رحماء بقومهم ، لا يريدون الهلاك لهم ، ولو آذوهم . ولئن نذَّ عن الدعاة في لحظة ضعف وألم غضبٌ ودعاء بهلاك الكافرين منهم ، فدعوا عليهم ، إنهم سرعان ما تتحرك الشفقة والعطف ، فتظهر فيهم الرحمة ، فنوح عليه السلام يدعو عليهم في سورة غضب من سؤئهم وتكذيبهم وشدة كفرهم : " رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً " إلا أننا نلمح رحمته بهم في قول الله تعالى له " ولا تخاطبني في الذين ظلموا ، إنهم مغرقون " فلولا علمُ الله تعالى رحمة نوح بقومه ما نبهه ابتداءً في عدم الشفاعة بهم . كما أن جواب الرسول صلى الله عليه وسلم حين سأله أصحابه أن يدعو على أهل الطائف وهو يحاصرهم " اللهم اهدِ ثقيفاً واثت بهم " وحين ينزل عليه ملك الجبال بأمر الله تعالى - وقد طردته قريش وثقيف - ويقول له : يار سول الله لو شئتُ أطبقتُ عليهم الأخشبين يقول الرحيم بقومه " اللهم اهد قومي ، فإنهم لا يعلمون " أما آخر آية من سورة التوبة ، فإنها وسام في جبين النبي محمد صلى الله عليه وسلم " لقد جاءكم رسول من أنفسكم ، عزيز عليه ما عنتم ، حريص عليكم ، بالمؤمنين رؤوف رحيم " ..

- هلاك الكفار بيد الله تعالى - أمر لا شك فيه - وهو التقدير يقرر الطريقة التي يعاقبهم بها حين يتمردون ، ويجترئون " فكلاً أخذنا بذنبه ، فمنهم مَن أرسلنا عليه حاصباً ، ومنهم من أخذته الصيحة ، ومنهم من خسفنا به الأرض ، ومنهم من أغرقنا " وكان في الغرق هلاك قوم نوح . ولن يُجمعوا فيساقوا إلى البحر ، ولكن المياها بإذن الله ستحتاحهم ولا تبقي منهم أحداً ، ولا بدّ من نجاة

نوح والمؤمنين ، ومع أن الله تعالى رب الأسباب يفعل ما يشاء إلا أنه يعلمنا أن نتخذ الأسباب ،
ونعتمد عليه بعد اتخاذ الأسباب ، فلا بد - إذاً - من سبب للنجاة ... فلتكن السفينة التي تقل
المؤمنين جاهزة ، وسيصنعها النبي نوح والمؤمنون معه بإذن الله تعالى . " فاصنع الفلك بأعيننا ووحينا " .
- ويبدأ نوح عليه السلام والمؤمنون معه يصنعون سفينة النجاة بتوفيق من الله ، يدل على هذا
التوفيق تلکما الکلمتان (الأعين والوحي) فرعاية الله تحفظهم ، ووحيه يرشدهم ، ومن كان الله معه فهو
الفائز الراشد أبداً . ألم يبدأ الرسول محمد عليه الصلاة والسلام بناء المسجد النبوي وتبعه المسلمون
يعملون بجد ونشاط قائلين :

لئن جلسنا والنبي يعمل لذاك من العمل المضلل

وكان صلى الله عليه وسلم يحفر الخندق مع المسلمين .. ويشارك في صنع طعام أصحابه ، وهو القائل
حين أزمع أصحابه الطبخ في سفرهم وقالوا استرح يا رسول الله ، فنحن نكفيك : " وعليّ جمع الحطب " ..
صلى الله عليه وسلم .

- الثقة بالنفس والإيمان بالدعوة يثبت القوة في الداعية ، ويدعم موقفه أمام الآخرين . فهؤلاء
الكفار يسخرون من نوح عليه السلام وأصحابه حين يرونهم يصنعون السفينة ، فيرد عليهم نبي الله نوح
إن كنتم الآن منا تسخرون ، فنحن نسخر منكم الآن وحين تقع الواقعة ، ويحين هلاككم ، ومن
يضحك أخيراً فهو الفائز في الدنيا والآخرة ...

" ويصنع الفلك.....

وكلما مر عليه مأل من قومه سخروا منه

قال: إن تسخروا منا ، فإننا نسخر منكم كما تسخرون....

فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ، ويحل عليه عذاب مقيم "

- وقد كان نوح عليه السلام ينتظر انفجار الماء من الأرض ونزوله العظيم من السماء ، وبينه
أهله وأتباعه أن يكونوا لأمره يقظين ، ولإشارته متبهيين ، فإذا ما بدأت لحظة الصفر جاء الأمر بركوب
السفينة ، ولن يركبها إلا السعيد بالإيمان من أهله وأتباعه . أما الكفار - مهما كانت قرابتهم منه عليه
السلام - فهم من المهالكين . وقد يكون للأنساب في الدنيا مكان وتمكين ، أما في الآخرة فالعمل

الصالح والإيمان بالله يرفع صاحبه . ولا تنفع الأنساب ما لم يكن هناك إيمان وتقوى " فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون " . وقد كان أصحاب نوح قليلين ، بضعاً وثمانين ، والعبرة بالنوع والكيف لا بالعدد والكمية . منهم تعود البشرية إلى التكاثر والنماء " ذرية من حملنا مع نوح ، إنه كان عبداً شكوراً. "

- ويركبون السفينة وعين الله ترعاها ، والمؤمن تكلؤه عناية المولى سبحانه وتحميه وتنقذه من البلاء وتسمو به إلى النجاة والهناء " بسم الله مجريها ومرساها ، إن ربي لغفور رحيم " .. بدأت المياه تتفجر وتندفع من كل شبر من الأرض بقوة ، ونزلت أنهار السماء وبحارها تتدفق تدفقاً لا يوصف ، والماء يعلو بسرعة متناهية .. وهرب الناس بأنفسهم إلى الروابي والجبال ظانين أنهم بذلك ينجون من الغرق !!.. ولكن قدر الله يحيط بهم وهم حتى اللحظة الأخيرة من حياتهم سادرون في الضلالة لا يرفعون ... سقط الضعفاء في السهول والوديان ، وتركت الأمهات أطفالهن ينجون بأنفسهن وانطلق الرجال دون المال والأطفال والنساء لا يلوون على شيء ، كلهم يسأل النجاة لنفسه فقط . كما يفعل الناس يوم القيامة " يوم يفر المرء من أخيه ، وأمه وأبيه ، وصاحبته وبنيه ، لكل منهم يومئذ شأن يغنيه "

- ويرى الأب الرحيم نوح أحد أولاده - وكان كافراً كأمه - يغالب الموج والماء منطلقاً إلى جبل قريب يعتصم به من الموت المحقق ، فتتحرك الرأفة والرحمة الأبوية ، فيناديه: " يا بني ؛ اركب معنا ، ولا تكن مع الكافرين " .. أقول : : لو أنه قال له اركب معنا لركب - ربما - ولكن نوحاً اشترط الهداية والإيمان لركوب السفينة والنجاة من الغرق حين قال " ولا تكن مع الكافرين " فأخذت الولد العزّة بالإثم وانطلق مبتعداً إلى الجبل ، فلم يمهله الموج أن لطمه وجرّه إلى حيث الموت والهلاك السريع .. كيف ينجو؟! والموج كالجبال علواً وحجماً وارتفاعاً وقوة ، وكالريح الشديدة سرعة وحركة وأخذاً؟! .. إنّ من غالب الله هُزم ، ومن عاداه قُصِم ، ومن اجتراً عليه ندم .. ندم حيث لا ينفع الندم ، ولا يجدي الألم...

- كل عمل لا يُبدأ فيه بيسم الله أبتّر كما ذكر النبي صلى الله عليه وسلم ، وذكر الله عنوان الإيمان وسمّة المسلم لعلمه أن كل شيء بيده سبحانه ، يصرف الأمور كيف يشاء . فمن لجأ إلى الله تعالى فقد لاذ بالأمن والنجاة ، (وتصور أخي الحبيب السفينة مهما كانت كبيرة تمشي بين موج كالجبال

لا يحفظها من هذا الموج سوى الله) وفي تفسير القرطبي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " أمانٌ لأمتي من الغرق إذا ركبوا في الفلك بسم الله الرحمن الرحيم : "وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة ، والسموات مطويات بيمينه ، سبحانه وتعالى عما يشركون . " " بسم الله مجريها ومرساها، إن ربي لغفور رحيم " "

- لو أمعنا النظر في قوله تعالى يخاطب الأرض والسماء " وقيل يا أرض : ابلعي ماءك ، ويا سماء أقلعي " بهذا الجمال والوضوح مع الاختصار ما وجدنا أجمل منه ولا أوضح تعبيراً .. جملتان قصيرتان خضعت لهما السماء والأرض ، فقد التقى ماء السماء وماء الأرض على أمر قد قدر ، فأمر الله تعالى الماء النازل من السماء بالإقلاع ، فلم تمتص الأرض منه قطرة ، وأمر الأرض بابتلاع ما خرج منها فقط ، فما جاوزت ذلك . وانتهى الأمر بجملتين صغيرتين أخريين " وغيض الماء ، وقُضي الأمر " فعاد كل شيء كما كان وأماكن السفن في البحر، ترسو على الشطآن ، أما سفينة الإيمان فقد رست أعلى الجبل ، وبقيت آية تدل على عظمة الله وقدرته سبحانه.

- ألم يقل الله تعالى لنوح عليه السلام " قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول ، ومن آمن ؟" وظن نوح عليه السلام أن ابنه من أهله . فقال بعد أن نزل من السفينة وهدأت نفسه ونفوس المؤمنين معه من صعوبة هذه الرحلة الشاقة وحنّ إلى ابنه الغارق " ربّ إن ابني من أهلي ، وإن وعدك الحق ، وأنت أحكم الحاكمين " فهو يستنجز وعد الله الحق أن ينجي ابنه فهو من أهله !. فبينه الله تعالى أن الإيمان والكفر لا يجتمعان ، وأن الصلة الحقيقية بين الناس صلة الإيمان بالله تعالى فلئن كان الغارق ابنه ومن صلبه - نعم من صلبه ، ففساء الأنبياء لا يزين فقد قال ابن عباس رضي الله عنهما " ما بغت امرأة نبي قط " أما قوله تعالى في زوجتي نوح ولوط " ضرب الله مثلاً للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط ، كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما .. " " إن خيانتاهما في أنهما لم تؤمنا بهما وكانتا مع قومهما عليهما - إلا أنه لم يؤمن ولم يعمل صالحاً ، فلتنقطع العلاقة إذاً! " قال: يا نوح ؛ إنه ليس من أهلك ، إنه عملٌ غيرٌ صالح " . من هذا نفهم كيف كان قتالٌ بين أبي عبيدة رضي الله عنه وبين أبيه الجراح في معركة بدر فقتل عامر أباه . وكيف كان رأي الفاروق رضي الله عنه أن يُقتل الأسرى من أهل بدر ولو كان بعضهم لبعض رجماً وقريباً

وخالفه بعضهم فنزلت الآية من سورة الأنفال تؤيد رأي الفاروق عمر " ما كان لني أن يكون له أسرى حتى يشخن في الأرض ، تريدون عرض الدنيا ، والله يريد الآخرة ، والله عزيز حكيم. "

- ونوح عليه السلام مثال المؤمن الذي يمتثل لأمر الله ، ويعترف بخطئه ، ويستغفر الله إن أخطأ ، ويسرع إلى مرضاة الله والرغبة في عفوه ورحمته . فلما حذره الله تعالى أن يكون من الجاهلين فيسأل ما ليس له به علم استعاذ بالله أن يزل أو يقع في الخطأ وتذلل لله وخضع له ، " قال ربّ إني أعوذ بك أن أسألك ما ليس لي به علم ، وإن لم تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين " فشكر الله له هذا التذلل والخضوع ، وأكرمه بالسلامة على الأرض مع قومه والبركات منه سبحانه للجميع " " قيل يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك .. " وكانت العاقبة للمؤمنين الصادقين ..
اللهم إنا نسألك الهداية ونسألك النجاة من كل سوء لنا وللمسلمين جميعاً .. يا رب العالمين .

اللهم آمين آمين



تأملات تربوية في سورة هود (٣)

- السلام سنة ، ورده واجب ، هذا ما كان من ضيوف إبراهيم عليه السلام حين دخلوا فسلموا ورد عليهم السلام ، فكان ما فعله سنة للمسلمين إلى يوم القيامة : " ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى ، قالوا سلاماً . قال : سلام " ومن السنة أيضاً أن من حياك بتحية كان عليك أن ترد عليه بأحسن منها ، فإن لم تفعل فبمثلها " وإذا خُيِّتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها " .. فهل أجاب إبراهيم عليه السلام التحية بمثلها أو بأحسن منها؟ والجواب أنه ردها بأحسن منها ، فقد حيَّوه بالجملة الفعلية التي تفيد الحدوث ، ورد عليهم بالجملة الاسمية التي تفيد الثبوت . والثبوت أقوى من الحدوث ، فكان رد النبي إبراهيم عليه السلام بأحسن من تحيتهم .

- وتحية المسلمين " السلام عليكم ورحمة الله وبركاته أما " صباح الخير ، أو مساءه ، وما تلقفناه عن الغرب هذه الأيام من " هاي ، باي ، مورننج " فليس من تحية المسلمين ، لقد دخل عمرو بن وهب الجمحي على رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال له ولأصحابه " أنعموا صباحاً " - وكانت تحية أهل الجاهلية - فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " قد أكرمنا الله بتحية خير من تحيتك يا عمير ، تحية أهل الجنة "

- ومن حسن الاستقبال :

أ- أن تكرم الضيف بالطعام أو الفاكهة ،

ب - وأن تقرب لهم الطعام أو الضيافة ، فقد رأينا إبراهيم عليه السلام بعد أن سلم عليه الملائكة - وهو لا يدري أنهم ملائكة قدم بين أيديهم لحماً مشوياً " فما لبث أن جاء بحجل حنيد " وفي سورة الذاريات " فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين " وكلمة راغ توحى بأنه كان حريضاً على قِراهم، فلم يسألهم : أتناكلون فأتي بالطعام ، بل إن على صاحب البيت أن يأتي بالطعام دون أن يسألهم حتى لا يستحيوا فيجيبوا بالنفي .

ج - كما أن على صاحب الدار أن يكون قراه طيباً وكثيراً ، إن كان ميسور الحال " فالعجل مشوي سمين " وهذا من مكارم الأخلاق وآداب الضيافة ، وليست بواجبة عند عامة أهل العلم ، لقوله

صلى الله عليه وسلم : "الضيافة ثلاثة أيام ، وجائزته يوم وليلة ، فما كان وراء ذلك فهو صدقة " .
والمقصود بالجائزة : الهبة والعطية ، وقال صلى الله عليه وسلم : " : ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه " ف" ليلة الضيف حق " كما قال النبي صلى الله عليه وسلم .

د - ثم التلطف في الدعوة إلى الطعام ، فلم يقل لهم : " كلوا " إنما قال لهم بصيغة السؤال متلطفاً " ألا تأكلون ؟ "

هـ - ومن الإكرام أن يقدم الطعام للضيفان من صنع أهل البيت ما أمكن ، فالتكلف غير مرغوب .

- ومن جمال التعبير في الآية " فلما رأى أيديهم لا تصل إليه " أنهم لم يتحركوا ولم يهتموا بالطعام . وعملهم هذا في العرف الاجتماعي أنهم أعداء يستهينون بمن دخلوا عليه داره . ويخيف صاحب الدار أن عدوه يتحداه في عقر داره ، ويرفض الصلح ، وكأنه ما جاء إلا عن قوة ليفرض ما يريد " فنكروهم وأوجس منهم خيفة " وهنا يفصحون عن أنفسهم . فهم ملائكة الله ، جاءوه مبشرين بإسحاق نبياً من الصالحين ، وبخفيده من إسحاق يعقوب عليهم جميعاً الصلاة والسلام ، فيراتح قلبه وتهذأ نفسه " قالوا : لا تخف . " ... " فبشرناه بإسحاق ، ومن وراء إسحاق يعقوب . "

وقد يمتنع الضيف عن قبول الضيافة إلا أن يطلب حاجة من ضائفه ، ويجيبه هذا إليها ، فيمد يده إلى قراه . وهذا معروف عند أهل البدو والأرياف .

- من سمات المسلم اهتمامه بسلامة إخوانه ، وسيدنا إبراهيم قدوتنا وخير مثال على ذلك . فإنه حين علم أنهم سيهلكون قوم لوط - ولوط ابن أخيه - فزع أن يصيبه مكروه فبدأ يجادل الملائكة في أمر لوط عليه السلام : وَهَذِهِ الْمُجَادَلَةُ رَوَاهَا حُمَيْدُ بْنُ هَلَالٍ عَنْ جُنْدُبٍ عَنْ حُذَيْفَةَ ؛ وَذَلِكَ أَنَّهُمْ لَمَّا قَالُوا : " إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ " قَالَ لَهُمْ : أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ فِيهَا خَمْسُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَتُهْلِكُونَهُمْ ؟ قَالُوا : لَا . قَالَ : فَأَرْبَعُونَ ؟ قَالُوا : لَا . قَالَ : فَثَلَاثُونَ ؟ قَالُوا : لَا . قَالَ : فَعِشْرُونَ ؟ قَالُوا : لَا . قَالَ : فَإِنْ كَانَ فِيهَا عَشْرَةٌ - أَوْ خَمْسَةٌ " شَكََّ حُمَيْدٌ " - قَالُوا : لَا . وَقِيلَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ قَالَ : أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ فِيهَا رَجُلٌ مُسْلِمٌ أَتُهْلِكُونَهَا ؟ قَالُوا : لَا . فَقَالَ إِبْرَاهِيمُ عِنْدَ ذَلِكَ : " إِنَّ فِيهَا لُوطًا ! ، قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ " الْعَنْكَبُوتُ : ٣٢ . وهذا النبي

لوط عليه السلام ينصح قومه بزواج الفتيات الطاهرات ويأمرهم بتقوى الله تعالى وعدم معصيته " قال : يا قوم هؤلاء بناتي هن أطهر لكم فاتقوا الله " ويرشدهم إلى احترام الضيف وحفظ مروءته وعدم التعرض له بما يسيء له ولمن ضافه " ولا تُخزون في ضيفي ، أليس منكم رجل رشيد؟ . "

- من سمات الفاسقين المنحرفين قوم لوط أنهم كانوا:

أ - سفهاء ، يُهرعون حيث تقودهم شهواتهم ، فإنهم لما علموا بوجود شباب صباح الوجوه أسرعوا إلى بيت لوط عليه السلام يريدون عمل الفحشاء بهم " وجاءه قومه يُهرعون إليه. "...

ب - منغمسين في الفحشاء مردوا عليها ، ومن كان منقاداً لهواه غارقاً بفساده ضاع الحياء منه ، وجاهر بالمعصية " ومن قبل كانوا يعملون السيئات "

ج - اختلّت مفاهيمهم وفسدت أذواقهم ، فرأوا الخبيث طيباً والطيب خبيثاً " قالوا لقد علمت مالنا في بناتك من حق ، وإنك لتعلم ما نريد " بل زجره - في سورة الحجر - وكأنه المخطئ ! وهم أصحاب الحق والسداد بأن لا يتدخل فيما لا يعنيه ، ولا يدافع عن أحد " أولم ننهك عن العالمين ؟ وهذا وهدة السفالة والانحطاط حين يرى الفاجر نفسه على صواب ويرى غيره على خطأ فيعلو عليه ويهدده .

- قد يضعف المرء لحظة مهما كان حازماً وحكيماً حين يرى الخطب يشتد عليه " وخلق الإنسان ضعيفاً " فهذا لوط عليه السلام حين رأى من جواب قومه التعنت واندفاعهم إلى ضيوفه ، ولم يستطع ردهم قال : " لو أن لي بكم قوة أو آوي إلى ركن شديد " فقد خاف على ضيوفه أن يفحش الفسقة فيهم وهو لا يعرف كنههم ، ومُرَاد لُوط بِالرُّكْنِ الْعَشِيرَةِ ، وَالْمَنْعَةُ بِالْكَثْرَةِ - وهو المهاجر إلى بلدتهم من العراق مع عمه إبراهيم ، وما صاروا قومه إلا لأنه عاش فيهم وتزوج منهم - . وَبَلَغَ بِهِمْ قَبِيحُ فِعْلِهِمْ إِلَى قَوْلِهِ هَذَا مَعَ عِلْمِهِ بِمَا عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى ؛ فَيُرَوَّى أَنَّ الْمَلَائِكَةَ وَجَدَتْ عَلَيْهِ حِينَ قَالَ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ ، وَقَالُوا بَعْدَ أَنْ عَرَفُوهُ بِأَنْفُسِهِمْ : إِنَّ رُكْنَكَ لَشَدِيدٌ . وَإِنَّهُمْ آتِيَهُمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ، وَإِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ ؛ فَافْتَحَ الْبَابَ وَدَعَنَا وَإِيَّاهُمْ ؛ فَفَتَحَ الْبَابَ فَضَرَبَهُمْ جَبْرِيلُ بِجَنَاحِهِ . وَفِي الْبُخَارِيِّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : " يَرْحَمُ اللَّهُ لُوطًا لَقَدْ كَانَ يَأْوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ . "

-الله تعالى القوي يفعل ما يشاء ، فيرشد ، وينبه ، ويحذر ، ثم يهدد وينفذ .. هذا ما وجدناه

في قوله تعالى يهدد قوم لوط ويتوعدهم " إن موعدهم الصبح ، أليس الصبح بقريب؟ فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل منضود ، مسومة عند ربك " ووجدنا ذلك في عقوبة قوم صالح حين عقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم " فعقروها ، فقال : تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ، ذلك وعد غير مكذوب " وأخذتهم الصيحة فقطعت أوصالهم وجففت أجسادهم فماتوا لفورهم . وأخذت الصيحة - كذلك - قوم شعيب ، فكانت نهايتهم عبرة لمن يعتبر. .. وأغرق الله فرعون وقومه ، فلم تقم لهم قائمة . وإذا أهلك الله تعالى الناس بكفرهم فهم الذين ظلموا أنفسهم بكفرهم واستكبارهم ، فلن ينفعهم أحد . فعذاب الله الشديد إن وقع لا مرد له " وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم ، فما أغنت عنهم آلهتهم التي يدعون من دون الله من شيء لما جاء أمر ربك ، وما زادهم غير تنبيب. " .. لكن العاقل من يتعظ.

- يطلب مشركو قريش آيات تدل على نبوة الحبيب المصطفى ، مع أن القرآن كان أقوى آية أوتيها المصطفى صلى الله عليه وسلم ، وكان الدليل العظيم على نبوته صلى الله عليه وسلم فهم لا يستطيعون الإتيان بمثله ولا بعشر سور من مثله ولا بسورة واحدة " وقالوا : لولا أنزل عليه آيات من ربه " فلما قال صلى الله عليه وسلم " سبحان ربي ؛ هل كنت إلا بشراً رسولاً " طلبوا آية واحدة " ويقولون لولا أنزل عليه آية من ربه؟ " فكانت آية انشقاق القمر : " اقتربت الساعة وانشق القمر ، وإن يروا آية يعرضوا ، ويقولوا سحر مستمر . " .. طلبوا منه الآية فلما جاءت كذبوه ، كما طلب قوم صالح عليه السلام منه آية فأرسل الله تعالى الناقة ، فظلموا بها ، وازدادوا عتواً وكفراً فعقروها . وما دام هذا دأبهم فلا آيات بعد ذلك . لماذا ؟ لأنهم أحفاد قوم صالح ، وملة الكفر سبيلها معروف " وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون ، وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها " ومهمة الآيات الإنذار والتخويف من الكفر والتحذير من العناد ، وما لم تفلح في قلوب قدت من صخر فلم تكررهما؟ " وما نرسل بالآيات إلا تخويفاً . "

- وفي آخر مطافنا السريع في سورة هود نقف على بعض الأركان التي فيها صلاح المجتمع أولها الاستقامة في الحياة على الدين ، والسير على الصراط المستقيم فهو ملاك الأمر ، والهادي إلى الخاتمة السعيدة . " فاستقم كما أمرت ومن تاب معك " وحين يسير المجتمع على تقوى من الله تستقيم

الحياة باستقامته . وقد روى سفيان بن عبد الله الثقفي أنه قال للنبي صلى الله عليه وسلم : يا رسول الله ؛ قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً بعدك . قال " قل آمنت بالله ، ثم استقم " . فإن استقام الإنسان عرف حده فلم يتجاوزہ وابتعد عن الطغيان ، فلم يظلم أحداً ، جاء دور القسم الثاني من الآية السابقة " ... ولا تطعوا إنه بما تعملون بصير . "

وثانيها الانصراف عن الظالمين وعدم إطاعتهم وصحبته ، وعدم الميل إليهم والرضا بأعمالهم ، بل يجب الإنكار عليهم ظلّمهم وفسادهم ، فمن ركن إليهم كان منهم ، وناله ما ينالهم من السخط والعذاب ، وهذا أمر خطير لا ينتبه إليه كثير من الناهين فضلاً عن العوام والدهماء . " ولا تركنوا إلى الذين ظلموا ، فتمسّكم النار ، وما لكم من دون الله من أولياء ، ثم لا تُنصرون . "

وثالثها الاجتهاد في عبادة الله تعالى وأداء الصلاة المكتوبة على أتم وجه ، فإن ذلك يورث الحسنات ويمحو السيئات " وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفاً من الليل ، إن الحسنات يذهبن السيئات ، ذلك ذكرى للذاكرين "

إضاءة أولى : هذه الآية (وأقم الصلاة ...) من الآيات الدالة على الصلوات الخمس صلاة الفريضة طرف النهار الأول صلاة الفجر . وفي طرف النهار الثاني صلاتا الظهر والعصر . أما صلاتا زلف الليل (ساعات الليل الأولى) فالمغرب والعشاء .

إضاءة ثانية : ومثلها قوله تعالى " أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل ، وقرآن الفجر ، إن قرآن الفجر كان مشهوداً " والدلوك (زوال الشمس عن كبد السماء) وهنا تبدأ صلاة الظهر ثم العصر ، وفي غسق الليل (ساعاته الأولى) صلاتا المغرب والعشاء ، والمقصود بقرآن الفجر صلاة الفجر نفسها .

إضاءة ثالثة : ومثلها قوله تعالى " فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون ، وله الحمد في السماوات والأرض وعشياً وحين تظهرون " فصلاتا المساء المغرب والعشاء ، وصلاة الفجر عند الصباح ، والإظهار صلاة الظهر ، أما العشيّ (فساعات ما قبل الغروب) صلاة العصر .

والصلاة جماعة هوية المسلم الاجتماعي المندمج بإخوانه المسلمين . الحريص على وصالهم . ورابعها الصبر على العبادات والصبر في مرضاة الله تعالى والصبر عن المفاصد المؤدي إلى درجة الإحسان " واصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين " ومن صبر على الناس فخالطهم وتحمل أذاهم ، ثم

أمسك بأيديهم يسير معهم في درب الحب في الله ، وأحسن إليهم فقد شهد الرسول ﷺ له بالخيرية " المسلم الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم خير من الذي لا يخالطهم ولا يصبر على أذاهم ". وخامسها إيجابية المسلم الذي يصلح ويأمر بالإصلاح ، وينهى عن الفساد وهذا دأب المسلم الغيور على دينه الذي يقوم الاعوجاج ويدعو إلى الاستقامة " فلولا كان من القرون من قبلكم أولو بقية ينهون عن الفساد في الأرض " ونتيجة الإصلاح عمار الأرض وكسب رضا الله تعالى " وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون " . ألم يهلك الله تعالى القرى التي كثر الفساد فيها وحكم القائمون عليها بغير ما أنزل الله ؟ " وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ، ففسقوا فيها ، فحق عليها القول ، فدمرناها تدميراً "

اللهم أحيينا سعداء ، واجعلنا إخوة متحابين وارزقنا رضاك والجنة واجعلنا من أهل التقوى والرشاد:

إن الإنسان بتقواه	يعلو ويُبارك مسعاه
والعمل الصالح يرفعه	في الناس ويكرمه الله
فاعمل خيراً تلق الأجر	ترفع عند المولى ذكرا
وتعاهد إخوانك دوماً	فإذا عُسرُك يصبح يسرا



تأملات في سورة يوسف (١)

١. التخطيط واتخاذ الأسباب : العمل الارتجالي لا يُؤتي أُكُلَه كما لو كان مُعدّاً إعداداً جيداً ومدروساً دراسة وافية ، معروفة أبعاده وجدواه ومراحلُه .

كل عمل أو فكرة تخطر على البال لا بد أن تُخطط له تخطيطاً جيداً تراعي فيه الهدف منه وبدايته وإتمامه وإيجابياته وسلبياته ، وإلا كان عملاً عشوائياً قد ينجح وقد يفشل . واحتمالات فشله أكبر .. وإن نجح فنجاحه مرحليّ أو غير مكتمل .

وسورة يوسف تضع بين أيدينا نماذج من التخطيط الذي يؤدي إلى الوصول إلى الهدف المنشود ، سواء كان طيباً أم خبيثاً ، منها :

- ما فعله إخوة يوسف حين شعروا أن أباهم يحبه أكثر مما يحبهم ، ويفضله عليهم ، فدبت الغيرة في نفوسهم وقرروا التخلص منه ، فماذا يفعلون؟! .. تدارسوا الأمر بينهم وقلبوا الوجوه ، فقال بعضهم : " اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً يخلُّ لكم وجهُ أبيكم ، وتكونوا من بعده قوماً صالحين " .. تفكير شيطاني سهل لهم فكرة القتل ، فبعد جرمهم يعودون أنقياء أنقياء! .. وكأن القتل لا يترك في القلب نكتة سوداء تؤرق صاحبها إلى أن يموت .

وقال بعضهم : " لا تقتلوا يوسف وألقوه في غيابة الجب يلتقطه بعض السيارة إن كنتم فاعلين " .. وهذه الفكرة أخف من القتل ، وإن كانت في حق الأخوة قاسية جداً .. قلبوا وجوه الأمر فرأوا أن إلقاءه في الجب أسلمُّ لهم ، ولن يؤرقهم كما لو أنهم قتلوه ... ثم جاءوا أباهم يقنعونه أن يسمح لهم باصطحاب يوسف في رحلة برية يترىضون ويصطادون . وأكدوا له حرصهم على أخيهم .. فلما أظهر الأب تحوّفه أن يتركوه - وهو صغير - فيعدو عليه الذئب في غفلة منهم فيأكله أقسموا أنهم لن يتركوه ، وإلا كانوا خاسرين ، ليست فيهم صفات الرجولة والنباهة ... وكأن يعقوب عليه السلام لقنهم حجة هم بحاجة إليها يتعللون بها عند أبيهم ... وهكذا كان .

" قالوا : يا أبانا ، مالك لا تأمنا على يوسف ! وإنا له لناصحون ،

أرسله معنا غداً يرتع ويلعب ، وإنا له لحافظون .

قال : إنني ليحزنني أن تذهبوا به ، وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون . قالوا لئن أكله

الذئب - ونحن عصبه - إنا إذا لخاسرون "

وحبكوا قصتهم ، ورتبوا مكرهم " وجاءوا أباهم عشاءً يبكون ، قالوا يا أبانا إنا ذهبنا نستبق ، وتركنا

يوسف عند متاعنا ، فأكله الذئب ، وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين . "

فقد :

١ - جاءوا أباهم عشاءً فلا يرى الغدر في عيونهم ، والكذب في أقوالهم .

٢ - بدأوا يبكون ، فشعر بالخطب الجسيم قبل أن يلقوه على سمعه .

٣ - هيأه بكاءهم لتقبل المصيبة ، التي سيسمعها منهم .

٤ - تلطفوا له بالقول " يا أبانا " ولهذا فائدتان :

الفائدة الأولى أن هذه الكلمة للاستعطاف ليرق قلبه لهم فلا يعاقبهم .

الفائدة الثانية : إيهامه صدقهم وحرصهم على أخيهم .

٥ - أسمعوه العذر الذي سمعوه منه في اعتذاره عن إرسال يوسف معهم " أكله الذئب "

٦ - أنت لا تصدقنا مع أننا صادقون .

٧ - جاءوا بقميص يوسف ملطخاً بدم للتأكيد على أكل الذئب له .

لكن هذا التخطيط المحكم نقضه خطأ كبير وقعوا فيه دون أن يشعروا حين "

وجاءوا على قميصه بدم كذب .

قال بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل ، والله المستعان على ما تصفون . "

كان القميص ملوثاً بدم لكنه لم يكن ممزقاً ، فالذئب الذي أكله كان ذكياً ! إذ جعله يخلع قميصه

قبل أكله كي يستفيد منه إخوته! ... لقد كان التخطيط ناقصاً فيه ثغرة فضحتهم وعرف الأب ذلك ،

فقال : هذا مكر دفعكم إليه نفوسكم الخبيثة .

- وهذه امرأة العزيز تراود يوسف عن نفسه حين بلغ مبلغ الرجال ، وكان جميلاً وسيماً ، تتفجر

الدماء من عروقه ، ويطفح وجهه إشراقاً ، فيأبى ذلك ويقول : " معاذ الله ، إنه ربي أحسن مثواي ، إنه لا

يُفْلح الظالمون . " فزوجها أكرم يوسف وتعهده بالرعاية ، فكيف يسيء إليه في عرضه وشرفه؟ ! لا يفعل

ذلك إلا الخائنون الذين يجازون الإحسان بالسوء ، ويوسفُ ليس منهم .

وانتشر الخبر بين نساء المدينة

١- امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه .

٢- امتنع عليها وأذلّ كبرياءها .

والأمران وصمة عار عليها ، فأرادت أن تلجم أفواههنّ ، فماذا فعلت؟

١- دعتهنّ إلى قصرها .

٢- أكرمتهنّ بالطعام والفاكهة .

٣- أمرت يوسف أن يخرج عليهنّ ، فخرج .

٤- رأيته فائق الجمال ملكاً يمشي على الأرض ، فذهشن لهذا الجمال الأخاذ .

٥- لم يشعرن إلا والدماء تسيل من أصابعهنّ ، فقد أخذهنّ الإعجاب بجماله والدهشة

لوسامته كل مأخذ فجرحن أيديهنّ .

٦- شعرت بالانتصار عليهنّ ، فعاتبتهنّ على ما قلن في حقها من تجريح لكرامتها وكبريائها .

٧- حين رأت نفسها منتصرة عليهنّ ازدادت وقاحتها ، وباحت بمكنون صدرها لهنّ وأصرت

على تعلقها به والرغبة في وصاله ، وسيفعل ذلك شاء أم أبي ، وإلا كان السجن مصيره.

وهذه خطة جهنمية لا يفعلها إلا صاحب الكيد الذكي . "

فلما سمعت بمكرهنّ أرسلت إليهنّ وأعدت لهنّ متكاً ، وآتت كل واحدة منهنّ سكيناً ، وقالت

اخرج عليهنّ . فلما رأيته أكبرته وقطعن أيديهنّ . وقلن حاش لله ، ما هذا بشراً ، إن هذا إلا ملك كريم .

قالت فذلكن الذي لمتني فيه . ولقد راودته عن نفسه فاستعصم . ولئن لم يفعل ما أمره لئسجننّ ، وليكوننّ

من الصاغرين . "

- ثم تأمل معي كيف خطط يوسف عليه الصلاة والسلام للخروج من السجن . بل كيف

خطط الله تعالى له :

١- " وقال الملك ائتوني به " وذلك بعد أن فسر حلم الملك في سبع بقرات سمان يأكلهنّ سبع

عجاف وسبع سنبلات خضر وآخر يابسات .

٢- فهل أسرع يوسف عليه السلام للخروج من السجن إلى قصر الملك دون أن يظهر الحق ؟
إنه لا يريد أن يعفو عنه أحد إنما يريد أن يخرج من السجن ببراءته من كل اتهام ينقص قدره ، " فلما جاءه الرسول قال : ارجع إلى ربك فاسأله : ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن ؟ إن ربي بكيدهنّ عليم . "

٣- وعاد الرسول إلى القصر يخبر الملك أن يوسف مظلوم يريد أن يخرج من سجنه بريئاً والدليل عند النساء اللاتي دعتهنّ امرأة العزيز إلى قصرها قبل سبع سنوات فدعاهن الملك قائلاً " .. : ما خطبكن إذ راودتُنّ يوسفَ عن نفسه؟ "

٤- فأقررن بصدقه وبرأته حين " قلن : حاش لله ، ما علمنا عليه من سوء . "

٥- وهنا اعترفت امرأة العزيز بخطئها إذ " قالت امرأة العزيز : الآن حصحص الحق . أنا راودته عن نفسه ، وإنه لمن الصادقين . "

٦- في المرة الأولى طلب الملك أن يراه فقط : أما حين ظهرت براءته عرف قدره وأكرمه وجعله مستشاره الخاص . فقد قال في الأولى " ليتوني به " وزاد في الثانية " أستخلصه لنفسي "

٧- فلما رآه وكلمه عليه السلام أعجب الملك به - فلا بد من الاختبار .

" فلما كلمه قال : إنك اليوم لدينا مكين أمين . "

٨- وهنا حين يكون المرء بريئاً وقدره عظيماً يسعى أن ينتفع الناس بعلمه وقدراته ، فالمسلم خير وبركة للناس أجمعين . ومن رأى في نفسه المقدرة على خدمة الناس فليقدم نفسه دون خجل ولا مباهاة " قال اجعلني على خزائن الأرض ، إني حفيظ عليم . "

وهكذا كان تخطيط الله تعالى له فأخرجه من السجن إلى الصدارة .

-وتعال معي نقف على التخطيط في استقدام يوسف أخاه " بنيامين " إلى مصر :

من بلاد الشام - فلسطين - .

١- جاء إخوة يوسف للميرة لا يدرون أن القدر ساقهم إلى من ألقوه في الحب ، ثم باعوه بثمن بخس لمن رآه فيه - على رواية من روى أنهم هم الذين باعوه للقافلة - " وجاء إخوة يوسف ، فدخلوا عليه وهم له منكرون . " وهل يخطر ببالهم أن الذي يبيع هو السيد الذي يعطي الناس ويعدل بينهم ؟!

٢- لما أراد أن يرى أخاه الشقيق - ولم يكن معهم - أظهر تعجبه من كثرتهم ، وهم عشرة رجال . فقالوا : عند أبيهم رجل آخر ، فقال عند ذلك : جيئوا به لأراه ، فإن لم يجئ فلا كيل لكم عندي . " ولما جهزهم بجهازهم قال اتوني بأخ لكم من أبيكم ، ألا ترون أنني أوفي الكيل وأنا خير المنزلين ؟ فإن لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي ولا تقربون . " وعلى هذا فإنهم - حسب مآزنا - سيأتون العام القابل ومعهم أخوهم . وسيطلبون من أبيهم أن يصاحبهم أخوهم . وإلا خسروا الميرة ما دام هذا الوزير على رأس عمله . " قالوا سنراود عنه أباه ، وإنا لفاعلون . " ونلمح الإصرار في قولهم " وإنا لفاعلون " لينالوا حصتهم السنوية وليقوم بنيامين بالجهد الذي يقومون به ، فلم يظل مكرماً عند أبيهم دونهم ؟!

٣- لكن يوسف لن يصبر على غياب أخيه بنيامين ، وسيسرّع عودتهم فماذا فعل ؟ أمر فتياه أن يضعوا ثمن ما أخذوه في رحالهم ، وحين يصلون ويفتحون متاعهم سيرون الثمن . ولأنهم من بيت النبوة فلن يعتبروه غنيمة بل يعيدوه إلى يوسف سريعاً ، ولن يكون سفرهم لإعادة الثمن فقط إنما يغتنمون الفرصة ويعودون بميرة جديدة ، ولكنه لن يُمدّهم بها إلا إذا كان أخوه بنيامين معهم .. إذن هي خطة محكمة تجعل يوسف عليه السلام يحظى بأخيه سريعاً .. "

وقال لفتياه اجعلوا بضاعتهم في رحالهم ، لعلهم يعرفونها إذا انقلبوا إلى أهلهم ، لعلهم يرجعون . "

٤- وهكذا سارت الخطة فترى أبناء يعقوب يقولون لأبيهم : " يا أبانا مُنِع منا الكيل ، فأرسل معنا أخانا نكتل ، وإنا له لحافظون . "

٥- وزاد الطلب إصراراً حين فتحوا متاعهم ورأوا الثمن فيها فقالوا يرغبون أباهم :

" يا أبانا ما نبغي ؟ هذه بضاعتنا رُدّت إلينا ، وغير أهلنا ، ونحفظ أخانا ، ونزداد كيل بغير ، ذلك كيل يسير . "

٦- ويطلب الأب المفجوع بابنه يوسف - والخائف على ابنه الثاني بنيامين أن يضيع مثل أخيه - العهود والمواثيق أن لا يعودوا إلا غانمين بإذن الله تعالى إلا أن يُحاط بهم ، وهذا الاستثناء استسلام لله تعالى وإقرار بأنه سبحانه يفعل ما يشاء ، وأن الغيب لا يعلمه سواه وأن يحافظوا على أخيهما ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً .

٧- وأن لا يدخلوا من باب واحد خوفاً من الحاسدين ... ويعطونه المواثيق والعهود وينطلقون ببركة الله إلى مصر عاقدين العزم أن يكونوا عند حسن ظن أبيهم بهم . ونبه يعقوب عليه السلام أبناءه إلى أن الأمر كله بيد الله تعالى إلا أن على الإنسان أن يحتاط ويسلك سبيل الحذر ، وما قدر الله تعالى كائن لا محالة .

والرسول الحبيب محمد صلى الله عليه وسلم يعلمنا الاستعاذة من الحسد ، فيقول : " أعوذ بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة ، ومن كل عين لامة " كما يعلمنا أن نتعوذ من الشر كله " أعوذ بكلمات الله التامة من شر ما خلق " ونزلت المعوذتان : الفلق ، والناس تؤكدان ذلك :
" قل : أعوذ برب الفلق من شر ما خلق ، ومن شر غاسق إذا وقب ، ومن شر النفاثات في العقد ، ومن شر حاسد إذا حسد " .

" قل أعوذ برب الناس ، ملك الناس ، إله الناس من شر الوسواس الخناس الذي يوسوس في صدور الناس من الجنّة والناس " .

ويقول الرسول الكريم في هذا الصدد: " علام يقتل أحدكم أخاه ؟! ألا بركت (برك الله فيك) إن العين حق ، توضأ له " .

٨- وأخبر يوسف أخاه بنيامين أنه يوسف وأخبره بالخطة التي اعتزم أن ينفذها ليبقى عنده - ليطمئن ويكون عوناً له - ثم يأتي بالجميع إلى مصر فتتحقق رؤياه التي أخبر بها أباه " ولما دخلوا على يوسف آوى إليه أخاه ، قال : إني أنا أخوك ، فلا تبتئس بما كانوا يفعلون " .

٩- ولا بد من سبب وجيه يبقى أخاه عنده ، فليظهر أنه سرق المكيال ، ومن سرق المكيال يصبح عبداً للمسروق منه ، وهكذا كان " فلما جهّزهم بجهازهم جعل السقاية في رحل أخيه " .

١٠- وتعال معي إلى الأدب في الاتهام فقد انطلقت القافلة لا يدري أحد ما يكون بعد انطلاقهم سوى يوسف وأخيه ... إنّ هناك من يناديهما بما ليس فيهما " أيتها العير إنكم لسارقون " .

١١- عادوا مستغربين هذا الاتهام الخطير مستفهمين بأدب جم " ماذا تفقدون ؟ " ولم يقولوا : ماذا سرقنا . وعلى المنادي أن يقول إنا افتقدنا ، فإذا وجدوا ما فقدوه في رحالهم قالوا لهم : أنتم سارقون . أما أن يتهموهم مباشرة فليس الاتهام دون دليل من الأخلاق . وقال المنادون " نفقد صواع

الملك " فتعلموا الأدب من أبناء يعقوب .

١٢- وزيادة في التعمية أظهروا أنهم لا يعرفون كيف فقدوه ، وجعلوا لمن يدلهم على السارق حمل

بعير - هدية ومكافأة - " ولمن جاء به حمل بعير "

١٣- فلما أنكر إخوة يوسف هذه التهمة لم يكن بد من تفتيش متاعهم . على أن يرضوا بمعاقبة

السارق إن كان منهم بما تحكم شريعة يعقوب حيث يصبح السارق رقيقاً للمسروق منه " قالوا فما

جزاؤه إن كنتم كاذبين ؟ قالوا جزاؤه من وُجد في رحله فهو جزاؤه . كذلك نجزي الظالمين " وعلى المسلم

أن يحكم بشرع الله الذي أنزل إليه . فأقر أبناء يعقوب بذلك .

١٤- ولكي لا يشك إخوته في العملية بدأ بتفتيش متاع إخوته ، وترك تفتيش بنيامين للأخير "

فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه ثم استخرجها من وعاء أخيه "

١٥- وحين استخرج الصواع من وعاء أخيه بدا له أن إخوته مازالوا يكرهونه وأخاه بنيامين حين

اتهموا يوسف ظلماً وهو أمامهم لا يعرفونه بأنه سارق أيضاً " إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل "

فكان من حسن تخطيطه وجمال صبره أن تماسك فلم يعرفهم بنفسه ، ولم يعاقبهم على كذبهم وادّعائهم

. بل قال جملة تنم عن شديد حزنه وألمه "أنتم شر مكاناً ، والله أعلم بما تصفون "

وهكذا بدأت القصة محبوكة خيوطها بإتقان أدى - بعد ذلك - إلى اعتراف الإخوة بخطئهم أمام

يوسف ثم أمام أبيه ، وانطلق الجميع إلى مصر ليعيشوا في كنف الوزير الصالح يوسف بن يعقوب عليهما

السلام .



تأملات تربوية في سورة يوسف (٢)

١- أنزل الله تعالى القرآن على العرب بلسانهم كي يفهموه ويعقلوه " إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم

تعقلون " فهو سبحانه يريد أن يعلمنا :

أ- أن على الداعية أن يكلم الناس بما يفهمون كي يستفيدوا منه ، وقيم الحجة عليهم .

ب- أن يتحملوا المسؤولية الملقاة على عاتقهم في نشر الدعوة ، فالعرب محركها الرئيسي ،

والداعون الأوائل المعتمد عليهم في إيصال الدعوة إلى البشرية .

٢- في قوله تعالى " نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن ، وإن كنت من

قبله لمن الغافلين " " أمور مهمة ، منها :

أ - أن القرآن من عند الله تعالى وليس من عند النبي صلى الله عليه وسلم ، فليس من المعقول أن

يدّعي أحد معرفة الغيب ثم يخاطب نفسه بأنه كان من الغافلين !

ب - أن الناجح في دعوته ومهمته يختار أحسن القول ، وأوضحه في حديثه " أحسن القصص " .

ليجذب المدعوين ويشوقهم إلى دعوته .

٣- إن الإنسان يستشير المحب القريب إلى النفس العطوف الذكي فيما يلزم به من أمور ، ويستأنس

لرأيه ، فيوسف يخبر أباه بما رأى في رؤياه الغريبة ، فيأتيه جواب الخير محذراً من الحاسدين الكائدين " ...

لا تقصص رؤياك على إخوتك " فما سبب الحذر أيها الأب الحبيب؟ يأتيه الجواب سريعاً " فيكيدوا لك

كيداً " وما الحسد إلا نتاج الغيرة والشعور بالدونية ، والرغبة في الاستئثار بالخير ، فما هذه الرؤيا إلا الدليل

على النبوة التي كان كل من إخوة يوسف يتربص أن يرثها عن أبيه يعقوب ، فإذا بأخيهم الصغير يحوزها

دونهم . وسوف يقربه الله تعالى ويرفع مقامه ، " ويعلمه من تأويل الأحاديث " كي يكون المعلم القائد إلى

الخير " ويتم نعمته عليك " ومقام النبوة من أعظم النعم ، وسيحمل الرسالة التي حملها أبوه يعقوب ، وجده

إسحاق ، وأبو الأنبياء إبراهيم جدُّ أبيه يا لها من مكانة عظيمة وصل إليها يوسف الصديق!!

وإخوته الذين ينتظرون مثل هذه المكانة - ولا يستحقونها - سيأكل الحسد قلوبهم ويكرهونه ،

ويناصبونه العدا ، يؤزهم الشيطان ويؤلبهم عليه ، ومن كان الشيطان قائده ومحركه زرع فيه البغضاء والكيد

لكل خير .. أليس الشيطان العدو الأول الواضح العداوة للإنسان ؟ " إن الشيطان للإنسان عدو مبين " .
٤- أما النفس فهي ثلاثة أنواع :

أ- النفس المطمئنة : وهي التي يمتاز بها السابقون إلى الخيرات ، هي النفس التي كان يقينها بالله يعمر القلب والفكر ، ويترجمها العمل الصالح وخشية الله تعالى والسعي إلى مرضاته ، هذه النفس لا يستطيع الشيطان الدنو من صاحبها فإنه يحترق من وهج الإيمان المنبعث منه ، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم للفاروق رضي الله عنه - وما أدراك من الفاروق - " يا عمر ما لقيك الشيطان سالكا فجا إلا سلك فجا غير فجك "

ب- النفس الأمارة بالسوء : وهي التي أسلمت للشيطان قيادها فهو يقودها حيث شاء ، ولا يتعب في إفسادها ، ولعلها مفسدة كالشيطان نفسه ، وصاحبها يعمل عمل الشيطان في الوسوسة والغواية " قل أعوذ برب الناس ، ملك الناس إله الناس من شر الوسواس الخناس ، الذي يوسوس في صدور الناس من الجنة والناس "

ج- النفس اللوامة : وهي التي يحاول الشيطان غوايتها ، فإن ظن أنه تمكن منها ، وشعرت أنها زلت استغفرت الله وتابت إليه ، فهذه أشد على الشيطان من الآخرين ، يقول : يا ويلتاه ، ضاع جهدي فيها هذراً ، وقد أقسم الجليل بها " لا أقسم بيوم القيامة ، ولا أقسم بالنفس اللوامة . "
وقد زينت نفوس إخوة يوسف السيئة - إذ ذاك - أن يتخلصوا منه ، ورأى أبوهم يعقوب الغدر في عيونهم حين قدموا عليه ليلاً بعد أن غدروا بأخيهم ، فقال لهم يستنكر تخطيطهم السيء " بل سؤلت لكم أنفسكم أمراً "

٥- لم " ... كان في يوسف وإخوته آيات للسائلين " ؟ إن من أراد مثلاً يُتخذ في الأخلاق والصبر فعليه بقصة يوسف . إن فيها العبر والعظات التي ينبغي على الداعية أن يتجمل بها في حياته . والسؤال مفتاح العلم .. إن من رزقه الله قلباً عقولاً ولساناً سؤولاً نال مراتب العلم .

٦- وتمر في ثنايا القصة كلمة " ضلال " وهي في هذه السورة لا تعني البعد عن الهدى والإيمان . إنها بمعنى الوقوع في الخطأ على الرغم من الهداية ، والحيدان عن التصرف السليم . فالأبناء يصفون حب أبيهم الزائد لابنه يوسف بالضلال " ... إن أبانا لفي ضلال مبين " وخطأ فادح واضح . كما أن الأب حين

يقول " إني لأجد ربح يوسف ... " كان ردهم الاستنكار والتسفيه " تالله إنك لفي ضلالك القديم " والنسوة اللواتي سمعن عشق امرأة العزيز فتاها يوسف ، استنكرن منها أن تحب خادمها ، وكان على امرأة في مثل مكانتها أن تحب رجلاً من سادات القوم ، فعتنتها بالضلال - الخطأ - " ... امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه ، قد شغفها حباً ، إنا لنراها في ضلال مبين " وكل من يخالف بعضهم في تصرفاته يُتهم بالضلال والوقوع في الخطأ .

٧- إخوة يوسف - والكثير من الناس - يرون الأكثرية دائماً على صواب وغيرهم على خطأ ، وليس هذا بصحيح ، " إذ قالوا : ليوسف وأخوه أحبّ إلى أبينا منا ، ونحن عُصبة ... " ويؤكد القرآن الكريم خطأ هذه النظرة مرة أخرى حين يقول : " وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله " ويتنصر القليل بصوابه على الكثير بخطئه " كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله " لأنها على الحق والله تعالى معها في دفع الباطل ومحاربه . وبهذا تسفّه الأكثرية الآخرين وتستضعف عقولهم " إن أبانا لفي ضلال مبين "

٨- ثم يسعون - بناء على هذه القناعة- إلى أن يزجوا الحق من الطريق بالسبل غير المشروعة بالقتل أو النفي أو التغييب " اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً يَحِلُّ لكم وجه أبيكم ... " وهذه الطرق تنبئ عن الإفلاس وسوء التفكير وضعف النفس - ما هكذا تورد يا سعد الإبل -

٩- ثم نجدهم يصرّحون دون موارد ، ولا حجل أنهم حين يصلون إلى هدفهم - وهو التخلص من يوسف - يصبحون صالحين وهم مخطئون كاذبون ، حين يرون الإجرام والطرق الملتوية في الوصول إلى المآرب متناسقة مع الفطرة السليمة ، وهيئات هيئات أن يجتمعا ، ولن تكون الميكيفيلية طريقاً إلى السعادة الحقيقية . ولم يكن سبيل الشر في يوم من الأيام وسيلة للوصول إلى تصحيح الخطأ .

١٠- لن أتجاوز الأدب مع مقام النبوة - بإذن الله تعالى - حين أكرر الحقيقة الساطعة في التعامل مع الأبناء ، فلا يجوز التفريق في المعاملة بين ولد وآخر ، ألم يقل أحد المربين يصف حبه أولاده

وإنما أولادنا بيننا .. أكبادنا تمشي على الأرض

لو هبّت الريح على بعضهم لامتنعت عيني عن الغمض

وقد سُئل أحدهم : أي أبنائك أحب إليك ؟ قال : (الصغير حتى يكبر ، والمريض حتى يشفى ،

والغائب حتى يعود) .. إنه ينبغي معاملة الأبناء على قدم المساواة حتى لا يكره بعضهم بعضاً ، ولكي يشعروا بمكانتهم عند أبويهم جميعاً ، فلا يحزن أحدهم ، ولا تضيق نفسه . وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم للبشير بن سعد حين جاءه ليشهد على أن البشير نحل ابنه النعمان بعض ماله دون غيره من الأبناء (أفعلت هذا بأبنائك كلهم) ؟ قال لا ، فقال صلى الله عليه وسلم (فأشهد على هذا غيري) ، ثم قال : (أيسرك أن يكونوا في البر إليك سواء) قال نعم . فقال النبي صلى الله عليه وسلم (اتقوا الله واعدلوا بين أولادكم) . أما يعقوب عليه السلام فقد مدحه المولى سبحانه وتعالى مع جده إبراهيم وأبيه إسحاق صلوات الله عليهم فقال في سورة (ص) : " واذكر عبادنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب أولي الأيدي والأبصار ، إنا أخلصناهم بخالصة : ذكرى الدار . وإنهم عندنا لمن المصطفَيْن الأخيار " فلا نشك أن يعقوب عليه الصلاة والسلام كان نعم الأب الرحيم لأبنائه ، إلا أن أبنائه غير يوسف — عليه السلام — وأخيه كانوا منصرفين عن الحق في بعض تصرفاتهم ، مستمرين الوقوع في الإثم ، وفي السورة دليلٌ ، من ذلك : أنهم لم يروا من اتخاذ القتل أو التغييب عيباً للوصول إلى غايتهم ، ورموا أخاهم في الحب ييغون هلاكه ، وكذبوا أمامه وهم لا يعرفونه حين وصفوه بالسرقة " إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل " .

١١ - الملفت للنظر لتوافقهم على السوء ولو بدرجات متفاوتة ، فبعضهم أراد قتله وطرحه أرضاً ، وبعضهم كان أقل سوءاً فطلب أن يُلقى في الحب يسترقه تجار القوافل المسافرون ، إلا أنهم بعد المداولة " أجمعوا " على طرحه في الحب " فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه في غيابة الحب " ونحن نعلم أن الأخوة كنز ثمين يتراحم به الناس ، ويوسف عليه السلام حين رأى أخاه بنيامين آواه إليه و " قال : إني أنا أخوك ، فلا تبتئس بما كانوا يعملون " . لكن الشيطان والنفس الأمارة بالسوء غطيا على عقولهم وأعميا أبصارهم .

١٢ - والأب العارف بالله ، النبي الكريم يعقوب يعلم أنهم كاذبون بما ادعوا من أكل الذئب ابنه يوسف فالرؤيا التي رآها يوسف لا بد أن تتحقق ، ولا بد للابتلاء أن يكون ، ورفع الدرجات للصابرين صبراً جميلاً ، وصفة " الجميل " تعني الثبات على تحمل الشدائد ، والكمال في الصفات : " فصبر جميل " وهناك الحجر الجميل ، والتسريح الجميل والصفح الجميل وهي صفات محببة إلى الله تعالى وإلى خلقه . وكان مما صبر الله تعالى يوسف وهو في الحب أنه سينبئ إخوته بفعالتهم الشنيعة هذه وهم لا يشعرون بذلك " وأوحينا إليه لتبتئنهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون " فعلم يوسف أنه في محنة سوف ينجيه الله منها ،

فما عليه إلا أن يصبر .

١٣ - دعاء رائع دعا به يوسف عليه السلام ، وهو في الحب ، - يُقال : إن جبريل عليه السلام علمه إياه ليفرج الله تعالى كربته وينقذه مما وقع فيه ، نذكره - على ما يقال في صحة قصته ونسبته إلى الإسرائيليات ، فهو توجه صادق إلى الله تعالى : (اللَّهُمَّ يَا مُؤْنِسَ كُلِّ غَرِيبٍ ، وَيَا صَاحِبَ كُلِّ وَحِيدٍ ، وَيَا مُلْجَأَ كُلِّ خَائِفٍ ، وَيَا كَاشِفَ كُلِّ كُرْبَةٍ ، وَيَا عَالِمَ كُلِّ بَخْوَى ، وَيَا مُنْتَهَى كُلِّ شَكْوَى ، وَيَا حَاضِرَ كُلِّ مَلٍّ ، يَا حَيَّ يَا قَيُّومَ أَسْأَلُكَ أَنْ تَقْذِفَ رَجَاءَكَ فِي قَلْبِي ، حَتَّى لَا يَكُونَ لِي هَمٌّ وَلَا شُغْلٌ غَيْرُكَ ، وَأَنْ تَجْعَلَ لِي مِنْ أَمْرِي فَرْجًا وَمَخْرَجًا ، إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ). والدعاء مخ العبادة ، وعلامة العبودية لله تعالى وسبيل التذلل إليه . " وقال ربكم ادعوني أستجب لكم ، إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين " .

١٤ - ولا ننس أن ما يُؤخذ بالقليل ، يُباع بالقليل ، فلما أخذه الواردون من البئر دون ثمن ، باعوه " بثمان بخس دراهم معدودة ، وكانوا فيه من الزاهدين " إن الآباء حين يبذلون قصارى جهدهم في تعليم أبنائهم الدين الحنيف ، ويربونهم عليه ، ويأطرونهم عليه ، فيكون الإسلام مدار حياتهم يتمسك الأبناء به ويجعلونه نبراسهم في كل أمورهم ، ويحافظون عليه حفاظ الشحيح على ماله والأم الرؤوم على ولدها . وحين يكون أثر الإسلام في نفوس الأبناء قشرة ضعيفة وغلالة رقيقة يهون عليهم ، فيضيّعونه غير آبهين ولا مهتمين بما يُحَاك له ولهم .



تأملات تربوية في سورة يوسف (٣)

١- أمر النبي صلى الله عليه وسلم بمعاملة الخدم والعبيد معاملة إنسانية طيبة ، فهم بشر مثلنا ، لهم أحاسيس ومشاعر، يسعدون للكلمة الطيبة والمعاملة الحسنة ، ويألمون للكلمة السيئة وسوء المعاملة بل إن النبي صلى الله عليه وسلم أمرنا باللطف في نداء الخادم والحديث عنه فقال : " لا يقل أحدكم عبدي وأمتي ولا يقولن المملوك ربي وربتي وليقل المالك فتاي وفتاتي وليقل المملوك سيدي وسيدتي فإنكم المملوكون والرب الله عز وجل " فیدعو المالكُ مملوكه ب : يا فتى ، وينادي المملوكُ مالكة : سيدي . كما أمرنا أن لا نتميّز عنهم بطعام أو لباس " من لاءمكم من مملوكيكم فأطعموهم مما تأكلون ، واكسوهم مما تلبسون ومن لم يلائمكم فبيعوه ولا تعذبوا خلق الله " .

ونرى العزيز الذي اشترى يوسف عليه السلام عاقلاً يأمر زوجته ان تحسن إليه ، فقد يرد إليهما الإحسان إحساناً حين يكبر في دلهما إياه وحسن تصرفهما إزاءه ، وقد يتبنياه إذا رأيا فيه الصلاح والنجابة " وقال الذي اشتراه من مصر لامرأته : أكرمي مثواه ، عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً " وهكذا هيأ الله تعالى ليوسف الحياة الطيبة مع هذا الرجل الأريب الذي ظهر لنا رجاحة عقله في أمور منها ما قاله آنفاً في الإحسان إلى يوسف ، وحين تبين له خطأ زوجته وانكشف أمرها ، فعقّب " إنه من كيدكنّ ، إن كيدكنّ عظيم " وحين طلب إلى يوسف أن يتجاوز الأمر ويتناساه فلا ينبغي أن يخرج الخبر إلى حيّز الإحراج والنيل من هيبة العزيز ، فأوحى بكلمة (أعرض) إلى صدق يوسف إذ لم يتهمه ، إنما طلب إليه بتعطف أن يتجاوز الأمر . كما وبخ المرأة وطلب منها الاستغفار لخطئها العظيم ، حين جعلها من (الخاطئين) لا الخاطئات فقط ، وهذا دليل على استعظامه الأمر وقوة توبيخه إياها " يوسفُ أعرض عن هذا ، واستغفري لذنبك ، إنك كنت من الخاطئين " كما أن كلمة (الخاطئين) توحى بأن الزنا ذنب كبير وفاحشة عظيمة، أفعله الذكور أم الإناث .

٢- أعتقد أن في الآيات ما يؤكد أن يوسف الشاب لم يهم بها كما همّت به لأسباب ذكرت في معرض القصة تؤكد ذلك ، منها : أ- أنه الله تعالى وهبه حكمة تمنعه من السفاهة وعلماً بالحلال والحرام ، رفعه إلى رتبة الإحسان " ولما بلغ أشده آتيناه حكمة وعلماً وكذلك نجزي المحسنين " فالحكمة

والعلم الحقيقيان حصن من الزلل، وأما الإحسان فأن تعبد الله كأنك تراه ، ومن كان يرى الله بقلبه وحاز الحكمة والعلم لم يهّم ،

ب- إذا أراد الله بالإنسان خيراً صرفه عن السوء والفحشاء ، فكيف إذا صرف الله تعالى السوء والفحشاء عن الإنسان؟! إنه إذاً لكریم على الله كثيراً

ج- والمسلم السعيد يخلص لله في العبادة والالتزام ، حتى يصير مخلصاً - (اسم فاعل) فإذا أخلص لله جعله الله من المخلصين . فكيف إذا جعله الله ابتداءً مخلصاً (اسم مفعول) إنه لفضل عظيم من الله تعالى .

د- ولولا تفيد امتناع حصول الشيء لوجود مضادّه ، فلولا رؤية برهان ربه لهمّ بها ، فامتنع لهم لرؤية يوسف عليه السلام برهان ربه .

" ولقد همّت به . وهمّ بها لولا أن رأى برهان ربه ، كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين "

هـ- واستباقهما الباب ، هي تلحق به لثمنه من الخروج ، وهو يريد الهرب بنفسه ، فقدّت قميصه من دبر دليل على عدم الهمّ بها .

٣- ويكون إصدار الحكم الصحيح بعد المعاينة ، ولا يجوز للعواطف والانفعالات أن تؤثر في القاضي النزبه ، فالمرأة حين خافت على نفسها الفضيحة أمام زوجها أسرع بالدفاع الأنثوي السريع (والهجوم خير وسيلة للدفاع) تتهم يوسف بالرغبة في الفحشاء وسوء الأدب وأنه لم يراع حرمة من آواه وأحسن إليه فحاول هتك عرضه وشرفه ، ثم تسارع إلى اقتراح العقوبة المناسبة : إما السجن أو العذاب . كما أنها لخبثها ودهائها أقرت العقوبة بطريقة الاستفهام " ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً إلا أن يُسجن أو عذاب أليم ؟ "

وعلى المتهم البريء أن يدافع عن نفسه ، ولا يتخاذل أمام جبروت الظالم مهما كان الظالم ذا مكانة اجتماعية تفوقه ، أو له دلّ على المتهم ، فالحق يجب أن يظهر ، ومقارعة البهتان والظلم واجبة " قال : هي راودتني عن نفسي " فلا بد إذاً من البيئة التي تحقق الحق وتبطل الباطل . وقد ظهرت البيئة بتمزيق قميصه من الخلف ، أمسكت المرأة بقميصه بقوة تستبقيه وهو يسرع هارباً ، فتمزق من الخلف ، ولو كان

يريدها وهي تأبى لتمزق القميص من الأمام .

٤- القميص أمره عجيب ، وعليه دارت رحى القصة :

فقميصه (الأول) الذي حمله إخوته إلى أبيهم لم يكن ممزقاً، فكشف كذبهم وعزّاهم وبين تأمرهم.

وقميصه (الثاني) الذي مزّقه امرأة العزيز من الخلف برّاه بإذن الله وكشف دعوى المرأة الكاذبة .

وقميصه (الثالث) الذي حمله أحد إخوته إلى أبيه كان - بإذن الله - سبب عودة البصر إلى أبيه ،

وقدوم الجميع إلى مصر ليلتئم الشمل .

٥- لم تستنكر نساء الذوات أن تعشق المرأة منهن شاباً تقطف معه الثمرة المحرمة ، فهذا - في

المجتمع الكافر - أمر عادي . إنما كان استنكارهن أن تنهوى امرأة العزيز أمام خادم تملكه ، ومتى كانت

نساء الطبقة الراقية يتعلّقن بعبدهنّ ، لقد أخطأت - إذاً - خطأ كبيراً ، وضلت ضلالاً بعيداً ... ولاكت

ألستهنّ تعلقها بيوسف ، وافتضح أمرها بينهن فصارت قصتهما مثار التفكه والتندر . وأرادت ان ترغمهن

وتقطع ألستهنّ ، فدعتهنّ إلى قصرها واستقبلتهنّ استقبالاً كريماً وقدمت لهن مالذ وطاب من جنيّ الفاكهة،

فلما انشغلن بذلك أمرت يوسف أن يدخل عليهنّ ، فلما رأى هذا الجمال الأخاذ سحرهنّ وأخذ بألباهنّ،

وطغى عليهن بهاؤه فجرحن أيديهنّ بالسكاكين دون أن يشعرن ، " وقلن حاشَ لله ، ما هذا بشراً ، إن هذا

إلا ملك كريم "

وهنا تغتتم امرأة العزيز الفرصة لتقول : إنكنّ رأيته مرة واحدة فملك عقولكنّ وبهركنّ حسنه ، فلم

تلمني فيه وهو بين يديّ كل صباح ومساء ، فأذوب في حبه ، وأحلم ليلي ونهاري بوصاله . ثم تجترئ -

أمام تحافتهنّ - على طلب الفاحشة والإصرار عليها ، ويشاركنها بذلك فيطلبن منه ما طلبت . وزادت

فحشاً حين هددته كرة أخرى بالسجن إن استعصم ، وأبى ، فينضممن إليها ويسألنه ذلك ، والدليل على

ذلك قوله " وإلا تصرف عني كيدهن أصب إليهنّ وأكنّ من الجاهلين " وقوله في تحقق الملك منهنّ حين

سألهنّ : " ما خطبكنّ إذ راودتُنّ يوسف عن نفسه ؟ "

٦- ويتعلق يوسف عليه السلام بجبل من الله قوي ، ويسأله السلامة من الفاحشة ، وأن يصرف

عنه كيدهنّ ، وينجيه منهن ومن فسادهنّ ، فينقذه الله تعالى مما هو فيه .

وليس للمؤمن من عياذ إلا بالله ولا ملجأ إلا إليه ، ولا اعتماد إلا عليه . فهو - سبحانه - الحصن

الحصين والملجأ الأمين . إلا أن يوسف وهو تحت ضغط التهديد بارتكاب الفاحشة أو السجن ، قال : " ربّ ؛ السجن أحب إليّ مما يدعونني إليه .. " ولم يختَر النجاة منهما جميعاً: وَقَدْ حُكِيَ أَنَّ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامَ لَمَّا قَالَ : " ربّ السَّجْنِ أَحَبُّ إِلَيَّ " أَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ " يَا يُوسُفُ ! أَنْتَ حَبَسْتَ نَفْسَكَ حَيْثُ قُلْتَ السَّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ ، وَلَوْ قُلْتَ الْعَافِيَةَ أَحَبُّ إِلَيَّ لَعُوفِيت " . فعلى المسلم أن يسأل الله تعالى العافية والنجاة من كل بلاء . " إنه هو السميع العليم "

٧- مما يتألم له الإنسان الحر أن المفسدين المتنفذين غالباً ما يضحون بالأبرياء ليتخلصوا من آثار مفاسدهم ومخازيهم . إننا لنشم رائحة فجور النساء ينضم إلى صفاقة امرأة العزيز ، فيملاً خياشيم الرجال بنتن خطيئاتهنّ ، ولا يرى هؤلاء لوأد هذه الفضيحة سوى تغييب الضحية البريئة في أحد السجون فترة من الزمن فتنسأه النساء أو تنسأه ، ولا يرين إليه سبيلاً فيئسن منه . وهكذا يدفع الطاهر العفيف ثمن طهره وعفافه ، سجنًا وألمًا وغصة ، نرى هذا في عالمنا السياسي حيث يُلقى الحر في السجون والمعتقلات ، أو يحكم عليه بالموت لأنه أبى الدنية ورفض الذل والتمرغ في أحوال الخيانة والعمالة ، وفي حياتنا الاقتصادية ، إذ يتسهم المسؤولية حيتان المال ، يذللون القوانين لتكديسه في أرصدتهم ، ويتخمون به على حساب الفقراء الذين لا يجدون ما يسد رمقهم . فإذا زكمت رائحتهم الأنوف وانكشف أمرهم تنصلوا من المسؤولية ودفعوا صغار عملائهم ضحايا لصوصيتهم ...

٨- يغتنم الداعية الفرص السانحة لإيصال دعوته للناس ، ويستمر في أداء مهمته في كل الظروف والأحوال . فيوسف عليه السلام كان داعية فيمن حوله حين كان حراً ينتقل بين القصور وفي الأسواق والتجمعات ، ولا يتوقف عن هذا حين يدخل السجن ، فيخدم هذا ويساعد هذا ، ويخفف الأسي عن ذاك . حتى لقب بيوسف الصديق وعرف بالإحسان بين المسجونين...يسألونه ويستشيرونه ، ويستفتونه ، وهو يدعوهم إلى عبادة الله ويجيبهم ما استطاع إلى ذلك سبيلاً .

يسأله فتّيان عن رؤياهما ، ويجلسان بين يديه ينتظران التأويل ، فيعرض عليهما الإيمان بالله الواحد ونبذ الشرك ، وأن علمه الذي ينشره بن الناس من فضل الله تعالى الواحد الأحد، ويعرّفهم على سبيل الصالحين قبله .

ولا بد من سلوك سبيل الإقناع في الدعوة ، وهذا ما فعله يوسف عليه السلام الداعية الذكي ، إذ

بدأ يقارن بين الصواب وإيجابياته والخطأ وسلبياته ، " أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار " وينتقل إلى الحديث عن فساد الكون لو كان فيه أكثر من إله " لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا " ويطنب في الحديث لأن الفتيين خاليا الذهن مما يقول فلا بد من تفصيل الفكرة والإسهاب فيها ، فيقول : بنجم الفساد عن تنافس الشركاء ، وتفرقهم بعد الخصام ، ولعل بعضهم أقوى من بعض فيعلو القوي على من هو أضعف منه " إذاً لذهب كل إله بما خلق ، ولعلا بعضهم على بعض ... "

فإذا ما دعاهم إلى الإيمان بالله الواحد والتسليم له سبحانه يعرض لما يسألون ويوضح لهم ما يستفتون.

٩- ولعل يوسف عليه السلام حين قال للساقي الذي نجا وعاد إلى خدمة الملك " اذكرني عند ربك " وبين له أن في السجن مظلوماً لم يرتكب ذنباً . ولعل هذا القول من يوسف في بسط القول ، والبحث عن الحق ، فكانت العقوبة لسيدنا يوسف حين توسط للمخلوق بالمخلوق (توسط للملك بالساقي) فأنسى الشيطان الساقي ما طلبه يوسف عليه السلام منه ،

ولم أرتح لمن قال : إن الشيطان أنسى يوسف ذكر الله واللجوء إليه ، فليس للشيطان سبيل على الأنبياء .. إنه اجتهد من يوسف أخطأه حين التمس النصرة من البشر ، فلبث في السجن سبع سنوات " فأنساه الشيطان ذكر ربه ، فلبث في السجن بضع سنين " .

١٠- من الأدب في إبداء الرأي أن الملك حين رأى سبع بقرات هزيلة تأكل سبع بقرات سمان ، وسبع سنابل يابسات تأكل سبع سنابل خضرا ستفتى العارفين وأصحاب المشورة فقال : " يا أيها الملاء أفتوني في رؤياي " . وهذا يذكرنا بقول بلقيس : " يا أيها الملاء أفتوني في أمري " فماذا كان من أهل العلم والمشورة؟

أ- اعترفوا بعدم العلم ، وهذا عين الصواب ، فما ينبغي لأحد أن يفتي بغير علم .

ب- لكن لا بد من إبداء الرأي ، فقالوا " أضغاث أحلام " .

ج- ولم يدعوا أن لا تأويل لها ، ولعلمهم أرادوا محوها من نفس الملك كي لا يشغل بها .

د- بعض الناس قالوا : إن الرؤيا أول ما تعبر ، وليس صحيحاً ، فبعد أن قالوا : أضغاث

أحلام أوّلها يوسف عليه السلام .

١١- ومن الأدب كذلك أن تعرف حق العلماء من التوقير والاحترام ، وهذا ما رأيناه عند الساقى حين التقى يوسف عليه السلام فى السجن فكلمه بـ " يوسف أيها الصديق " ، إن إكرام العلماء من إكرام العلم . وقد نرى فى قول الساقى " لعلى أرجع إلى الناس لعلهم يعلمون " أن من معاني يعلمون " التعبير للرؤيا ، فيعلمون قدر يوسف ، فيبحثون أمره وينصفونه " .

١٢- الكرامة والعزة من صفات المسلم ... طلب الملك رؤية يوسف ، بل أمر بإخراجه من السجن وقال : " إيتوني به " وكان ليوسف أن يخرج من السجن فقد جاءته الفرصة السانحة . إلا أنه دخل السجن بتهمة شنيعة هو بريء منها ، ولن يخرج بعفو أحد ولو كان الملك . إنه يريد أن يخرج طاهراً عفيفاً بريئاً من كل تهمة شائنة . وتعجب الملك والناس ... ووقر فى نفوسهم أن الرجل صادق ، فلا بد من البحث عن حقيقة سجنه وتعترف النساء بعد سبع سنين بالحقيقة " قلن حاشَ لله ، ما علمنا عليه من سوء " وأقرت امرأة العزيز بذنبها ، وشهدت بصدق يوسف عليه السلام " قالت امرأة العزيز : الآن حصحص الحق ، أنا راودته عن نفسه ، وإنه لمن الصادقين " فيرتفع صوت الصديق يوسف وهو فى السجن معلناً أنه الأمين الذى لم يخن من ربه وأمنه على عرضه وماله " ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب ، وإن الله لا يهدي كيد الخائنين " وهنا يأمر الملك بإحضاره ليجعله مستشاره الشخصى " إيتوني به أستخلصه لنفسي " فزاد على الجملة الأولى " أستخلصه لنفسي "

ولما مثل بين يديه اختبره ، فكلمه ، فأعجب به فقربه إليه " فلما كلمه قال: إنك اليوم لدينا مكين أمين " المكين فى مكانته ومنزلته ، الأمين فى مشورته ورأيه .

١٣- هل يجوز للمسلم أن يطلب الإمارة ؟ فهو إما أن يكون أهلاً لها أو لا يكون ...

فإن لم يكن أهلاً لها فهو خائن لله ولرسوله وللمؤمنين يريد أن يتبوأ عملاً ، فيفسده .

وإن كان أهلاً لها وطلبها فإن النبي صلى الله عليه وسلم قال لأبي موسى الأشعري : " لا نستعمل على عملنا من أراده " وقال لعبد الرحمن بن سمرة " يا عبد الرحمن ؛ لا تسأل الإمارة ، فإنك إن أعطيتها عن مسألة وكلت إليها ، وإن أعطيتها عن غير مسألة أعنت عليها " وكان أبو موسى الأشعري من أهلها إذ كان أميراً على الكوفة لعمر رضي الله عنهما .

أما يوسف عليه السلام فقد قال للملك : " اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم " لأسباب

منها : أ- أنه نبي ، والنبي قائد وأسوة ومعلم ، وهو أولى الناس بتحمل المسؤولية .

ب- أنه المسلم الأول في مصر وليس هناك غيره يفعل فعله .

ج - أنه صاحب التأويل ، وهو أولى الناس بتنفيذ ما أوّله ... والله أعلم .

ومع ذلك لانسَ قول النبي صلى الله عليه وسلم " رحم الله أخي يوسف ، لو لم يقل : اجعلني على

خزائن الأرض لاستعمله من ساعته ، ولكنْ آخر ذلك عنه سنة "

عن القرطبي في تفسيره



تأملات تربوية في سورة يوسف (٤)

١- " وجاء إخوة يوسف ، فدخلوا عليه ، فعرفهم ، وهم له منكرون " . لا شك أنه عرفهم فهم رجال ، قد اكتمل نموهم حين ألقوه في الحب ، ولم يتغيروا كثيراً بعد ثلاثة عقود ، كما أنهم جاءوا معاً وعددهم عشرة ، يتكلمون العبرية - لسان اليهود - وكل هذا ملفت للنظر ، كما أنه يتوقع مجيئهم . أما يوسف فقد كان صغيراً ، وتغيرت ملامحه كثيراً حين اكتملت رجولته ، فلن يعرفوه ، كما أنهم اعتقدوا موته ، وانتهى أمره عندهم ، وما عادوا يفكرون فيه ، ولم يكونوا - لو أخذته قافلة - يتصورون أين سينتهي به المطاف لو بقي حياً ، ولئن استقر به المقام في مصر ، فلن يكون سوى عبد ذليل وخادم لا يؤبه له ، ولن يخطر ببالهم أنه الوزير المتنفذ الذي بيده هذا السلطان كله ، وأن الله تعالى مكن له في الأرض ، فبات يُشار إليه بالبنان ، ويقصده الناس من قريب وبعيد كما يفعلون الآن .

ولنتصور الآن الحديث بينه وبينهم بالمصرية ، ولعلمهم يعرفونها أو هناك مترجم ، فيوسف لم يكن يريد أن ينبههم إلى أنه يعرف لغتهم فينتبهوا له ، ويروزوه :
من أي البلاد قدمتم ؟
من أرض كنعان .

أراكم تتشابهون ، فهل أنتم من عشيرة واحدة أو بينكم قرابة؟
بل نحن إخوة ، وأبونا واحد ، هو النبي يعقوب .
أنتم جميعاً ابن رجل واحد ؟

نعم ، ولنا أخ آخر بين يدي والده لا يفارقه لحظة واحدة ، فهو متعلق به كثيراً .
ويكرمهم يوسف عليه السلام ، فيجعلهم ضيوفه ، ثم يأمر فتيانَه أن يملأوا أوعيتهم بالقمح ويزيدوهم في الكيل ، ويطلب منهم أن يأتوا بأخيه في المرة القادمة فيثبت صدقهم ، فإن لم يفعلوا فليسوا صادقين في ذلك ، وسيمنعهم من دخول مصر ويأبى أن يميرهم
وذكرنا قصتهم في المقال الأول من التأملات ، فلنعد إليها .

٢- قد يظن أحدهم أن أبناء يعقوب هم الأنبياء من الأسباط ، وهذا وهمٌ تسقطه القرائن ، بل

الأنبياء من أحفاد أبنائهم ، إن النبي قدوة ، وهؤلاء ليسوا قدوة ، وخطوهم كثير وكبير استمر معهم حتى صاروا كهولاً وهم حتى اللحظة الأخيرة يسيؤون إلى أخيه يوسف ، ومن أساء إلى أخيه فلا بد أن تكون إساءاته للناس متواترة . " إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل " ويقول يوسف في نفسه متألماً " أنتم شر مكاناً والله أعلم بما تصفون " كما أننا نجد عدم احترامهم لأبيهم - وأبنائهم مثلهم - فيلومونه لوماً أقرب إلى التوبيخ حين يخبرهم أنه يجد ربح يوسف " تالله إنك لفي ضلالك القديم " وهم يعترفون أمام يوسف بخطئهم اعتراف المحاط بهم حين يكشف لهم عن نفسه " تالله لقد آثرك الله علينا ، وإن كنا لخاطئين " ويسألون أباهم أن يعفو عنهم ويستغفر لهم " قالوا : يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا ، إنا كنا خاطئين " وهل يصبحون أنبياء حين يهرمون ويعجزون وهم الخاطئون ؟ ، وكلمة " الخاطئ " التي تكررت في سورة يوسف تعني : الخطأ العمد الذي يصر صاحبه عليه .

٣- الاستعطاف طريقة تربوية قد توصل للهدف على شرط أن يُقصد به الرجل الشهم المحسن .
أما استعطاف اللئيم فذلٌ وخنوعٌ يأباهما المسلم .

نرى ذلك حين رغبوا في سبيل استنقاذ أخيه أن يتبرع أحدهم أن يُسترقَّ مكانه ، فأبى يوسف عليه السلام ، فلا عقوبة إلا لمن يستحق العقوبة ، والقاعدة الشرعية تؤكد " ولا تزر

وزارة وزر أخرى " وأعلن هذا قائلاً " معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده "

٤- يبدو أن الرجولة والخبرة في الحياة وتحمل المسؤولية زمناً طويلاً والعهود والمواثيق ،

والخوف من الوقوع في الخطأ مرة أخرى تخفف من غلواء الفساد ،

فهذا كبيرهم (وقد يكون أكبرهم عمراً أو مكانة) يشعر بعظم المسؤولية . فلما خلصوا يتناجون ويقولون الأمور لم يستحسن العودة إلى فلسطين خوفاً وخجلاً من لقاء أبيه حين يعود دون بنيامين ، ومن قبل فرط في الحفاظ على يوسف وجارى إخوته في التخلص منه " قال كبيرهم : ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقاً من الله ، ومن قبل ما فرطتم في يوسف " لقد طفح الكيل ، وما عاد يحتمل ، فقرر أن يظل في مصر قرب أخيه بنيامين حتى يأذن له أبوه أو يأتي الفرج من الله : " فلن أبرح الأرض حتى يأذن لي أبي أو يحكم الله لي وهو خير الحاكمين " وهذا دليل على انفراط عقد العُصبة ثم إنه قال : حتى يحكم الله لي . ولم يقل لنا

ووثق الإخوة الذين ذهبوا أمرهم بالاستشهاد بالقافلة التي كانت معهم ، وبسؤال أهل مصر الذين شهدوا الحادثة .

٥- الأمل بالله والوثوق به سمة المسلم إن قلب الأب كان مكلوماً فلم يصدقهم ، وكرر قوله السابق " بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل . " فقد بُعد ثلاثة من أولاده عنه :

أما أولهم : فيوسف الذي غاب عنه عقوداً وهو لا يعلم عنه شيئاً ، الولد الغائب الذي لا يدري أبوه أحي هو أم ميت ، أين يقيم ، وكيف يحيا غيبته أشد من غيبة غيره إلا أن يعقوب عليه السلام كان يعلم أن ابنه حي بسبب الرؤيا التي رآها يوسف ، وهو ينتظر تحقيقها ، فيجتمع به .
وأما ثانيهم : فبنيامين الذي يقبع في أسر عزيز مصر ، يعرف أبوه مكانه إلا أنه لا يستطيع القدوم ، وأمره صعب لكنه أقل صعوبة من حال يوسف الغائب الذي لا يعلم عنه شيئاً .
وأما ثالثهم : فالكبير المنفي طوعاً ، لا يجزئ على العودة ولقاء أبيه

إنها لمصيبة كبيرة علاجها اللجوء إلى الله تعالى والصبر عليها . " فصبر جميل ... " إلا أن المصيبة تصغر حين تكبر ، وتضعف حين تشتد ، فقال ، وثقته بالله ثابتة : عسى الله أن يأتيني بهم جميعاً ، إنه هو العليم الحكيم " وقال معلماً أبناءه اللجوء إلى الله في كل شيء " إنما أشكو بثي وحزني إلى الله ، وأعلم من الله ما لا تعلمون " ويدفعهم إلى طرح اليأس والتشهير عن ساعد الجد والبحث في مصر نفسها ، فهناك الأخوان الغائبان يوسف وبنيامين يقيمان ، وقد دنت ساعة الفرج أما الكبير فقد عاد بعد أن أذن له أبوه بالعودة " يا بني اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ولا تيئسوا من روح الله " بل إنه ليجد ريح يوسف حين خرج أخوه بقميصه إلى الأب الحزين .

٦- العفو سبيل الصالحين حين يقبل على يوسف إخوته للمرة الثالثة ، قد مسهم الضر من تضعض في العيش الأسري ، وفقر واضح ، وانكسار بَيّن " فلما دخلوا عليه قالوا : يا أيها العزيز ؛ مسنا واهلنا الضر ، وجئنا ببضاعة مزجاة ، فأوف لنا الكيل وتصدق علينا ، إن الله يجزي المتصدقين " ويرى يوسف أنهم تعلموا الدرس يكلمهم بالعبرية - لغتهم - مؤنباً " هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون ؟ " وأرى كلمة " إذ أنتم " غير قوله تعالى " إذ كنتم " فالثانية للماضي ، والأولى للماضي

والحاضر. فما تزالون تخطئون ولا ترعون ويذكر سبيل الإحسان ... إنها التقوى والصبر " إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين "

وحين يطلبون الصفح يصفح عنهم دون لوم ولا عتاب . بل يدعو لهم بالخير ، وهذه قمة العفو والتسامح ، وهذا دأب الصالحين " لا تثريب عليكم اليوم ، يغفر الله لكم ، وهو أرحم الراحمين " وكذلك يفعل الأب حين يستغفر الله لهم ، ويعفو عنهم .

بل إن يوسف عليه السلام يبلغ القمة في الصفح والغفران حين يتناسى ما فعله إخوته به حين ألقوه في الحب ، ولا يذكره كي لا يشعروا بالخرج ، ولا يذكر إلا كربته في السجن ، ويعزو إلى الشيطان وحده ما كان بينه وبين إخوته " ... وقد أحسن بي إذ أخرجني من السجن ، وجاء بكم من البدو من بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين إخوتي . "

٧- التواضع والتذلل إلى الله دأب الصالحين

- الله تعالى أحسن به إذ أخرجه من السجن ، وجاء بأهله من البدو .
- الله سبحانه من آتاه الملك ، وعلمه من تأويل الأحاديث .
- يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين .
- إنما أشكو بثي وحزني إلى الله ، وأعلم من الله ما لا تعلمون .
- عسى الله أن يأتيني بهم جميعا .
- وما أبرئ نفسي ، إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي . إن ربي غفور رحيم .
- ذلك مما علمني ربي .

ولن يكون الملك والعلم للصالحين سبيل عظمة وتكبر ، إنما هو سبيل إلى التواضع والشكر للمنعم المتفضل . بل يدفع صاحبه أن يسأل الله تعالى أن يجعل ذلك مقدمة للجنة وبشرى الرضا في الآخرة " رب قد آتيتني من الملك ، وعلمتني من تأويل الأحاديث فاطر السموات والأرض ؛ أنت وليي في الدنيا والآخرة . توفي مسلماً ، وألحقني بالصالحين . "

ونحن معشر المسلمين نتعلم من يوسف عليه السلام أن الدنيا دار اختبار وأن الآخرة دار قرار ، اللهم توفنا مسلمين ، وألحقنا بالصالحين

تأملات تربوية في سورة الحجر (١)

أساليب التربية في سورة الحجر كثيرة ، وهي رياض غناء يسعد المتأمل فيها والناظر إليها ببدیع هذه الأساليب التي يأخذ بعضها ببعض ، فتتظم عقداً بليغاً يحوي درر الحِكم وجواهر الأدب وجميل المعاني الخلاقة التي تستهوي المربين والأساتذة والآباء ، فيقتطفون منها طاقات فوّاحة من علم وأدب وتربية ... إليك بعضها :

١- قال الحكماء : (لا تقم بعمل تندم عليه) ؛ وكثير ما يجترح أحدنا أخطاء دون روية ، ثم يندم عليها . ولا شك أن الاعتراف بالخطأ والرجوع عنه فضيلة ، وأفضل منه تصويبه وعدم العودة إليه . هذه التوبة النصوح . وهذه التوبة المطلوبة في عالمنا ، وما تزال مقبولة ، بل مطلوبة ما دمنا على قيد الحياة . أما الندم بعد الموت فحسرة لا تنقضي ، واعتذار لا يقبل ، وخطأ لا يغتفر إلا بعفو الله تعالى ومغفرته ولطفه ما عدا الإشراك به سبحانه ، فهذا خطأ لا يُغْتَفَرُ وذنب لا يُمَحَى " إن الله لا يغفر أن يُشْرَكَ به ، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء " ونقف وقفة الخائف الوجلل والحذر المنتبه أمام الآية الكريمة الثانية في هذه السورة " رُبَّمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ " إنهم سيندمون على ما كانوا فيه من الكُفْرِ ، ويتمنون لو كانوا في الدنيا مع المسلمين . قال ابن عباس وابن مسعود : إن الكفار حين يعرضون على النار يوم القيامة ويرون المسلمين ناجين منها يتمنون أن لو كانوا مسلمين . ولعل المراد أن كل كافر يودّ عند احتضاره أن لو كان مؤمناً . وقيل : هذا إخبار عن يوم القيامة كَقَوْلِهِ تَعَالَى " وَلَوْ تَرَى إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبُ بآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ " وَقَالَ بعض المفسرين إن هذه الآية يقولها الجهنميون الذين يرون العاصين من المؤمنين خرجوا من النار بعفو الله تعالى . وفي رواية: يَقُولُ أَهْلُ النَّارِ لِلْمُوحِدِينَ مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ إِيْمَانُكُمْ ؟ فَإِذَا قَالُوا ذَلِكَ قَالَ اللَّهُ : أَخْرِجُوا مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ إِيْمَانٍ . وروى عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ " إِنَّ نَاسًا مِنْ أَهْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَدْخُلُونَ النَّارَ بِذُنُوبِهِمْ ، يَقُولُ لَهُمْ أَهْلُ اللَّاتِ وَالْعُزَّى مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ قَوْلُكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنْتُمْ مَعَنَا فِي النَّارِ ؟ فَيَغْضَبُ اللَّهُ لَهُمْ فَيُخْرِجُهُمْ ، فَيُلْقِيهِمْ فِي نَهْرِ الْحَيَاةِ فَيَبْرءُونَ مِنْ حَرِّهِمْ كَمَا يَبْرَأُ الْقَمَرُ مِنْ خُسُوفِهِ ، وَيَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَيُسَمَّوْنَ فِيهَا "الْجَهَنميون" . إن الكفار لا يعبأون في الدنيا بغير التمتع بها وانتهاب الملذات ، فكان التهديد واضحاً في قوله تعالى "

ذرههم يأكلوا ويتمتعوا ويلهيهام الأمل ، فسوف يعلمون " ولن يعلموا إلا بعد فوات الأوان . فإذا رأوا يوم القيامة ذاقوا وبال أمرهم .

٢- إن الله سبحانه وتعالى (يمهل ولا يهمل) فلن يهلك الله أمة إلا بعد قيام الحجة عليها " وما أهلكنا من قرية إلا ولها كتاب معلوم " ول (الكتاب المعلوم) معنيان متلازمان ، أولهما أن الحق سبحانه لا يهلك أمة قبل إرسال الرسل ودعوتها إلى عبادة الله وحده ، فإن أجابت نجت ، وإن لم تفعل حق عليها الهلاك . وثانيهما أن لكل أمة أجلاً " فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون " والله سبحانه - على غضبه على الكفار - حلیم يؤخرهم لأجلهم المحدد لهم فلا يعجل عليهم . ولذلك كانت القاعدة الإلهية في حق الأمم " ما تسبق من أمة أجلها ، وما يستأخرون . " والإنسان هو الذي يستعجل حين يغضب وتأخذه الحمية ، يكاد يخسف الأرض بمن غضب منهم ، ويحاول جاهداً أن يستأصل شأفتهم . " وخلق الإنسان عجولاً "

٣- العاقل يقارع الحجة بالحجة وضعيف الرأي يغطي على جهله بالهزء والسخرية ، ومن سخرية المشركين بالرسول الكريم صلى الله عليه وسلم أنهم يتعالون عن ذكر اسمه الشريف ، فلا ينادونه : يا محمد ؛ بل يقولون تعريضاً واستخفافاً " يا أيها الذي نُزل عليه الذكر ... " ويقصدون : يا من تدّعي أنك نبي ورسول ؛ إنك لمجنون . ويطالبونه أن يكون معه ملك يؤيده . مع أن الملائكة لا تنزل إلا للدفاع عن الأنبياء والقضاء على أعدائهم وإبادتهم حين يشتد أذاهم للرسل وأصحابهم ، كما فعل الله بالأمم السابقة الهالكة . ويخفف الله تعالى عن الرسول ألمه وحزنه من صد المشركين وأذاهم فيخبر الحبيب المصطفى أنه ليس بدّعاء من الرسل ، فقد كُذبت الرسل من قبله ، واستهزأ المشركون بهم كما استهزأت قريش وكفار العرب به . فهذا دأب المكذابين الضالين .

٤- يعاقب المشركون الذين صدوا عن الإيمان وحاربوه واتبعوا أهواءهم بالكفر يعشش في قلوبهم فيتيهون في الضلالة ويعمّهون فيها " كذلك نسلكه في قلوب المجرمين ، لا يؤمنون به وقد خلت سنة الأولين " وهكذا فُعل بكفار الأمم السابقة التي صدت عن سبيل الله ، فقد أدخل الله تعالى الشرك في قلوبهم لأنهم طلبوه كقوله تعالى في سورة الإسراء " قل : من كان في الضلالة فليمدد له الرحمن مدداً " وقوله تعالى " من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ، ثم جعلنا له جهنم يصلاها

مذموماً مدحوراً " فهم - المشركين - لا يؤمنون حتى يقعوا في الواقعة التي لا خلاص منها . ولعل بعضهم يقول : أحقاً هم يصدون لو وجدوا آيات بينات ؟ والدليل أن سحرة البشر واحدة ، فالله تعالى قدم لقوم صالح آية الناقة حين وعدوا نبيهم أن يؤمنوا بهم لو جاءهم بخارق العادات ، فلما جاءتهم كفروا بها وقتلوها . فلما طلب القرشيون آية ذكرهم الله تعالى بالقاعدة الشهيرة : لا يُلدغ المرء من جحر مرتين حين أنزل الآية " وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون ، وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها " أي ظلموا أنفسهم بقتلها . وفي هذه السورة يفضحهم الله تعالى حين يعريهم فيقول : " لا يؤمنون به وقد خلت سنة الأولين " فهم مثلهم . ولأنه سبحانه عالم بهم خبير بدخائلهم يقول " ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلوا فيه يعرجون لقالوا : إنما سكرت أبصارنا ، بل نحن قوم مسحورون " . وقد يتفاح أحداهم فيقول : لم يأخذ ربك الخلف بجريرة السلف ؟! فنقول له : يا هذا خانك الفهم ، وجانبك الصواب ، فالله تعالى بعدله لا يترك لأحد حجة ، فقد طلب مشركو مكة دليلاً على نبوة الحبيب محمد ، وسألوه أن يطلب من ربه انشقاق القمر ليؤمنوا به ، فلما انشق القمر قالوا : سحرنا محمد ، وحين قيل لهم إن كان سحرهم فاسألوا القادمين إلى مكة بعد أيام عما رأوا . فلما سألوهم وأكدوا أنهم رأوا القمر فلقطين ذلك اليوم قالوا : سحر محمد الجميع ، إن سحره قوي مستمر شديد " اقتربت الساعة وانشق القمر ، وإن يروا آية يعرضوا ، ويقولوا سحر مستمر ، وكذبوا واتبعوا أهواءهم .. "

٥- كَانَ لِلْمَأْمُونِ - وَهُوَ أَمِيرٌ إِذْ ذَاكَ - مَجْلِسٌ نَظَرَ ، فَدَخَلَ فِي جُمْلَةِ النَّاسِ رَجُلٌ يَهُودِيٌّ حَسَنَ الثَّوْبِ حَسَنَ الْوَجْهِ طَيِّبَ الرَّائِحَةِ ، قَالَ : فَتَكَلَّمَ فَأَحْسَنَ الْكَلَامَ وَالْعِبَارَةَ ، قَالَ : فَلَمَّا انْتَهَى الْمَجْلِسَ دَعَاهُ الْمَأْمُونُ فَقَالَ لَهُ : إِسْرَائِيلِيُّ ؟ قَالَ نَعَمْ . قَالَ لَهُ : أَسْلِمَ حَتَّى أَفْعَلَ بِكَ وَأَصْنَعَ ، وَوَعَدَهُ . فَقَالَ : دِينِي وَدِينِ آبَائِي ! وَأَنْصَرَفَ . قَالَ : فَلَمَّا كَانَ بَعْدَ سَنَةٍ جَاءَنَا مُسْلِمًا ، قَالَ : فَتَكَلَّمْتُ عَلَى الْفِقْهِ فَأَحْسَنَ الْكَلَامَ ؛ فَلَمَّا تَقَوَّضَ الْمَجْلِسَ دَعَاهُ الْمَأْمُونُ وَقَالَ : أَلَسْتَ صَاحِبَنَا بِالْأَمْسِ ؟ قَالَ لَهُ : بَلَى . قَالَ : فَمَا كَانَ سَبَبَ إِسْلَامِكَ ؟ قَالَ : انْصَرَفْتُ مِنْ حَضْرَتِكَ فَأَحْبَبْتُ أَنْ أُمْتَحِنَ هَذِهِ الْأَدْيَانَ ، وَأَنْتَ تَرَانِي حَسَنَ الْخَطِّ ، فَعَمَدْتُ إِلَى الْإِنْجِيلِ فَكَتَبْتُ ثَلَاثَ نُسخٍ فَرِذْتُ فِيهَا وَنَقَّصْتُ ، وَأَدْخَلْتُهَا الْكَنِيسَةَ فَاشْتَرَيْتُ مِنِّْي ، وَعَمَدْتُ إِلَى التَّوْرَةِ فَكَتَبْتُ ثَلَاثَ نُسخٍ فَرِذْتُ فِيهَا وَنَقَّصْتُ ، وَأَدْخَلْتُهَا الْبَيْعَةَ

فَاشْتُرِيَتْ مِنِّي ، وَعَمَدَتْ إِلَى الْقُرْآنِ فَعَمِلَتْ ثَلَاثَ نُسُخٍ مِنْهُ وَزِدَتْ فِيهَا وَنَقَّصَتْ ، وَأَدْخَلْتُهَا الْوَرَّاقِينَ فَتَصَفَّحُوهَا ، فَلَمَّا أَنَّ وَجَدُوا فِيهَا الزِّيَادَةَ وَالنُّقْصَانَ رَمَوْا بِهَا فَلَمْ يَشْتَرُوهَا ؛ فَعَلِمْتُ أَنَّ هَذَا كِتَابٌ مُحْفُوظٌ ، فَكَانَ هَذَا سَبَبٌ إِسْلَامِي . قَالَ يَحْيَى بْنُ أَكْثَمَ : فَحَجَجْتَ تِلْكَ السَّنَةَ فَلَقَيْتَ سُفْيَانَ بْنَ عُيَيْنَةَ فَذَكَرْتَ لَهُ الْخَبَرَ فَقَالَ لِي : مُصَدِّقٌ هَذَا فِي كِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ . قَالَ قُلْتُ : فِي أَيِّ مَوْضِعٍ ؟ قَالَ : فِي قَوْلِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ : " بِمَا أُسْتَحْفَظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ " الْمَائِدَةُ : ٤٤ ، فَجَعَلَ حِفْظَهُ إِلَيْهِمْ فَضَاعَ ، وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ : " إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ " فَحَفِظَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْنَا فَلَمْ يَضِعْ . وفي هذه الآية أحد عشر تأكيداً (إِنَّ الْمَشْدَدَةَ وَنَا الدَّالَّةَ عَلَى الْجَمْعِ ، وَضَمِيرَ الْعِظْمَةِ نَحْنُ ، وَالتَّضْعِيفُ فِي نَزَلٍ وَنَا الدَّالَّةَ عَلَى الْجَمْعِ ، وَتَعْرِيفُ الذِّكْرِ ، وَإِنَّ الْمَشْدَدَةَ وَنَا الْجَمْعِ ، وَتَقْدِيمُ مَا حَقُّهُ التَّأْخِيرُ " لَهُ " فَالْجَارُ وَالْمَجْرُورُ حَقُّهُمَا أَنْ يَتَأَخَّرَا عَنْ الْخَبَرِ حَافِظُونَ ، وَلَامُ حَافِظُونَ وَيُسَمُّوْنَهَا الْمَرْحَلَةَ ، وَوَاوُ الْجَمْعِ فِي قَوْلِهِ لِحَافِظُونَ) فَهَذِهِ الْآيَةُ سَبْعَ كَلِمَاتٍ فِيهَا أَحَدُ عَشَرَ تَوْكِيداً ، وَكَلَامُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَا يَحْتَاجُ تَوْكِيداً ، فَاللَّهُ - سُبْحَانَهُ - أَصْدَقُ الْقَائِلِينَ ، فَكَيْفَ إِذَا أَكَدَهُ ، أَوْ كَانَ فِيهِ هَذَا الزَّخْمُ مِنَ التَّوْكِيدِ؟

٦- التفكير والتدبر غذاء القلوب والعقول ، فترى القرآن الكريم يرشدنا إلى بديع الصنع من سماء وأرض وجبال وشجر وماء وزرع وحيوانات وحياة وموت . وهذا التفكير في أنفسنا وما حولنا دليل على وجود الإله الخالق الحكيم الذي أحسن كل شيء خلقه ، وبدأ خلق الإنسان من طين . ومن تفكير وتدبر وتابع المسيرة الكونية اهتدى إلى الحق ضمن قواعد منطقية متسلسلة الحلقات ، فأول هذه القواعد: أنا أفكر ، فأنا موجود ، وهذه القاعدة سرقتها الفيلسوف " ديكارت " من الفيلسوف المسلم " ابن سينا " فعرفت للأول وهي للثاني وقد سبقه إليها بقرون عديدة . وثاني هذه القواعد أنه لا بد لكل حادث من محدث ، فما نحن وما حولنا إلا مخلوقات كانت في طور العدم ، وسنعود للعدم ، ونحن لا نملك لأنفسنا موتاً ولا حياة ولم نكن نعلم متى سنوجد ولن نعلم متى نعود للفناء ، وهذه الدورة الحيوية لم تأت من فراغ ، فقانون الصدفة ضعيف متهاوٍ لا يثبت على حال ، ولا يقول به عاقل . وثالث هذه القواعد : ما له بداية له نهاية . وهذا أمر بدهي ، فنحن نرى نبات الأرض ودولة الليل والنهار والأطوار التي يمر بها الإنسان ولادة وحياة وموتاً ، وما يدعي أحد أنه كان منذ الأزل وأنه باق إلى الأبد

. وهؤلاء آباؤنا وأجدادنا قضوا ونحن على إثرهم راحلون شئنا أم أبينا . وتعال معي نتدبر هذه الآيات

في هذه السورة الكريمة نتابع فيها قدرة الله وبديع صنعه سبحانه

وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ (١٦)

وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ (١٧)

إِلَّا مَنْ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَاتَّبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ (١٨)

وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ (١٩)

وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ (٢٠)

وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ (٢١)

وَأَرْسَلْنَا الرِّيَّاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ (٢٢)

وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ (٢٣)

سماء عالية ، وقبة سامقة لا يحدها النظر فيها شمس وقمر ، ونجوم لا يُحصى عددها تبهر الناظرين

تسير بنظام محكم وترتيب رائع ، ثم شهب تخر من السماء بسرعة إلى الأرض فلا تؤذي من فيها تمنع الشياطين أن تسترق السمع .

وأرض ممتدة موزونة ، فيها الجبال الشاخحة ، والأنهار المتدفقة ، والبحار الهادرة ، واليابسة الممتدة ،

أشجار وزروع ، وخضرة وصفرة ، وترتيب عجيب لصيف وشتاء ، وربيع وخريف ، وثمار تتجدد كل فصل

بما يناسبه وكل سنة في الميعاد نفسه ، وحيوانات لخدمة البشر وأكل لحوم بعضها، ومواسم الأمطار ،

وتشكل السحب ، والرياح اللواقح ... ألا يدل كل هذا على مدبر الكون وخالقه؟! عجيب أمر البدوي

الذي نطق الحكمة فقال : البعرة تدل على البعير، والماء يدل على الغدير، والأقدام تدل على المسير، أسماء

ذات أبراج، وأرض ذات فجاج ، ألا تدلان على الحكيم الخبير!؟.

بلى إنه الله الذي لا إله إلا هو ، به آمنة ، وعليه توكلنا ، وإليه أنبنا



تأملات في سورة الحجر (٢)

١ - قد يكون التكريم هبة وتفضلاً وقد يكون ثواباً وجزاءً وقد يكون للأمرين كليهما . وقد الله تعالى أراد للإنسان المسلم المؤمن بشخص آدم عليه السلام أن يكرمه ابتداءً ، فخلقه بيديه سبحانه . وهذا أعظم تكريم للمخلوق أن يصنعه خالقه بيديه ، ولذا وبّخ الله سبحانه إبليس حين امتنع عن السجود لآدم " ما منعك أن تسجد لما خلقت بيديّ ؟ أستكبرت أم كنت من العالين ؟ " ٧٥ ص " فالله سبحانه وتعالى أعلم الملائكة قبل خلق آدم عليه الصلاة والسلام بأنه سيخلق بشراً من صلصال من حمإ مسنون ، وتقدم إليهم بالأمر : متى فرغ من خلقه وتسنوئته ، فليسجدوا له إكراماً وإعظاماً واحتراماً وامثالاً لأمر الله عز وجل . فامثل الملائكة كلهم ذلك سوى إبليس الذي كان من الجن فخان طبعه وجبلته فاستنكف عن السجود لآدم وخاصم ربه عز وجل فيه وادّعى أنه خير من آدم فإنه مخلوق من نار وآدم خلق من طين ، والنار - بزعمه - خير من الطين " قال : أنا خير منه ، خلقتني من نار ، وخلقته من طين " ٧٦ ص " وقد أخطأ في ذلك ، وخالف أمر الله تعالى وكفر بذلك فأبعده الله عز وجل ، وأزعم أنه وطرده عن باب رحمته ومحل أنسه وحضرة قدسه وسماه إبليس إعلماً له بأنه قد أبلس من الرحمة ، وأنزله من السماء مذمومًا مذخورًا إلى الأرض . فليست الكرامة للمادة والجنس أو القوة والغنى ، إنما الكرامة للتعوى والصلاح وفي هذه السورة يستنكر إبليس أن يكون الطين خيراً من النار " قال : أم أكن لأسجد لبشر خلقت من صلصال من حمإ مسنون " فلعله الله إلى يوم الدين وأخرجه من رحمته . والعجيب أن بعض البشر يحقرون أباهم آدم ، ويقرّون لعدوهم إبليس بالتقدم والصدارة ، فهذا بشار بن برد " علمانيّ الأمس " يقول بصلافة ووقاحة :

إبليس خير من أبيكم آدم فتنبهوا يا معشر الفجار
النار معدته وآدم طينة والطين لا يسمو سُمُو النار

والفجور - كما ذكر الشاعر نفسه - خروج على الحق ، ووقاحة في التصرف ، وإصرار على السفاهة والتفاهة ، ومخالفة للحق وأهله . فهنيئاً له انتسابه لإبليس وصحبته إياه .

٢ - يُبرز الحوار الفكرة ممزوجة بالصوت ، فتسمع الكلام ، ويُصوّر الحوار ، فتري شخصاً المتكلمين ، أما سماعك لله تعالى ورؤيتك له سبحانه فذلك بقلبك البصير المتعبد له ، وشغاف فؤادك

المتعلق به ، المحب له ، جل في علاه . وأما رؤيتك لإبليس وسماعك إياه فسماع القالي النافر من الكافر المتغطرس الذي دعاه استعلاؤه أن يكون وقود النار وإمام الفجار إليها والعياذ بالله .

فالحوار صوت تسمعه ، وصورة تلازم الصوت ، ونقاش دائر بين طرفين أولهما الحق كله ، وثانيهما الباطل كله ، لكن الأمر الإلهي كان للملائكة الأبرار الأطهار ، وكان إبليس الجنيّ معهم فشمله الأمر ، وكان عليه الطاعة فأبى الأمر الذي أورده الخلود في النار والعذاب الشديد .

إن الحوار يثبت المعلومة ، ويوضح الفكرة ، ويستعمل أكثر من حاسة في التعامل مع الفكرة وهضمها .

" - وإذ قال ربك للملائكة : إني خالق بشراً من صلصال من حمإ مسنون ، فإذا سَوَّيْتُهُ ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين .

- فسجد الملائكة كلهم أجمعون . إلا إبليس أبى أن يكون مع الساجدين .

- قال : يا إبليس ؛ ما لك ألا تكون مع الساجدين ؟

- قال " لم أكن لأسجد لبشر خلقتَه من صلصال من حمإ مسنون .

- قال : فاخرج منها ، فإنك رجيم ، وإن عليك اللعنة إلى يوم الدين .

- قال: ربّ ؛ فأنظرنى إلى يوم يُبعثون .

- قال: فإنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم .

- قال : ربّ بما أغويتني لأزيتنّ لهم في الأرض ، ولأغوينّهم أجمعين ، إلا عبادك منهم المخلصين .

- قال : هذا صراطٌ عليّ مستقيم ، إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتّبعك من الغاوين

. وإن جهنّم لموعدهم أجمعين . لها سبعة أبواب ، لكل باب منهم جزء مقسوم . "

وإني لأتعجب من إبليس الذي عرف أنه أخطأ حين عصى ربه وهو يعلم أنه مخلوق ضعيف عقابه

الخلود في جهنم ، كيف لم يتدارك الأمر ، فيستغفر ربه حال خطئه ويتمرّع في أعتاب سيده يرجوه الصفح

والعفو . كيف - وهو الخاسر نفسه في أتون النيران اللاهبة إلى أبد الآبدين يستمر على خطئه ويُصر عليه،

ويتحدّى ربه سبحانه في إضلال البشر ودفعهم معه إلى النار ؟ ما أغناه عن هذا المصير الرهيب الذي ينتظره

ولو أخذ معه البشر كلهم إلى جهنم ! كيف استمر متحدياً ، وطلب أن يبقى إلى اليوم المعلوم ؟ ألم يعلم -

وقد كان طاووس الملائكة - أنه لن ينفعه الخلود في الدنيا من المصير الكئيب الذي ينتظره في ذلك اليوم الطويل وما بعده من هوان وذل وعذاب وقهر؟! أم إن التكبر والتعاضم - مع الغضب - يأخذان باللب ، ويعصفان بالعقل حتى يسقط صاحبهما خزيان مرذولاً؟! فيطلب ما لا فائدة منه ولا طائل من ورائه .

ألم يشعر وهو يعيش آلاف السنين بلظى النيران التي اطلع عليها تحرق جسده بمجرد أن يتذكر ذلك؟ وتأكل قلبه وكأنه واقع فيها قبل أن يصلها؟! ألم يخطر بباله طيلة هذا الزمن الممتد أن يستغفر ربه؟ أم إن القدر وقع ، ولم يبق أمامه إلا أن يستمر في المهمة التي احتملها؟ !

خواطر قد تتراءى لغيري كما تراءت لي ، ولكن مشيئة الله سبحانه نافذة لا مفر منها ، نسأل الله السداد والرضا وحسن الختام .

٣- أما التشويق فأسلوب يدخل الصدور مع النسيم ، والقلوب مع ذرات الأوكسجين ، والعيون مع أول شعاع ضوء ، والأبدان مع أول رعشة من رعشاتها . وهو أسلوب محبب إلى النفوس يحرك الرغائب ، فيمسي الصعب سهلاً ، والعزير يسيراً .

يشوقنا الله تعالى إلى الجنة مأوى المتقين بعد محاورة صوّرت مصير الفسقة المجرمين في جهنم ذات الأبواب السبعة الموصدة .. فإذا الجنة ذات عيون متفجرة هنا وهناك ، " إن المتقين في جنات وعيون " والمسلمون يدخلونها معززين مكرّمين " ادخلوها بسلام آمين " امتلأت قلوبهم بالحب ، وغاب عنها الحسد والغيرة والنميمة والكذب والشحناء والبغضاء .

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : أَوَّلُ مَا يَدْخُلُ أَهْلَ الْجَنَّةِ الْجَنَّةُ تَعْرِضُ لَهُمْ عَيْنَانِ ، فَيُشْرِبُونَ مِنْ إِحْدَى الْعَيْنَيْنِ فَيُذْهِبُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ مِنْ غِلٍّ ، ثُمَّ يَدْخُلُونَ الْعَيْنَ الْأُخْرَى فَيَغْتَسِلُونَ فِيهَا فَتُشْرِقُ أَلْوَانُهُمْ ، وَتُصَفُّوْهُم ، وَتَجْرِي عَلَيْهِمْ نَضْرَةُ النَّعِيمِ ؛ ..

في الجنة الحبُّ والطهارة والأمن والأمان " ونزعنا ما في صدورهم من غل ، إخواناً على سرر متقابلين " قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : (عَلَى سُرَرٍ مُكَلَّلَةٍ بِالْيَاقُوتِ وَالزَّبَرْجَدِ وَالذُّرِّ) ، ينظر بعضهم إلى وجوه بعض تواصلًا وتحبُّبًا ؛ وتدور الأسرة كيفما شاءوا ، فلا يرى أحدٌ قفاً أحد ، قَدْ أَقْبَلَتْ عَلَيْهِمُ الْأَزْوَاجُ وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِنَّ بِالْوَدِّ . " لا يمسهم فيها نصب " فلا مشقة في الجنة كما قال النبي صلى الله عليه وسلم مخاطباً أَمَّنَا خديجة رضي الله عنها كما في الصحيحين " إِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي أَنْ أُبَشِّرَ خَدِيجَةَ بِنَيْتٍ فِي الْجَنَّةِ مِنْ قَصَبٍ لَا

صَحَبَ فِيهِ وَلَا نَصَبَ " " وما هم منها بمخرجين " وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم يؤكد هذا المعنى " يُقَالُ يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ إِنَّ لَكُمْ أَنْ تَصِحُّوا فَلَا تَمْرُضُوا أَبَدًا وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَعِيشُوا فَلَا تَمُوتُوا أَبَدًا وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَشَبُّوا فَلَا تَهْرُمُوا أَبَدًا وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تُقِيمُوا فَلَا تَطْعَنُوا أَبَدًا " .

٤ - الترغيب والترهيب من أعظم اساليب التربية كما ذكرنا سابقاً ، ولا بد من الإعذار والإنذار الذي نجده في قوله تعالى " نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ، وَأَن عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ " والتبليغ واجب الرسل والأنبياء والدعاة كلهم .

ولا يُذكر النبأ دون الخبر إلا للأمر العظيم . وهل أعظم من رحمة الله ومغفرته في مرضاته والعمل بأمره ، والانتفاء عن نواهيه؟ وهل أشد من عقابه حين يغضب فيأمر ملائكته بعقاب المجرمين ؟ نسأل الله رضاه والجنة " قل هو نبأ عظيم أنتم عنه معرضون " وهو نبأ اليوم الآخر والحساب والعقاب ، وكذلك قوله في سورة عمّ " عمّ يتساءلون ؟ عن النبيا العظيم الذي هم فيه مختلفون " كما أن نزول الملائكة الكبار على إبراهيم عليه السلام كان نبأ عظيماً ، ثقّد فيه دمار قوم لوط فقتلوا عن بكرة أبيهم ، لفحشهم ، وازدياد فسادهم ، والتبجح في ذلك والإعلان به جهاراً نهاراً . فقد جاءه قومه حين رأوا الملائكة صباح الوجوه ، يريدون اللواط بهم . ، فلما حاول منعهم ، وطلب أن لا يفضحوه في ضيفه ، وأن يتقوا الله في أفعالهم كان جوابهم غاية في الوقاحة والفجور : ألم نمنعك أن تُكَلِّمَنَا فِي أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ إِذَا قَصَدْنَاهُ بِالْفَاحِشَةِ ؟! " أولم ننهك عن العالمين " فلما نبههم إلى نِسَائِهِمْ وَأَنهَضَ الطَّهْرَ وَالْعِفَافَ ، وأرشدهم إلى مَا خَلَقَ لَهُمْ رَحْمَ مِنْ النِّكَاحِ الْمُبَاحِ - وَهُمْ غَافِلُونَ عَمَّا يُرَادُ بِهِمْ وَمَا قَدْ أَحَاطَ بِهِمْ مِنَ الْبَلَاءِ وَمَا يُصْبِحُونَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُنتَظَرِ سَخَرُوا مِنْهُ ، ولم يَرَعَوْا ، فكان الانتقام منهم رهيباً . ومن يسر على نهجهم ، ويرتكب جنايتهم عوقب عقاباً شديداً ، ودمره الله دماراً كبيراً .

٥ - دعوة إلى التفكير قد يرى الإنسان آثار السلف من أحجار وعُمد ومسارح وملاعب ، فيدخلها متمتعاً بما يرى من حضارة سلفت ، يراها بعيني رأسه دون أن يفكر معتبراً بما آلا إليه من هلاك ودمار . ويمضي مبتهجاً أنه عاش سويعة بين قوم سبقوه بآلاف السنين ، ويرى ذو البصيرة هذه الآثار بعيني قلبه وإيمانه الشفاف ، فيعلم أن القوم كفروا بالله ورسله فأرسل عليهم رسل الهلاك من رياح وأمطار وزلزلة ، فأخذهم أخذ عزيز مقتدر ، فتفكر الزائر وتدبر واتعظ مما رأى ذاك مرّ بجسمه ، فكأنه لم يمرّ ، وهذا مر

بإحساسه وبقينه فحمد الله أنه ذاق فعرف . هذا هو المتوسّم الذي يتأمل ويتفرّس فيستفيد ويتعظ ، ويتفكر ويعتبر . ذاك لم يستفد من زيارته هذه ، وهذا رأى بعين عقله وبصر فؤاده " إن في ذلك لآيات للمتوسمين " و " إن في ذلك لآية للمؤمنين " . وقد كان قوم لوط وأصحاب الأيكة من بعدهم - وقد ظلموا أنفسهم ولم يتعظوا بمصائر قوم لوط - قرييين في الزمان والمكان ، وكان العرب من أهل مكة وغيرها يملكونهم - على آثامهم - ، فدعاهم القرآن للاعتبار بمصائرهم " وإنها لبسبيل مقيم " و " إنهما لبإمام مبين " وطريق واضح يراه كل مسافر إلى بلاد الشام وعائد منها .

وهؤلاء قوم عاد - أصحاب الحجر - كذبوا رسولهم هوداً عليه السلام ، ومن كذب رسولاً واحداً فقد كذب المرسلين جميعاً " كذب أصحاب الحجر المرسلين " وقد كانوا أقوياء ، فقالوا لنبيهم " من أشد منا قوة " ونسوا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة . وكفروا ، وعتوا عن أمر ربهم ، فدمرهم تدميراً " إنا أرسلنا عليهم ريحاً صرصراً في يوم نحس مستمر ، تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر " واتخذوا من الجبال بيوتاً " ففتحوها " كانوا ينحتون من الجبال بيوتاً آمنين " فهل أغنت عنهم قوتهم التي اعتدوا بها ؟ " فأخذتهم الصيحة مصبحين ، فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون "

العاقل من اتعظ بغيره ، والسفيه من اتعظ بنفسه ، والغبي من يعيش عيشة البهائم لا يدري من الأمور شيئاً .

٦- بعض صفات الداعية " في كل سورة نجد صفات للدعاة إلى الله تعالى ، وفي هذه السورة

المباركة نجد روائع منها ، هي :

أ- أن يعفو ويصفح . فهو - الداعية - ذو القلب الكبير الذي يتحمل الغلاظ قساة القلوب ،

أما الحساب ففي اليوم الآخر حيث لا يضيع عند الله مثقال ذرة . " فاسفح الصفح الجميل "

ب- وأن يكون القرآن على لسانه وفي قلبه يغترف منه كل آن وحين " ولقد آتيناك سبعاً من

المثاني والقرآن العظيم " ومن رزقه الله حفظ القرآن وفهمه ، فقد أوتي خيراً كثيراً . روى القرطبي رحمه الله :

أنه وافى سبع قوافل من بصرى وأذرعات ليهود قريظة والنضير في يوم واحد ، فيها البر والطيب والجواهر

وأمتعة البحر ، فقال المسلمون : لو كانت هذه الأموال لنا لتقوينا بها وأنفقناها في سبيل الله ، فأنزل الله

تعالى : " ولقد آتيناك سبعاً من المثاني " فهي خير لكم من القوافل السبع ، فلا تمدن أعينكم إليها .

ت- أن يكون واقعياً وأن تكون الآخرة همه ، إن الدنيا ذاهبة ، والأخرى باقية " لا تمدّن عينيك إلى ما متّعنا به أزواجاً منهم " .وقد تُهي الرجل أن يتمتّى ما لصاحبه حسداً لا غبطة . وأن عليه أن يطلب ما عند الله . ولا شك أن الإنسان يحب في الدنيا ما دام فيها أموراً وأشياء على أن لا تكون همّه الذي يحزن إن فاته ، فهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " (حُبِّبْ إِلَيَّ مِنْ دُنْيَاكُمْ النَّسَاءَ وَالطِّيبَ وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ) ، وَإِنَّمَا شَرَعَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ حَنِيفِيَّةً سَمَّحَةً خَالِصَةً عَنِ الْحَرْجِ ، خَفِيفَةً عَلَى الْآدَمِيِّ ، يأخذ من الآدمية بِشَهَوَاتِهَا وَيَرْجِعُ إِلَى اللَّهِ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ .

ث- أن يلين جانبه لمن آمن به ويتواضع لهم ، فهم إخوانه وعيئته " واخفض جناحك للمؤمنين " ومن الخطأ أن يتكبر المسلم على الناس جميعاً ، وإخوانه أجدد ببه وتحميه إليهم .

ج- أن يكون صريحاً وجريئاً في الدعوة إلى الله تعالى ، يعلن ذلك على الملأ ويلتزم بما يدعو إليه " وقل إني أنا النذير المبين " والصادق في دعوته من قرن القول بالعمل . وكان مثلاً يُحتذى . ويؤكد هذا الآية الكريمة " فاصدع بما تؤمر " .

ح- إن ضيق الصدر ينتج عن إعراض المدعو عن الداعي والدعوة ، فيتكاسل الداعية ، ويقصر عن القيام بها ، فإذا أحس بذلك لجأ إلى تسبيح الله واللجوء إليه والاجتهاد في الطاعة ، فيفرّج الله عنه ضيقه، ويمدّه بشحنة قوية تعينه على الاستمرار في مهمته الدعوية " ولقد نعلم أنه يضيق صدرك بما يقولون، فسبح بحمد ربك ، ومن من الساجدين ، واعبد ربك حتى يأتيك اليقين . "

٧- يعتقد بعض المنحرفين أنهم إذ عبدوا الله وتلذذوا بعبادته ووصلوا إلى اليقين والإيمان سقط عنهم التكليف . ويستشهدون بقوله تعالى " واعبد ربك حتى يأتيك اليقين " هؤلاء استحوذ عليهم الشيطان ووثقهم بجباله ، فأنسأهم ذكر الله . واليقين هنا الموت . والدليل عليه قول الله تعالى في سورة المِثْر: " قالوا ما سلككم في سقر ؟ قالوا : لم نكُ من المصلين ، ولم نكُ نطعم المسكين ، وكنا نخوض مع الخائضين ، وكنا نكذب بيوم الدين حتى أتانا اليقين ، فما تنفعهم شفاعة الشافعين ، فما لهم عن التذكرة معرضين كأنهم مُحَرَّمُونَ مستنفرة ، فرّت من قسورة ؟ " ولو أن اليقين الذي قصدوه هو الذي أتاهم لنفعتهم شفاعة الشافعين !! ثم إن قدوتنا الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم يقول " وجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ " .

وهل يرضى المؤمن أن يترك الصلاة وهي دليل صلته بالله تعالى ، وهي الركن الثاني من أركان الإسلام ، والفصل بين المسلم وغيره .

نسأل الله تعالى الإيمان الخالص والثبات عليه ، وصحبة الأبرار ، ورضاه والجنة .



تأملات تربوية في سورة الكهف

مقدمة:

تقوم سورة الكهف على أربعة محاور :

المحور الأول : الإيمان ، ويمثله قصة أهل الكهف الذين هجروا الدنيا مالأً وجاهاً على ان يكونوا من أهل الآخرة ابتداءً وانتهاءً ، فالمرء يبتغي من عمله وهو يعيش الدنيا الوصولَ إلى الحياة الدائمة ، فهي الحياة الحقيقية التي يجعلها الإنسان نصب عينيه ، حيث لا موت بل خلود في جنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين.

المحور الثاني: المال، ويمثله قصة صاحب الجنة _ الذي بذل جهده في زراعتها والاعتناء بهما ، ففتنه الله تعالى بهما إذ أنكر وجود الخالق والآخرة والجنة ، فعاش للدنيا الفانية وعدّها الهدف والغاية .

المحور الثالث: العلم ، ويظن المرء حين يملك أسباب العلم أنه برّ الجميع ، فما من أحد أكثر منه علماً ، وقد ينسى الآية الكريمة " وفوق كل ذي علم عليمٌ " فيدّعي أنه ملك - مع ناصية العلم- كلّ العلوم، ورأى نفسه فوق الجميع فهماً وعلماً ، مع أن النبيين الكريمين داوود وابنه سليمان عليهما السلام أوتيا بعض العلم - وإن كان كثيراً - فأقرا أنّهما أوتياه بقدر - وهذا ما نفهمه من تنكير : علم حين شكرا فضل الله عليهما " ولقد آتينا داود وسليمان علماً .. " فكانت قصة سيدنا موسى مع الخضر عليهما السلام مثال هذا المحور.

المحور الرابع : القوة، ويمثله ذو القرنين الذي طوى الله تعالى له الأرض شرقاً وغرباً وملّكه العالم فكان داعية رائعاً ، ولم تجعله القوة (طاغية) فاسداً إنما كان الرجل المؤمن الذي يبذل قصارى جهده لدعوة الناس إلى ربهم وخدمتهم والتقرب إليهم. وهكذا ينبغي أن يكون الحاكم المسلم .

المحور الأول: تأملات تربوية في قصة أهل الكهف

المتأمل في سَوقِ القصة يجدها جواباً لما ذُكر في افتتاحية السورة ودليلاً على صحته وإمكانِ حدوثه .
ففي المقدمة أولاً: تنبيهه إلى العقاب الشديد للكافرين_ " لينذر بأساً شديداً من لدنه " وفيها ثانياً : مدح
وبشرى لمن آمن وعمل صالحاً " ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً حسناً " . وفيها ثالثاً
: أن الحياة دار ابتلاء : " إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملاً " وفيها رابعاً: أنه
سبحانه يعيد الأرض كما كانت لا نبات فيها ولا عمارة : " وإنا لجاعلون ما عليها صعيداً جرزراً " .
وجاءت القصة تحمل في حناياها آداباً تربوية رائعة بحملها فيما يلي :

١- ليس في قصة أصحاب الكهف عجب ، فقدرة الله تعالى لا حدود لها ، وخلق السماوات
والأرض أكبر من خلق الناس . ولئن عجب الكفار من بعثهم بعد الموت إن الأنبياء وأولي البصائر
يدركون قدرة الله عز وجل ، فيزيدهم ذلك إيماناً " أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من
آياتنا عجباً ؟ "

٢- اللجوء إلى الله تعالى سمة المؤمن ، فهو سبحانه عونهُ ونصيره " ربنا آتنا من لدنك رحمة
وهيئ لنا من أمرنا رشداً " فلما لجؤوا إليه داعين ، وأسلموا قيادهم له سبحانه واعتمدوا عليه آواهم الله
وحفظهم إذ دلهم على الكهف ، وأغدق عليهم مما طلبوا من الرحمة والهدى والرشاد " فأووا إلى الكهف
ينشر لكم ربكم من رحمته ، ويهيئ لكم من أمركم مرفقاً " ولا حظ معي التوافق بين الإيواء إلى الله
سبحانه ونشر الرحمة . وهكذا العلاقة بين العبد وربهِ . ومن لجأ إلى ربه واعتمد عليه ثبته الله وأيده "
وربطنا على قلوبهم " .

حين أوى الفتية إلى الكهف ، لم يسألوا الله النصر ولا الظفر ولا التمكين !..

قالوا : (ربنا آتنا من لدنك رحمة و هيئ لنا من أمرنا رشداً) سألوه الرحمة والرشد.

الرشد : إصابة وجه الحقيقة - وهو السداد . . وهو السير في الاتجاه الصحيح . . ،

فإذا ملكك الرشد ، فقد ملكك النصر ولو بعد حين، و بهذا يوصيك الله فتقول (و قل عسى

أن يهدين ري لأقرب من هذا رشداً) . .

إنك تختصر المراحل . . و تختزل الكثير من المعاناة . .

وتعاضم لك النتائج حين يكون الله لك (وليا مرشدا) . .

٣- القصة في القرآن حق لا مرأ فيه " نحن نقص عليك نبأهم بالحق " وقد ادعى طه حسين أن قصة إبراهيم وغيرها في القرآن ليست على سبيل الحقيقة إنما على سبيل العبرة والعظة فقط . وهو بذلك ينفي حقائق التنزيل " نحن نقص عليك أحسن القصص " وأحسن القصص ما كان حقيقة . وعلى هذا نفهم قوله تعالى " إن هذا هو القصص الحق " فما ورد في القرآن الكريم حق لا مرأ فيه .

٤- للشباب الدور الكبير في نشر الدعوة والذود عنها . فإيمان الشباب اندفاعي قوي " إنهم فتية آمنوا بربهم ، وزدناهم هدى " ويصدعون بالحق " إذ قاموا فقالوا : ربنا رب السماوات والأرض " ويعلنون دعوة التوحيد بثبات " لن ندعو من دونه إلهاً " من أشرك فقد تطاول على الحق وابتعد عنه " لقد قلنا إذا شططاً " . وهنا نلاحظ في كلمة الشطط التشنيع على المتطاولين الذين يغيرون الحقائق وينشرون الباطل .

٥- لا بد لكل فكرة أو مبدأ من دليل أو برهان وإلا سقط في أول لقاء " لولا يأتون عليهم بسطان بين " وإذا لم يكن هناك حجة قوية أو دليل ساطع فهو ضعيف ، ولن تقنع أحداً بفكرتك إن لم تؤيدها بالنور الساطع الذي يكشف الغشاوة عن العيون وينير سبيل الحق . أما فرض الفكرة بالقوة والإرهاب المادي فدليل على الإفلاس وضحالة ما تدعو إليه ويُعدّ افتئاتاً على الحق وظلماً له " فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً " فالميل عن الحق افتراء على الله وتضليل للناس .

٦- يعلمنا الله تعالى بقوله : " فأووا إلى الكهف " اعتزال الناس في الفتن ، وقد يكون مرة في الجبال والشعاب ، ومرة في السواحل والرباط ، ومرة في البيوت وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : " يأتي على الناس زمان يكون خير مال الرجل المسلم الغنم يتبع بها شعف الجبال ومواقع القطر ، يفر بدينه من الفتن " ... ولعل هذا يكون في آخر الزمان عند مجيء المسيح الدجال ، أو عندما تشتد الفتن وتطغى . وقد جاء في الخبر : " إذا كانت الفتنة فأخف مكانك وكُفّ لسانك " ولم يخص موضعاً . . ومن هذا نفهم قول النبي صلى الله عليه وسلم لعقبة بن عامر حين سأله : ما النجاة يا رسول الله ؟ " يا عقبة أمسك عليك لسانك ، وليسعك بيتك ، وابك على خطيئتك "

وقد جعلت طائفة العلماء العزلة اعتزال الشر وأهله بقلبك وعملك إن كنت بين أظهر الناس . قال ابن المبارك رحمه الله في تفسير العزلة : أن تكون مع القوم ، فإن خاضوا في ذكر الله فحضر معهم ، وإن خاضوا في غير ذلك فاسكت . وروي عن النبي عليه الصلاة والسلام - من مراسيل الحسن - " نغم صوامع المؤمنين بيوثهم " اي وهم في مجتمعهم يدعونهم ويتعرضون إليهم بالنصح والموعظة ، فإن اشتدوا عليهم أووا إلى بيوثهم ، ثم عاودوا الكرّة . ويؤكد هذه الفكرة قول النبي صلى الله عليه وسلم : " المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم أفضل من المؤمن الذي لا يخالطهم ولا يصبر على أذاهم .

٧- لا بد من الجهر بالدعوة بين الناس لتصل إليهم ، وتكون حجة عليهم . ولنا في رسول الله ﷺ الأسوة الواضحة البينة ، ولنا بمؤلاء الفتية الأطهار القدوة الحسنة ، فحين سألوا الله القوة أمدهم بها " وربطنا على قلوبهم " فثبتهم على الحق فقاموا يدعون إليه سبحانه فأعلنوا عقيدة التوحيد خالصة دون لبس ولا خوف " .. إذ قاموا فقالوا : ربنا رب السماوات والأرض ، لن ندعو من دونه إلهاً .. " . فكانوا قدوة للدعاة يأتسونهم .. قالوها ، فخلداهم الله في كتابه الكريم إلى يوم القيامة .

٨- كما أن مقامهم في الكهف أكثر من ثلاثة قرون ، تميل الشمس عنهم حين طلوعها - ولا حظ كلمة تزاور الدالة على قدرة الله في حركة مخلوقاته - وانظر كلمة تقرضهم عند غروبها فلا تصيبهم البتة في حركتها بزوغاً وغروباً وقد قيل : تقرضهم : تنشر عليهم شعاعاً خفيفاً لإصلاح أجسادهم ، وهم في فجوة من الكهف لا يتأذون بقرّ ولا حرّ عيونهم مفتحة ، " و تحسبهم أيقاظاً وهم رقود " يحركهم الله تعالى كي لا تأكل الأرض أجسادهم " ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال " يحرسهم كلبهم في مدخل الباب ماداً قائمته كأنه حي متوثب " وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد " ... تصوير بديع لهم في رقدتهم الطويلة هذه التي توهم من يراهم أنهم أحياء .. مع إدخال الهيبة في قلوب من اطلع عليهم - إن اطلع - أن يتجاوزهم مبتعداً عنهم . مقامهم هذا دليل على قدرة الله تعالى في إمامتهم وحفظهم من التلف ، وإخافة من ينظر إليهم ، ثم على بعثهم .. فسبحان الله مالك الملك ، المتصرف في مخلوقاته كما يشاء .

٩- الحذر في كل حالات الحياة - حلوها ومرها ، أمنها وخوفها - مطلوب ، فالتخفي والكتمان والتلميح من أنواع الحذر . فماذا فعل الفتیان حين أحياهم الله تعالى ؟ شعروا بالجوع .. فقد استيقظوا بعد ساعات طويلة استغرقت يوماً أو بعض يوم - كما ظنوا - والطعام والشراب وسيلة الحياة . والعدو الذي

هربوا منه يطلبهم ويرسل العيون والجند بحثاً عنهم . فينبغي الحذر في التحرك . ماذا يفعلون ؟

- أرسلوا واحداً فقط يشتري لهم طعاماً فالواحد أقدر على التخفي ولا ينتبه له أحد . وهروبه أسهل إذا شعرت به عيون العدو وإذا وقع في أيدي الظلمة فهو فدائي واحد ، ولن تسقط المجموعة كلها .
- وأمروه باللطف في الشراء واللين في الطلب ، وليتكلم المختصر المفيد.
- وليكن تصرفه حكيماً وحركاته بعيدة عن الريبة لكي لا ينطبق عليه المثل القائل " كاد المريب أن يقول خذوني " .

- وليختار أطيب الطعام وأزكاه ، فالطعام الطيب الحلال أنفع للجسم ، وأرفع للروح.

صحيح أن الحذر لا ينجي من القدر لكن على الإنسان أن يأخذ بالأسباب ، ويعد للأمر عدته كي لا يُؤخذ على غرة ، فالعدو الذي لا يخاف الله تعالى لا يرحم " إنهم إن يظهروا عليكم يرجوكم أو يعيدوكم في ملتهم " ألم يعلن كبير المجرمين فرعون رغبته في قتل النبي موسى عليه السلام ؟ " ذروني أقتل موسى .. " مدعياً أنه بذلك يقضي على الفتنة ويحفظ الناس من الفساد؟! " إني أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر في الأرض الفساد "؟! . وقد دمغهم الله تعالى بالعدوان وكره المؤمنين ونقض العهود " لا يرقبون في مؤمن إلا ولا ذمة ، وأولئك هم المعتدون " وإذا قتل المسلم في سبيل الله فقد نال الشهادة ، أما إذا كان إيمانه ضعيفاً فلم يحتمل العذاب وكفر بدينه لينجو منه فقد خاب وخسر " .. أو يعيدوكم في ملتهم ، ولن تفلحوا إذا أبداً " .

١٠- لا ينبغي أن نمر على قصص القرآن مروراً سريعاً إنما يجب التفكير والتدبر للعظة والعبرة واستخلاص الدروس ، فتكون نبراساً نسير على هديه ونستضيء بنوره ، وإلا كنا كمثل الحمار يحمل أسفاراً . قال المفسرون : إن الملك الذي هرب الفتيان من ظلمه وبطشه مات ، ومات الكفر معه . وانتشر الإسلام في البلاد ، واختلف المؤمنون في طريقة البعث والنشور . فمن قائل تحشر الأرواح فقط ، ومن قائل يحشر الناس بأرواحهم وأجسادهم . فكان عثورهم على الفتية دليلاً على حشر الناس بأجسادهم وأرواحهم كما كانوا في الدنيا ، فالله قادر على كل شيء . هذا من ناحية . ومن ناحية أخرى كان بعث هؤلاء الفتية دليلاً باهراً على أن يوم القيامة حقيقة لا شك فيها " وكذلك أعثرنا عليهم ليعلموا أن وعد الله حق ، وأن الساعة لا ريب فيها " .

١١ - المرء في أمر لا فائدة فيه لا حاجة إليه . وقتك أيها المسلم ثمين ، وحديثك موزون ، ولن يزيدك علماً وفهماً أن تخوض فيما لا طائل له ، .. فماذا يزيدك لو عرفت عدد الفتية ؟ أو أسماءهم ، أو أعمارهم ؟ أو أعمالهم ؟ .. الفائدة المرجوة تجدها في أفعالهم وثباتهم على المبدأ وفرارهم بدينهم يحافظون عليه . وحذرهم في تصرفاتهم ، وأخوتهم في الله تعالى ...

١٢ - أمر أخير ينبغي الوقوف عنده ، هو تعليق الأمر بمشيئة الله " ولا تقولن لشيء : إني فاعل ذلك غداً إلا أن يشاء الله " فقد عاتب الله تعالى نبيه الكريم على قوله للكفار حين سأله عن الفتية والروح وذوي القرنين : غداً أخبركم بجواب أسئلتكم . ولم يستثن في ذلك ، فاحتبس الوحي عنه خمسة عشر يوماً حتى شق ذلك عليه ، وأرجف الكفار به . فنزلت عليه هذه السورة مفرجة ، وأمر في هذه الآية أن لا يقول في أمر من الأمور : إني أفعل غداً كذا وكذا إلا أن يعلق الأمر بمشيئة الله تعالى .



المحور الثاني : تأملات تربوية في (صاحب الجنتين)

كيف بدأ الحوار بين المسلم وصاحب الجنتين ، وماذا كانت النتيجة؟ إنه موقف تربوي رائع يعلمنا الوقوف على الحق والتزامه وإن جاء الموقف متأخراً ، كل خطأ يمكن تلافيه ما لم نغرر.

١- ضرب المثل: إن ضرب المثل كما مر معنا في وقفات كثيرة يُجَلِّي الموقف ويوضح الفكرة ويقرِّبها إلى الأذهان ، وكان ضرب المثل هنا توضيحاً لمعنى الآيات التي سبقت القصة :

فلا بد من مصاحبة المؤمن الذي يدعو ربه في كل حالاته وكل وقته (يدعو ربه بالغداة والعشي)، فهو - سبحانه - نصب أعينهم وقلوبهم معه يرجون لقاءه ويسعون إلى مرضاته ، لا يعيرون الحياة الدنيا ولا زينتها اهتماماً ، ولا يأبجون للمتاع الدنيوي ، همُّهم الآخرة والوصول إليها ، ويعلمون ان الحق من ربهم فيلتزمونه يرجون رحمته ويخافون عذابه فهم بين رجاء وخوف ، يعلمون أن من ظلم وكفر أحاطت به النار فلا مهرب منها ومن آمن وعمل صالحاً كان من الفائزين الناجين

٢- وضوح التصوير ودقته: فللكافر جنتان كاملتان في توزيع الشجر والأعنان والزرع ، وثمارهما كثيرة يانعة :

أ- فيهما أنواع الاعناب من كرز وعنب وخوخ و..

ب- حولهما سور من النخيل المغدق الثمر يحميها من الهواء والأتربة ويلطف حرارتها.

ت- بين الأعناب والنخيل أنواع الزرع ذات المحصول الوافر.

ث- استفاد صاحبهما من كل شبر فيهما فاستثمره واستفاد منه.

ج- أغدقتا ثمارهما فكثرت في كل أيام السنة .

ح- وتفجر خلالهما نهر يتلوى في أنحائهما يمنة ويسرة ، وشمالاً وجنوباً .

إنها صورة واضحة ودقيقة المعالم لهاتين الجنتين اللتين اتسمتا بكثرة خيرهما ، فهل حمد الرجل ربه وشكره

أو تراه كفره وأنكره؟! وهل أحسن للناس فأكرمهم وتواضع لهم ، أو تراه تكبر وافتخر ، وتعالى وتجبر؟!!

٣- الحوار : أسلوب اتصال يجمع بين المراجعة والنقاش للوصول إلى الحقيقة أو الأكثر صواباً ،

وقد يكون بين مختلفين فكراً ومنهجاً وأسلوباً ، أو بين متفقين فكراً ومختلفين منهجاً وأسلوباً ، أو بين

متفقين فكراً ومنهجاً وختلفين أسلوباً . أما هنا فالاختلاف في كل النواحي فهو حوار بين كفر وإيمان ، فلا بد من تباين المنهج والأسلوب كذلك.

والحوار يعتمد السماع والرؤية ، وله جمهور يتابع طرقي الحوار ويميل إلى هذا أو ذاك حسب الاهتمامات المتعددة والمشارب المختلفة .

والحوار هنا بين صاحب الجنة الكافر الذي ظلم نفسه بالكفر وتناسى فضل الله عليه وأنكره، وتمادى في التكبر على صاحبه ولم يُراعِ حسن الضيافة وأنكر البعث والنشور واستبعد هلاك نعيم جنتيه اللتين بذل فيهما جهده لتكونا على ما هما عليه ومن خير وفيه وجمال أخاذ.

الكافر يستبعد فناء الجنتين وينكر يوم القيامة ثم يقيس - خطأ - غناه في الدنيا بوجوب إكرامه في الآخرة - إن كان هناك آخرة، حسب زعمه - فهو يعتقد أن الغني يبقى على كل أحواله هكذا وأن سعيد الدنيا لا بد أن يكون سعيداً في كل أحواله!.

ونرى المسلم يجب بقوة وفهم لمعاني الحياة :

أ- لا وجود إلا بواجد ،ويذكر القاعدة الأصلية (لا بد لكل حادث من مُحدث).

ب- إن الكفر بالخالق إغلاق للفهم وعودة للبهيمية الأولى.

ت- إن العاقل يفكر تفكيراً سليماً فيصل إلى حقيقة الوجود ويعلم حق ربه في العبادة.

ث- والعاقل من يشكر المحسن إليه ويقر بفضلله.

ج- والمسلم العاقل يعلن بإصرار وإيمان ثابت ولاءه لله تعالى وأنه عبد من عباده.

ح- والعاقل - كذلك - لا ييطر ، فالبطر ظلم الحق وحيّدة عن السبيل.

خ- من بارى الله تعالى وحاربه خسر وخاب وندم حيث لا ينفع الندم.

د- ومن لجأ إلى مولاه كفاه وأكرمه .

ذ- ولا بد أن يُعاقب الجاحد إن عاجلاً أو آجلاً.

ر- يدعو على الظالم - إن أصر على فساده، والدعاء سلاح المؤمن

٤- حسن الأدب: من الأدب أن يتواضع الرجل لضييفه ويظهر له الاحترام ويقدمه على نفسه

في الفضل ما دام عنده وأن يكلمه بلباقة ويتودد إليه ، هذا أقل ما يُقال في حسن الأدب ،

لكننا نرى صاحب الجنتين يفجأ صاحبه وهما يدخلان الجنتين _ بالتعالي عليه والفخر بماله وكثرة أتباعه : " أنا أكثر منك مالاً وأعز نفراً " وليست وفرة المال ولا كثرة الاتباع برفع أحداً مكانةً ، ولا معزاً قدراً ، وهذا ما نعه القرآن على هؤلاء حين قال في سورة الفجر " فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول : ربي أكرمّن ! وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول : ربي أهاننّ " فيأتي الجواب مصححاً " كلا.. " فلا يكون هذا ولا ذاك ، إن الذي يرفع المرء ويخفضه أخلاقه ليس غير . _ فهي المعيار الحقيقي في حياة الفرد والأمم .

ويزداد سوء أده حين يخالف قاعدة الحياة التي قُرِّرَتْ منذ الأزل: (ما له بداية له نهاية) فما دام صاحب الجنتين أنشأهما واعتنى بهما ، فقد بدأتا في زمن محدد ، ولسوف تنتهيان في أمد محدد ، فلا ينبغي للعاقل أن يخالف الحقيقة ويدّعي بلاهة ما لا يمكن أن يكون .

٥ - الدعاء مخ العبادة : يطلب المسلم من الله ما يريد ، فهو يعلم أن حياته ورزقه بيده سبحانه ، فيسأله كل شيء حتى ملح الطعام ، (إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله) وتستفيض النفس المظلومة حين ترى المتكبر يتناول على خالقه فتدعو ملك الملوك أن يحقّ الحق ويطل الباطل ، ويرجو المسلم ربه أن يعاقب المفترى وأن يرزقه - هو - خيراً مما أعطي للكافر .. ويستجيب الله له فتنتهي القصة في لحظات يسيرة .. تهب ريح عاصفة تدمر كل شيء بإذن ربها ، فلا زرع ولا نخيل ولا أعناب .. ولا أوراق ، تغير المكان فصار أجذب قاحلاً ، وغاض الماء ، فلا نهر ولا حياة !.

٦ - هل ينفع الندم : كَفَرَ بالله فعوقب في الدنيا بما لم يتوقعه ، ومن يستطيع محاربة السيد المطلق؟! ، (اعلم أن الأمة جميعاً لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء كتبه الله لك ، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك ، رفعت الأقلام وجفت الصحف ، ضاع كل شيء في لمح البصر ، وهو الآن يتقلب على جمر الغضا ، ما أراد الله لا بد أن يكون . ومن حسن حظه أنه عوقب في الدنيا ، وما يزال حيّاً ، ولعله يتوب إلى الله ويستغفره ، إنه لم يغادر الدنيا ، فما زال في الوقت متسع ، .. أجل لقد قالها : " ويقول يا ليتني لم أشرك بربي أحداً " وتصور معي موقفه الحزين وهو يقولها ويقلب كفاً على كف حسرة وألماً على ما أنفق فيها فضاع كل شيء بلمحة عين .. لكنه إذ يقر بخطئه ويمألئ الأسى قلبه يقول يا (ليتني) ولم تنفع (ليت) ولن تنفع ،

وسينفع (عسى) المستقبلية فمن تاب إلى الله واستغفره وأناب إليه غفر الله تعالى له ما مضى ، فليبدأ
من جديد



المحور الثالث: تأملات تربوية في قصة موسى والرجل الصالح

- القصة هذه من بدايتها إلى نهايتها نبع ثرٌّ من المعاني التربوية القرآنية الرائعة . في كل كلمة منحى بديعٌ ولفظة راقية . فلهم إليها من بدايتها :
- " وإذ قال موسى لفتهاه : لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو امضي حقباً " إن لموسى عليه السلام هدفًا محددًا يسعى لتحقيقه ..
- أ. يريد أن يلقي معلمًا يتعلم منه صلاح أمره في دنياه وآخرته .
- ب. في مكان محدد يلتقيان فيه .
- ج. في وقت ينتظره المعلم فيه .
- وعلى التلميذ أن يسعى إلى العلم لا أن يسعى المعلم إليه فهذا أكرم للعلم والمعلم والمتعلم فالعلم إن جاء سهل المتناول زهد المتعلم فيه . وأعظم للمعلم في عين المتعلم أن يسعى الأخير إلى الأول ليعرف قدره وقدر ما يحمله ، فيتعلق بهما .
- ونرى الإصرار العجيب على لقاء المعلم والنهل من علمه في قوله : " لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو امضي حقباً " فهو مصمم على بذل الجهد ليصل إلى مبتغاه - لقاء الأستاذ في المكان المنشود - ولو امضى عمره يبحث عنه " أو امضي حقباً " والحقبة أربعون سنة كما قال العلماء ، فما بالك بذكر الجمع " حقباً " ؟! . إنه دليل على الهمة العالية والسعي الحثيث إلى العلم والعلماء . وما يزال العلم بخير مادام طالبوه يطلبونه في مجالسه ويوقرون حامله . ألم يرد في الأثر : " نعم الأمراء على أبواب العلماء ، وبئس العلماء على أبواب الأمراء " ؟ ... وهذا نبي كريم موسى عليه السلام على جلال قدره وعلو مكانته يسعى إلى الرجل الصالح حين علم أن لديه علمًا يُستفاد لم يحزه موسى " وفوق كل ذي علم عليم " .
- مصاحبة الكبير الصغير فائدة لكليهما فالأول يشرف على تربيته ، ويعلمه الحياة ، ويصوب أخطائه ، ويسدد خطاه . والثاني يخدمه ، ويعينه على قضاء حوائجه . وقد أفلح موسى في تربية الفتى " يوشع بن نون " عليه السلام إذ بعثه الله تعالى نبيًا ، فقاد مسيرة المؤمنين وحمل لواء الدعوة بعد أستاذه ، وفتح الله على يديه القدس الشريف .

- " فلما بلغا مجمع بينهما نسيا حوثهما ، فاتخذ سبيله في البحر سرياً " وكلمة " مجمع بينهما " حار فيه كثير من المفسرين فمنهم من جعله الأرض الشاسعة بين بحر قزوين وخليج فارس ! ، ومنهم من قال : إنه بين خليج الإسكندرون وبحر إيجه ! ومنهم من ذكر أنها الأرض بين بحر غزة وخليج العقبة ! وقد ظنوا بكلمة " البحرين " المياه المالحة ، فتأهوا في أقوالهم ... إنه ليس من الممكن أن يلتقي أحد بمن يريد على مساحات ضخمة شاسعة تبلغ آلاف الكيلومترات تضيع فيها الجيوش والأمم !! وهل من المعقول أن يُضْرَبَ موعدٌ لرجلين في صحراء سيناء الواسعة الشاسعة ، أو أن يشد موسى الرحال إلى إيران ، أو أسيا الوسطى وهو في فلسطين ؟! وقد غاب عن كثير منهم أن البحر يطلق على الماء المالح والماء الحلو في قوله تعالى : " وهو الذي مرج البحرين ، هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج " والنهر يصب في البحر ، فهو جمعهما . أي : في قطعة من الأرض لا تتجاوز عشرات الأمتار، قرية من مقام موسى عليه السلام يقطعها إن جدَّ السيرَ بساعات قليلة أو ببعض يوم . وسياق الحديث يدل على ذلك . وهل يجوز لموسى أن يدع قومه اليهود أياماً وشهوراً وهم على ما هم عليه من ضعف الإيمان وشوائب العقيدة ، ويلتقي رجلاً مدة ليست باليسيرة ، قد تطول أياماً وشهوراً أيضاً فيعود ليجدهم قد تأهوا في الضلالة وهو العالم بشؤونهم الحريص على هدايتهم ؟!

- الإنسان ضعيف على الرغم من جلده في كثير من أموره ، ولو كان من أولي العزم . وأول دليل على ذلك أنَّ موسى أصر على لقاء الرجل ولو طوى الأرض في سبيل هذا الهدف . لكنه إذ شعر بالجوع بعد السير الطويل واجتياز مكان اللقاء دون أن ينتبها إليه قال لفتاه " آتنا غداءنا ، لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً " وكان غداؤه السمكة المشوية التي تحركت بعد أن عادت إليها الروح بإذن الله تعالى حين استلقى نائماً على الصخرة التي كان من المفروض أن يلتقي صاحبه عليها وغابت في شقوقها عائدة إلى الماء بقدرة خالقها وبارئها الذي يعيد الخلق كما بدأه وقتما يشاء . والدليل الثاني أن النسيان ضعف يضيّع على الإنسان كثيراً مما خطط ودبّر . فقد نام موسى على الصخرة حين سرب الحوت إلى الماء ولم يكن الفتى نائماً فرأى بأم عينه الأمر الغريب ، ولم يشأ أن يوقظ نبيه الكريم احتراماً وتقديراً ولسوف يخبره حين يستيقظ.

- ولا بد أن نشير هنا إلى الأدب الذي ربّي عليه الصغير في التعامل مع الكبير، وإلى آفة النسيان

التي ابتلي بها الإنسان للدلالة على ضعفه . فلما استيقظ موسى عليه السلام وسارا بحثاً عن الرجل الصالح نسي الفتى قصة السمكة على غرابتها وعجيب أمرها .

- ومن الأدب أيضاً مع الله تعالى أن نسب الفتى نسيانه أمر السمكة إلى الشيطان ، واعتبر هذا النسيان عيباً . والعيب كله في الشيطان عدو الإنسان . مع أن الله تعالى كان أخبر نبيه موسى أنه سيلقى الرجل الصالح في المكان الذي يفقد فيه الحوت . فهو أمر مخطئ له كي يحدد المكان فلا يخطئه .

- والحقيقة أن موسى وفتاه نسيا المكان وسارا لأتهما لم يقولوا " إن شاء الله " فيما عزموا عليه ، فموسى أخبر فتاه عن عزمه على بلوغ مجمع البحرين دون أن يربط ذلك بمشيئة الله تعالى ، وكذلك فعل فتاه فدججهما الله تعالى بذكرهما في النسيان " نسيا حوتهما ... " وكان النبي صلى الله عليه وسلم قال لمن سأل عن الروح والفتية - أصحاب الكهف - وذي القرنين إنه سيعطيهم الجواب غداً دون أن يربط ذلك بمشيئة الله فتأخر الجواب خمسة عشر يوماً ثم نزل عليه قوله تعالى : " ولا تقولنّ لشيء : إني فاعل ذلك غداً إلا أن يشاء الله " وأمره أن يذكر الله تعالى ، فقال: " واذكر ربك إذا نسيت ، وقل عسى أن يهدين ربي لأقرب من هذا رشداً " .

- ومن الأدب التربوي في هذه القصة كذلك أن موسى حين علم بخطئه وخطأ فتاه لم يشغل نفسه بلوم نفسه أو لوم صاحبه فهناك أمر مهم جداً عليهما تداركه قبل فواته . إنه لقاء الرجل المعلم . فماذا فعلا ؟ إنهما

أ - عادا سريعاً لم يضيعا الوقت ، والدليل على ذلك قوله تعالى : " فارتدا ... " وهذه الكلمة مع الفاء - حرف العطف والترتيب والتعقيب - تدلان على سرعة الحركة والعزم على الوصول بقوة إلى الهدف.

ب - عادا من حيث جاءا ، يستهديان بآثار الخطوات التي مشياها كي لا ينحرفا عن الصخرة " ... على أثارهما قصصاً ... " .

ج - فكان عاقبة سرعتهمما وجدهما أن وصلا إلى الهدف فوراً " فوجدا عبداً من عبادنا ... " .

- بعض صفات المعلم الرباني :

أ - هو عبد من عباد الله تعالى ، والعبودية لله أعلى مراتب الإنسانية ، لأن صلة العبد بربه

تسمو به، وتفتح له مغاليق الأمور . وقد ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم أن هذا الرجل الصالح هو الخضر ، فقد روى الترمذي عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إنما سمي الخضر لأنه جلس على فروة بيضاء فإذا هي تهنئ تحته خضراء " هذا حديث صحيح غريب ، والفروة هنا وجه الأرض . . . قيل : إنه عبد صالح غير نبي ، والآية تشهد بنبوته لأن بواطن أفعاله لا تكون إلا بوحى . والإنسان يتعلم عادة ممن فوقه ، ولا يتعلم نبي إلا من نبي ، ولا يجوز أن يكون فوق النبي من ليس بنبي . وقيل غير ذلك ، ولا يهمنا هذا الأمر بشيء ، وذكرناه للعلم به فقط .

ب- " آتيناه رحمة من عندنا " قيل هي النبوة . وقيل النعمة أيضاً . فهو رحيم . والمعلم الرحيم بتلاميذه يعمل على تعليمهم برفق ، ويتقرب إليهم ، ويتحجب إليهم ليأنسوا إليه فيحبوه ويأخذوا عنه علمه .

ج- كان علم موسى بظواهر الأحكام ، وعلم الخضر معرفة بواطنها . كما أن العلم اللدني من الله مباشرة ، ليس لأحد من البشر فضل تعليمه .

- من أدب التعلم :

أ- التلطف في الطلب ، فلم يفرض موسى عليه السلام نفسه على الخضر عليه السلام على الرغم أن الله تعالى أخبر الخضر بلقائه ليتعلم منه . إنما تلطف في عرضه بصيغة الاستفهام التي تترك مجالاً للمسؤول أن يتنصل إن أراد . وحين لقي سيدنا موسى عليه السلام الرجل الصالح ، لم يطلب منه إلا أمراً واحداً : (هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشداً) رشداً!.. ليس غير فإذا هيأ الله تعالى لك أسباب الرشداً ، فقد هيأ لك كل الأسباب

ب- جعل نفسه تابعاً حين سألته " هل أتبعك .. " فالتلميذ تابع أستاذه مسلماً إليه قيادته، وهذا ادعى إلى التناغم بينهما .

ت- العلم يرفع صاحبه . وهذا ما أقر به موسى للخضر حين عرض عليه أن يتابعه شرط أن يعلمه " على أن تعلمن .. " وهذه التبعية ترفع المتعلم . أما التبعية من ذل أو لعاعة من دنيا يصيبها فسقوط للمتبع ، وكبر للتابع .

ث- الواقعية في الطلب : فهو لم يطلب منه أن يعلمه كل شيء ، إنما طلب أن يعلمه شيئاً مما

علمه الله تعالى : " ... مما عُلِّمَتْ .. " وهذا تواضع في الطلب فهو عليه السلام لم يكلف أستاذه شططاً ... لقد طلب العلم المفيد الذي تسمح به نفس معلمه .

ج- طلب النفيس من العلم : فالله تعالى علم الخضر علماً لدنياً نفيساً يريد موسى بعضه ، ولم يطلب العلم الدنيوي ، وإن كان مفيداً إنما طلب الهدى والرشاد الذي يبلغه المقام الأعلى في الدنيا والآخرة ، وحدد نوع العلم فقال : " مما علمت رشداً " وضد الرشد الهوى والضلال ، وهذا ما لا نريده .
ح- قوله تعالى " مما عُلِّمَتْ رشداً " تذكير للمعلم أن الله تعالى أنعم عليه بالرشاد والهدى والسداد . ومن شُكِّر النعم أن يعلم عبادَ الله بعضاً مما أكرمه الله به ، فتزداد حظوته عند خالقه ، ويزيده علماً . ومن دل على خير كان له مثل أجر فاعله .

- وقد يشترط المعلم على تلميذه أن لا يستعجل في السؤال عن أمر من الأمور إلى أن يحين الوقت المناسب لشرحه " قال : فإن اتبعتني فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكراً " . فقد لا يرغب بالتوضيح حتى يستكمل الأمر . وقد يرى المعلم اختبار تلميذه في الصبر . وقد يكون المعلم نفسه قليل الكلام . وقد يكون ممن يعتمدون في التعليم على الملاحظة ... ولكل شيخ طريقته ، إن جاريته فيها تعلمت منه ، وإن خالفته فارقك وفارقته .

- لا بد أن يخطئ الإنسان فقد خلق من عَجَل ، أي من النقصان فوجب أن يترك له فسحة يستدرك فيها خطأه فقد اتفق النبيان في صحبتهما على أن يرى موسى عليه السلام ما يجري دون أن يتدخل مستنكراً أو معلقاً على ما يراه إلى أن يرى الأستاذ رأيه في توضيح بعض الأمور . لكن التلميذ لم يستطع أن يفهم بالوعد ، فعلم الشريعة غير العلم اللدني فقال في الأولى " لقد جئت شيئاً إمرأاً " وشدد النكير في الثانية حين قال : " لقد جئت شيئاً نكراً " وقال في الثالثة معترضاً ومقترحاً " لو شئت لاتخذت عليه أجراً " .

ونبهه أستاذه في الأولى " ألم أقل : إنك لن تستطيع عليه صبراً ؟ " وعاتبه في الثانية بزيادة " لك " في قوله : " ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبراً ؟ " وأعلن في الثانية أن الفرصة الممنوحة انتهت فلا بد من الفراق لأنه استنفدها " هذا فراق بيني وبينك " . ولكنه لم يشأ أن يتركه يجهل أسباب الحوادث فأخبره بها " سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبراً "

- زيادة المبنى لزيادة المعنى : قبل أن يخبره بالأسباب اضاف للفعل تاء التعدية " تستطع " على وزن تفتعل وحين أخبره بها حذف التاء لأن المعنى انتهى " تستطع " على وزن تفعل . وسوف نجد هذا في قصة ذي القرنين " فما استطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقباً " فعلوا الجدار على صعوبته أسهل من نقبه فحذف التاء مع علو الجدار في قوله " فما استطاعوا " وأثبتها في صعوبة النقب " وما استطاعوا " .
- وانظر إلى أدب الأستاذ مع ربه فقد نسب عيب السفينة إلى نفسه " فأردت أن أعيها " كما فعل إبراهيم عليه السلام ذلك في المرض وأسند الشفاء إلى الله تعالى تأدباً " وإذا مرضت فهو يشفين " . وفي قتل الغلام نسب الخير في البدلية إلى الله تعالى " فأردنا أن يبدلهم ربهما خيراً منه زكاة وأقرب رحماً " ولما كان العمل في الثالثة كله بناء وخيراً نسي نفسه وأفرد الله تعالى بالخير " فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك " مع أن الأمر كله من الله تعالى ، وهو لم يفعل إلا ما أمره الله به " وما فعلته عن أمري " .
- قيل إن الخضر لما ذهب يفارق موسى قال له موسى : أوصني : قال : كن بساماً ولا تكن ضحاكاً ، ودع اللجاجة ، ولا تمش في غير حاجة ، ولا تعب على الخطائين خطاياهم ، وابك على خطيئتك يابن عمران . وقيل : إن موسى لما أنكر خرق السفينة نودي : يا موسى أين كان تدبيرك هذا وأنت في التابوت مطروحاً في اليم ؟! فلما أنكر قتل الغلام قيل له : أين إنكارك هذا من وكرك القبطي وقضائك عليه ؟! فلما أنكر الجدار نودي : أين هذا من رفعك حجر البئر لبنات شعيب دون أجر ؟! .. وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم " رحمة الله علينا وعلى موسى ، لو لبث مع صاحبه لأبصر العجب ، لكنه قال : " إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني قد بلغت من لدني عذراً " .
- صلاح الآباء يُرى في الأبناء فقد حفظ الله تعالى الولدين بصلاح أبيهما " وكان أبوهما صالحاً " فأمر الخضر عليه السلام أن يرفعه إلى أن يكبرا فلا يأخذ الكنز أحدهما صغيران ، ويظل بعيداً عن أعين الآخرين حتى يشتد عودهما فيكون لهما . وحين علم الله أن الولد خلق مطبوعاً على الكفر، وأنه سيسيء إلى والديه المؤمنين ويجعل حياتهما جحيماً أماته ، وأبدلهم خيراً منه فتاة مؤمنة طيبة كانت زوجة لنبي كريم .
- ونرى التدرج في هذه القصة - وهو أسلوب تربوي راقٍ - في تعامل الخضر مع موسى

،فقد أبى موسى عليه السلام إلا أن يصاحب الخضر عليه السلام فكان التخلص من هذه الصحبة - إن جاز لنا هذا التعبير فصاحب الشريعة غير صاحب الحقيقة - على قول الصوفية - لا بد له من الوضوح والتعليل والتفكير المنطقي . والخضر يفعل أموراً غير مفهومة وغير معللة ، لا تعرف إلا بعد شرحها - ولا بد أن يفرض عقد هذه الصحبة عاجلاً أم آجلاً ... فكانت اعتراضات موسى وتنبيه الخضر المتسلسلة في إيقاعاتها التي ذكرناها آنفاً تدرّجاً واضحاً في ذهاب كلٍّ منهما في سبيله الذي رسمه الله له في دورة الحياة المنتظمة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

- لماذا كان الملك وراءهم؟ " وكان وراءهم ملك " لقد كانت السفينة تحمل أصحابها ومعهم موسى والخضر إلى الميناء التالي .. كانوا متوجهين إلى " أمام " .. فقد كان الملك في الميناء الذي يقصدونه فهم متجهون إلى " الأمام " فلماذا قال القرآن الكريم " وكان وراءهم ملك ؟ " .. أعتقد أن الجواب على شقين . أما الأول : فلأنهم متجهون إلى غيب لا يدرون ما ينتظرهم . وكل غيب وإن كان أمامهم فهو " وراء " إن كان لا يُرى ، وأما الثاني فلأن الملك ظالم متجبر مغتصب لحقوق العباد " يأخذ كل سفينة غصباً " والمملك ينبغي أن يكون رحيماً برعيته عطوفاً عليها ، يريد بها الخير ويسعى لصلاحها ، فإن كان على غير ذلك فلا يستحق أن يكون في " الأمام " ومكانه الحقيقي في الخلف ، ولذا كان " وراء " وراء " .



المحور الرابع: تأملات تربوية في قصة ذي القرنين

١- السؤال أسلوب تربوي

١- ويسألونك عن ذي القرنين ، قل سأتلوا عليكم منه ذكراً ، إنا مكنا له في الأرض وآتيناه من كل شيء سبباً فاتبع سبباً

٢- يسألونك عن الأنفال : قل الانفال لله والرسول

٣- يسألونك عن الساعة : قل إنما علمها عند ربي لا يجليها لوقتها إلا هو ثقلت في السموات والأرض يسألونك كأنك خفي عنها قل إنما علمها عند الله ولكن أكثر الناس لا يعلمون

٤- يسألونك ماذا ينفقون : قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل

٥- يسألونك عن الخمر والميسر ، قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما ،

٦- ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون في الدنيا والآخرة ،

٧- ويسألونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير ، وإن تخالطوهم فإخوانكم والله يعلم المفسد من المصلح .ولو شاء الله لأعنتكم إن الله عزيز حكيم

٨- يسألونك ماذا أحلّ لهم : قل أحل لكم الطيبات وما علمتم من الجوارح مكلبين تعلمونهن مما علمكم الله فكلوا مما أمسكن عليكم

٩- ويسألونك عن الجبال ، فقل ينسفها ربي نسفاً فيذرها قاعاً صفصفاً لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً

١٠- ويسألونك عن المحيض قل هو أذى فاعتزلوا النساء في المحيض ولا تقربوهن حت يطهرن فإذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين.

٢- وأضيف هنا ما يناسب الموقف ، فأقول:

أ- قد يكون السؤال :

للتحدي .. و التحدي نفسه أيضاً أسلوب تربوي يدل على صدق الدعوة والداعي ، فاليهود طلبوا من المشركين في مكة قبل الهجرة أن يسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أمور ثلاثة ... عن أهل الكهف ، وعن الروح .. وعن ذي القرنين .. ولا يعرف جواب هذه الأسئلة سوى الأنبياء . وقد قبل القرآن التحدي فأنزل الله تعالى فيه خبر ذي القرنين فقال مخاطباً النبي الكريم : " قل : سأتلو عليكم منه ذكراً ... " .

ب- وقد يكون السؤال لمجرد المعرفة فعلى الداعية قبل دخول غمار الدعوة أن يلم قدر المستطاع بدعوته والأساليب المقنعة التي تحتذب المدعويين .

٣- التعظيم أسلوب يضيف هالة على الرموز الرائعة التي لها دور متميز في الدعوة إلى الله ، ويشجع المدعويين أن يتأسؤا بهم ويسيروا على هداهم . ولا ننس أنه ينبغي أن يكونوا أهلاً لهذا التشريف، فلن ينال أحد في الإسلام إلا ما يستحق

وقد تنبه الرسول الكريم إلى هذا الأسلوب فأسبغ على الصحابي الجليل عبد الله بن أبي قحافة رضي الله عنه لقب الصديق فعرف به ، وعلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه لقب الفاروق ، وعرف علي بفتي الإسلام وعثمان بذي النورين وخالد بسيف الله المسلول ، وهكذا ...

والقرآن الكريم لم يعرفنا اسم ذي القرنين إنما اكتفى بلقب ذي القرنين كما أننا لا نعرف عن أحد الأنبياء الكرام سوى أنه ذو الكفل . ووصف النبي الكريم " يونس بن متى " بذي النون لأن الحوت ابتلعه ، فأراه الله تعالى عجائب قدرته في البحر - أحد مخلوقاته - وأعادته إلى قومه يدعوهم إلى الله سبحانه .

أما لماذا لُقّب ذا القرنين فقد تضاربت الأقوال فيه ،

- فمن قائل : إنه حكم الأرض غرباً وشرقاً ،
- ومن قائل : إنه حكم مئتي سنة أو عاش قرنين من الزمان ،
- ومن قائل : إن ملكه كان قوياً يرمز إليه قرنا الثور .

ولن نهتم بمعنى الاسم قدر اهتمامنا بصاحبه . فالجوهر نريد لا العرض .

٤- قوله تعالى " قل : سأتلو عليكم منه ذكراً ، إنا مكنا له في الأرض ، وآتيناه من كل شيء سبباً فأتبع سبباً " فيه فوائد تربوية عديدة ، منها :

أ- قبول التحدي : فمن كان على حق ، وكان على ثغرة يدعو إلى الإسلام وينافح عنه لا يسعه غير ذلك .

ب- العلم بالشيء قبل الدعوة إليه : وكلمة " سأتلو.. " دليل على المعرفة بالأمر والعلم به .
والتلاوة أثبت في الإجابة من غيرها ، فهي القراءة.. ، والقراءة من شيء من ذاكرتك تحفظه عن ظهر غيب، أو تقرأه في كتاب أقوى حجة وأسطع دليلاً . كما أن كلمة " ذكراً " تعني القرآن لقوله تعالى " وإنه لذكر لك ولقومك " .

ت- وقوله تعالى " سأتلو عليكم " بدل لكم دليل التمكن والاستعلاء والثبات . والمؤمن هكذا دائماً .

ث- وقوله تعالى " سأتلو عليكم منه ذكراً " هذه البعضية التي دلت عليها منه توضح أن على الإنسان أن يقتصر في حديثه على ما يفي بالغرض . وهذا ما نجده في قوله تعالى " إنا مكنا له في الأرض وآتيناه من كل شيء سبباً ، فأتبع سبباً "

هـ - الإيجاز والإطناب : وهذه البلاغة بعينها . فقد جاء الإيجاز في مكانه ، والإطناب في مكانه . فلا داعي لذكر التفاصيل في التمكن لأن التمكن يكون في كثرة العدد والعُدّة ، والمال الوفير والعدل وبذل الجهد ، واستفراغ الهمة والتحضير لكل أمر ...

ولم يكن القرآن ليهتم بهذه التفاصيل . ويكفي أن يقول : " ... مكنا له في الأرض وآتيناه من كل شيء سبباً " ليدل على عظمة أمره ، وقوة استعداده . وهذا هو الإيجاز الذي رأيناه كذلك في الحديث عن " مطلع الشمس " بعد الإطناب في الحديث عن مغرب الشمس لأن التكرار ممل فيما ليس له لزوم . لكن قبل أن نتحدث عن الإطناب نلقي الضوء على ورود كلمة " سبباً " مرتين في هذه الآية ، وإيجاءات كل منهما ((وآتيناه من كل شيء سبباً فأتبع سبباً))

أما الأولى في الآية الكريمة فالعلم بالشيء والطريق الموصل إليه . وهذا يعني أن الله جل شأنه لم يكلفه بشيء دون أن يعلمه الطريقة التي يسلكها إليه ، بل أمده بأسباب النجاح . وعلى الرغم أن ذا القرنين مكن الله تعالى له ، وآتاه الحكمة بدليل " إنا مكنا له " فأنا لست مع الذي يقول :

إذا كنت في حاجة مرسلاً فأرسل حكيماً ولا توصه

بل أقول :

إذا كنت في حاجة مرسلاً فأرسل حكيماً كذا أوصيه

لقوله تعالى " فذكر إن نفعت الذكرى " ولقوله تعالى " وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى

أن أقيموا الدين .. " فإذا وصى الله تعالى أنبياءه فمن دونهم أحق أن يوصى .

وأما الثانية فسلوك هذا الطريق واستعماله . إن من عرف الطريق الصحيح سلكه فوصل إلى مبتغاه ،

وإلا ضل وتاه . وهل رأيت عاقلاً يعرف السبيل فيحيد عنه إلى غيره؟! .. وفي كل يوم نقرأ عشرات المرات

قوله تعالى : " اهدنا الصراط المستقيم .. " لماذا نسأل الله صراطه المستقيم إذا كنا نتنكب به بعد أن نعرفه؟!!

كما فعلت النصارى فتاهوا . وحادت عنه بنو إسرائيل ، فغضب الله تعالى عليهم ! .

وجاء الإطنباب في وصف أهل مغرب الشمس الذين كانوا قسمين حين دعاهم ذو القرنين إلى

الإسلام، فمنهم من آمن ومنهم من كفر . فأكرم المؤمنين وعنف الكافرين ، وهددهم بعذاب الآخرة .

وجاء الإطنباب كذلك في وصف الضعفاء من أهل السد الذين كان أبناء قبيلتي يأجوج ومأجوج يسلبونهم

أموالهم ويقتلون أبناءهم ويسومونهم الخسف كلما جاءوهم . فسألوه أن يبني سدّاً يقيهم أذاهم ويدفع عنهم

غائلتهم . .. ولو اختصر القرآن حديثهم ما فهمنا المراد من أخبارهم . فالبلاغة إذاً مراعاة مقتضى

الحال..... .

فالاختصار حين يكون الاختصار مفيداً....والإسهاب حين يكون التفصيل لازماً... وهذا ما ينبغي

للمعلم أن ينتبه إليه .

٦- الجزء من جنس العمل : قال تعالى :

" أما من ظلم فسوف نعذبه، ثم يرد إلى ربه فيعذبه عذاباً نكراً "

" وأما من آمن وعمل صالحاً فله جزاء الحسنى وسنقول له من أمرنا يسراً "

وقال تعالى: " أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه، فحبطت أعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيامة

وزناً ، ذلك جزاؤهم جهنم بما كفروا واتخذوا آياتي ورسلي هزواً "

" أن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نُزلاً ، خالدين فيها لا ييغون عنها

جَولاً "

وقال تعالى: " فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ، ولا يشرك بعبادة ربه أحداً . "

٧- وجوب المساعدة : لما بلغ ذو القرنين بين السدين وجد قوما اجتمع عليهم الظلم والجهل وهاتان الصفتان إن اجتمعتا في أمة - وهما غالباً ما تجتمعان - أصابتهما نوائب الدهر وعصفت بهم حدثانه ، فنالهم الذل وطوّح بهم الفساد . . . فلما وصل إليهم الملك الصالح ذو القرنين طلبوا مساعدته ... فولد السد الذي أبعد الله به عنهم ظلم الظالمين وعدوان المتجبرين .

ولم يطلب الملك الصالح مالاً منهم ، ولا أجرة ، وهذا من سمات الحاكم الذي يبذل في سبيل شعبه كل ما يستطيع ، ولا يكلفهم شططاً . بل طلب إليهم أن يعينوه بقوة فالقضية تهمه أولاً، والحاكم خادم لشعبه، استرعاه الله إياه ، وجعله أمانة بين يديه ، وعليه أن يؤدي الأمانة .

كان الملك عنواناً للجد والإخلاص ، أعان شعبه على التخلص من المفسدين . وهذا واجب كل مسلم يستطيع أن يقدم النفع لإخوانه . ولم ينسب الفضل لنفسه بل عزاه لله سبحانه " قال : هذا رحمة من ربي " وأكد ذلك حين قال : " ما مكّني فيه ربي خير " فالله تعالى هو الذي مكّنه من فعل ذلك وأعانه عليه .. ثم بين أن الله قادر على أن يسوّيه بالأرض إذا شاء ، وقت يشاء " فإذا جاء وعد ربي جعله دكاء، وكان وعد ربي حقاً " .

ونقف على قوله تعالى: " حتى إذا بلغ بين السدين وجد من دونهما قوماً لا يكادون يفقهون قولاً ، ثم رأيناهم يتكلمون بثقة وفصاحة ، فكيف نوافق بين (لا يكادون يفقهون قولاً) والحديث بعد ذلك بكل وضوح وثقة؟! "

(إن الخوف يقطع الجوف) كما يقول المثل .. حسبوا أن ذا القرنين عدو آخر مثل يأجوج ومأجوج ، يفعل بهم من قتل وتدمير وظلم وانتهاك الحريات وسلب الأموال كما يفعل أولئك الذين يأتونهم كل فترة فيزرعون الخوف والألم والتدمير والقتل فيهم دون رحمة ولا رأفة جاءهم ، والخوف يخلع القلوب ويذهب العقول.

فلما علموا أن ذا القرنين رجل صالح واطمأنوا إلى ذلك سكنت قلوبهم وهدأت نفوسهم وزال عنهم الخوف

إن الأمن والامان يزرع الحرية فتثمر الحياة حضارة ورُقياً ومدنية .

٨- أدوات التنبيه : متعددة في هذه القصة كما تتعدد في القرآن الكريم منها :

التكرار : " فأتبع سبباً " مرة واحدة . " ثم أتبع سبباً " مرتين . " حتى إذا بلغ... " ثلاث مرات . " حتى إذا ساوى بين الصدفين .. " " حتى إذا جعله ناراً .. " ومهمتها وصل المنقطع وقطع الموصول . وذلك بالانتقال من مشهد إلى مشهد ضمن سياق واحد .

أداة الاستفهام " هل " التي لا تحتاج للجواب " هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً " فقد جاء الجواب بعد ذلك مباشرة " الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا ، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً "

" قل " فهي تفرع الأسماع ، وتنشط الذاكرة

" قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً "

" قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر"

" قل إنما أنا بشر مثلكم ، يوحى إليّ " .

باحثة مصرية تكتشف كيف بنى ذو القرنين حاجز يأجوج ومأجوج

المجتمع ٢٠٠٥/٥/١٣ :

توصلت الباحثة المصرية المهندسة ليلي عبدالمنعم عبدالعزيز الخبيرة بإحدى الموسوعات الأمريكية إلى تركيبة جديدة من "الخرسانة المسلحة" تقول عنها إنها استخدمت فيها نفس المواد التي اعتمد عليها ذو القرنين في إقامة الحاجز الذي يفصل بينا وبين يأجوج ومأجوج ولا يعرف أحد مكانه حتى الآن.

وهذه الخرسانة التي توصلت إليها الباحثة تتكون من أحد منتجات البترول مضافاً إليه الحديد المنصهر مع الإسفلت فتننتج خلطة شديدة التماسك ، لها قدرة على مقاومة الزلازل وعوامل التعرية وغيرها من القوى المؤثرة على المباني مهما بلغت شدتها. وأوضحت أنه لإقامة المباني بهذه الخرسانة المبتكرة فإن الأمر يقتضي الاستعانة بالبوتامين والحديد المنصهر، مشيرة إلى أن المصانع المختصة يمكنها بناء هذه الحوائط ثم نقلها بعد ذلك إلى مكان البناء.

واستلهمت الباحثة دراستها من الآيتين الكريميتين في سورة الكهف اللتين نزلتا في ذي القرنين " آتوني زبر الحديد حتى " إذا ساوى " بين الصدفين قال انفخوا حتى " إذا جعله نارا قال آتوني أفرغ عليه قطرا ، فما استطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقبا " .

توقفت الباحثة أمام هاتين الآيتين وتدبرت موقف نزولهما جيداً. وبعد عدة تجارب توصلت إلى هذه التركيبة.

وفيما يتعلق برأي الإسلام في الآيات التي استندت إليها الباحثة يقول المفكر الإسلامي د. زغلول النجار : إن ما توصلت إليه الباحثة هو لمحة من لمحات الإعجاز القرآني في العلم الذي يتكشف لنا يوماً بعد يوم. وأضاف : إن الباحثة استمدت سر تركيبتها من قصة ذي القرنين الذي ألهمه الله استخدام مادة القطران التي اختلف الفقهاء حول تعريفها، فقال عنها البعض إنها من النحاس المنصهر، بينما عرّفها البعض الآخر بأنها إحدى مشتقات البترول. وأضاف عليها ذو القرنين قطع الحديد المنصهر لتكوين مادة صلبة يستحيل طرقها ثم بنى فوقها السد لحماية القوم من يأجوج ومأجوج.

وأكد د. النجار أن السد من علامات الساعة وسيظل قائماً حتى قيام الساعة ومكانه مجهول ولن يُعرف حتى يظهر يأجوج ومأجوج، وقيل إنه ببلاد ما وراء البحار أو بلاد التركستان. وتمنى د. النجار أن تستفيد الجهات المعنية من هذه التركيبة الجديدة وتطبقها في عمليات البناء في عصرنا الحالي.



تأملات تربوية في سورة مريم (١)

هذه بداية تأملات تربوية في كتاب الله تعالى ، أقدمها على حلقات أسبوعية إن شاء الله ، ليس فيها من التفسير إلا ما يخدم الفكرة التربوية في القرآن الكريم ،
أجّلّي فيها الأسلوب التربوي ، وأشير إليه دون الخوض في المعاني إلا بما يناسب الهدف التربوي نفسه .
وقد أشير إلى هدف بلاغيّ أو تعبير لغويّ أو توجيه نحوي يخدم الهدف التربوي الذي أريد تجليته والله ولي التوفيق .

١- أسلوب التنبيه : أساليب التنبيه في القرآن الكريم كثيرة كلما مررنا على واحد منها ذكرناه - إن شاء الله تعالى - في موقعه .. وهنا نجد السورة تبدأ مثل كثير من سور القرآن الكريم بالحروف المقطعة ، ك.هـ. ي. ع. ص . فالأول والرابع والخامس منها ممدودة والثاني والثالث غير ذلك ، مما يشد انتباه السامع والقارئ على حد سواء بطريقتين مجتمعتين قبل البدء بقراءة الجمل والمعاني ، هما " الحروف المبهمه " و " الأداء الموسيقي "

والمفسرون يوردون تفسير هذه الحروف منسوبة إلى ابن عباس رضي الله عنهما وغيره ، فالكاف " كريم " والهاء " هادٍ " والياء " قوي " ، ذو الأيدٍ " والعين " عليم " والصاد " صادق الوعد " إن البدء بحروف متقطعة ذات جرس موسيقيّ مختلف يجعل المتلقي يرهف السمع ، إليها لغرابتها فلا يضيع عليه ما بعدها ومن ناحية أخرى نجد المتلقي يتساءل في قرارة نفسه عن معناها وطريقة أدائها ليصل إلى تأويلات عدّة ، منها : أن هذا القرآن مؤلف من هذه الحروف وأحواتها ، فإن استطعت أن تأتي بمثلها فافعل . وإلا ثبت أنها من لدن عليم خبير .

٢- التأمل والتدبر : إن كلمة " ذكر " في قوله تعالى " ذكر رحمة ربك عبده زكريا " توحى بأمور كثيرة يتفاعل بها المتلقي سامعاً وقارئاً . منها :

- إعمال الفكر ، وتقليب المعاني في ذكر الله تعالى عبده الصالح زكريا ، وسبب تخصيصه بهذا الفضل العظيم حين ذكره

- وأن التذكر ليس ضد النسيان دائماً، فالله سبحانه وتعالى منزّه عن النقائص ، والنسيان نقيصة

. " لا يضل ربي ولا ينسى " " وما كان ربك نسياً " أحصاه الله ونسوه " . إنما التذكر هنا رفع لمقام زكريا عليه السلام ، واستجابةً لدعوته ، وخصه بالرحمة .

- وأن ذكر الله عز وجل يرفع مقام صاحبه في عليين " فاذكروني أذكركم " " ومن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ، ومن ذكرني في ملأٍ ذكرته في ملأٍ خير من ملئه " ...

- وانظر معي إلى هذا الربط الرائع بين النبيين الكريمين ، فهما أخوان كريمان يستقيان من نبع واحد ، ويستضيئان من مشكاة واحدة ، فكلمة " ربك " خطاب لبينا محمد عليه الصلاة والسلام تدل على أعلى مراتب الإنسان : العبودية لله تعالى ، فمادام الله ربّه فهو عليه الصلاة والسلام عبده . وزكريا عليه الصلاة والسلام عبده ، فاجتمعا في هذه المكانة العلية . وبما أنهما مثال يُحتذى كانت الدعوة لنا من الله تعالى أن نكون من عبادِهِ .

٣ - إغاثة الملهوف : فزكريا عليه السلام لجأ إلى الله تعالى ، واتجه إليه في دعائه وسأله من فضله ، " إذ نادى ربه نداء خفياً " ، فأجابه الله إذ رحمه ووهبه غلاماً زكياً . وهذه لفظة كريمة تحض على مساعدة الآخرين وتقديم العون لهم إن استطعنا إلى ذلك سبيلاً.

٤ - أدب الخطاب : ويتجلى ذلك في أمور عدّة :

أولها : التحجب : من أحب شيئاً أكثر من ذكره . وأنت حين تخاطب من تحب يتكرر اسمه على لسانك . فزكريا عليه السلام ذكر ربه خمس مرات في جمل قليلة : " رب إني وهن العظم مني " " ولم أكن بدعائك رب شقياً " " واجعله رب رضيعاً " " قال رب أنى يكون لي غلام .. " " قال رب اجعل لي آية " . وعلى هذا قبل الله تعالى ربوبيته لعبده زكريا حين قال سبحانه : " إذ نادى ربه نداء خفياً " .

ثانيها : النداء الخافت : فالله تعالى يسمع ديب النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء . وحين سمع النبي صلى الله عليه وسلم رجلاً ينادي الله بصوت عالٍ ، قال : له إنك لا تنادي أصم بل سميعاً بصيراً . وحين سأله رجل : هل ربك قريب فننجاه أم بعيد فنناديه ؟ نزل قوله تعالى : " وإذا سألك عبادي عني فإني قريب ، أجيب دعوة الداعي إذا دعان .. " . " نداء خفياً " . لأنه معه ، " ونحن أقرب إليه من حبل الوريد " .

ثالثها : التذلل إلى الله قبل الطلب : فقد عرض الحال بتسلسل منطقي ، وأدب جم ، فبدأ

بذاته الداخلية " إني وهن العظم مني " ولم يقل وهن عظمي فكان صادقاً فليس كل عظمه واهناً وإلا لم يستطع الحركة ، وإنما أراد أن يقول : إنه ضعف وشاخ . وثني بجزء منه لكنه الإطار الخارجي منه " واشتعل الرأس شيباً . فلئن كان شعره منه إلا أن بعضه خارج جسمه ، أما العظم فمختلط بلحمه وشحمه . ثم التمس تقبل الدعاء وإجابة الرجاء مادحاً ربه : " ولم أكن بدعائك رب شقياً " فأنت يا رب سميع الدعاء ، ولن تردني خائباً .

رابعها : الحرص على الدعوة حين خاف على الدعوة إلى الله أن تضعف و لم يجد من حوله من يقوم بأدائها ويحمل عبئها ، " وإني خفت الموالي من ورائي " فلا بد من خلف يكمل عمل السلف . وأمراته عقيم " وكانت امرأتي عاقراً " فليس لي ذرية يتمون ما أمرتني بالقيام به .

خامسها : البوح بالطلب أن يرزقه الله ولدأ صالحاً تقر به عينه حين يراه حاملاً أمانة الرسالة وهم الدعوة إلى الله عز وجل بين اليهود قساة القلوب . " فهب لي من لدنك ولياً ،وقد لا يكون الولد ولياً . فالولي الذي يسير على هديك وخطاك ، ويكمل ما بنيت ، لا الذي يهدم ما تعبت في بنائه وإقامته . فهو لن يكون ولياً ولو كان من لحمك ودمك . وكم من شوكة تخلف وردة ! " ما مهمته ؟ " يرثي ، ويرث من آل يعقوب " ... وهنا نجد الدقة في بيان السبب : أن يرثه في كل شيء كان يقوم به ، ويرث الصالحين من آل يعقوب في المهمة نفسها .

سادسها : أن يكمل المنة ، فيجعله رضيعاً . وهنا نجد الأسلوب البلاغي الرائع في قوله تعالى " رضيعاً " فالغلام راض بما قسم الله له شاكر لله فضله ، والله راض عنه مكمل عليه نعمته . ف" رضيعي " أدت معنى اسمي الفاعل والمفعول معاً ، ولن تكون " راض " و" مرضي " لتغني إحداها عن الأخرى !.... وكم يتمنى الناس الذرية دون أن يقوموا بواجبهم في تربية النشء ، ويهتمون بجني المال لأولادهم من حل وحرام ، وقد كفّل الله لهم الرزق ،وكفاهم مؤونته ويتناسون أن الله أمرهم بحسن التربية ، وسيحاسبهم على ذلك ، أحسنوا أو أساءوا ؟ .

٥- **الإجابة السريعة** : فإن استطعت أخي الحبيب أن تلي أخاك فلا تتكاسل . إن الله تعالى أجاب عبده المطيع بسرعة فلا نجد حرف عطف ولا حرف استفهام ،ولا الفعل " قال " : ... إنما قرأنا مباشرة : " يا زكريا ، إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى ، لم نجعل له من قبل سمياً " . وتجلت الإجابة السريعة بما يلي :

أولاً : النداء ، ما إن نادى ربه حتى سمع نداء ربه : " يا زكريا " فعرف أنه المقصود لا سواه فأصاخ السمع ، خافق القلب راغب الخير .

ثانياً : البشرى وهذا أسلوب رائع في طمأنة الفؤاد وإراحة النفس قبل زف البشرى نفسها . ولعل الإنسان يظل مستوفز الأعصاب لا يدري أيسمع بشرى أم إنذاراً حتى يقال له ما يُقال . لكنه حين يسمع كلمة البشرى قبل إلقائها ترتاح نفسه ، ويكون أكثر وعياً لتلقيها . ومما زاد في جمال البشرى أنها جاءت بعد التأكيد " إنا " والفعل المضارع الذي يسمعه، فثبت حصولها .

ثالثاً: تحقيق المطلوب : فهو غلام سيبلغ الحلم وتقر به العينان . وقد نذرت امرأة عمران ما في بطنها محرراً وهي ترغب في الولد ، ففوجئت بأنثى ، خيبت في البدء أملها في الوفاء بالندى ف " قالت رب إني وضعتها أنثى " " وليس الذكر كالأنثى " ، لكنها حزمت أمرها ووفت بنذرهما . لكنه هنا ذكر يافع . وزاد في تمام الفضل أن الله سماه يحيى من فوق سبع سماوات . ولم يجعل له من قبل سمياً .

٦- **الضعف البشري** : المخلوق ضعيف.. ضعيف مهما علا شأنه ، ورسخ إيمانه . ولو كان نبياً إلا من عصمه الله تعالى. لكن أخطاء الأنبياء ليست كأخطاء الآخرين ، إنما هي هتات تدل على بشريتهم . لكنهم يظنون مثال الكمال الإنساني ومما يدل على ذلك في قصة سيدنا زكريا ما يلي :

أولاً : أنه ذكر ضعفه وهرمه ، وعرف أن زوجته لا تنجب لسببين اثنين أحدهما شيخوختها ، وثانيهما عقمها . ومع ذلك فأمله بالله كبير أن يرزقهما ولداً صالحاً .. فلما أجاب الله سؤاله تعجب من ذلك .

ثانياً : انه حين سأل الله تعالى الولد قدّم شيخوخته على عقم زوجته . وكأنه السبب الأول في عدم الإنجاب . فلما تعجب من البشرى نأى بنفسه أن يكون السبب الأول لعدم الإنجاب ، فقدم زوجته عليه . وهنا نلاحظ الرغبة في الكمال وتفضيل النفس على الآخرين... . ولعله تعجب أن تلد امرأة عقيم بلغت سن الشيخوخة ، فنبهه المولى سبحانه أنه على كل شيء قدير ، فقد خلقه من العدم . ولعله ظن أن الله تعالى سيأمره أن يتزوج امرأة أخرى فيكون الولد منها ، ففهم من قوله تعالى " وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئاً " أن الولد سيكون من زوجته نفسها ... ألبس الله قادراً على كل شيء ؟! وأليست زوجته صالحة مثله فلم لا يكرمها هي أيضاً فتسعد بالإنجاب كما يسعد زكريا نفسه؟ .

٧- تصحيح الخطأ مع التعليل : إذا ترك الإنسان لنفسه فقد يزل ويقع في المحذور ، فإدراك العقل

محدود ، وفهمه قاصر ، ولا بد من تصويب الأخطاء كي يبقى الصحيح فقط ، فيتمثله القلب والعقل .
مع التعليل لدواعٍ عديدة . منها : أن يكون الحكم واضحاً بيناً ، والدليل ساطعاً فينقطع الشك ، وليكون
الجواب شافياً . فلما تساءل زكريا عليه السلام عن إمكانية حمل زوجته ، وبشرى الله لهما بالغلام قيل له :
.. كذلك قال ربك هو عليّ هين ، وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئاً " .

فبين له أن الله تعالى خلقه من عدم . وهو سبحانه قادر على كل شيء .

٨- الاستيثاق من الأمر : وهو أسلوب تربوي ذو فوائد جمّة ، منها : التأكد ، والاطمئنان ،

والمتابعة . لكن الله هو الذي وعده بالغلام ، فهل يطلب منه إثباتاً؟ ! وهو سبحانه إن شاء وهب ، ويمنع
إن شاء . فهل أخطأ زكريا حين سأل ربه العلامة فـ " قال رب اجعل لي آية " ؟!

لو كان هذا السؤال من قبيل الشك فهو الكفر بعينه ، وهو قلة الأدب ذاتها . لكنه نبي الله فوق
الشبهات ، وقد أرادها ليعلم وقت حدوثها . هذا من ناحية . ثم لا بد من الاطمئنان فهذه هي الطبيعة
البشرية السوية . والدليل على ذلك ما قاله إبراهيم عليه السلام لربه : " رب أرني كيف تحيي الموتى ! قال :
أولم تؤمن ؟ قال : بلى ولكن ليطمئن قلبي " والقصة معروفة . كما أن قصة عزيز تسير على هذا النسق
حين قال وهو في طريقه إذ رأى القدس هدمها الآشوريون : " أنى يحيي هذه الله بعد موتها ؟! فأما الله مئة
عام ثم بعثه . قال : كم لبثت ؟ قال : لبثت يوماً أو بعض يوم . قال : بل لبثت مئة عام" فلما رأى
قدرة الله في بديع صنعه قال : " أعلم أن الله على كل شيء قدير " . ومثله قول مريم : " أنى يكون لي غلام
ولم يمسنني بشر ، ولم أك بغياً " فهي تتساءل للتأكد والتثبت .

٩- الدعوة إلى الله في كل الظروف : فإذا مرض الإنسان أو امتنع أن يقوم بواجبه المعتاد

بالطريقة التي اعتادها لأمر طارئ اتخذ ذلك ذريعة للتفلت أو الراحة - ومن حقه أن يرتاح فترة ليشحذ
همته - لكن النفس الطموح للنبي الكريم زكريا أبت أن تباعد عن طريقها المرسوم . فحين حملت زوجته
بيحيى و ما عاد يتكلم ثلاثة أيام - كما أعلمه ربه بذلك - لم يتوان عن دعوته ، ولم يتخل عن مهمته ،
إنما التزم المحراب يصلي ويجتهد في عبادة ربه شاكراً فضله ، معترفاً بنعمته عليه . وأوحى لأتباعه بالإشارة أن
" سبحوا بكرة وعشيّاً "

١٠- اختيار زمان الذكر ومكانه : أما المكان فالمحراب لمقابلة الملوك العظيم ، فينبغي أن يكون أفضل مكان في البيت أو المسجد . والمحراب في العربية (صدر البيت ، أو المسجد ، وأشرف موضع فيه ، ومجلس الملوك الذي ينفردون به عن العامة) . وأما الزمان فالذي يدل على قدرة الله عز وجل في بديع صنعه ، حين يتداخل الليل والنهار في الفجر والمغرب هذا التداخل بين الظلام والضياء ، وبين الموت والحياة " وسبح بالعشي والإبكار " .

١١- الاهتمام بالجواهر والبعد عن الحشو : يختصر القرآن المسافات التي لا يغني ذكرها . فلم يحدثنا عن طفولة يحيى عليه السلام ، إنما فاجأنا باللب والمراد من القصة ، فإذا هو فتى ذكي الفؤاد قوي العزيمة ، ذو حكمة وفهم ، يحمل رسالة ربه بكل ما أوتي من صبر واجتهاد .

١٢- بر الوالدين : ولن يرضى الله تعالى عن الإنسان ما لم يكن الوالدان راضيين عنه . ولن يستطيع حمل رسالة ربه ما لم يحمل في قلبه حباً لهما وتقديراً ووفاءً . ولهذا شمله الله تعالى بالسلام والطمأنينة يوم ولد ، ويوم مات وبالسلام يوم القيامة والنجاة من النار في ذلك اليوم المهلول . حين تبعث الخلائق ، فمنهم شقي وسعيد



تأملات في سورة مريم (٢)

الناظر في هذه السورة الكريمة يجدها تتحدث في التربية الأسرية . وعلاقة أفراد الأسرة بعضهم ببعض : فالمقطع الأول يتحدث عن سيدنا زكريا وابنه يحيى عليهما السلام ... وهنّ الدعوة ، وحمل الأمانة ، وبر الولد بأبويه .

والمقطع الثاني يتحدث عن العلاقة الحميمة بين الأم وولدها ، الأم الطاهرة النقية مريم العذراء التي وهبت نفسها لدين الله ودعوته ، والولد الصالح عيسى عليه السلام الذي دافع عن طهر أمه وشرفها ، وحمل الدعوة إلى الله عز وجل .

والمقطع الثالث يتحدث عن الصديق إبراهيم عليه السلام الذي هداه الله إليه ، وعلاقته بوالده حين دعا الولد أباه بأدب جم إلى عبادة الله الواحد ، ثم اعتزله وقومه إذ أصروا على الكفر ، وتحمل المشاق في سبيل الدعوة إلى ربه ، فأكرمه الله تعالى بالذرية الصالحة التي رباها فأحسن تربيتها . فكان بذلك قدوة للعالمين جميعاً .

والمقطع الرابع يتحدث عن النبي العظيم موسى صاحب العزم القوي في الدعوة إلى الله ، إذ أكرمه ربه فجعله مُخْلِصاً ورسولاً كريماً ، ومنّ عليه في أخيه هارون فوهبه أعلى درجات الإنسان في الوصول إلى ربه " النبوة " . فكان موسى لهارون أكرم منّة لأخ على أخيه مرّ الدهور وكثر العصور .

والمقطع الخامس يتحدث عن دور رب الأسرة في تربية أهله - زوجةً وأولاداً وموالي - فهذا إسماعيل عليه السلام كان يأمر أهله بالصلاة والزكاة ، وكان عند ربه مرضياً بسبب تربيته إياهم . فكان قدوة لمن بعده في الاعتناء بالأسرة ووصلها بالله .. فمن كان بجبل الله موصولاً سعد وأكرم ، وحاز القبول .

وقد كنا الأسبوع الماضي نتأمل في رياض المقطع الأول ، في رحاب النبيين الكريمين الأب زكريا وابنه يحيى .. فهلمّ إلى الروضة الغناء في رحاب العذراء البتول وابنها السيد الكريم عيسى عليهما السلام .

١ - تقييد العلم : العلم في الصدور ، وتقييده في السطور ، وكلمة " اذكر في الكتاب " ترددت

خمس مرات في هذه السورة الكريمة :

" واذكر في الكتاب مريم "

" واذكر في الكتاب إبراهيم "

" واذكر في الكتاب موسى "

" واذكر في الكتاب إسماعيل "

" واذكر في الكتاب إدريس "

والفائدة التربوية الأولى من كلمة " اذكر " العلم : فالعلم بالشيء ومعرفته أمر لا بد منه لأهل الدعوة (ففاقد الشيء لا يعطيه) .

والفائدة الثانية الكتابة : إن تقييد العلم في كتاب يحفظه من الضياع ، ويثبت في الذاكرة بين الحين والحين .

والفائدة الثالثة التعليم : وهذه رسالة الأنبياء والدعاة والمعلمين ، لا ينبغي التفریط فيها ، " فمن كنتم علماء لجمه الله بلجام من نار " .

٢- شفافية التبتل إلى الله : من كان مع الله كان الله معه ، ومن أخلص في عبادته اجتبه الله وأدناه . فقد انقطعت مريم عن اقرب الناس إليها وعن الدنيا ، واجتهدت في التقرب إلى مولاهما ، فاستقلت عنهم بأدب جم دون أن تسيء إليهم " فانتبذت " منهم ولم يقل : " نبذتم " ففي الأولى ابتعاد وانقطاع مع احترام وتوقير ، وفي الثانية احتقار واستعلاء . فالانتباز بالنفس ، والنبد للآخرين !... رأيتم جمال التعبير ؟! ... إلى أين ؟ " مكاناً شرقياً " ... إلى مصدر النور عند إشراق الشمس . ومن كان قصده خالق النور والضياء احتجب عن الناس " فاتخذت من دونهم حجاباً " .

٣- الجزء من جنس العمل : حين انقطعت إلى الله تعالى ورغبت فيما عنده ورجت رضاه لم يخيب أملها ... وصلها حين وصلته . وقبلها حين قصده . " وما يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها . وإن سألني أعطينه ، ولئن استعاذني لأعيذته " . لقد أرسل إليها كبير الملائكة " جبريل " عليه السلام . ليكرمها بسيد من سادات البشر .

٤- المنطقية في التعامل : لجبريل عليه السلام ست مئة جناح ، كما ذكر النبي عليه الصلاة والسلام . وكان يملأ السماء حين رآه النبي عليه الصلاة والسلام مرتين على هيئته التي خلقه الله تعالى عليها . فلو

أنه دخل على مريم بهذه الهيئة لسقطت ميتة أو مغمى عليها . فلم يكن تباسط ، ولا حديث ، ولما عرفت سبب دخوله عليها ولا ماهيته . إذاً دخل عليها على هيئة رجل " فتمثل لها بشراً سوياً " لتفهم منه ، فيخاطبها وتخطبه .. وقد نبه المولى سبحانه وتعالى إلى المثلية فقال راداً على الذين رغبوا أن يكون الرسول ملكاً حتى يؤمنوا به : " وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا : أبعث الله بشراً رسولاً ؟! قل : لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكاً رسولاً " .

٥- الحوار : هو أسلوب راق في التربية ، له فوائد كثيرة . منها :

١- أنك تسمع حديثاً فيه آراء وحجج يدلي بها المتحاورون ، ليبرهن كل منهم على صواب ما يرثيه .

٢- ان الحوار يثري السامع والقارئ والرأي بأفكار تطرح أمامهم ، بالحجة والبرهان ، فيعتادون التفكير السليم والأسلوب القويم .

٣- أن الحوار أثبت في النفس لأن السامع يعمل أكثر من حاسة في تفهم أبعاد الحوار ومراميهِ وعلى هذا تعال معي إلى متابعة الحوار بين الملك ومريم :

" قالت : إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقياً "

" قال : إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكياً "

" قالت : أنى يكون لي غلام ولم يمسسني بشر ، ولم أكن بغياً "

" قال : كذلك قال ربك : هو عليّ هين ، ولنجعله آية للناس ورحمةً منا ،

وكان أمراً مقضياً " .

وفي هذا الحوار فوائد جمة ، نذكر منها :

١- اللجوء إلى الله تعالى في الملمات ، فهو حصن حصين وركن ركين .

٢- الرجل التقى لا يقتحم مخادع النساء ، وينأى بنفسه عن الشبهات .

٣- لا بد من تعليل يبعد هذه الشبهات ، ولو كان المشبوه به تقياً فقد قال الرسول صلى الله

عليه وسلم لرجلين رأياه مع صفية ليلاً : هذه أمكم صفية . كي لا ييؤوا بالكفر حين يظنان سوء بنيهم ... فقال الملك : لأهب لك غلاماً زكياً .

٤- المرأة المسلمة الشريفة لا تزني ، ولا يكون الحمل إلا بالزواج أو الزنا.

٥- إذا أراد الله شيئاً قال له : كن فيكون . ومريم تعلم أن الله تعالى قادر على كل شيء لكنها

أبدت تعجبها أن يختارها الله لهذا الشرف العظيم

٦- توخي الحذر والستر : يعلمنا الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم التستر . فيقول : إذا

ابتليت بالمعاصي فاستتروا " ونعى القرآن تساهل اليهود في السكوت عن المنكر " كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون " ووبخ لوط عليه السلام قومه الذين استحلوا اللواط وجهروا به " إنكم لتأتون الفاحشة ، ما سبقكم بها من أحد من العالمين ، أنكم لتأتون الرجال وتقطعون السبيل ، وتأتون في ناديكم المنكر .. " اما الطاهرة العفيفة مريم فقد استترت في مكان قصي وهي لم تفعل المنكر ، فكانت مثلاً للشرف المصون والفتاة التقية . حتى إنها تأملت ألماً شديداً ، وتمنت أنها لم تخلق ، ولم يعرفها أحد . بل تمت لو كانت شيئاً لا قيمة له .

٧- الدعم والتأييد : إذا كلفت أحدهم بمهمة فلتكن قدر استطاعته " لا يكلف الله نفساً إلا

وسعها " وإذا لم يستطع القيام بها لكونها فوق طاقته أو كانت ثقيلة فأعنه عليها ، وسهل له سبلها وهذا ما وجدناه في قصة مريم فقد :

- سمعت من يكلمها في وحدتها ويشد من أزرها .

- جرى إلى جانبها جدول ماء عذب شرب منه .

- هزت جذع النخلة فتساقط عليها رطب لذيذة سهلت الطلق والولادة .

- الامتناع عن إجابة المتطفلين .. فهي صائمة عن الكلام . ومن الذي سيتكفل بالإجابة ؟

إنه ولدها الذي يدافع عنها بإذن الله . وسينطقه الله بما يبرئ أمه ويرفع قدرها بين الناس .

وعلى هذا استمدت قوة وشجاعة ، وعادت إلى قومها تحمل وليدها . وكان ما كان من أمر الناس ،

وحق لهم أن يسألوها ، فهي ابنة سيدهم المعروف بدينه وخلقه وأمها مثال الصون والعفاف ، كما أنهم يعرفونها شديدة التدين مشهورة بالعفة والطهارة .

٨- الرد المفحم : قد يكون الإنسان صاحب حق ، إلا أنه عيي أو أحمق أو غبي ساذج لا

يعرف كيف يستخرج حقه أو يحتفظ به أو يدافع عنه ، فيضيع منه كله أو جلّه ، وقد يكون أحدهم مبطلاً

لكن لسانه طليق وحجته حاضرة وأساليبه ذكية ، فيسلب حق غيره ويحتال على الضعفاء فيغمرهم نصيبهم . لكن الله تعالى لقن الوليد حجته ، فكان قوله الفصل وبيانه الفصل

أولاً : عرّف بنفسه . فهو عبد الله . ومن أعلن عبوديته لله فقد عرف ربه وهذه أسمى المراتب

ثانياً : ومن كان عبداً لله تعالى فتح عليه ينابيع العلم وكنوز المعرفة ، وآفاق الحكمة .

ثالثاً : ثم خصه الله بمرتبة النبوة الكريمة ، وهذه قمة الإنعام والفضل .

رابعاً : افاض عليه الخيرات والبركات ، فكان مع الله قلباً وقالباً في حله وترحاله ، ونومه ويقظته ،

خامساً : وأوصاه أن لا يفتر عن ذكر الله وأن يكثر من الصلاة - وهي الصلة بالله - والزكاة -

الإحسان إلى عباد الله - وكأنه سبحانه يقول : عبدي أحسنت إليك فأحسن إلى عبادي ، وأحب عباد

الله إليه أنفعهم لعياله .

سادساً : والأقربون أولى بالمعروف . وفضل الأم لا يداني . وقد قرن الله تعالى عبادته بالإحسان إلى

الوالدين . ثم يكتمل الإحسان بتعميمه على الناس أجمعين .

سابعاً : ويتوج ذلك كله بسلام الله عليه في حياته وفي موته ، وحين يبعث يوم القيامة .

ومن الطريف أن المفسرين يوردون حواراً بين ابني الخاليتين ، عيسى ويحيى .

فيقول عيسى : أنت خير مني يا يحيى .

فيقول يحيى : بل أنت خير مني ، أنت من الخمسة أولي العزم .

فيقول عيسى : بل أنت خير مني ، فقد سلمت على نفسي ، فقلت : والسلام عليّ

وأنت سلم الله عليك فقال : وسلام عليه صلى الله عليهما وعلى جميع الأنبياء والمرسلين وعلى سيدنا

محمد سيد الخلق أجمعين .



تأملات تربوية في سورة مريم (٣)

١- الداعية مؤتمن :

تفيد كلمة " اذكر " ذلك الخطاب - خطاب التكليف - من الله تعالى لنبيه الكريم يأمره أن لا يغفل شيئاً مما أمره الله به ، فالرسول عليه الصلاة والسلام مؤتمن على الدعوة . وعليه أن يبلغها كاملة . فهي أمانة في عنقه . كما أن كل مسلم داعية في محيطه ، كبر هذا المحيط أم صغر ... وبما أنه صلى الله عليه وسلم مخاطب في القرآن الكريم من أوله إلى آخره فهذا دليل على أن القرآن ليس من عنده . فالإنسان لا يأمر نفسه أمام السامعين أو القارئین .. صحيح أنه يفكر أحياناً بصوت عال إلا أن كثرة الأوامر والتعليمات في القرآن تدل على أن الرسول المعلم ينفذ تعليمات خالق سيد أمر.

٢ - المديح : أسلوب راق يستعمله المربون :

١ - للتعبير عن الرضا بما يصدر من أعمال أو أقوال تسر وتُحمد .

٢ - لدفع الممدوح إلى التزام ما يرفعه في أعين الناس .

٣ - يوحون به للآخرين أن يكونوا مثل الممدوحين في شمائلهم .

وقد مدح المولى عبده إبراهيم عليه السلام بصفتين لا يتصف بهما إلا من كان في القمة البشرية " كثرة الصدق والنبوة " . مع تعليل الوصول إلى هاتين المرتبتين العظيمتين . فقد كان داعية مخلصاً لدعوته لا يمالئ فيها أحداً أبداً . وهذا أبوه أقرب الناس إليه يفتحه بها ويدعوه إليها بأكثر من طريقة تربوية رائعة . نذكر أولاهما متسلسلة بعد أسلوب المديح :

٣- التحبب : يدخلك القلب دون استئذان ، ويوئلك المكانة العالية في صدور السامعين ونفوسهم .

أما المتعالى فعلى العكس من ذلك ينفر الناس منه ، ويجدونه ثقيلاً على قلوبهم ... وكرر كلمة " ياأبت " متحبباً إلى أبيه ، محاولاً دخول قلبه :

يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئاً ؟

يا أبت : إني قد جاءني من العلم ما لم يأتك ، فاتبعني أهدك صراطاً سوياً .

يا أبت لا تعبد الشيطان ، إن الشيطان كان للرحمن عصياً .

يا أبت إني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان ولياً .

ولعل ٤- التكرار : وهو أسلوب أصيل في التربية أفاد هنا بالإضافة إلى التحبب التأكيد والتفصيل والتنبيه على خطر عظيم وأمر مهم . إن الطرق يلين الحديد لكن قلب الأب الكافر أقسى من الحديد ، أو قد من صخر فلم ينفع معه الاستعطاف واللفظ .

٥- الترتيب والتتابع في العرض : ففي الآية الأولى من كلام إبراهيم عليه السلام

لوم لطيف لوالده وعتاب : فكيف يعبد آلهة ضعيفة ليس لها سمع ولا بصر ، ولا تنفع؟! ويقدم السمع على البصر لأنه أوسع فجعل له الأولوية ، وهذا شأن القرآن الكريم في تقديم الأهم ويتجلى هذا الترتيب من حيث الأهمية في قوله تعالى " زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث " الآية ١٤ من سورة آل عمران . فالمرء يبدل المال ليتزوج فينجب البنين .. فالنساء أولاً ثم إنجاب البنين ، والمال في خدمتهما فهو الثالث من حيث الأهمية . وقدم من المال الذهب على الفضة، وتأتي الخيل ثالث المال والأنعام رابعها من إبل وبقر وغنم. ثم أخيراً دور الزرع ... وبعد اللوم على الضلال يدعوه إلى اتباعه على علم : وعلى الجاهل مهما كبر أن يتبع العالم مهما صغر . فالحق أحق أن يتبع والعلم يهدي إلى الصراط السوي - فليس سواء عالم وجهول -

ثم يأتي التحذير من الشيطان : لأنه عدو للرحمن ، يحيد بمن اتبعه عن الحق ويغويه فيغضب الله تعالى عليه ومن عصى الله كان إلى النار نهيته .

ثم يأتي التخويف من الله الذي يعاقب بالنار الشيطان ومن تبعه ، فإبراهيم عليه السلام يخاف على أبيه لأنه يحبه . وقد جاء في تفسير قوله تعالى : " ولا تخزي يوم يبعثون " في سورة الشعراء أن إبراهيم يلقي أباه يوم القيامة عليه الغبرة والفترة ، فيقول : يارب : إنك وعدتني ألا تخزيني يوم يبعثون . فيقول الله تعالى : إني حرمت الجنة على الكافرين . وفي رواية أخرى : يلقي إبراهيم أباه آزر يوم القيامة وعلى وجهه فترة وغبرة، فيقول له إبراهيم : ألم أقل لك : لا تعصني ؟ ، فيقول أبوه : فاليوم لا أعصيك . فيقول إبراهيم : يارب إن وعدتني أن لا تخزيني يوم يبعثون ، فأني خزي أخزي من أبي الأبعد؟ . فيقول الله تعالى : إني حرمت الجنة على الكافرين . ثم يقول : يا إبراهيم ، انظر تحت رجلك . فينظر ، فإذا بذبح متلطح فيؤخذ بقوائمه، فيلقى في النار . نعوذ بالله من سوء المصير ...

وهذا الأسلوب التدرجي من اللوم إلى الدعوة إلى التحذير إلى التخويف - أسلوب تربوي ينتقل بالمدعو خطوة خطوة .

٦- الحلم: ولا بد للداعية أن يكون في دعوته للآخرين حليماً واسع الصدر يحتوي المدعوين وإن أساءوا إليه . هذا ما نراه من سيدنا إبراهيم حين جبهه أبوه بقوله : " أرغب أنت عن آلهتي يا إبراهيم ؟ " وهدده بالرحم والطرده : " لئن لم تنته لأرجمنك ، واهجرني ملياً " فرد عبه بالطف كلام يدل على الحلم والروية:

" سلام عليك ، سأستغفر لك ربي ، إنه كان بي حفيماً "

أسلوب يدل على اهتمام الداعية بدعوته ومن يدعوهم إليها وعلى اهتمام المرابي ومن يريهم . إن الإجابة بالعنف والارتجال القائم على ردة الفعل يضر ولا ينفع ، فهو إن حصل لم يعد للتفاهم مكان ، ولا للنصح قبول ، وضع الداعية الفرصة في اكتساب الناس .

وهذا ما فعله الصالحون في كل زمان ومكان وقالوه : " سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين " . وهذه صفات عباد الرحمن الذين مدحهم الله عز وجل : " وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً "

٧- والشفاعة : وهي طلب الخير للغير والوساطة لهم عند من يرجوهم . وهذا ما عناه النبي الكريم إبراهيم حين قال : " سأستغفر لك ربي إنه كان بي حفيماً " إن المدعو حين يرى من الداعية اهتماماً واعتناءً يلين قلبه ثم يتقبل منه ما يقول ، ثم يؤمن بما يقول ، ثم يعتنق ذلك ويكون منافحاً عن هذه الدعوة " ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك " .. كان الصحابة متحلقين حول رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أقبل رجل من بعيد إلى مجلسه صلى الله عليه وسلم ، فالتفت إليهم صلى الله عليه وسلم ، وقال : " هذا الرجل قادم يريد مني مسألة ، وإني معطيه إياها إن شاء الله ، ولكن إذا سألتها فاشفعوا له ، والله يؤجركم على شفاعتكم ، وليقض الله على لسان نبيه ما يشاء " . جاء الرجل وجلس ولم ينبس ببنت شفة . فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ألك حاجة يا رجل؟ " قال : نعم يا رسول الله ، صلى الله عليك وسلم . وذكر حاجته . فكان أصحاب رسول الله يقولون :

- هو أهلٌ لفضلِكَ يا رسول الله .

- ما علمنا عنه إلا خيراً يا رسول الله .

أحسن إليه يا رسول الله . فما عهدناك إلا محسناً .

كان الرجل ينظر إليهم مسروراً من شفاعتهم ، وقد أحبههم وشعر أنه منهم وأنهم منه يا لهذا المجتمع المتحاب المتكافل ... وابتسم رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقد اكتسب إلى المسلمين واحداً آخر ، وعلم أصحابه أن يناصر بعضهم بعضاً وقضى للرجل حاجته .

٨- اعتزال الجاهلين : المسلم داعية . فكيف يدعو الناس إذا اعتزلهم؟ .. إنه يعيش بينهم ليؤثر فيهم لا ليتأثر ، يعيش بينهم مادة لكنه مع ربه قلباً وروحاً وفكراً . يعاملهم بالحسنى ويتحملهم ، ويشاركهم حياتهم إلا أنه ينأى عن مفسادهم وكيف يعتزلهم منقطعاً عنهم تماماً والرسول الكريم يقول : " المسلم الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم خير من الذي لا يخالطهم ولا يصبر على أذاهم "؟! إبراهيم عليه السلام قال : " واعتزلكم وما تدعون من دون الله " هو اعتزال المسلم للمنكر والجهالة ، إلا أنه حاضر بينهم يعمل على هدايتهم ، يقوم بخدمتهم والسهر على مصالحهم . وتنبههم إلى الصواب وحضهم عليه

٩- ثواب الصالحين : " فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له إسحق ويعقوب وكلا جعلنا نبيا ووهبنا لهم من رحمتنا وجعلنا لهم لسان صدق علياً " وهبه الله تعالى بعد العقم ولدًا صالحاً وحفيداً صالحاً ، وزاده نعمة أن جعلهما نبين كريمين ، وأكرمهم ببقاء ذكرهم مكرماً وذريتهم على مر الدهور وكر العصور ، فكل المسلمين وغيرهم من اهل الأديان يكبرونهم ويجلونهم . بل إن الله تعالى أخبرنا أنه أكرم الأولاد بسبب صلاح الآباء ، لقد قال في سورة الكهف " وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين في المدينة وكان تحته كنز لهما وكان أبوهما صالحاً فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك . " وقد قتل الرجل الصالح في سورة الكهف - كذلك - الغلام السيء وأبدله فتاة سالحة لأن الأبوين كانا صالحين . فالله لا يضيع أجر من أحسن عملاً .



تأملات تربوية في سورة مريم (٤)

قوله تعالى عن الذكر فيه معان كثيرة منها :

١- التشريف والتكريم : في قوله تعالى " وإنه لذكر لك ولقومك " . إن قَدَرَ الإنسان يعلو بانتمائه إلى ربه وإرضائه ، والعمل بما أمر والانتفاء عما نهى . وفي قوله جل شأنه " ص ، والقرآن ذي الذكر " فمن عاش في ظلاله وحَيَّ به ارتفعت مكانته ، ومن أبى ذل وخاب " بل الذين كفروا في عزة وشقاق " والعزة هنا استكبار وعناد ، يوضحه قوله تعالى " وإذا قيل له : اتق الله أخذته العزة بالإثم " والشقاق : الخلاف والإنكار . ونعود إلى " الذكر في القسم الرابع من تأملاتنا في قوله تعالى " واذكر في الكتاب موسى " .. فماذا وصف هذا النبيِّ الكريم ؟ .. لو عدنا إلى السورة نفسها في بداية الذكر لرأينا كل نبي ذكر بصفة اختص بها :

زكريا عليه السلام وصف مثل نبينا محمد صلى الله عليه وسل بالعبودية " ذكر رحمة ربك عبده زكريا".
وعيسى عليه السلام خص بهذه الصفة " قال إني عبد الله "
وإبراهيم وإدريس عليهما السلام خصا بالصدّيقية : " واذكر في الكتاب إبراهيم إنه كان صدّيقاً نبيا "
" واذكر في الكتاب إدريس إنه كان صدّيقاً نبيا " .
وموسى عليه السلام خُصَّ بالقرب والتكليم " وناديناه من جانب الطور الأيمن وقريناه نجياً " .
وإسماعيل عليه السلام وُصِفَ بصدق الوعد والرضا " إنه كان صادق الوعد وكان عند ربه مرضياً "

وداود عليه السلام وُصِفَ بأنه وُهب القوة وكثرة التوبة " واذكر عبدنا داود ذا الإيد إنه أواب . كما كرر ذكر الأنبياء مرة بأنهم " أخيار " ومرة بـ " الذكر الحسن " ومرة بـ " الصبر " وكل ذلك تكريم وتشريف لهم ودعوة إلى الاقتداء بهم . فهؤلاء قلوبهم متصلة بربهم ، وحياتهم وقفوها على رضاه " إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجّداً وبكياً" .. فالله تعالى شرفهم ، وهم شكروه بسجودهم مقرين بفضله عليهم ومنته سبحانه.

٢- الترهيب والترغيب: أسلوب تربوي مؤثر. ففي الإنسان بذرة خير . إن تعهدا بالعناية

والرعاية زكت ونمت فنال صاحبها الأمن والأمان والسعادة والهناء . وفيه بذرة شر ، إن أهملها ولم يلق لها بالاً زاحمت بذرة الخير ودافعتها ، فإذا ساعدتها نوازع فاسدة كامنة في حنايا الإنسان اشتدت واستفحلت ، وبدا خطرهما على صاحبها ومن حوله ، فدبت الفوضى وضربت أطنابها في المجتمع ومن طبع الإنسان أن يفعل الخير . لأن الله فطره على الهدى والصلاح ، ودله على طريقه ومن طبعه أيضاً أن يقع في الخطأ والتفلة والتهاون لأن الله تعالى خلقه من عجل . وخلقه ضعيفاً يصيب الذنوب والآثام ... لذلك كانت الجنة للتائبين العائدين إلى ربهم ، والنار للعاصين المتكبرين سبيل الهدى والرشاد .

ونرى القرآن العظيم يستعمل أسلوب الترغيب وأسلوب التهيب بمقدار ما يقوم سلوك الإنسان ليمضي على ما يرضي الله تعالى .

وليس في القرآن - على الغالب الأعم - آية ترغيب إلا تبعثها آية تهيب . ولا آية تهيب إلا تبعثها آية ترغيب فهما - الترغيب والتهيب - متلازمان .. والحكمة في ذلك: أولاً التذكير بالثواب والعقاب ليظل الإنسان حريصاً على نيل المثوبة واتقاء العقوبة . وثانياً أن من لا يؤثر فيه الترغيب وثوابه يؤثر فيه التهيب وعقابه .

ومثال هذين الأسلوبين في هذه السورة الكريمة قوله تعالى " فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غياً " فبدأ بالتهيب مبينا السبب (إضاعة الصلاة واتباع الشهوات) ثم النتيجة (فسوف يلقون غياً) فاختزل التهديد في هذه الآية التي فجأت السامع فارتجف لها قلبه، وتزلزل لها كيانه فأصبح مهياً لأن يميل نحو الثواب الذي جاء بعد صيغة الاستثناء في الآيات ٥٩ - ٦٤ فأراحت القلب وهذأت الأعصاب بعد تلك الفجأة المخيفة ... فمن تاب وآمن وعمل صالحاً نال حقه كاملاً ودخل الجنة التي وعده الله بها في الحياة الدنيا وفي هذه الجنة الطمأنينة والسلام والرزق الهنيئ الرغيد الدائم الذي لا ينقطع ، يناله العبد التقي الصالح . جعلنا الله أتقياء صالحين

٣- الحجة المنطقية : ينكر الكافر أن يبعث بعد الموت مرة أخرى : " ويقول الإنسان إذا ما مت لسوف أبعث حياً؟! " .. إنه سؤال استنكاري لا يريد صاحبه جواباً لاقتناعه أن لا بعث ولا نشور بعد الموت . فيأتي التحدي المنطقي : الذي يدمغ بالحجة البينة والمنطق الساطع : إن الله خلقك ابتداء من لا شيء أفلا يستطيع إعادتك من شيء؟! فإذا كان المولى سبحانه قد أوجدنا من العدم ولم نك شيئاً ؟ أفلا

يستطيع سبحانه أن يعيدنا إلى الحياة من وجود؟.. .. بلى إنه قادر على كل شيء بقوله : كن فيكون .
والتحدي يجِبُهُ المنكِرُ ، فيخرسه ويوقفه عند حده ، ويكسر حدته ويجرده من قوته الكاذبة . أو قل يعريه
مما يدّعيه ، ويظهر ضعفه ، ويعيده إلى حجمه الحقيقي . ثم انظر معي إلى مقولة الكافر الجاهل الذي ليس
له من الأمر شيء يدعي أنه سيؤتي من الأولاد والبنين والأموال ما يشاء ، وكأن له قدرة على ذلك ،
فيهرف بما لا يعرف " أفأريت الذي كفر بآياتنا وقال : لأوتين مالاً ولداً " فهنا يسأله العليم القدير من
بيده مقاليد الأمور : " أطلع الغيب أم اتخذ عند الرحمن عهداً " فلا هو اطلع على الغيب فعرف ، ولا هو
أخذ من الله سبحانه الوعد والعهد على ذلك . فكيف يدعي من لا يقدر أنه يقدر ومن لا يعلم أنه
يعلم؟! حجة منطقية تعلمنا أن على الإنسان أن يلزم حده ، فيقف عنده .

٤- التهويل : اسلوب تربوي مخيف ، يزلزل النفوس ، ويحرق الأعصاب ، ويخضد شوكة الخصم ،
ويزرع الرعب في أوصاله ، فيستسلم صاغراً ذليلاً ، منكسر الفؤاد مستسلماً ، وهو أسلوب إذا تمكن منه من
يستعمله كما استعمله القرآن فقد كسب الجولة بكل تأكيد . ومثاله قوله تعالى : " وقالوا اتخذ الرحمن ولداً ،
لقد جئتم شيئاً إدّاً (عظيماً) تكاد السماوات يتفطرن منه وتنشق الأرض و تخر الجبال هداً أن دعوا
للرحمن ولداً وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولداً ، " فالله واحد أحد ، فرد صمد ، ليس له زوجة ، ولا شريك ،
ولا ولد .

وكثيراً ما يدخل في التهويل :

٥- التصوير الحسي المتسلسل :

" فوربك لنحشرنهم والشیاطین "

" ثم لنحضرنهم حول جهنم جثياً "

" ثم لننزعن من كل شيعة أيهم أشد على الرحمن عتياً "

" ثم لنحن أعلم بالذين هم أولى بها صلياً "

" وإن منكم إلا واردها ، كان على ربك حتماً مقضياً "

" ثم ننجي الذي اتقوا ونذر الظالمين فيها جثياً "

فتصور معي كيف يُحشَر العتاوله والمجرمون مع الشياطين أذلاء صاغرين ، ومقيدين يسحبهم الزبانية

إلى جهنم ، ثم هم يجثون على ركبهم ، لا يملكون من أمرهم شيئاً ، ولا ينتظرون عوناً من أحد . وقد أيقنوا بالهلاك فنكسوا رؤوسهم خوفاً ورعباً . ثم ترى العتاة المتجبرين المتكبرين^١ ينزعون من بينهم ويلقون في جهنم دون حساب ، فليس لهم عند الله تعالى قيمة ، وكان تجربتهم في الدنيا وبالاً عليهم في الآخرة . فهم أهلها الذين يخلدون في النار أبد الآبدين .

وهناك حقيقة لا بد منها .. فالجميع - صالحين وطالحين - يردون جهنم والعياذ بالله " وإن منكم إلا واردها " . قال أهل العربية : ليس من شرط ورودها الدخول فيها . إن أهل الجنة يجوزونها على الصراط دون أن يشعروا بها بإذن الله وفضله . .. اللهم اجعلنا منهم بفضلك وكرمك ورحمتك ... أما أهلها فيسقطون فيها ، نعوذ بالله منها ومن مصير أهلها ... لقوله تعالى " ثم ننجي الذين اتقوا ، ونذر الظالمين فيها جثياً " .. والسورة مليئة بالصور المتحركة التي تخلع القلوب وتزلزل الأوصال

٦-- .الجمال الموسيقية : انقسمت الفاصلة القرآنية في هذه السورة إلى قسمين :

من أول السورة إلى الآية ٧٤ نجد - غالباً - الياء المشددة بعدها ألف ممدودة تمد الأنفاس راحة وتمنح الصدر والروح هدوءاً في الحديث عن الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم . فهناك مناجاة ودعاء ورحمات (خفياً ولياً رضيعاً سميّاً سويّاً عشياً نبياً عليّاً ...) موسيقا تفتح القلوب وتنشط الأعصاب وتنتشر الأنس ونسمات الاسترواح .. ثم هي نفسها تنقلب إلى إصرار وعزم وتهديد حين تتحدث عن مصير المجرمين في جهنم (جثياً عتياً صلياً مقضياً) ، فتجد التهديد والوعيد القويين .

ومن الآية ٧٥ إلى آخر السور نجد - غالباً - حرف الدال المشدد الذي يناسب التهديد والوعيد والعقاب أو السكون قبل حرف الدال .. (مدّاً مردّاً إذاً هدّاً ودّاً لدّاً ضدّاً .. عهداً عبداً فرداً)

ونجد الزاي المشددة الدالة على الغضب الشديد (أژاً عژاً) .. هذه الفواصل أسلوب تربوي لما فيها من إحياءات معبرة عن العاطفة الهادئة حيناً والمائجة حيناً آخر ، العاطفة مرة والعاصفة مرة ثانية . تؤثر في القارئ والسامع على حد سواء . فتراه يلين مع الأنبياء في الحديث عنهم ، وينشط لحديث الجنة ، ويرتجف لذكر النار وأهلها . ويجتهد ليكون ممن يحشر في وفد الرحمن ويهفو لذلك . ويخاف أن يساق مع العصاة العتاة فينأى عنهم . ويرضى لرضاء الله . ويغضب لغضبه سبحانه .

٧- مخاطبة الناس بما يناسبهم : لو دعاك أحدهم بلغة جميلة وصوت عذب ، لكنك لا تعرف هذه

اللغة فهل تستجيب؟ طبعاً لن تكون هناك استجابة لأنك لم تفهم ما يقول ، ولم تتفاعل معه : " ولو نزلناه على بعض الأعجمين فقرأه عليهم ما كانوا به مؤمنين " ... أما إذا خاطبك بلغتك ، بل بلهجتك التي اعتدت عليها ، بل بدقائق هذه اللهجة ومفرداتها فسوف تُشد إليه ، وتنزع إلى ما يقول بلهفة .. وهكذا نزل القرآن " فإنما يسرناه بلسانك لتبشر به المتقين ، وتنذر به قوماً لداً " . فتفهم هؤلاء وتقيم الحجة على هؤلاء . وعلى هذا أمر الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم الصحابي الشاب زيد بن ثابت أن يتعلم لغة يهود ، وقال : " من تعلم لغة قوم آمن مكرهم " ولن يدخل أحد قلوب الآخرين إذا لم يملك مقاليد اللسان الذي يترجم أحاسيسه وأفكاره .



تأملات تربوية في سورة طه (١)

في هذه السورة الكريمة معان تربوية عديدة ورائعة . ولن نستطيع الإحاطة بها . ومن ذا يدعي ذلك في القرآن - كلام الله سبحانه- الذي وصفه النبي عليه الصلاة والسلام بروائع الوصف والمعاني فقال : ... وهو الذي لا تزيع به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسن ، ولا يخلق على كثرة الرد ، ولا تنقضي عجائبه ... وحسبنا أن نقتطف منه ثماراً يانعة ووروداً ناضرة .

١- التحجب وإنزال الناس منازلهم : فكلمة " طه " لها معان كثيرة عددها المفسرون ، لكنني سأقف على معنيين اثنين يوضحان المقصود . فقد ذكر القرطبي في تفسيره الكبير " الجامع لأحكام القرآن " أن بعض العرب مثل - عك وطيء- درجت على مناداة من تحب بكلمة طه ، ذكره عبد الله بن عمرو وقطرب . ودرجت بعض القبائل مثل - عكل - على مناداة الرجل العظيم المحترم بالكلمة نفسها طه ، ذكره الحسن البصري وعكرمة . وكأن الله سبحانه وتعالى -على فهمنا لهذين المعنيين - ينادي رسوله الكريم محمداً عليه الصلاة والسلام يا حبيبي ، فهو حبيب المصطفى وأيها الرجل الكريم ، فهو الرجل الذي كان النور الهادي إلى الله - وما يزال إلى يوم القيامة - ولو عدنا إلى الآيات التي تذكر كلمة رجل ومثناها وجمعها لرأيناها مدحاً كلها ما خلا سورة الجن في قوله تعالى " وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقاً " والقرآن على هذا يعلمنا أن يكون خطابنا للآخرين لطيفاً محبباً ، وأن نحفظ لهم مكانتهم ونكرمهم ، فاحترام الناس وإنزالهم منازلهم يعود على الداعية بالحب والود ، ويفسح له في قلوب الناس القبول والطاعة ، وما كان الجفاء في يوم من الأيام سبيلاً إلى الدعوة " فبما رحمة من الله لنت لهم ، ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك ... " .

٢- الإطناب : البلاغة كما يقول أهلها " مراعاة مقتضى الحال " فالإيجاز في الحديث حين يفيد الإيجاز . والإسهاب فيه حين يقتضي الأمر ذلك . وسورة طه مكية ، تهتم كأخواتها من السور المكية بتوضيح عقيدة التوحيد وتثبيتها في قلوب الناس ، فلا بد من الإسهاب الدقيق المركز . ومثاله في هذه السورة الكريمة الآيات الخمس ، من الآية الرابعة إلى الآية الثامنة

فالقرآن الكريم أنزله من أبدع الأرض والسموات العلا .. من هو وما صفاته؟ إنه الرحمن

الذي استوى على العرش فدانت له الخلائق كلها!!... وهو - سبحانه - الذي ملك كل شيء .. ملك السماوات وملك الأرض وملك ما بينهما وملك ما تحت الثرى ، فهل بقي شيء لم يسيطر عليه - سبحانه - ؟ كل ما علا وما سفل وما كان بينهما في قبضته فهل هناك مفر منه إلا إليه ؟

أفر إليك منك ، وأين إلا إليك يفر منك المستجير

ثم إنه سبحانه مطلع على الظواهر والسرائر وعلى ما هو أخفى من السرائر . أتدرون ما أخفى من السرائر؟! ... إنها الخواطر التي تلمع في أذهاننا والأفكار التي تسطع في عقولنا ثم تمضي سريعاً في عالم النسيان ... نعم ننساها ولا نتذكرها ، لكنها في علم الله سبحانه وتعالى لا تغيب.... وكيف يغيب شيء - مهما قل وخفي - عن العليم الخبير !!

فإذا خالط الإيمان بشاشة قلوبنا ، وامتزج بأرواحنا وأنفاسنا نادينا مقرين بـ " الله لا إله إلا هو " وسألناه الخير مترغين بأسمائه الحسنی وصفاته العليا.... وتعال نقرأ هذه الآيات الكريمة ليكتمل المشهد الحسي الروحي العجيب " تنزيلاً ممن خلق الأرض والسماوات العلا الرحمن على العرش استوى له ما في السماوات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى الله لا إله إلا هو ، له الأسماء الحسنی "

٣- حسن الربط بين المعاني : إن سرد الأفكار او الأحداث مسلسلة مرتبة يقيد المتلقي بأمور

عدة منها :

استيعاب الأفكار والأحداث دون انقطاع .

حسن المتابعة لما يُلقى عليه وحسن التعامل معها .

قدرة المتلقي على الحكم السليم على ما يسمع .

الاستجابة لعدد أكبر من المعلومات والأفكار .

فبعد أن عشنا في جو الآيات السابقة جاءت قصة موسى عليه السلام توضح لقاءه بربه الكريم بأسلوب شائق غير منقطع يوضح العلاقة بين الخالق الرحيم والمخلوق الباحث عن الحق ، بين المعبود والعابد ، والرب الأمر السيد والعبد المأمور المطيع. ... فكيف يصطفيه الله تعالى

ويكلمه دون أن يكون بينهما آخرون ؟ لقد رأى ناراً هم بحاجة إليها عله يأتي منها بقبس أو يجد حولها من يده على الطريق إلى مصر ، فقد أخطأه في هذا الظلام الشديد . فوجد درب الهداية وسبيل السلام وفتح له باب السعادة على مصراعيه ، فوج من الكرامة في الدنيا والآخرة ... ذهب إلى النور مقتبساً فعاد نوراً بذاته ، يهتدي بهديه المهتدون ، فقد رأى النور وكلمه . " عرفه بذاته القدسية " إني أنا ربك "

" أني أنا الله لا إله إلا أنا " وعلمه التأدب مع العظيم " فاحلح نعليك " وكأنه يقول له اترك الدنيا وزحرفتها الفانية فأنت مؤهل لأمر جلل " وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى " ولا بد من الاستعداد لهذا التكليف الشاق والاستعانة بالعبادة والتزكية لتكون الصلة بالله قوية تعين على حمل الأمانة " فاعبدني وأقم الصلاة لذكري " . وكرر موسى هذا حين طلب الاستعانة بأخيه فقال : " كي نسبحك كثيراً ونذكرك كثيراً " .

٤- التسلح بالبراهين والأدلة : لا بد حين تكلف إنساناً بمهمة أن تجهزه بما يناسب من مستندات ووثائق - إن كان الأمر يتطلب ذلك - وتوضحها له بمعلومات تساعد على إنجازها بشكل صحيح خال من الأخطاء أو بقليل منها ما كان إلى ذلك من سبيل . . . وهذا ما قدمه الله تعالى لأتباعه في دعوتهم .

فقد كان لصالح الناقة وفصيلها ، ولسليمان الريح تجري بأمره حيث يشاء ، ولداود تليين الحديد ، ولإبراهيم جعل النار المحرقة حديقة غناء ، ولعيسى إحياء الموتى وإخبار الناس بما يدعون في بيوتهم ... وأيد الله تعالى موسى " في تسع آيات إلى فرعون وقومه " ذكر منها في سورة طه اثنتين : أولاهما انقلاب العصا حية تسعى ، وثانيهما وضع اليد في جيب الثوب وإخراجها بيضاء تلمع كالشمس في بريقها . وكان لكل نبي من المعجزات الباهرات ما يبهر المدعوين ويعجزهم .

٥- التحريب : أسلوب تربوي عملي ، يفيد في أمور عدة نذكر اثنين منها :

الأول : أن تثبت الفكرة في النفس كقصة إبراهيم عليه السلام إذ أراد أن يزداد بصيرة في قلبه وعقله فسأل الله تعالى أن يريه كيف يحيي الموتى . مع العلم أنه شديد الإيمان بربه وقدرته سبحانه ، فأجابه إلى ذلك في سورة البقرة الآية ٢٦٠ ولم يشك إبراهيم في قدرة الله ، ولكنه سؤال عن كيفية الإحياء ، ويدل عليه

وروده بصيغة " كيف " وموضوعها السؤال عن الحال . ويؤيد هذا المعنى قول النبي صلى الله عليه وسلم : " نحن أحق بالشك من إبراهيم " ومعناه : نحن لم نشك ، فلأن لا يشك إبراهيم أولى . والثاني : تعويد المرء على شيء يخافه ليطمئن قلبه ، فيستعد لما قد يستجد ، ومثاله ما ورد في هذه السورة حين سأل الله تعالى عما في يده ليجعلها إحدى معجزاته " وما تلك بيمينك يا موسى " فأجابه بما يدل على استعمالها الكثيرة . فأمره أن يلقبها ، " فألقاها فإذا هي حية تسعى " وقد جاء في سورة النمل أنه هرب خوفاً منها " فما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبراً ولم يعقب " . وتصور معي أنه لم يجربها بين يدي الله تعالى فكيف يكون موقفه وهو داعية يلقبها لأول مرة أمام فرعون وملئه فيكون أول الهاربين مع أنهم - وإن خافوا - تماسكوا فلم يهربوا لن يكون الموقف لصالحه . ومع هذا فقد كان الموقف أمام السحرة رهيباً " فواجه في نفسه خيفة موسى " فهدأه الله تعالى " قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى وألق ما في يمينك تلقف ما صنعوا ، إنما صنعوا كيد ساحر ، ولا يفلح الساحر حيث أتى " .

٦- الاستعانة بالصالحين : لقد هيأ الله تعالى لنبيه الكريم محمد عليه الصلاة والسلام رجالاً يعتمد عليهم في نشر الدعوة يكونون عوناً له وأزرًا . وانظر معي وصفهم في آخر سورة الفتح " محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً ، يبتغون فضلاً من الله ورضواناً، سيماهم في وجوههم من أثر السجود . ذلك مثلهم في التوراة . ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره ، فاستغلظ ، فاستوى على سوقه ليغيظ بهم الكفار . وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرًا عظيمًا " وهيأ الله تعالى لنبيه الكريم عيسى عليه السلام حواريين يؤازرونه في الدعوة ، ويعينونه في نشرها : " كما قال عيسى بن مريم للحواريين : من أنصاري إلى الله ؟ . قال الحواريون : نحن أنصار الله ، فآمنت طائفة من بني إسرائيل وكفرت طائفة ، فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم ، فأصبحوا ظاهرين " . وهذا موسى عليه السلام حين كلفه ربه أن يذهب إلى فرعون ناصحاً وداعياً سأل ربه أن يعينه بأخيه هارون " واجعل لي وزيراً من أهلي هارون أخي اشدد به أزري ، وأشركه في أمري " . فأعانه به لأنه سبحانه يريد للدعوة أن تؤتي أكلها ، فلا بد من تيسير سبلها والإعداد لها " قال : قد أوتيت سؤلك يا موسى " .

٧- ذكر الأفضال : ليشعر من تفضلت عليه أنك هيأت له الأسباب واعتنيت به وقدمت له

الخدمات ليكون عند حسن ظنك فيما يفيد ويفيد أسرته ومجتمعه ، كأن يخاطب الأب ولده فيذكره بتربيته له وإيثاره عليه واعتناؤه به وتدريبه و... ليكون ولداً باراً بوالديه محسناً لإخوته وأخواته وكفعل المحسنين دون منّة ولا تفاخر وتفضل وإلا نفر المدعو ولم يدن مرة أخرى . فإجابة الله تعالى دعوة موسى في إرسال أخيه منّة ما بعدها منّة ، وهنا منن كثيرة ذكرها الله تعالى لموسى ليدلل اعتناؤه به وتزكيت له وتحيته ليكون الرسول الداعية إلى الله : " ولقد مننا عليك مرة أخرى " فحفظه أن يقتله فرعون . بل إنه ربّي في قصره وعلى عينه ، وأعادته إلى أمه كي تقرر عينها ولا تحزن فلم يقبل إلا حليها ، وتبعته أخته لتعود به إلى أمه ، وحفظه أن يقتص منه فرعون لقتله القبطي ، فهاجر إلى الشام ليعيش في بيت أحد الصالحين ويتزوج ابنته ويعمل عنده ليخف عنه الطلب ، ويقتبس الخير من الرجل الصالح ، ويعيش من كد يمينه وعرق جبينه لا أن يظل عالة على فرعون يعيش حياة هينة لينة ، ، فحياة الدعة لا تربي الدعاة ، ولن يرفع أحد رأسه ويصدع بكلمة الحق أمام ولي نعمته والمتفضل عليه . ومن أفضل المنّة أنه رباه على عينه واصطنعه لنفسه سبحانه .

٨- احترام الكبير : من الآداب التي حض عليه الإسلام توقير الكبير . وقد نبهنا رسول الله صلى الله عليه وسلم لذلك فقال : " أن من إجلال الله تعالى إكرام ذي الشيبة المسلم " . وقال : " ليس منا من لم يرحم صغيرنا ويعرف قدر كبيرنا " وقال كذلك صلى الله عليه وسلم : أُراني في المنام أتسوك بسواك ، فجاءني رجلان أحدهما أكبر من الآخر . فناولت السواك الأصغر . فقيل لي : كبر . فدفعته إلى الأكبر منهما " . .. والأحاديث في هذا الباب وافرة . أما في القرآن الكريم فالآيات كثيرة في هذا الباب ، منها : أن يعقوب عليه السلام حين حضرته الوفاة سأل بنيّه : " ما تعبدون من بعدي ؟ " فبماذا أجابوا ؟ " قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلهاً واحداً ونحن له مسلمون " سورة البقرة ، الآية ١٣٣ . أبوهم يعقوب وجدهم إسحاق وأبو جدّهم إبراهيم . أما إسماعيل فعم أبيهم . ولأدبهم الذي درجوا عليه قدموا إسماعيل على جدّهم لأنه أكبر منه واحتسبوه من جملة الآباء . والعم بمقام الأب . وقرأ معي هذا الترتيب الأدبي التربوي الرائع " قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا ، وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط ، وما أوتي موسى وعيسى ... " .

وقد أمر الله تعالى موسى وهارون بتبليغ فرعون : لكن خطاب الرب كان لموسى مباشرة ولهارون عن

طريق موسى " اذهب أنت وأخوك بآياتي ، ولا تنيا في ذكرى " فكان الأمر للاثنتين ولكن عن طريق موسى
كما أننا نتعلم الأدب حتى ممن ليسوا مسلمين إن نطقوا بالصواب ، فحين ذهبنا إلى فرعون بأمر
ربهما يدعوانه، فتكلما كما ورد في القرآن وأحسننا ، وجه فرعون لهما السؤال ولكنه طلب الجواب من
موسى " قال : فمن ربكما يا موسى " . فكان موسى هو الذي يحاوره .



تأملات في سورة طه (٢)

١- الاستعداد والإعداد للمهمة : الإنسان ضعيف بنفسه مهما كان قوياً ، قوي بإخوانه . كما أن عليه أن يجهز نفسه بما يستطيع للقيام بمهمته أفضل القيام . وهذا ما نراه في طلب موسى عليه السلام :

-اللجوء إلى الله تعالى والاعتماد عليه . فقد سألته أن يشرح صدره . . . إن المؤمن بقضيته إيماناً عميقاً يبذل في سبيلها كل شيء ، ماله ووقته وصحته . وعلى هذا كان أول ما طلبه موسى " قال : رب اشرح لي صدري . " وهذا ما بدأ به الله تعالى مع نبيه الكريم محمد " ألم نشرح لك صدرك " .
-ثم سأل موسى عليه السلام أن يسهل له عمل الدعوة ليحيا فيه الأمل والقدرة على الاستمرار " ويسر لي أمري " . وهذا نجده أيضاً في نبي الإسلام محمد عليه الصلاة والسلام " ووضعتنا عنك وزرك الذي أنقض ظهرك " . وما وضع الوزر إلا تسهيل للعمل الدعوي حين يرى الداعية نفسه خالياً من الآثام بعيداً عن السيئات ، مقبلاً على فعل الخير .

-كما أن الفصاحة والقدرة على التعبير عن الأفكار تقلب الباطل حقاً في نظر كثير من الناس ، فما بالك حين تكون هذه الفصاحة وتلك البلاغة أداة في تجلية الحق والدعوة إليه ؟ ألم يقل النبي الكريم " إن من البيان لسحراً " ؟ ولهذا سأل موسى عليه السلام ربه سلاح البيان فقال : " واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي " . وقد كان نبينا الكريم محمد أفصح الناس وأكثرهم بلاغة . روى الطبراني عن أبي سعيد الخدري قوله صلى الله عليه وسلم " أنا أعرب العرب ، ولدت في بني سعد ، فأنتي يأتيني اللحن ؟! " .

-الاستعانة بأولي العزم وأصحاب الهمم من المؤمنين وخاصة إن كانوا من الأقارب والأهل أو الأصدقاء والمعارف ، فهم : أعلم بصدق الداعية ، وأشد رغبة في مؤازرته والذود عنه وعن دعوته ، وهم عون له على الدعوة وأمان من الضعف وحرز من الشيطان . " واجعل لي وزيراً من أهلي هارون أخي " .
وقد مدح القرآن الكريم أصحاب رسول الله رضوان الله تعالى عليهم " محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً سيماهم في وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم في التوراة . ومثلهم في الإنجيل : كزرع أخرج شطأه ، فأزره ، فاستغلظ ،

فاستوى على سوقه ، يعجب الزراع ليغيط بهم الكفار . "

-والجلس الصالح عون لأخيه على ذكر الله ، يذكره إذا نسي ، ويقويه إذا ضعف " كي نسبحك كثيراً ، ونذكرك كثيراً " . وكذلك صحابة رسول الله كما ورد في الآية قبل قليل .

٢ - خطوات مدروسة : قبل الذهاب إلى فرعون لدعوته وإقامة الحجة عليه أوصاهما الله تعالى بأمر عدة تكون عوناً لهما في مهمتهما ، منها :

- الشجاعة وعدم الخوف : وهذه أولى الصفات التي ينبغي أن يتحلى بها الداعية ، وإلا لم يستطع تبليغ الدعوة . فحين " قالوا : ربنا إنما نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى " شجعهما وأوحى إليهما بصريح العبارة أنهما لن يكونا وحدهما " قال لا تخافا ، إنني معكما أسمع وأرى " ومن كان الله معه يسمع ويرى فأنى يخاف ؟ . وكانا ثابتي الجنان حين أعلننا بوضوح لا خوف فيه ولا لبس أن الرسالة " من ربك " وهو الذي يدعي الربوبية ويمارس بسيفها كل مفسده ، فهما ينزعانها عنه دون خوف ولا وجل . " قد جئناك بآية من ربك " بل يعلنان أنهما على هدى ، وهو وأتباعه على باطل . وأن الخير كل الخير في اتباعهما " والسلام على من اتبع الهدى " .

- التلطف في الدعوة من أقوى الأساليب لإنجاحها ، وفيه فوائد عديدة منها :

أ- امتصاص الغضب والتخفيف من الرغبة في الانتقام .

ب- دفع المدعو إلى الاستماع والتفكير بما يطرح عليه .

ت- قطع الطريق على المناوئين الذين يصطادون في الماء العكر .

ث- محاولة اكتساب بعض ذوي الأحلام من الحاضرين إلى الدعوة .

ج- شق صف المناوئين

وهكذا كان أسلوب رسول الله صلى الله عليه وسلم والمصلحين من أصحابه والدعاة إلى يومنا هذا . فالله مدح نبيه بالرحمة واللفظ واللين " فبما رحمة من الله لنت لهم ، ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك " . دخل رجل على المأمون يعظه ، فأغلظ له القول . فقال المأمون معاتباً : لقد أمر الله موسى وهو خير منك أن يذهب إلى فرعون وهو شر مني يدعوه " فقولوا له قولاً ليناً لعله يتذكر أو يخشى " . فانقلب الواعظ موعوظاً والموعوظ واعظاً .

- العمل الجماعي أفضل من العمل الفردي " اذهب أنت وأخوك .. " " واجعل لي وزيراً من أهلي هارون أخي ، اشدد به أزرى و أشركه في أمري " .

- التسلح بالبراهين والأدلة ، فهي تنفي الشك وتزيل اللبس وتقوي الموقف وتدعم الفكرة " اذهب أنت وأخوك بآياتي ... " . على كل من يريد أن ينجح في مسعاه أن يتجهز بالوثائق والبراهين ، وأن يدعم من ينوب عنه بها .. إن القرائن آيات صدق وعامل إثبات ودليل قوة : " قد جئناك بآية من ربك " .

- الاتصال الدائم بالمرسل لتقديم التقرير بما يستجد من أمور ومواقف ، ولتجديد المعلومات وتلقي التأييد : " ولا تنيا في ذكرى " . وحين أبدى النبيان خوفهما من بطش فرعون نبيهما الله تعالى إلى أنهما في معيته " قال : لا تخافا إنني معكما أسمع وأرى "

- معرفة الهدف والتوجه إليه ، وصب الاهتمام عليه : " اذهبا إلى فرعون " فهو الرأس ، وهو الهدف الأول فإن دان فمن بعده أسهل منه . ويحضرني قول سعد بن زرارة أحد أوائل من أسلم من الأنصار وقد نزل عنده مصعب بن عمير سفير رسول الله حين قدم المدينة المنورة داعياً إلى الله وسمع به سعد بن معاذ سيد الأوس فجاء ومعه أسيد بن حضير يزجران مصعباً ليطرده من يثرب .. يقول سعد بن زرارة : هذان سيدا قومهما ، وقد جاءاك فاصدق الله فيهما . فلما وقفا عليه هز سعد حرثته وقال : ما جاء بك تسفه ضعفاءنا ؟! اعتزلنا إن كان لك بنفسك حاجة . فقال مصعب : أو تجلسان فتسمعان ، فإن رضيتهما أمراً قبلتماه ، وإن كرهتماه كففتنا عنكما ما تكرهان ؟ فقرأ عليهما آيات من القرآن فاستحسنا دين الإسلام ، وهدهما الله إليه ، فكان لهما من الخير على قبيلتهما ما كان إذ أسلم منها خلق كثير .

- معرفة سبب الذهاب إلى المدعو . إنه ادعى الألوهية وقال : " أنا ربكم الأعلى " فكان لا بد من التنبيه إلى أنه تعدى حدوده ، وادّعى ما ليس له : " اذهبا إلى فرعون إنه طغى " والطغيان مخافة الحقيقة وقلب الحقائق .

- المواجهة الواعية الحكيمة : إن الدعوة عمل ينبغي دراسة خطواته بإتقان وتخطيط ، وينطبق عليه ما ينطبق على أي عمل يراد له النجاح . وقد أوصى الله سبحانه موسى وهارون أن يقفا وجها لوجه أمام

المدعو فرعون " فأتياه فقولاً إنا رسولا ربك " وسواء أكان المدعو إنساناً عادياً أم كان طاغية حوله الأعوان والحاشية التي تؤزّه إلى الشر أژاً وتزين له فساده وتطاوله على الحق فلا بد من أن يُصدع أمامه بالحق : فأتياه . والمواجهة ليست سلبية إنما هي إيجابية تتجلى في قول الحق والجأر به والدعوة إليه . ولكن بأسلوب حكيم: فقولاً له قولاً لنا "

- وضوح الرسالة ، فقد أرسلهما الله تعالى لإنقاذ بني إسرائيل من الذل والاستعباد الذي يعيشونه تحت تسلط الأقباط في مصر وجبروت ملكهم فرعون . فكان قولهما واضحاً " فأرسل معنا بني إسرائيل ولا تعذبهم " لقد يئس اليهود من العدل الفرعوني ، فلا بد أن يخرجوا من مصر عائدين إلى فلسطين دون أن يمنعهم من الرحيل . فقد كان الأقباط يستخدمونهم كما يستخدم العبيد ، ويكلفونهم بمهام دونية لا يرضى الأقباط القيام بها .

٣- الحوار الهادف : لم يعترف فرعون أن الله تعالى ربه . وقد نبهه النبيان الكريمان إلى ذلك حين قالاً " قد جنناك بأية من ربك " فحين سأل فرعون موسى السؤال الأول المتوقع ممن يعاند وينكر ويكابر : " .. فمن ربكما يا موسى " كان الجواب مفحماً " .. ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى " . وكأنه يقول له : الخالق الحقيقي الذي يخلق ويبدع فيما يفعل ، فترى كل ما يفعله رائعاً مكتملاً . ومن ثم ييسر لكل مخلوق حياته ... فأين دليل ربوبيتك أنت؟! وهنا يتلع فرعون الإهانة في هذا السؤال الذي عزّاه فانتقل إلى سؤال آخر يظن أن يداري فيه جهالته ، فوقع فيما أراد تجنبه فسأل موسى عن أسلافه الذين ماتوا ... وهذا سؤال لا يطرحه "إله" ! لأنه يعرف جوابه . لكن فرعون - لجهله - يظن أن من مات فات . ولا يعتقد أنهم سيبعثون في اليوم الآخر ، فكان في سؤاله خائباً . وكان جواب موسى عبه السلام شافياً مستفيضاً

٤- التفصيل " أهنأك فائدة من الحديث إن كان مبهماً؟ أو ملخصاً لا يفني بالغرض؟ إن السائل سيحتاج مرة أخرى إلى إجابة وإجابة حتى يصل إلى الجواب المريح ... وهذا ما كان من جواب موسى عليه السلام حين سأله فرعون عن القرون الأولى :

- فقد بيّن أن ما مضى هو من علم الغيب الذي لا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى " علمها عند ربي " وهل يضيع على الله تعالى شيء مهما صغر؟ إنه " في كتاب " فالأمور تختلط على الإنسان

الضعيف، أما الله تعالى فهو الكامل كمالاً مطلقاً " لا يضل ربي ولا ينسى " .
ومن علامات عظمة الله تعالى أنه حين خلقنا جعل الأرض صالحة لحياتنا
" الذي جعل لكم الأرض مهذا ... وسلك لكم فيها سبلاً ... وأنزل من السماء ماءً ... فأخرجنا
به أزواجاً من نبات شتى ... "

ما الفائدة من هذا كله ؟ تيسير الحياة للناس ولحيواناتهم .. أرض منبسطة...وماء... وزرع ...
" كلوا وارعوا أنعامكم ... " فمن أعمل فكره وفتح قلبه عرف أن
هذا الترتيب والنظام الكوني لم يكن عبثاً .. ولن يكون ... فمن الأرض خلقنا وإليها نعود وقد عاد فيها
أسلافنا .. ثم يشاء الله سبحانه أن يخرجنا منها تارة أخرى للحساب والعقاب أو الثواب .
" إن في ذلك لآيات لأولي النهى ...
منها خلقناكم ، وفيها نعيدكم
ومنها نخرجكم تارة أخرى " .



تأملات تربوية في سورة طه (٣)

١- التوبيخ والتقريع : هو التعنيف أيضاً ، وهو التعبير مع التهديد . وهذا الأسلوب دواء لمن أخطأ فاصر على الخطأ . يستوي فيه من أخطأ وهو يعرف أنه يخطئ وأصر على خطئه ، ومن أصر على فعلته وهو يظن الصواب فيما يفعل . وإن كان الأول أشد زلة فالتوبيخ والتقريع نتيجة لتكرار الخطأ دون الرغبة في تركه إلى الصحيح من القول والفعل .

وقد يكون هذا الأسلوب :

أ- للمصريين على موقفهم فكرة وعملاً ، وأنت تعلم أنهم لا يراعون ، لإقامة الحجة عليهم ، كي لا يتصلوا فيما بعد من مواقفهم هذه .

ب- لتتخذ العقوبة المناسبة في حقهم معتمداً على القاعدة التي تقول : (قد أعذر من أندر) ، فيكون موقفهم في تذرعهم ضعيفاً .

ج- لتنبه الآخرين ان لا يقعوا فيما وقع فيه غيرهم من الأخطاء والتصرفات الذميمة .

وموسى عليه السلام حذرهم من الافتراء الذي يجر عليهم العذاب " ويلكم لا تفتروا على الله كذباً ، فيسحتكم بعذاب " فمصير الافتراء الخيبة والخسران " وقد خاب من افترى " ونحن نرى أن هذا يصب في خيانة التهديد والوعيد بشكل واضح . ونجد التوبيخ العنيف من موسى لهارون وهو في سورة غضبه قبل أن يعرف الحقيقة فيعود ليستغفر لنفسه ولأخيه " ... يا هرون ما منعك إذ رأيتهم ضلوا ألا تتبعني ؟ أف عصيت أمري ؟ " قاله وهو أخذ بلحيته وبرأسه يعنفه .

ولعل من التهديد الشديد اللهجة قوله تعالى لمن يُعرض عن القرآن ويتناساه " من أعرض عنه فإنه يحمل يوم القيامة وزراً " وليته يحمل وزره فقط ! بل ومن أوزار الذين يضلونهم معهم بغير علم.

٢- التحدي والثبات : فالتحدي نوع شديد من المنازعة في أمر يظن كل من الطرفين أنه على صواب أو أنه قادر على المضي فيما أراد . فهذا فرعون وعد السحرة بالخير والقرب إن أثبتوا جدارة في نزالهم السحري ! لموسى .. فحين يرون الحق فيما يدعوههم إليه النبي الكريم ويقولون بألوهية الله وأن موسى على حق يهددهم فرعون " فلا تقعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ، ولأصلبنكم في جذوع النخل ، ولتعلمن أينا

أشد عذاباً وأبقى " تحداهم أن يصبروا على عذابه إياهم ، فقابلوه بالثبات والاستعلاء على حطام الدنيا وآثروا رضا الله على رضاه " لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذي فطرنا ، فاقض ما أنت قاض " فرضا الله باق وأما فرعون ورضاه فزائلان . " إنما تقضي هذه الحياة الدنيا " . إن الإيمان حين يمس شغاف القلوب ويملاً حنايا الأفئدة يستعلي على الدنيا ويتشوف للباقي الخالد .

٣- التريث : قديماً قالوا (العجلة من الشيطان والتأني من الرحمن) . وما دام قوم موسى حديثي الإيمان فما ينبغي تركهم يتلاعب بهم الشيطان ويتقاذفهم . فحين اختار موسى من قومه سبعين رجلاً لميقات الله تعالى تركهم مع أخيه هرون وتعجل يوماً قبلهم للقاء الله تعالى فارتد كثير منهم بفعلة " السامري " . فعاتبه ربه " وما أعجلك عن قومك يا موسى " كان موسى يظن فيهم الخير ، وهاهم يتبعونه " هم أولاء على أثري " وكان استعجاله إلى جبل الطور مدعاة للشيطان أن ينفرد بهم ويغويهم ولم يكن هرون من أولي العزم ، فلم يستطع الوقوف أمام عنادهم وارتدادهم حين أصروا " لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى " . فلا بد من متابعة الأتباع وخاصة الجدد منهم ومراقبتهم ، لتثبت فيهم الدعوة الجديدة ، وإلا ضاعوا وذهبت الجهود سدى . وهذا ما رأيته بوضوح في الدعوة الأفقية التي تهتم بالكمية دون الكيفية . فيدخل الناس الدعوة ومعهم بعض معتقداتهم السابقة فيحدث الاختلاط في العقيدة والشوائب في التصرفات غير الواعية فيكون هؤلاء عبئاً ثقيلاً على الدعوة لا يقل سوءاً عن أعدائها .

٤- الفتنة و الاختبار : هذا الأسلوب يبين قدرة الإنسان على :

أ - الصبر على الشدائد ، والقدرة على تحملها .

ب - فهم الدعوة والثبات على المبدأ .

ج - تمحيص أبناء الدعوة وبلورة موقفهم

د - ومن ثم التألق في الدعوة ورفع في الدرجات ، أو سقوط في الهمة وفشل في المهمة

وهنا نذكر النجاح في تصرف السحرة المؤمنين ، والسقوط في من تبع السامري وارتد على عقبه .

أما السحرة الذين عرفوا الحقيقة فالتزموها فإنهم قالوا لفرعون الذي هددهم بالقتل والصلب " فاقض

ما أنت قاض ، إنما تقضي هذه الحياة الدنيا ... إنا آمننا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر

" ثم نطقوا الجوهرة الحقيقية التي انغrust في جذور قلوبهم وصدورهم فاعتنقوها " والله خير وأبقى " .

وستقف على سبب هذا الموقف الرائع منهم في التأمل السادس لنرى الفهم العجيب للحياة الحقيقية .

وأما قوم موسى فقد سقطوا في الامتحان سريعاً حين انفرد بهم السامري وشيطانه فظنوا العجل ربهم وافترؤا على موسى فزعموا أنه ذهب يبحث عن ربه وهو هنا بينهم يعبدونه " فقالوا هذا إلهكم وإله موسى فنسي " . وما كانت هذه الفتنة إلا لبيان ضعف إيمانهم الهش الذي لم يتعدّ اللسان فكان إضلال السامري لهم سريعاً " فإننا قد فتننا قومك من بعدك وأضلهم السامري " . فقد كان العجل يخور ولا يتكلم وحاشا أن يكون الإله هكذا ، ثم هو لا يتحرك ولا يملك لمن يعبده ضرا ولا نفعاً . فكيف يكون إلهاً؟! .

٥- المحاكمة العقلية : يدعونا القرآن دائماً إلى التفكير وإعمال الذهن للوصول إلى الحقيقة . والآيات في هذا الصدد كثيرة ... إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون.. لأولي الألباب ... لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ... لقوم يذكرون ... لأولي الأبصار .. فهذا موسى عليه السلام ينكر عليهم سرعة وقوعهم في الضلال ولم يتركهم إلا يوماً واحداً "

ألم يعدكم ربكم وعداً حسناً ؟

أفطال عليكم العهد؟ (هل غبت عنكم كثيراً فشككتكم)

أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم فأخلفتم موعدي؟! "

ويظهر القرآن التعجب من عدم تفكيرهم السليم وسقوطهم في عبادة ما صنعوه بأيديهم ...

" أفلا يرون ألا يرجع إليهم قولاً ، ولا يملك لهم ضراً ولا نفعاً؟! " .

" إنما إلهكم الله الذي لا إله إلا هو ، وسع كل شيء علماً . " .

ولو فكروا قليلاً في ماهية هذا الإله ما عبدوه فهو اصم أبكم ضعيف الحيلة لا يتحرك .

٦- الموازنة : نحن - معاشر البشر - إذا خيرنا بين أمرين في الدنيا كلاهما جيد نقف متأملين

نفاضل بينهما ، ونسأل أنفسنا وغيرنا أيهما أفضل ونكثر الاستشارة لنصل إلى الجواب الأمثل فنطلبه .

أفليس ذلك أحرى في التفاضل بين الدنيا الفانية والآخرة الباقية ؟ ... مهما كانت الدنيا رغيدة والإنسان

على كفر وضلال فالنهاية الخلود في نار جهنم أبد الآبدين .. ومهما عانى المؤمن من ضنك في الدنيا فجنة

الآخرة خالدة ونعيمها لا ينفد .. ومهما طالت الحياة فهي إلى الـ لا نهاية صفر لا قيمة له . . . وتعال معي

إلى هذه الموازنة ، وسمّها إن شئت " المقارنة " .

" أنه من يأت ربه مجرمًا فإن له جهنم ، لا يموت فيها ولا يحيى ومن يأت مؤمنًا قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلا جنت عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها . وذلك جزاء من تزكى " .
فأي دار يختار اللبيب العاقل ؟ .

وانظر معي كذلك إلى هذه المقارنة بين الغضب والغفران : " ولا تطغوا فيه ، فيحل عليكم غضبي ومن يحلل عليه غضبي فقد هوى . وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى " . فايهما يختار الذكي الأريب؟.

٧- تهويل الموقف : ليس في عذاب الآخرة خروج عن الحقيقة إنما هو عذاب شديد أليم نسأل الله تعالى أن يرفعه عنا وأن يجيرنا منه ... والتهويل يزرع الخوف في فؤاد من يعي ويعقل ، فيجتهد ألا يقع في المحذور . وهو أسلوب تربوي فائده أوقع في النفس من البشوى ... فالبشوى تؤثر تأثيراً عجيباً فقط في نفس من يحمل نفساً شفافاً ولا يكاد يظهر فيمن لا يرعوي ... فالقلب القاسي الذي لا يردعه سوى الأخذ بالقوة .. وهنا جاءت فائدة التهويل . " يوم يُنفخ في الصور ... ونحشر الجرمين يومئذ زرقاً ... يتخافتون بينهم : إن لبثتم إلا عشراً نحن أعلم بما يقولون . إذ يقول أمثلهم طريقة : إن لبثتم إلا يوماً " .

أليس مخيفاً أن يشتدّ العذاب ، ويطول بالكفار حتى إذا سئلوا عن المدة التي لبثوها في الدنيا ضيّعوا فقال أكثرهم - لبعد عهدهم عن الدنيا ولسوء ما يلقون في الآخرة من العذاب - ما عشنا في الدنيا سوى يوم واحد؟! نعوذ بالله من هذا المصير المرعب .

٨- السؤال : ذكر في القرآن الكريم كلمة " يسألونك " ست عشرة مرة منها على سبيل المثال :
" يسألونك عن الأنفال يسألونك عن المحيض .. ويسألونك عن الجبال يسألونك ماذا ينفقون .. فماذا نفهم من هذا السؤال ومن جوابه " قل .. ؟

أ - جاء السؤال بصيغة الجمع يسألونك ... فالمجتمع المسلم ينبغي أن يكثر فيه العلماء والمتعلمون وإلا كان مجتمعاً جاهلاً .

ب - وجاء بصيغة المضارع للدلالة على استمرارية السؤال ، فالمسلم متعطش للمعرفة يرغب دائماً فيها .

ج - وكاف المخاطب إشارة إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو العالم الذي يستقي الجميع منه دينهم .. وهذا تنبيه إلى وجوب سؤال العالم الذي ينصح ويدل على الخير ويشير إلى الصواب . أما الجاهل فيضل ويُضل .

د - يجب تحديد السؤال ليجيب عنه العالم لا عن غيره .. عن الأنفال .. عن المحيض .. عن الجبال .. وهكذا

هـ - والكلمة " قل " دليل على وجوب إجابة السائل ، فمن كتم علماً لجمه الله بلجام من نار .

و - الإجابة بشكل واضح لا لبس فيه ولا اختصار يريح السائل فيفهم . ومن ثم لا يحتاج أن يسأل مرة أخرى .. ومثال ذلك ما نحن فيه في هذه السورة : " ويسألونك عن الجبال : فقل : ينسفها ربي نسفاً فيزورها قاعاً صفصفاً لا ترى فيه عوجاً ولا أمتاً . "

ثم تسهب في الجواب الذي يلزم نسف الجبال في اليوم الآخر " يومئذ يتبعون الداعي ، لا عوج له وخشعت الأصوات فلا تسمع إلا همساً " والجواب مستفيض استغرق الآيات ١٠٦ - ١١٤ وهذا ما نجده في ما ذكرنا من مجيء الفعل " يسألونك " إلا في علم الساعة " يسألونك عن الساعة أيان مرساها " فلا تجد كلمة قل . لأن النبي صلى الله عليه وسلم لا يعلم وقت حدوثها ، فلا ينبغي التقول على الله تعالى . أو يأمر الله تعالى نبيه أن يقول " علمها عند ربي لا يجليها لوقتها إلا هو " .



تأملات تربوية في سورة طه (٤)

وأول ما نتحدث عنه من تأملات في الحلقة الرابعة والأخيرة من سورة طه

١- التصوير : وقد يتساءل القارئ : ما علاقة التصوير في التربية ؟ فأقول :

هو من الأساليب الراقية في التربية . فالإنسان روح وفكر وقلب ... وهو كذلك عين وسمع ولمس وشم ... فهو معنوي ومادي بآن واحد . فإذا عجز أحياناً عن الوصول إلى الفكرة ذهنياً وصل إليها مادياً وحسناً ... والمهم أن يصل إلى المعلومة ، وتتركز في ذهنه ، ويتفاعل معها .

وهذا الأسلوب الرفيع يتخذه الأدباء للسمو ببيانهم ، ويحتاج إليه العامي البسيط كما يحتاج إليه المثقف العالم لأغراض عدة . منها :

- توضيح الفكرة واستجلاء المعنى ، والتأكيد عليه .

- التأثير في النفس ... يقول الجرجاني رحمه الله فإن كان - المعنى - مدحاً - كان أبحى وأفخم

وأنبل في النفوس ، وأعظم وأهزّ للعطف - سروراً وزهواً- وأسرع للإلف ، وأجلب للفرح ، وأغلب على الممتدح ، وأسير على الألسن وأذكّر ، وأولى بأن تعلقه القلوب وأجدر .

- وإن كان حجاجاً كان برهانه أنور ، وسلطانه أقهر ، وبيانه أبهر .

- وإن كان افتخاراً كان شأؤه - أمدّه - أبعد ، وشرؤه أجدّ ، ولسانه ألدّ - أشدّ - .

- وإن كان اعتذاراً كان إلى القبول أقرب ، وللقلوب أخلب ، وللسخائم أسلّ - والسخيمة (الغل

والضغينة . وسلّ السخيمة انتزعها وأخرجها) ، ولعرب الغضب أفلّ . (العضب حدّ السيف . وفله : ثلمه) .

- وإن كان واعظاً كان أشفى للصدر ، وأدعى للفكر ، وأبلغ في التنبيه والزجر

وقد أطلت عن الوصف للتصوير كي لا أعود إليه مرة أخرى حين أعرفه . بل أحيل إليه .

وانظر معي إلى التصوير المخيف في تدمير الجبال يوم القيامة وتسويتها بالأرض كأنها لم تكن ، وهي

الممتدة جذورها في الأرض ، الآخذة سموّاً في السماء : " ويسألونك عن الجبال : فقل : ينسفها ربي نسفاً ،

فيذرها قاعاً صفصفاً لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً " فلم يعد هناك علوّ ولا سفول ، فهي مستوية كميّاه البحر

في اليوم الساكن الرياح ، وكالمرمر المصقول ... ثم انظر معي إلى خروج الناس من الأرض يوم البعث ،

يتبعون الصوت الصادر عن بوق النشور مسرعين إلى مصدر النداء دون جلبة ولا صوت سوى الهمس " يومئذ يتبعون الداعي لا عِوَجَ له ، وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همساً " وتأمل الوجوم وخضوع الناس الدليل التام لعظمة الله تعالى " وعنت الوجوه للحي القيوم " ... وتصور الظالم يحمل ما اقترفته يده كما يحمل العتال الحمل الثقيل " وقد خاب من حمل ظلماً " . ولعل الصورة الممتدة تتجلى في اجتماع الناس على صعيد واحد.... وتأمل الحوار الذي جرى بين موسى عليه السلام والسحرة وتصور إلقاءهم حباهم وعصيتهم وسحرهم الناس ثم إلقاء موسى عصاه لتبطل هذا السحر العظيم ، وانقلاب السحرة إلى الإيمان بالله تعالى وغيظ فرعون وتهديده إياهم بالصلب وتقطيع الأيدي والارجل ، واستعلائهم على الدنيا حين عرفوا الحق وآمنوا به ... كانت الصورة متحركة فرأينا ما فعله السحرة ثم ما فعله موسى ، ورأينا السحر الكبير يتحول فجأة هباء منثوراً ، وسمعنا الحوار بين السحرة وفرعون ، ثم بينهم وبين موسى ، وسمعنا التهديد والوعيد من فرعون بالبطش والتنكيل ، وإصرارهم على الإيمان بعد أن ذاقوه ودخل أفئدتهم ولامس شغاف قلوبهم ... إن التصوير حين يمر أمامنا كأنه فيلم سينمائي شاغلاً حواسنا السمعية والبصرية يرسخ الفكرة والمعنى في الأذهان والنفوس فتنتطبع في ذاكرتنا فلا ننساها ... ونجد هذا التصوير البديع من الآية السادسة والخمسين إلى الثالثة والسبعين .. والصور تملأ السورة فتموج فيها الحركة ، وتبعث في القصة الروح والحياة . فتشد انتباه القارئ أو السامع وكأنه يعيش معها واحداً من شخصوها .

٢- الوضوح في التعامل : يجلي الفكرة ، ويزيل اللبس ، ويضع النقاط على الحروف . وهذا واضح في السورة الكريمة . من ذلك قول السحرة لموسى عليه السلام " قالوا يا موسى : إما أن تلقي وإما أن نكون أول من ألقى ، قال : بل ألقوا " فكان التنافس أن يبدأ السحرة برضى من موسى فقد تركوا له الخيار ، فاختر أن يكونوا هم البادئين ، وكانت خطتهم أن يبهروه بسحرهم فيشلوه من الخوف ، فيربحوا في الجولة الأولى دون عناء فيستسلم لهم دون مقاومة ولو كان أمر موسى من عمله لنجحوا في خطتهم ، لقد خاف موسى لأنه بشر " فأوجس في نفسه خيفة موسى " وكانت خطته التي أمره الله بتنفيذها أن يتركهم يظنون ما يظنون منتشين بما فعلوا ثم يفجأهم بالضربة القاضية فيزلزل أركانهم فيستسلموا ابتداءً ... هكذا كان . والله غالب على أمره فقد طمأنه المولى تعالى حين أوحى إليه " قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى ، وألق ما في يمينك تلقف ما صنعوا ، إنما صنعوا كيد ساحر ، ولا يفلح الساحر حيث أتى " فماذا حصل؟

" فألقي السحرة سجداً قالوا آمنا برب هارون وموسى " .

ونجد الوضوح في موقف آخر ، إذ أمر الله تعالى موسى وهارون بالذهاب إلى فرعون بمهمة محددة " اذهبا إلى فرعون إنه طغى ، فقولاً له قولاً لئناً لعله يتذكر أو يخشى " " فقولاً : إنا رسولا ربك أن أرسل معنا بني إسرائيل ولا تعذبهم إنا قد أوحى أن العذاب على من كذب وتولى " لقد طغى ، فوجب تذكيره ليعود إلى الصواب ويسرح اليهود الذين استعبدتهم وإلا وقع العذاب عليه .. وليكن التهديد بأسلوب هيّن لئّن ، إن الرفق أدعى إلى الاستجابة . هذا ما طلب إليهم ، وهو أمر واضح لا لبس فيه .

٣- التحذير : أسلوب يتبعه المحب لمن يريد تهذيبه ، والمبغض لمن يود تنبيهه ، والمربي لمن يريد تعليمه . ليكون الطرف الثاني على بينة مما قد يكون ، فلا يقع في الخطأ .

وقد يكون التحذير مبطناً بالنصيحة . فالحاسر من يلقي ربه آثماً فيكون خالداً في النار " إنه من يأت ربه مجرمًا فإن له جهنم لا يموت فيها ولا يحيا " وكذلك في قوله سبحانه محذراً من الإعراض عن القرآن تلاوة وفهماً وتطبيقاً " وقد آتيناك من لدنا ذكراً من أعرض عنه فإنه يحمل يوم القيامة وزراً خالدين فيه وساء لهم يوم القيامة حملاً " . أما الإعراض عن ذكر الله في الدنيا فله عقوبتان : الأولى دنيوية " ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكاً " والثانية أخروية " ونحشره يوم القيامة أعمى " .

وقد يكون التحذير من العدو الأول للإنسان : الشيطان وأحاييله .. فقد أعلن هذا المخلوق عداوته لآدم وذريته : " فبعزتك لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين " وذلك حين رأى نفسه أعلى مرتبة من آدم وذريته ، فكيف يسجد له ؟ " وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى " فكان التحذير منه فضلاً من الله تعالى علينا وتنبيهاً " فقلنا يا آدم إن هذا عدو لك ولزوجك ، فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى " ولكن لأمر أراده الله تعالى سقط آدم عليه السلام في شرك إبليس فغوى ، وأنزله الله إلى الأرض بعد أن تاب عليه ليختبره وذريته وليكون الامتحان .. ففيه يُكرم المرء أو يُهان .

٤- الأمر والنهي : فالأمر بالشيء : تكليف به وحث عليه ، وهو الأصل ، لأن فيه دفعاً إلى العمل . ولا حياة بلا عمل ينشئ سعادة للإنسان ... والنهي عنه : منعه وتحريمه ، لأنه ينقي الحياة من الشوائب التي تعترض سبيل الإنسان وتنغص عليه . والحياة تجري بين الأمر المباح والنهي الممنوع . فمن أمثلتهما في هذه السورة : " ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يلقى إليك وحيه ، وقل رب زدني علماً " ومن

الأمر كذلك " فاصبر على ما يقولون ، وسبح بحمد ربك ... ومن آناء الليل فسبح وأطراف النهار لعلك ترضى " ومن النهي : " قال لا تخافا ، إني معكما أسمع وأرى " وقوله سبحانه " فلا يصدّئك عنها من لا يؤمن بها " .

٥- الحوار : مر معنا في مقالة سابقة أن الحوار يثري المخاطب سامعاً وقارئاً ، ببراهينه وأدلته وطريقته ، ويثبت الفكرة بإشغال أكثر من حاسة . وفي هذه السورة الكريمة نجد أطرافاً عدة من المتحاورين.. ففي أول السورة حوار بين الله تعالى وموسى عليه السلام إلى الآية الثالثة والأربعين ونجد حواراً آخر عند جبل الطور ...

ثم هناك حوار قصير بينه تعالى وبين نبيه الكريمين موسى وهارون إذ أمرهما أن يذهبا إلى فرعون .

ثم حوار بين موسى وفرعون من الآية ٤٩ إلى الآية ٥٩

ثم حوار بين موسى والسحرة من الآية ٦١ إلى الآية ٦٥

ثم حوار بين السحرة المؤمنين وفرعون من الآية ٧١ إلى الآية ٧٦ على أرجح الأقوال .

وحوار قصير بين هارون وقومه .

ثم حوار بين موسى وهارون حين رجع إلى قومه بعد ما أضلهم السامري .

ثم حوار بين موسى والسامري .

ثم جمل قصيرة فيها حوار بين الله تعالى وآدم .. ثم وسوسة الشيطان لآدم

وأخيراً الحوار بين الله تعالى والذي صار أعمى في الآخرة لعمايته عن الحق في الدنيا وهكذا يثري

الحوار الموضوع بالصوت والصورة ولا سيما حين تدخل " إذ " على الحوار فتقلنا إلى مكانه وزمانه

" إذ رأى ناراً فقال لأهله امكثوا

إذ أوحينا إلى أمك ما يوحى ...

إذ تمشي أحتك فتقول ...

وإذ قلنا للملائكة اسجدوا للآدم " .

٦- العرض المنطقي : لا يترك الله تعالى للكافرين حجة يوم القيامة يحاجونه بها . فأرسل لهم في

الدنيا رسولاً كريماً يذكرهم بالله تعالى ويدلهم عليه ويعرفهم به ، فلا يبقى لهم ما يتعللون به إذا سألهم يوم

القيامة ... " ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا : ربنا لولا أرسلت رسولاً إلينا فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى ؟ " ولأنه سبحانه وتعالى لا يظلم أحداً جلى الأمور، فأرسل الرسل مبشرين ومنذرين . بل إنه سبحانه يرد ابتداء على من طلب من أهل مكة المعجزات من النبي عليه الصلاة والسلام: حيث سبقتهم الأمم فطلبت المعجزات من أنبيائهم فكانت الناقة والعصا وإبراء المرضى وإحياء الموتى فما زادهم إلا ضلالاً وكفوراً ... ولئن اقترح هؤلاء الدليل على نبوته فقد جاءت الكتب السابقة بمبشرة بنبوة محمد عليه الصلاة والسلام بصفاته واضحة : " وقالوا لولا يأتينا بآية من ربه؟ او لم تأتكم بينة ما في الصحف الأولى " ثم انظر إلى الجواب المنطقي لسؤال الكافر الذي كان في الدنيا مبصراً ، وحشر يوم القيامة أعمى " قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً؟ قال : كذلك أتتك آياتنا فنسيتها ، وكذلك اليوم تنسى " .

٧- التقعيد : كل بناء له أساس يقوم عليه ، وقاعدة يرتكز عليها . ولن تجد بناءً متيناً إذا لم

يقم على أسس صلبة وقاعد ثابتة . وأولى القواعد المتينة وحدانية الله تعالى

" قل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد " .

ومن هذه القواعد الرئيسة في هذه السورة أن الرزق من عند الله تعالى " لا نسألك رزقاً ، نحن نرزقك " والقاعدة الثانية : أن الغلبة لمن اتقى : " والعاقبة للمتقوى " والقاعدة الثالثة " ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلماً ولا هضماً " . والقاعدة الرابعة " ولولا كلمة سبقت من ربك " وهذه الكلمة التي سبقت " أن الساعة آتية لا ريب فيها " وإلا حل العذاب على الكافرين بمجرد كفرهم . ونظرة متأنية في هذه السورة ترينا كثيراً من القواعد الثابتة في الحياة والكون أدعها للقارئ الكريم .

٨- البداية والنهاية الموفقتان: براعة الاستهلال تستقطب المخاطب سامعاً وقارئاً .. وهذا ما

نراه واضحاً في أول السورة " طه .. ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى إلا تذكرة لمن يخشى ... " ف " طه " كما قدّمنا أ- تحبّب للرسول الكريم ومدح له وتعظيم لشأنه ثم نجد

ب- أن القرآن تنزيل من الله تعالى ذي الصفات الحميدة . مما يجذب المخاطب إلى قراءة السورة

بشغف وحب واطمئنان .

ونجد النهاية تقسم الناس إلى قسمين .. مؤمن وكافر .. وكل منهما يتربص بالنهاية وينظر إليها

.. فمن الفائز يا ترى؟ أهم المؤمنون الأتقياء أم هم الكافرون الأشقياء ؟ ومن على الصراط المستقيم ؟ ..

أهم الدين رضي الله تعالى عنهم ؟ أم من غضب عليهم ؟! ... إن عدداً لناظره قريب . " قل كل متربص
فتربصوا ، فستعلمون من أصحاب الصراط السوي ومن اهتدى " .



تأملات تربوية في سورة الأنبياء (١)

هذه السورة المباركة تتحدث عن غفلة المشركين عن الساعة الوشيك حدوثها ، وقد زعموا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا ينبغي أن يكون رسولاً لأنه بشر ونسوا أن الأنبياء كلهم بشر ، وقالوا عن القرآن كما قال الأولون : سحرٌ ، وشعر وأضغاث أحلام ، فقسم الله الأولين ، ولئن استمر أهل قريش على ضلالهم ليفعلنَّ الله بهم كما فعل بالهالكين قبلهم .

ويطيب الله تعالى في هذه السورة قلب النبي صلى الله عليه وسلم بقصص الأنبياء الصالحين قبله ، فقد أصابهم ما أصابه من عنت المشركين وضلالهم ، وعلى رأسهم أبو الأنبياء إبراهيم عليهم السلام جميعاً .

١- حين يريد الله تعالى بعبد من عباده الخير ، وأن يجعله من سعداء الدارين يكرمه بالهداية منذ الصغر ويحيطه برعايته ويربيه التربية التي تليق به داعياً ومرشداً . وعلى راس هؤلاء السعداء أبونا إبراهيم عليه السلام حيث يقول سبحانه " ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل ، وكنا به عالمين " فقد أخبرنا المولى تعالى أنه آتاه الفهم الثاقب والنظر المتأمل والتفكير الصائب مذ كان صغيراً فألهمه الحق والحجة على قومه كما قال تعالى " وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه " .

٢- فبدأ يعيب على أبيه وقومه قومه عبادة أصنام لا تعي ولا تعقل ، والأنكى من ذلك أنهم يصنعونها بأيديهم ثم يعكفون على عبادتها ، فهل يعبد العاقل ما يصنعه بيديه أم تراهم يعبدون بذلك أهواءهم ورغباتهم ؟ وكأنهم يكرسون عبادة الإنسان وشهواته ويشرعون سطوة القوي منهم على الضعيف المغلوب على أمره . وهنا يأتي دور النبي والداعية الذكي الذي عليه أن يحاورهم ويعلمهم ثم ينقذهم مما هم فيه ، فيسائلهم " ... ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون ؟! " فلا يجد من جواب سوى أنهم ألفتوا آباءهم كذلك يفعلون " قالوا وجدنا آبائنا لها عابدين " وكأنهم بهذا التقليد لآبائهم قد أراحوا أنفسهم من عناء التفكير ، والبحث عن الحقيقة ، ولعلمهم يجدون التعليل المناسب لاستمرارهم في غيهم وضلالهم ، بل يظنون أنهم يفعلون عين الصواب حين يسرون على هدي أسلافهم . وهم بهذا يريدونه أن يدعهم وما يعبدون فلا يسقته ما يعتقدون .

٣- الداعية الشاب إبراهيم يرى جوابهم يحط من قدر الإنسان . إذ كيف يرضى ذو العقل

والفهم أن يقلد غيره دون فهم ولا روية ؟ لقد سألهم مخفّراً عقولهم وقلوبهم أن يتدبروا ما هم عليه ، فما وجد سوى التبعية لخطأ آبائهم ، وهو حين سأل الناس كان أبوه أول المسؤولين " إذ قال لأبيه وقومه ... ، فالولد يجب أباه ويحمله . ومن تمام الإجلال أن ينبهه إن أخطأ ، وليس عيباً أن ينبه الصغير الكبير وأن يحذره ، ثم يهديه . وإبراهيم حريص على هداية الناس وهو أحرص على هداية والده وأقربائه ، ألم يقل الله تعالى مخاطباً نبيه الكريم " وأنذر عشيرتك الأقربين " ؟ .

٤- لا بد من الصدع بالحقيقة ولو كانت مُرّة وصعبة القبول عند قوم كان الضلال رائدهم وهم يظنون أنهم يحسنون صنعاً ، وكانوا يعتزون بما ورثوا عن آبائهم واعتقدوه صحيحاً لا يرقى الشك إليه فقال لهم بصريح العبارة " لقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضلال مبين " وهذه قمة الشجاعة في الداعية حين يصدع بالحق دون خوف ولا وجل ، ويقول ما يعتقد به بقوة دون مواربة . فالرجال يُعرفون بالحق ، ولا يُعرف الحق بالرجال ؟ .. أنتم وآباؤكم ضالّون عن الطريق الواضح البين .

٥- وحين يختلط الأمر عليهم ويستنكرون ما يقول يسألونه بلسان منعقد من المفاجأة التي وقعت عليهم " أجتئنا بالحق أم أنت من اللاعبين؟ " ولم سألوه هذا السؤال؟ أفعّلوا ذلك ليصلوا إلى الحق الحقيقي أم يستنكرون ما أتاهم به؟ أم يسخرون منه ويهزأون ؟ أم إن الأمر خليط بين هذا وذاك؟ إنه أعلن ذلك على الملأ، لا يخاف سطوتهم ولا يخشى عقابهم . وعزّفهم برهم المعبود الحق الذي يستحق العبادة وحده " قال بل ربكم ربُّ السموات والأرض الذي فطرهنّ " فهو الخالق لكل شيء، وسبب الوجود . ثم رفع الوتيرة حين شهد لله الحق بالوحدانية المطلقة " وأنا على ذلكم من الشاهدين .."

٦- لم يكتف الداعية بالحاجة باللسان بل وطن نفسه على مكابدة المكروه في الذب عن الدين، فقرر كسر أصنامهم ليعاينوا ضعفها وهوانها علّ الغشاوة تنجلي عن أعينهم فيكفرون بها ويؤمنون بالله وحده . وأقسم بالله ليفعلنّ ذلك في غفلة منهم ليُفاجئوا بما فعل فيهم هزة قوية يفكرون بعدها بما هم عليه من إفك وزور وضلال . قال ذلك في نفسه، فما ينبغي لمن عزم على أمر أن يُفشيهِ قبل إتمامه، والتمس يوماً يخرجون فيه إلى عيد لهم بعيداً عن المدينة فيغتتم فرصة خلوّ المعبد منهم، ويحطم أصنامهم . ولا بد من كتم السر فالرسول ﷺ يقول " استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان. " .

٧- دخل المعبد يحمل الفأس يضرب في الأصنام بقوة ففتتها وجعلها قطعاً صغيرة " فراغ عليهم ضرباً باليمين " إلا كبيرها لم يكسره ، وعلّق في عنقه الفأس ليحتج به عليهم . ويبين ضعف معتقداتهم بآلهتهم المفتراة ، لعلهم يسألون هذا الإله الكبير عمّن فعل بصغاره هذا الفعل المهين ، ورآه هذا الإله فلم يتحرك مدافعاً عنهم ، بل قبل الإهانة حين علّق الفأس على عنقه مقهوراً .

٨- ولكنّهم لم يسألوا هذا الربّ فهم يعرفون أنه حجر أصم لا يعي ولا يعقل ، فتساءلوا فزعين مما رأوا " قالوا : من فعل هذا بآلهتنا ؟! " وكان أولى بهم أن يسألوا كبير الآلهة " من فعل هذا بصغارك وأنت أعمى أخرس ! " وكان أولى بهم أن يكسروه ويفتتوه ويُلحقوه بالآخرين - لو كانت لهم عقول - ولكن تساءلوا فيما بينهم ليصلوا إلى الفاعل الذي حطّم معتقداتهم وذوّأها في الهوان والمذلة . " إنه لمن الظالمين " ولنتساءل : من الذي ظلّم؟ إن كانت الآلهة فهي - على زعمهم - قادرة على الدفاع عن نفسها ومعاقبة من يسيء إليها ، بله أن يفكر في ذلك ! وإن كان عبّادها المظلومين ، فقد ظلّموا أنفسهم - ابتداء - بعبادة آلهة ذليلة ، وإن كان الفاعل ظلّم نفسه بتحطيمها وكسرها فقد أحسن إلى نفسه حقيقة ولم يظلمها ، وهل القضاء على الخبث والفساد ظلم ؟!

٩- ويبحثون ويسألون ، ثم يتذكرون أن الفتى إبراهيم ذكر آلهتهم بسوء وخفضّضها وحقرّها ، فلم لا يكون هو الفاعل ؟ " قالوا سمعنا فتى يُقال له إبراهيم " فجاءوا به على أعين الناس ليقرروه ويحاسبوه ويعاقبوه إن ثبت أنه الفاعل الأثيم !! . جاءوا به على أعين الناس ليظهروا أنهم حماة العقيدة ورجالها ! ، وليخاف من تسوّّل له نفسه أن يفعل هذه الفعلة في قابل الأيام !! ويسألونه أمام الجميع " أنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم ؟ "

١٠- لم يكن يريد الكذب حين أشار إلى الفأس معلّقة بعنق كبير الآلهة وزعيمها قائلاً " بل فعله كبيرهم هذا ، فاسألوهم إن كانوا ينطقون ؟! " ولم لا يكون كبيرهم قد قتلهم كي لا يشاركوه ألوهيّته ؟ والدليل قائم فالفأس يشهد على إجرام كبير الآلهة ، ولن يستطيع الدفاع عن نفسه فأداة الجريمة موجودة، وهو قائم في مكانها لم يبرحه ، وهؤلاء القتلى المتحنون بجراحهم ما زالوا في أرض المذبحة ، ولعل أحدهم لم يلفظ أنفاسه بعد ، فاسألوهم يخبروكم !

١١- حين يخلو الإنسان إلى نفسه دون كبرياء ولا استكبار يصل إلى الصواب ويعرف الحقيقة .

وهذا ما قاله الجميع ابتداء " فرجعوا إلى أنفسهم ، قالوا : إنكم أنتم الظالمون " وما أجهل أن يعترف المخطئ بخطئه ، ويرجع عن غيه وضلاله ، إذاً فالحياة حلوة جميلة .. لقد اعترف الحاضرون أنهم يعبدون أصناماً هم صانعوها ، وأرباباً هم أوجدوها . لكن الشيطان اللعين والنفس الأمارة بالسوء لا يتركان الإنسان في صفائه الروحي ، إنما يوسوسان له ، ويقلبان الحق باطلاً ، والباطل حقاً ، والاستكبار غمط للحق والجبروت أسرُّ له وقتل . هذا ما كان من الكبراء حين رأوا الزعامة قد تطير من بين أيديهم إن وافقوا الفتى فيما يقول ، فسرعان ما عادوا إلى الضلال بعد أن كانوا على أبواب الهدى ، ومشارف سبل السلامة . " ثم نُكسوا على رؤوسهم " واتخذوا موقع المحجوم ليستروا عوراتهم ويُضلوا العوامَّ من حولهم فاتهموه بتكسير الأصنام حين قالوا له : " لقد علمت ما هؤلاء ينطقون " .

١٢- ويرى الفتى إبراهيم أنهم لن يسلكوا سبل الهداية - فالكبر يُعمي صاحبه ، ويقذفه في مهاوي الفتن والضلال ، فقرعهم ، وهزئ بهم وبآلهتهم " أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئاً ، ولا يضرركم " ما هذه الآلهة البليدة التي يتحكّم بها عبّادها ؟ ولم يُعبد إله لا يضر ولا ينفع ؟ إنها الرّدّة البشرية إلى أعماق الجهالة والهمجية ، إلى الطور البهيمي ! أفتعبدون أيها القوم هذه الآلهة البكماء ، وقد علمتم أنها لم تمنع نفسها من أرادها بسوء ، ولا هي تقدر أن تجيب إن سُئلت عمن يأتيها بخير فتخبر ، أفلا تستحون من عبادة ما كان هكذا ؟ أفلا تتدبرون ما أنتم فيه من الضلال والكفر الغليظ الذي لا يروج إلا على جاهل فاجر ظالم . " أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون ؟ " نعم ، إنهم وأمثالهم لا يعقلون . فأقام عليهم الحجة والزمهم بها ولهذا قال تعالى " وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه "

١٣- لا يتحمل الظالم المتجبر أن يرفع الراية البيضاء ويستسلم . فهو في هذه الحياة الدنيا يقلب الحقائق ، وويجترح كل المخازي ليكتسب الصوت الحر ، ويقطع لسان الحق ، ويطمس نور الهداية . لا بد من القضاء الكامل على من يقف أمامة ويجعل نفسه له نداءً . ويتداعى الظلمة وأعوانهم إلى تحريق الفتى وأمثاله على مدى التاريخ ليصفو لهم الجو ، " قالوا حرّقه " والتحريق فوق الإحراق وأشد منه بمراحل . لكنّ الذي نراه في المتجبرين الظالمين يتكرر دائماً ، فهم نسخة واحدة تتجدد . لقد قالوا " حرّقه وانصروا آلهتكم ! " والحقيقة أنهم يريدون نصر أنفسهم فقط ، وما هذه الآلهة إلا صورة يحكم الجبابة -

في كل زمان ومكان - من ورائها ، ما هي إلا ظل لهم ليس غير ، ألم يقل فرعون " ذروني أقتل موسى وليدع ربه ! إن أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر في الأرض الفساد؟! " وتصور أن فرعون المتعطرس يتهم الداعي الأول في عصره بالفساد ، يتهم أحد الرسل أولي العزم كليم الله تعالى بالفساد ، ويأمر - ديموقراطياً - بقتله ليتخلص من شروره !!! إنها الديكتاتورية في كل آن ومكان تنطق بلسان واحد .

١٤- وينسى الظالمون أن الله تعالى ناصر دعوته ، ناصر رسله ، ناصر دعائه ولو بعد حين .
ويُلقي الداعية الأول أبو الأنبياء في النار ، فيأمرها خالقها أن تكون برداً وسلاماً على إبراهيم ، فتكون . وهل تملك غير ذلك ؟ إنه سبحانه الذي وهبها خاصية الإحراق ، وهو الذي يمنعها إياها متى أراد " قلنا يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم ، وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأَخسرين " انتصر إبراهيم في الدنيا وكان في صف الأنبياء الأوائل في الآخرة وصلى الله عليه إلى يوم القيامة ، وأمرنا بالصلاة على نبينا كما صلى الله من قبل على أبيه إبراهيم ..

اللهم رب إبراهيم ومحمد اغفر لنا ذنوبنا ، واستر علينا عيوبنا ، واختم بالصالحات أعمالنا ...

اللهم آمين ، يا رب العالمين .



تأملات في سورة الأنبياء (٢)

ما ينبغي أن تكون حياة الإنسان دون هدف ، ولا يجوز أن يعيش دون أسس وقواعد تجعل منه إنساناً سوياً يقتنص الفائدة ويفيض على غيره منها - فهو جزء من هذه البشرية الاجتماعية - وتعمل من حياته قدوة يحتذيها غيره ، فيتنافسون لسعادتهم جميعاً. وسنذكر بعض القواعد التربوية الرائعة في هذه السورة نعيش في ظلها ونتدارسها لنفيد منها دروساً عملية وحياة نافعة :

١- لم يخلقنا الله تعالى للهو واللعب ، لقد خلقنا لهدف سام وبين لنا - منذ البداية - النهاية التي نختارها نحن بأنفسنا . وقد " اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون " بل إنهم مصرون على ذلك " ... وهم يلعبون ، لاهية قلوبهم " مع أن الله سبحانه كرر في أكثر من آية كريمة قوله " وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين " . إن التفكير فيما حولنا من بناء الأرض المتوازن لتكون آهلة بالمخلوقات لدليل على أن وراء الترتيب أمراً يريد به الله تعالى لا ينبغي أن نغفل عنه " وجعلنا في الأرض رواسي أن تמיד بهم ، وجعلنا فيها فجاجاً سبلاً لعلهم يهتدون " وهذه السماء فوقنا بناء عال محروس مرفوع لا يصل إليه إلا من شاء الله وما فيها من نجوم وكواكب وشموس وأقمار دليل على عظمة الخالق سبحانه ودعوة إلى الإيمان به وعبادته " وجعلنا السماء سقفاً محفوظاً ، وهم عن آياتها معرضون " والحقيقة أن من أغلق عقله وقلبه ورضي أن يعيش كالبهائم دون تفكير وفهم وتدبر لآيات الله ، فلا يلومن إلا نفسه .

٢- في هذه السورة كما في أخواتها تحذير من نهاية المكذبين المستكبرين " ثم صدقناهم الوعد ، فأنجيناهم ومن نشاء وأهلكنا المسرفين " والإهلاك في الدنيا دليل على العقاب الشديد في الآخرة ، فالعقاب يكون في الدارين لمن عصى واستكبر ، وقرأ معي هذه النهاية المخيفة للظالمين " حتى جعلناهم حصيداً خامدين " فيخمدون بعد حركة وحياة ونشاط كالزراع اليابس . وتأمل الصورة المهينة للكافرين الذين تأكل النار كل ذرة في أجسامهم وهم مقهورون " لو يعلم الذين كفروا حين لا يكفون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم ، ولا هم يُنصرون ، بل تأتيهم بغتة ، فتبتهتهم ، فلا يستطيعون ردها ولا هم يُنظرون " وكلمة " لو يعلم " كشف للحجاب وتقريب للصورة . ولا يفهم هذا إلا أولو البصائر . حين تأتيهم النار فجأة من كل مكان ، وتحيط بهم ، فإذا هم وقودها ، تنوشهم من كل أطرافهم ، فيستسلمون . وتأمل

كذلك كلمة " حاق " وهي الإحاطة الكاملة التي لا مفر منها " فحاق بالذين سخرُوا منهم ما كانوا به يستهزئون " وما الذي حاق بهم وأحاط ؟ إنها النار التي كذبوا بها وهزئوا بالأنبياء الكرام الذين حدّروهم من الوقوع فيها .

٣- ومن العجيب أن أسئلة الاختبار وأجوبتها معروفة على غير ما عهدنا بامتحانات الدنيا ، فالله سبحانه يريد لنا النجاح في الدارين ، فكان طريقه الذي أمرنا بسلوكه واضحاً لا لبس فيه ، ولو سألنا أنفسنا : لماذا يوم القيامة ؟ لجاءنا الجواب شافياً لتساؤلات ذوي الألباب والفكر الرشيد " ونضع الموازين القسط ليوم القيامة ، فلا نُظلم نفس شيئاً ، وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها ، وكفى بنا حاسبين " لقد أمر الناس في الحياة الدنيا بالعمل الصالح والإحسان في كل أمورهم ، فلا ظلم ، ولا فساد ، بل عدل وإصلاح . ولا كذب ولا زور ، بل صدق واستقامة . فمن أدى المطلوب منه في الفانية نال الخير في الباقية .. إننا نرى في حياتنا صوراً من الظلم والفساد والإيذاء وتغييب الحق من أناس قادرين يفعلون ما يشاءون دون وازع ولا خلق ، ثم ينتهي أجلهم وهم على حالتهم هذه من الصلف والكبرياء والتعبر . فأين الحق وأين العدل اللذان نادى بهما الرسل والدعاة ؟ أين عمارة الأرض - ولا تعمر إلا بالهدى والرشاد - وأين حساب هؤلاء الطغاة ، وأين الانتصاف منهم ؟ لا بد من يوم تجتمع الخلائق كلها فيه ليأخذ العدل مجراه ويُحاسِب الناس ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر .

٤- " كل نفس ذائقة الموت ، ونبلوكم بالشر والخير فتنة ، وإلينا تُرجعون " قاعدة أصيلة تعني أن المرء مبتلى بالمصائب تارة وبالنعم أخرى فَنَنْظُرُ مَنْ يَشْكُرُ وَمَنْ يَكْفُرُ وَمَنْ يَصْبِرُ وَمَنْ يَقْنَطُ ، و بِالشَّدَّةِ وَالرَّخَاءِ وَالصَّحَّةِ وَالسَّقَمِ وَالْغِنَى وَالْفَقْرَ وَالْحَلَالَ وَالْحَرَامَ وَالطَّاعَةَ وَالْمَعْصِيَةَ وَالْهُدَى وَالضَّلَالَ فإِذَا رَجَعْتُمْ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى جَازَاكُمْ بِأَعْمَالِكُمْ . فالدنيا دار اختبار وتمحيص سرعان ما تنتقل عنها إلى غيرها ومن ذا لا يموت ؟ و " التدوَّق " يعني الاستغراق الكامل في الموت إذ تموت الجوارح كلها فتنسل الروح من كل ذرة من ذرات الجسم . ولا ينجو من الموت أحد أكان إنساً أم جنّاً أم ملكاً أم حيواناً ، فإذا لف المخلوقات كلّها العدمُ قال الله تعالى " لمن الملك اليوم ؟ ! " أجابه لسان الحال " لله الواحد القهَّار " .

٥- يتبادر إلى ذهن الكثير من الناس سؤالان اثنان :

أ- هل ينبغي أن يكون للكون إله ؟

ب- أهو وحده أم له شركاء ؟

والجواب على السؤال الأول أنه لا بد لكل حادث من مُحدث ، فمن البدهي أن ما حولنا لم يوجد صدفة ، فقانون الصدفة ساقط من أساسه لا يقبله عاقل . فلو أنك رَقمت عشر قطع نقدية ووضعتها في جيبك ورغبت أن تخرج القطعة ذات الرقم خمسة فقانون الصدفة يقول : إن نسبة إخراجها واحد على عشرة ، ولو أردت أن تخرجها في المرة الخامسة فإن قانون الصدفة يقول : إن نسبة خروجها في المرة الخامسة واحد على مئة ، ولو ردت إخراج القطع مرتبة من الواحد إلى العشرة فقانون الصدفة يقول : إن نسبة خروجها واحد على واحد أمامه عشرة أصفار . والنظام الكوني المنتظم البديع الترتيب لا يحتمل الصدفة ، فلا بد من وجود قوة أوجدت كل هذا الخلق الرائع المتناسق .

وجواب السؤال الثاني أن الإله كامل كاملاً مطلقاً ، فإن تصورنا أن هناك إلهين اثنين ، فينبغي أن يكون كلاهما كاملاً كاملاً مطلقاً ، فإن تطابقا في كل شيء فهما - بداهة - إله واحد ، وإن قلّ أحدهما عن الآخر فهو ضعيف مقهور للأول ، وبهذا تنتفي إلهيته . فالإله لا يُقهر ، وهو كامل كاملاً مطلقاً لا تشوبه شائبة . ومن هنا نقول ليس للإله شركاء ، إنما الجميع عباد وهو الواحد الأحد الفرد الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ، والولد له بداية ومن له بداية له نهاية ، ومن كانت له بداية ونهاية فهو محدود تعثره العوامل ، والله تعالى هو الأول بلا بداية والآخر بلا نهاية . والكامل المطلق لا تعثره العوامل فهو خالقها وموجدتها . والسماء والأرض لله الواحد لا يشاركه في ملكه مشارك " لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا .. " وماذا يفعل الشركاء حين يتنازعون فيما بينهم ؟ إن شأنهم كالشركاء المتنافسين يختلفون ويتنازعون ، ويُفَضُّون الشركة ، أو يكيد أحدهم للآخرين ويستخلص منه نصيبه ، ويطرده أو يستخدمه موظفاً لديه وعاملاً عنده " ما اتخذ الله من ولد ، وما كان معه من إله ، إذاً لذهب كل إله بما خلق ، ولعلا بعضهم على بعض ، سبحانه الله عما يصفون "

٦- الإيمان بالله والعمل الصالح ينجي صاحبه ويرفعه في عليين يقول تعالى في الآية ٩٤ من

هذه السورة " فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن ، فلا كفران لسعيه ، وإنا له كاتبون " وقصص الأنبياء في هذه السورة برهان على ذلك فموسى وهارون عليهما السلام حملا التوراة ودعوا إليه فكانا قدوة " ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان وضياء وذكرًا للمتقين " وكان إبراهيم عليه السلام الأسوة الأولى

للمسلمين ، - وقدمت قصته في المقال السابق - فنجاه الله من كيد الكفار ورفع ذكره ، ووهبه ولداً من زوجته سارة وحفيداً صالحين وجعل لوطاً نبياً من الصالحين " ولوطاً آتيناها حكماً وعلماً " ، فكانوا مع إبراهيم أئمة للناس وقدوة صالحة في عمل الخير وتعليمه " وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا ، وأوحينا إليهم فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين " ثم خص لوطاً بالنجاة من شياطين الفساد في قريته ورحمه رحمة واسعة " ... ونجيناه من القرية التي كانت تعمل الخبائث..... وأدخلناه في رحمتنا إنه كان من الصالحين " وكذلك استجاب لنوح حين نادى " إني مغلوب فانتصر " فكان الإنقاذ السريع " فاستجبنا له ، فنجيناه وأهله من الكرب العظيم " وأكرم داود وابنه سليمان بالعلم والفهم ، وسخر مع داود الجبال والطير تسبح لله ، كما علمه سرد الحديد وصنعه ، وسخر لسليمان الريح تجري بأمره ومردة الجن تخدمه في الآيات (٧٨ - ٨٢) .. وعودة إلى سورة الأنبياء في إكرام الأنبياء نجد فضل الله عليهم واسعاً ممتداً يعطيهم الجزيل ويهبهم من رزقه الفضيل .

نسأل الله تعالى أن يكرمنا ويعفو عنا، ويحشرنا مع الأنبياء والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقا.



تأملات تربوية في سورة النور (١)

سُمِّيَتْ سورة النور لأحد سببين أو لكليهما . فهي أولاً : تحوي قوانين اجتماعية ونظماً تربوية تملأ حياة من التزمها نوراً وسعادة . وفيها ثانياً : قوله تعالى في الآية الخامسة والثلاثين " الله نور السماوات والأرض " . وقد جاءت تسميات السور الكريمة حسب ما ورد فيها من أسماء مميزة كـ " آل عمران ، والأنبياء ، والضحى . " أو ما جاء من قصص صبغت السورة بصبغتها كـ " البقرة ، والأحقاف ، وهود . " ومن المفارقات الذكية أن الشاعر " أبا تمام " مدح الأمير الواثق بالله قبل أن يرث الخلافة عن أبيه المعتصم بالله ، فكان مما قاله فيه يستعير صفات بعض الرجال المشهورين :

إقدام عمرو في سماحة حاتم في حلم أحنف في ذكاء إياس

وقد كان عمرو بن معد يكرب مشهوراً بالقوة والشجاعة . وحاتم الطائي معروفاً بالكرم والجود . والأحنف بن قيس عالماً في الحلم وسعة الصدر . وإياس القاضي الذكي الأملعي عادلاً تقياً ... فجمع للواثق صفاتهم جميعاً في البيت السابق فقال الحاسدون ييغون الكيد له : الأمير فوق ما ذكرت - قاصدين إحراجه والنيل منه - فلا هو قادر أن ينفي ذلك ، فيجعلهم فوق الأمير - فالمشبه به فوق المشبه - فيغضبه . ولا هو قادر أن يقر لهم بالدونية كي لا يُقال له : كيف تشبهه بمن هم دونه ؟! إنك إذ ذاك تقدح فيه ذماً ولا تقول مدحاً !! فارتحل بيتين رائعين يدلان على ذكائه وعبقريته ، ألقم بهما الحاسدين أحجاراً :

لا تعجبوا ضربي له من دونه مثلاً شروداً في الندى والباس

فالله قد ضرب الأقل لنوره مثلاً من المشكاة والنبراس !

فنال لذكائه في حسن التخلص الجائزة مضاعفة . ونظروا في قرطاس القصيدة فلم يجدوا هذين البيتين . فعرفوا أنه الذكي الأريب قالهما ابتداءً من قافية القصيدة ووزنها. فعلا ذكره وذاع صيته.

والسورة الكريمة - كأخواتها من السور - آفاق تربوية راقية ، ولا يدعي لبيب الإحاطة بها إلا كما يغرف الناهل من النهر الدقاق ، وينحت المثال في الجبل العملاق ، أو يجول الفلكي بمنظاره في أولى السبع الطباق .

أول معلم تربوي التعظيم

فيتلقى السامع والقارئ السورة بالهيبة والإجلال . فهي " سورة " . والسورة : المنزلة العظيمة التي يتطلع إليها كل ذي همة ، ويتشوف إلى بلوغها أصحاب العزائم ... مدح النابغة الذبياني النعمان بن المنذر بالمنزلة العالية والمكانة الرفيعة فقال :

ألم تر أن الله أعطاك سورة ترى كل ملك دونها يتذبذب
فإنك شمس والملوك كواكب إذا طلعت لم يبدُ منهن كوكب

ولإبراز عظمتها جعلها مبتدأً وهي نكرة . واستهل بها السورة للتهويل في قدرها وشرفها . واستعمل ضمير العظمة " نا " في الأفعال الثلاثة التي تلت كلمة " السورة " " أنزلناها وفرضناها وأنزلنا فيها آيات بينات لعلكم تذكرون " . وقد جعل آياتها بينات وهذا من التفخيم والعظمة كذلك .

وانظر معي إلى الترتيب في الحديث عن السورة - وهو المعلم التربوي الثاني - تجده أسلوباً تربوياً رائعاً - : فقد أنزل الله سبحانه سورة النور من السماء إلى الأرض ، وفرضها لتكون النور الذي يضيء للسالكين طريقهم وأنزل فيها الآيات الساطعة والبراهين الواضحة لتكون المعالم المضيئة للناس أجمعين . فكان إنزالها وفرضها وبيانها متتابعاً مرتباً . والترتيب يساعد على الفهم وحسن التنفيذ ... ونجد الترتيب ثانية في غض البصر الذي يؤدي إلى حفظ الفرج " قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ،... ويحفظوا فروجهم وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ، ويحفظن فروجهن " . كما نجده في ذكر الأهم ثم الأقل أهمية في إظهار محاسن المرأة للمحارم : فتظهر المرأة زينتها لزوجها ثم لأبيها ثم لأبي زوجها ثم لأبنائها ثم لأبناء زوجها ثم لإخوتها ثم لبني إخوتها ثم لبنى أخواتها ثم لنساء المسلمين ثم لملك اليمين من الرجال ثم لمن لا يرغب في النساء لعله قاهرة ثم للأطفال غير المميزين . ونجد الترتيب وذكر الأهم ثم الأقل أهمية أيضاً في عدم الحرج في الأكل في الآية الحادية والستين إذ تتحدث عن دخول بيوت المذكورين منهم بالتفصيل المرتب .

ولا ننس أن نشير إلى المعلم التربوي الثالث التفصيل في آتي الحجاب ٣١ والأريحية في التواصل مع

الأهل والأصدقاء ٦١ أسلوباً تربوياً راق . لأنه

١ - يجلي الأمور ويوضحها

٢ - ويزيل الإبهام،

٣- ويضع النّقاط على الحروف ،

٤- ويشير إلى المهم من الأشياء والأقل أهمية سواء بسواء .

والأسلوب التربوي الرابع في هذه السورة ذكر الأهم ليتنبه المتلقي إليه على سبيل المثال في هذه السورة الكريمة تقديم الزانية على الزاني " الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مئة جلدة .. " لأن المرأة هي الداعي الأول إلى جريمة الزنا ، فلو تعففت تعفف الرجل ، أو ضعفت ولانت جرؤ الرجل . أما في السرقة فالرجل يذكر أولاً " والسارق والسارقة فاقطعوا ايديهما .. " إذ الرجل مكلف بالصرف على الأسرة والحصول على المال ... ولعل في إنهاء آية الحجاب بنصيحتين غاليتين هما " ولا يضرين بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهنّ ، وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون... " نهيّاً للنساء عن عادة ذميمة لاستحلاب انتباه الرجال ومن ثمّ الفتنة ، وأمرّاً للرجال والنساء معاً بالتوبة والعودة إلى الله فهو - سبحانه - كهف التائبين ... وقد ذكرتُ قبل قليل ذكر الأهم في آيتي الحجاب وتواصل الادل والأصدقاء ، ففيهما الدليل على ذلك. والأسلوب التربوي الخامس هنا المماثلة أو قل (إن الطيور على أشكالها تقع) . ف " الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة ، والزانية لا ينكحها إلا زانٍ أو مشرك ، وحرّم ذلك على المؤمنين " فقد طلب مرثد ابن أبي مرثد من النبي الكريم صلى الله عليه وسلم أن يتزوج عناقاً فهو ما يزال يحبها ، وهي بغيّ كان يأتيها في الجاهلية ، وما زالت على فجورها وجاهليّتها فنزلت هذه الآية الكريمة تحدد العلائق بين المؤمنين أهل الطهر والعفاف وبين المشركين وأهل الفسق والفجور ... كما أن آيات الملاعنة ٤ - ١٠ تفصل بين الزوجين حين يكون الزوج عفيفاً طاهراً والزوجة غير ذلك .. إن البيت لا تقوم دعائمه إلا على الفضيلة والطهارة . وما أجمل قولَ النبي صلى الله عليه وسلم في اختيار الزوجة الصالحة " الدنيا متاع ، وخير متاعها المرأة الصالحة " وحديثه صلى الله عليه وسلم في اختيار ذات الدين مشهور " تنكح المرأة لأربع ... فافطر بذات الدين تربت يداك " ، يؤيده قول الله تعالى " الخبيثات للخبيثين ، والخبيثون للخبيثات . والطيبات للطيبين والطيبون للطيبات " . ولن يرتاح الزوجان إلا حينما يكونان متطابقين أخلاقاً ودينياً وإلا كانت الحياة قاسية ومتعبة . ولعل في أمر الله تعالى لكلا الفريقين أن يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ممثلة في الطيب والطهارة والحياة النظيفة .

ومن الاساليب التربوية هنا - وهو السادس حسن الظن بالمسلم : فعلى المسلمين حين يسمعون

القذف بحق الأطهار الشرفاء أن يَنْقُوا القذف ، وينكروا الطعن فالأصل في المجتمع المسلم الطهارة " لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً، وقالوا : هذا إفك مبين " وهذا ما فعلته أم أيوب وزوجها رضوان الله عليهما حين سمعا المنافقين وضعافَ الإيمان من المسلمين يتحدثون بشأن عائشة رضي الله عنها وصفوانَ بن المعطل رضي الله عنه ذلك الصحابي الذي شهد له الرسول صلى الله عليه وسلم بالفضيلة والطهر فقالت أم أيوب : أما تسمع ما يقول الناس في عائشة؟! قال : نعم ، وذلك الكذب ، أكنت فاعلة ذلك يا أم أيوب؟! قالت : لا والله . قال : فعائشة خير منك ، وصفوانُ خير مني . فإذا زُمي اثنان أو أحدهما بالزنا قيل للقاذف هات شهادتك الأربعة وإلا كنت عند الله كاذباً ، فأعرض المسلمين غالبية . وما ينبغي لأحد أن يرميهم دون بيّنة " لولا جاءوا عليه بأربعة شهداء ، فإذا لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون " إنّ هذا طعنٌ بطهر المجتمع ونشرٌ للفحشاء فيه ، وإفساد للأخلاق يستحق صاحبه به — لولا رحمة الله بعباده في دنياهم وأخراهم — العذاب العظيم " ولولا فضل الله عليكم ورحمته في الدنيا والآخرة لمسكم فيما أفضتم فيه عذاب عظيم "

وتصور معي أخي المسلم الحالة التي وقع فيها كثير من المسلمين - وما يزالون يقعون حين تغيب شفافية الإيمان — فقد أخذوا يتناقلون الفرية دون إنكار أو تمحيص ، فانتشرت القالة السيئة بينهم انتشار النار في الهشيم . والعادة أن الإنسان يفهم الفكرة بعقله وقلبه . لكنه حين يهتم بالأقاويل دون تفكير وفهم فكأنه يستقبل الخبر بلسانه فقط لا يتجاوزه ، ثم يلقيه كما يلقي القيء فيؤذي نفسه ومن حوله " إذ تلقونه بألسنتكم ، وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم ، وتحسبونه هيناً ، وهو عند الله عظيم " فعاتبهم الله تعالى في هذه الآية بأمور ثلاثة :

الأول : تلقيه بالألسنة دون السؤال عنه .

الثاني : التكلم به ونشره بين المسلمين .

الثالث : استصغار الذنب حيث حسبه هيناً وهو عند الله عظيم.

وكان عليهم حين سمعوه أن ينكروه ويؤكدوا نزاهة بيوت الأطهار من المسلمين ، ولا سيما بيت النبوة، فلا يغوصوا في نشر الإفك لأنه كذب وافتراء شديد " ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا ، سبحانه هذا بهتان عظيم " .

وهنا ننبه إلى الحذر من الإشاعات المغرضة التي تبلبل الصفوف ، وعلمنا أن نتثبت من الأمر كي
نصون المجتمع المسلم مما يسيء إليه ويضعفه .

والأسلوب التربوي السابع في هذه السورة الكريمة الخطأ المعلم:

يخطئ بنو البشر كثيراً ، ويصيبون كثيراً . والعاقل من اتعظ بأخطائه ، واللبيب من اتعظ بأخطاء غيره .
والطامة الكبرى أن يتكرر الخطأ ونعيش حياتنا أخطاءً متوالية، فنقع فيما كنا نقع فيه، ونستمر على هذا ..
أما إذا عرفنا الخطأ وأسبابه ودواعيه ، ونتأمله علينا وعلى مجتمعنا وأمتنا ، واحترزنا الوقوع فيه مرة
أخرى ، ونبهنا الآخرين إليه كان درساً مفيداً وتربية راقية .. هذا ما يقرره القرآن الكريم حين يقول : "إن
الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم لا تحسبوه شراً لكم ، بل هو خير لكم " فلم لم يكن شراً مع أن المجتمع
تأذى منه؟ ولم كان خيراً؟

فالجواب : أولاً : أن الخطأ قد يحصل حتى في المجتمع النقي المتماسك لأننا بشر.

ثانياً : أن الأشرار في المجتمع لا يفتنون يكيدون له ليحرفوه عن الحق ، فلننتبه إليهم.

ثالثاً : أن بعض الصالحين قد ينحرفون إلى الخطأ ويقعون فيه دون أن يشعروا .

رابعاً: أن من ثبت خطؤه يعاقب أيّاً كان ، ويتوب الله عليه فكل امرئ بما كسب رهين .

خامساً: أن من اجترح الذنب الكبير ونجا من العقوبة في الدنيا لعدم ثبوت الجرم المادي عليه

فلن ينحو في اليوم الآخر من العقوبة الشديدة المناسبة.

أما الأسلوب التربوي الثامن هنا فالإثارة :

وقد يسميها بعضهم التهيج وهو أسلوب - كما نرى - يحسّ المتلقي للتفاعل مع المطلوب منه

إيجاباً قبولاً وامتناعاً ، وكلاهما إذا حصل كما نريد إيجابياً . ومن أمثلته الكثيرة في هذه السورة الكريمة :

أن الله تعالى يقول بعد الأمر بجلد الزاني والزانية غير المحصنين " ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله إن

كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر " فلو تمعنا في الشرط " إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر " في معرض

الأخذ بالشدة في معاقبة الزناة لقلنا متحمسين : نعم يارب نحن نؤمن بك وباليوم الآخر، ولسوف نشدد

بعقوبتهم دون رأفة حتى نكون ممن يؤمن بك وبيوم القيامة . ألا ترى معي أن هذا الشرط أثار فينا الالتزام

بما أمر الله تعالى لنكون عند حسن ظن الله بنا؟

ومنها - من أمثلته - في قوله تعالى " .. وحُرِّمَ ذلك على المؤمنين " في منع زواج المؤمن من الزانية أو المشركة وإلا كان من صنفهما قلنا جازمين: أجل يا رب نحن مؤمنون ننأى بأنفسنا أن نزاوج الفاسدين.

وحين يعاتب المؤمنين في نقل الشائعة دون بصيرة " إذ تَلَقَّوْهُ بِالسَّنْتِكُمْ ، وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم " يحذر من عقوبته الشديدة " وتحسبونه هيناً ، وهو عند الله عظيم " نسرع في القول : نعوذ بالله أن نغضب ربنا فنقع في سَخَطِهِ .

وحين يعلمنا الأدب في قوله تعالى " ولولا إذ سمعتموه قلتم : ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم ، يعظكم الله أن تعودوا لمثل هذا إن كنتم مؤمنين ... " نردد فوراً : سبحانك يا رب تبنا إليك، لن نعود إلى ما يغضبك فنحن مؤمنون

وحين تأخذنا العزة ونعاقب من يسيء إلينا قادرين ينبهنا الله تعالى إلى فضيلة العفو والغفران قائلاً " وليعفوا ، وليصفحوا ، ألا تحبون ألا تحبون أن يغفر الله لكم ؟ " نسرع إلى القول : بلى يارب ، نحب أن تغفر لنا . وما دمنا نخطئ ونحن نرجو الله أن يرحمنا فلنرحم من يسيء إلينا .

وحين يأمر الحق تعالى عباده أن يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ثم يعقب بأن " ذلك أركى لهم، إن الله خبير بما يصنعون " اشتدت رغبتهم في الزكاء ، وعلموا أن الله تعالى مطلع عليهم خبير بهم وقالوا راغبين خائفين : زكّ نفوسنا يا رب ، فأنت خير من زكّاها ، ولا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا .

ثم نجد الإثارة الرائعة للفتيات أن يبتعدن عن الفواحش ويلزمن غرز التقوى حين يأمرهن بالتحصن عن الفساد ، فترك لهن الخيار ظاهراً بأسلوب الشرط وهو سبحانه يحثهن على الطهر والعفاف متلطفاً بهنّ لأنهنّ ضعيفات ، ومعنفات أهل الديانة من الرجال في قوله تعالى " ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصناً لتبتغوا عرض الحياة الدنيا ، ومن يكرههنّ فإن الله من بعد إكراههنّ غفور رحيم " فما يكون من الفتيات المسلمات إلا أن يقلن : بل نبغي التقوى والطهر يارب ، رضي من رضي وأبى من أبى .

والأسلوب التربوي التاسع من المتفضل :

أن أُمِّنَ على غيري ضياع للفضل والثواب ، وسوء في التصرف . أما منّ الوالدين على أولادهما فترية وتعليم وتذكير بالفضل ، ودفع إلى ردّ الجميل ... وأعظم من ذلك منّ الله تعالى على عباده " يمنون عليك أن أسلموا ، قل لا تمنوا عليّ إسلامكم ، بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان أن كنتم صادقين " وهو

الذي يقول سبحانه " ولكن الله يمتن على من يشاء من عباده " . فمنّ العباد على العباد إذلال واستكبار .
ومنّ الأبوين على أولادهما تربية وتهذيب .

ومنّ الله على عباده إسعاد لهم ورحمة .

ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى " ولولا فضل الله عليكم ورحمته ، وإن الله تواب حكيم " إن حذف خبر لولا لتهويل الأمر ، وتقديره : هلكتم أو لفضحكم أو لعاجلكم بالعقوبة . وربّ مسكوت عنه أبلغ من المنطوق .

وكذلك نجد المرنّ في قوله تعالى : " ولولا فضل الله عليكم ورحمته ، وأن الله رؤوف رحيم " وكذلك نجده في قوله تعالى " ولولا فضل الله عليكم ورحمته في الدنيا والآخرة لمسكم فيما أفضتم فيه عذاب عظيم " إن الذي يزكي هو الله تعالى . ألا يقول الله في ذلك " فلا تزكوا أنفسكم . هو أعلم بمن اتقى " ؟
فهنا يؤكد الله تعالى المعنى في قوله سبحانه " ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبداً ، ولكن الله يزكي من يشاء ، والله سميع عليم " .

أما الأسلوب التربوي العاشر فالعقوبة

وهو أن ينال الإنسان جزاء ما اقترفت يده من قول مخلّ ، أو فعل مؤذٍ يضر الآخرين ففيه أولاً : العدل الذي ينصف المظلوم ويردع الظالم .

ثانياً : لأن الإنسان خلق ينازعه الخير والشر . فإن بغى الشر على الخير وجب كبجه .

ثالثاً : والعقوبة عنوان القوة ، والحق بغير قوة يضعف ويضيع . فلا بد من عقوبة ضعيف النفس حتى يرعوي هو وغيره .

فكانت عقوبة القذف ثلاثة أنواع . أولاها جسدية : ثمانين جلدة .

وثانيها مدنية : لا يعامل كبقية الناس إذ لا تقبل شهادته فيتصاغر أمام المجتمع .

وثالثها أخروية : فهو في عداد الفسقة من أهل جهنم . لكن إن اعترف بخطئه وتاب عنه وأصلح ما أفسده تاب الله عليه وغفر له .

" والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً

وأولئك هم الفاسقون إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفور رحيم "

وكانت عقوبة الزنا لغير المحصن نوعين أولاهما جسدية مئة جلدة لكل منهما .

وثانيهما التشهير . — وهي عقوبة نفسية — إذ يحضر العقوبة رهط من المؤمنين حتى يعرف الناس بهذه

العقوبة فيرعوي ذوو النفوس الضعيفة أن يقعوا فيها .

والأسلوب التربوي الحادي عشر التوثيق : ومن فوائد التوثيق :

أولاً : التنبيه إلى أهمية الأمر والتركيز عليه .

ثانياً : الاحتكام إليه واتخاذ قاعدة في الحكم .

من الأمثلة على التوثيق قوله تعالى : " وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين " ففيه تأكيد على وقوع

العقوبة أمام أنظار فئة من المؤمنين .

ثم وجود أربعة شهداء يشهدون على واقعة الزنا وإلا جلد الرامي ثمانين جلدة " والذين يرمون

المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة "

ويؤكد الحكم في معرض عتاب المؤمنين الذين جازت عليهم الشائعة " لولا جاءوا عليه بأربعة شهداء،

فإذ لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون "

كما أن الزوج في ملاعنته زوجته وليس هناك شهود أربعة يقسم أربع مرات: إنه لصادق في دعواه "

والذين يرمون أزواجهم ولم يكن لهم شهداء إلا أنفسهم فشهادة أحدهم أربع شهادات بالله إنه لمن

الصادقين "

وفي رد دعواه تشهد الزوجة أربع مرات أنه كاذب فيما ادّعاه في حقها " ويدراً عنها العذاب أن تشهد

أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين " .

كما أن في هذا التوثيق أسلوباً تربوياً آخر نعتبره الأسلوب الثاني عشر، وهو الوقاية

وقد قالوا قديماً : درهم وقاية خير من قنطار علاج . فما التشديد في وجود الشهداء الأربعة وفي

الأيّمان الأربعة للزوجين إلا وقايةً للمجتمع من كثرة القذف واسترخاض المسلمين . وهناك أمثلة

أخرى للوقاية في هذه السورة الكريمة

منها قوله تعالى : " قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ، ويحفظوا فروجهم وقل للمؤمنات

يغضضن من أبصارهن ، ويحفظن فروجهنّ .. " الم يقل النبي الكريم عليه الصلاة والسلام لعلي رضي الله

عنه في النظر : " يا علي ، لك الأولى وليست لك الثانية ؟! " وغضُّ البصر وعدم رؤية المفاتن يريح القلوب .

كما أن في قوله تعالى " ولا يضرين بأرجلهنَّ لِيُعْلَمَ ما يخفين من زينتهنَّ " حمايةً للنساء من وسوسة الشياطين في جلب انتباه الذكور ، وحمايةً للرجال من تتبُّع أصوات الخلاخيل !!
إن تزويج الذكور من الإناث أحراراً وعبيداً يحفظ الجنسين من الرذيلة والفساد " وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم .. " ألم يقل النبي الكريم في هذا المعنى " يا معشر الشباب ، من استطاع منكم الباءة فليتزوّج ، فإنه أغضُّ للبصر وأحصن للفرج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء " ؟

فالنزواج حصن من الفحشاء حصين ، والصوم كسر لحدة الشبق مؤقتٌ ريثما يسهل الله زواجاً ، ولو بعد حين ... يؤكدُه قوله تعالى " وليستغفِرِ الذين لا يجدون نكاحاً حتى يغنيهم الله من فضله " كما أن الله تعالى شنَّع على تجار النّحاسة والدياثة الذين يقدّمون النساء لفرش الرجال - والعياذ بالله من افعالهم - وعفا عن الفتيات اللواتي اضطررن إلى ذلك ، ثم ثبّن في أول بارقة خلاص ، وشجعهن على أن يكن عفيفات " ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصناً لتبتغوا عرض الحياة الدنيا ، ومن يكرههنَّ فإن الله من بعد إكراههنَّ غفور رحيم " .

وعلى الرغم أن القرآن سمح للعجائز اللاتي لا يرجون نكاحاً أن يضعن ثيابهنَّ غير متبرجات بزينة فقد حثهن على العفة والستر " وأن يستغفِرْنَ خير لهنَّ .. " (فلكل ساقطة في الحي لا قطة.)
ثم إن عدم التكلم فيما يضر نوعٌ مفيد من أنواع الوقاية " ما يكون لنا أن نتكلم بهذا " فصول اللسان عن القيل والقال يند الإشاعة في مهدها . ويقطع دابر الفتنة .

والأسلوب التربوي الثالث عشر الواقعية وقل : الدقّة في التعبير وإن كان من هذه الناحية يدخل في البلاغة إلا أنه تعويد للمتعلم على الفهم السليم والتحليل المحيط .

مثال ذلك قوله تعالى " قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ، وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهنَّ ويحفظن فروجهنَّ " فلا يستطيع الإنسان أن يمشي في طريقه مغمض العينين ، لا بد من الرؤية كي يتحاشى المآزق والمخاطر ، فهو لا يغض بصره بل يغض منه ، فلا يرى المفاسد والمفاتن ويمتنع عن

النظرات الزائغة . لكنه يحفظ فرجه كله أن يقع في المحرمات . ومثال آخر للدقة في التعبير والواقعية نجده في آية المحارم فـ "أبناء " جمع قلة يناسب أبناء المرأة وأبناء زوجها مهما كثروا . وبينين - بنون - جمع كثرة يناسب بني الإخوة والأخوات على الأغلب . وهذا يعلمنا الدقة في الحديث أو التعبير .

والأسلوب الرابع عشر ترك مجال الإصلاح مفتوحاً

فمن يئس من الخلاص تهادى في غيه ، وازدادت نغمته ، وألب غيره ، وتهور فأذى نفسه وغيره . ومن وجد منفذاً للإصلاح والنجاة ، فكر وتدبر وارعوى . ولا نريد لأبنائنا وأهلنا ومجتمعنا سوى الهداية ما استطعنا ، وهذه مهمتنا التربوية . وفي هذه السورة غيرها من السور الكريمة أمثلة على ذلك :

منها ما نراه في التعقيب على من رمى المحصنات دون وجه حق " إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفور رحيم " فمن تاب واعترف بخطئه غفر الله تعالى له .

ثم اقرأ معي تذييل بعض الآيات " وأن الله تواب حكيم " " وأن الله رؤوف رحيم " " وأن الله غفور رحيم " . إنه سبحانه ترك مجال التوبة والإصلاح مفتوحاً

والله تعالى الكريم الرحيم يدعونا إلى التوبة فهو الإله الودود الذي يقبل توبة عباده مهما ابتعدوا ثم عادوا " وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون " أفلا نتوب إليه ونستغفره؟! بلى إن باب التوبة مفتوح ، فهلّم أخي نسارع إلى الله إنه حبيبنا وسيدنا يفرح لتوبتنا ويسارع إلينا إن سارعنا إليه ، ويقبلنا مهما ارتكبنا من ذنوب ثم لجأنا إليه " ففروا إلى الله "

يا سيدي ومولاي : أقول ما قاله أبو نواس حين تاب :

أفر إليك منك ، وأين إلاّ إليك يفر منك المستجير

عبدك الراجي عفوك : عثمان

تأملات تربوية في سورة النور (٢)

من هذه الأساليب في هذه التأملات

العلاقة مع القيادة :

فالرسول صلى الله عليه وسلم مثال القائد الفذ المعصوم ، وأصحابه الكرام مثال الجندي والمواطن الصالح . فكيف كانت العلاقة بينهم في هذه السورة الكريمة ؟ .

حين نزلت الآية " والذين يرمون المحصنات ، ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ، ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً ، وأولئك هم الفاسقون " شق هذا في بداية الأمر على عاصم بن عدي الأنصاري ، فقال : جعلني الله فداك ، لو أن رجلاً منا وجد على بطن امرأته رجلاً ، فتكلم ، فأخبر بما جرى جلد ثمانين وسماه المسلمون فاسقاً فلا تُقبل شهادته ! فكيف لأحدنا عند ذلك بأربعة شهداء ؟ وإلى أن يلمس أربعة شهود فقد فرغ الرجل من حاجته ! فقال عليه الصلاة والسلام " كذلك أنزلت يا عاصم بن عدي " فخرج عاصم سامعاً مطيعاً فالسمع والطاعة واجبة للقائد المؤمن الذي يحكم بأمر الله تعالى .

وحين يكون المسلمون مجتمعين في إمرة القائد لا ينفلتون إلا بإذن منه لحاجة وضرورة ، فإن أذن انطلقوا وإلا فعليهم البقاء سماعاً وطاعة . على أن يكون السماح والمنع مبنيين على تفهم القائد لضرورة الأمر، وأن يكون أباً رحيماً لهم ، وأخاً عطوفاً عليهم . ووصف الله تعالى الملتزمين الأمر بالمؤمنين " إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ، وإذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنه ، إن الذين يستأذنونك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله ، فإذا استأذنونك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم واستغفر لهم الله ، إن الله غفور رحيم " . فالعلاقة بين القائد والجندي والرئيس والمرؤوس متوازنة . فالجندي يحترم قائده ويستأذنه ، والقائد يعطف على جنديّه ويستغفر له .

أما الذين ينسحبون من اللقاء دون أن يُشعروا النبي القائد متوارين بإخوانهم رويداً رويداً فقد أوتوا خطأ جسيماً يستحقون عليه العقوبة . وهنا يأتي التحذير من مغبة هذا التصرف الدال على عدم الشعور بالمسؤولية من مخالفة الأمر ، فلئن غاب عن النبي الكريم خروجهم وتواريهم فلن يغيب عن الله تعالى خطأ تصرفهم " قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذاً ، فليحذر الذين يخالفون عن أمرهم أن تصيبهم فتنة أو

يصيبهم عذاب أليم " .

كما أن على المسلم أن يتأدب بحضرة قائده المتمثل بهدي النبي الكريم عليه الصلاة والسلام ، فلا يناديه بصوت عالٍ ، إنما يسعى إليه ويخاطبه بصوت منخفض مسموع ، يدل على احترام وتقدير ، لا على ذل وخنوع " لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً " .

كانوا يصيحون من بعيد ينادون الرسول الكريم : يا أبا القاسم ، فنبههم القرآن إلى تعظيم نبيهم عليه الصلاة والسلام ، فلا يرفعون أصواتهم عنده ، ويشرفونه ، ويفخمونه في رفق ولين وينادونه بقولهم : يا رسول الله .

وقد مُنِع المسلمون في سورة الحجرات أن يرفعوا أصواتهم فوق صوت النبي صلى الله عليه وسلم في حضرته " يا ايها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي " . وأن لا ينادوه بأحمد ومحمد وأبي القاسم ، لا بصوت عالٍ ولا صوت خفض، خوفاً من ضياع أعمالهم الصالحة لهذا التصرف الشائن ، ولكن: يا رسول الله ويا نبي الله " ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم بعضاً ان تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون " .

ثم مدح الذين يخاطبون الرسول الكريم بأدب جمّ ولطف زائد وصوت منخفض ووعدهم بالغفران والأجر العظيم : " إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى، لهم مغفرة وأجر عظيم " .

إن العلاقة في الإسلام بين القيادة والأمة قائمة على الحب والاحترام والعطف والود ، ليس فيها طغيان الحاكم على الرعية ، ولا استبداد وظلم وتعالٍ على العباد ، وليس فيها ذل المواطن والخسف به وسلبه ونخبه ! وبمثل هذه الحياة تقوى لحمة الأمة ويعلو شأنها وتسمو مكانتها .

ومن هذه الأساليب التربوية

أدب الزيارة :

الأماكن التي يرتادها الناس ثلاثة :

أولها : بيت الإنسان وسكنه الخاص . فهو يدخله وقت يشاء دون حرج ، ودون استئذان من أحد .

إلا أن من الأدب إشعار من في داخله -زوجة وولداً وضيافاً- أنه قادم كي لا يفاجأ بدخوله أحد . هذا ما

كان يفعله النبي عليه الصلاة والسلام حين يدخل بيته مسلماً على أهله .

أما الدخول على غرف البيت فلا بد من الاستئذان على من في داخلها كي لا تقع العين على عورة . روي أن رجلاً قال للنبي صلى الله عليه وسلم : أأستأذن على أُمِّي ؟ قال : " نعم " قال : ليس لها خادم غيري أأستأذن عليها كلما دخلت ؟ . قال " أتحب أن تراها غريبة ؟ " قال : لا . قال : " فاستأذن عليها " . وكان الفاروق عمر رضي الله عنه يتنحى بصوت عال قبل أن يُسلم ويدخل ، فالمرأة تحب أن يراها زوجها على أفضل حالاتها .

والاستئذان على أهل البيت في غرفهم في ثلاث أوقات واجب لقوله تعالى " يا أيها الذين آمنوا : ليستأذنكم ١ - الذين ملكت أيمانكم ، ٢ - والذين لم يبلغوا الحلم منكم ثلاث مرات

١ - من قبل صلاة الفجر .

٢ - وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة .

٣ - ومن بعد صلاة العشاء .

ثلاث عورات لكم . "

ففي هذه الأوقات الثلاثة يتجرد الإنسان من ثيابه للنوم والراحة . وقد روي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث غلاماً من الأنصار إلى عمر رضي الله عنه ظهيرة ليدعوه ، فوجده نائماً قد أغلق عليه بابه ، فدق عليه الغلام الباب ودخل ، فاستيقظ عمر وجلس ، فانكشف منه شيء ، فقال عمر : ودِدْتُ أن الله نهي أبنائنا ونساءنا وخدمنا عن الدخول علينا في هذه الساعات إلا بإذن . ثم انطلق إلى رسول الله ، فوجد هذه الآية قد نزلت ، فخر ساجداً شاكراً لله .

فإذا بلغ الأطفال الحلم وجب معاملتهم كغيرهم من الكبار أكانوا غرباء أم من المحارم .

ثانيها: دور الأهل والأصدقاء . فهؤلاء لا يُدخل عليهم إلا بإذنهم . فكيف يكون الاستئذان؟

يُطرق الباب ثلاث مرات ، بين الواحدة والأخرى مقدار ركعة خفيفة كما يذكر الفقهاء ، ليترك لأهل البيت مجالاً مريح في الردّ . ولم يكن للبيوت كلها على عهد الرسول الكريم أبواب ، إنما ستائر . يقف القادم قريباً من الباب ، ليس أمامه حتى لا ينكشف عن أهل البيت سترهم ، ويغضُّ بصره ، فقد روى علماؤنا أن الفاروق رضوان الله عليه قال : من ملأ عينيه من قاعة بيت فقد فسق . وروي عن سهل بن

سعد أن رجلاً اطلع في جُحر في باب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومع رسول الله صلى الله عليه وسلم مِدرى (مشط) يرجل به رأسه ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم " لو أعلم أنك تنظر لطعنتُ به في عينك ، إنما جعل الله الإذن من أجل البصر " . وروى أنس رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " لو أن رجلاً اطلع عليك بغير إذن ، فحذفته بحصاة ففقت عينه ما كان عليك من جناح " .

ويسلم بصوت مسموع على أهل الدار ثلاث مرات ، بين الواحدة والأخرى زمن يسير .. هذه سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقد روى أبو موسى الأشعري رضي الله عنه فقال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " الاستئذان ثلاث ، فإن أُذن لك ، وإلا فارجع . " واستأذن رجل من بني عامر على النبي صلى الله عليه وسلم فقال : أألج؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لخادمه : " اخرج إلى هذا فعلمه الاستئذان ، فقل له : قل : السلام عليكم ، أأدخل ؟ " فسمعه الرجل ، فقال : السلام عليكم ، أأدخل ؟ فأذن له النبي صلى الله عليه وسلم ، فدخل . وقد زار الرسول الكريم سعد بن عباد زعيم الخزرج ، فلما وقف بالباب قال : السلام عليكم .

والسلام عليكم سلام المؤمنين.... فإذا دخل الرجل بيتاً فيه غيره قال : السلام عليكم . فليردوا عليه: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته .

وإذا دخل بيتاً ليس فيه أحد قال : السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين .

وإذا دخل المقابر قال : السلام عليكم دار قوم مؤمنين ، أنتم السابقون ، ونحن إن شاء الله بكم لاحقون .

الفرق بين الاستئذان والأنس

قد يأذن لك أحدهم في الدخول حين تطرق بابه خجلاً منك ، وهو لا يريد في قرارة نفسه أن تدخل بيته ، فقد يكون تعباً يريد النوم أو الراحة ، وقد يكون مشغولاً في أمر لا يحب أن يطلع عليه أحد ، أو كان يجهز نفسه لموعد ضربه أو لأسباب أخرى ... يدعوك للدخول بلسانه ، وبريق عينيه يظهر عكس ذلك . أما الأنس فشيء آخر . إنه الترحيب الذي تشترك فيه الحواس كلها تدعوك مشتاقة إليك ، رغبة فيك مسرورة بلقائك . فكانت كلمة (تستأنسوا) رائعة في التعبير عن دخيلة النفس في الآية الكريمة " يا

أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها " أما إذا كان صاحب البيت شجاعاً وقال للزائر : لن أستطيع الآن دعوتك للدخول فارجع . فقد وجب الرجوع دون أية حفيظة تبدو من الزائر أو امتعاضٍ منه ، " وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا " وهنا يظهر أدب الزائر في ردة الفعل ، وحسن تصرفه بالتزامه أدب الإسلام في العودة ، إن بعذر ، أو بغير عذر ، وبذلك يروّض نفسه على احترام خصوصية الآخرين . وحسبه جائزة الله تعالى " فارجعوا هو أزكى لكم " كما فعل سعد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأبو موسى مع عمر .. إنها طهارة النفس من الغضب وردة الفعل السيئة التي قد يملئها الشعور بالإهانة، فيبادر إلى القطيعة والعداوة ، ويكون الراح الأول فيها شيطانه الوسواس الخناس .

يقول أحد المهاجرين : لقد طلبت عمري كله هذه الآية ، فما أدركتها ، أن أستأذن على بعض إخواني فيقول لي ارجع فأرجع وأنا منبسط لقوله تعالى " فارجعوا هو أزكى لكم " ولعله عبد الله بن عباس رضي الله عنهما إذ يقول : فيقولون ابن عم رسول الله ، لا نرده .

ومن أدب الاستئذان أن يعرّف الزائر بنفسه تعريفاً واضحاً ولو ظنّ أن المزور يعرفه . عن أبي ذر قال : خرجت ليلة من الليالي ، فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يمشي وحده ، فجعلت أمشي في ظل القمر ، فالتفت فرآني فقال : " من هذا ؟ " فقلت : أبو ذر . وقد استأذن جابر على النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : أتيت النبي صلى الله عليه وسلم ، فدققت الباب فقال : " من ذا ؟ " فقلت : أنا . فردد النبي صلى الله عليه وسلم : " أنا أنا ؟ " ، كأنه كرهها .

ثالثها : الفنادق والأسواق والمؤسسات العامة المشرعة الأبواب لمن يأتيها . فهذه لا يتطلب دخولها الإذن ، ففيها متاع الناس من بيع وشراء وإيواء ومنافع . يدخلها السابلة كلهم إن شاءوا ، متى شاءوا ، مادامت مفتوحة ليلاً أو نهاراً . لكن لا بد من أدب اللقاء من غض للبصر وإعطاء الطريق حقه ، وإلقاء تحية الإسلام

ومن هذه الأساليب التربوية كذلك

الآداب الاجتماعية :

يحرص الإسلام على تنمية العلاقة الأسرية بين الأهل والأقارب ، ويحض على التواصل بينهم ليستمر الحب والود ، ولتقوى الأواصر بينهم . فيتزاورون ويتراحمون . يقول النبي صلى الله عليه وسلم فيما يرويه أبو

هريرة : " إن الله خلق الخلق، حتى إذا فرغ منهم قامت الرحم فقالت : هذا مقام العائد بك من القطيعة . قال : نعم ، أما ترضين أن أصل من وصلك ، وأقطع من قطعك؟ قالت : بلى . قال : فذلك لك " . ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " اقرؤوا إن شئتم : فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم ؟ أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم ، وأعمى أبصارهم " . وهذا نجده في الآية الحادية والستين التي تحث على زيارة بيوت الآباء والأبناء والإخوة والأخوات والأعمام والعمات ، والأخوال والخالات والأصدقاء ، و تناول الطعام عندهم دون حرج ، والمباينة في التفاعل الإيجابي . ولئن كان المذكور فيها الأكل دون غيره إنّ الأكل يزيل الكلفة بين الأهل والأصحاب أكثر من غيره ، ويبيّن جسور التفاهم والتمازج والألفة . ويقرب القلوب والنفوس ويزاوجها . ولا ننس ذكر الأهم فالأقل أهمية فهذا منطقي جداً فالإنسان يبدأ من القريب لينتقل إلى البعيد ، ثم يعم الأمر بين الجميع .

ومن هذه الأساليب التربوية :

الإعذار : " من أنذر فقد أعذر " مثل مشهور يوضح أنه ما عاد هناك من عذر، فقد قدّم المربي أو المسؤول أو ما في معناهما كل النصيح والعون ، ووضح وأرشد ، وبَيّن وفصّل . فعلى الآخرين أن يتحملوا المسؤولية ، ويكونوا أهلاً للقيام بالواجب الملقى عليهم نجد مثال هذا في قوله تعالى في الآية الرابعة والثلاثين " ولقد أنزلنا إليكم آيات مبينات ، ومثلاً من الذين خلوا من قبلكم ، وموعظة للمتقين " فالله تعالى أنزل إلينا هذا القرآن فيه أدلة وبراهين واضحة لما ينبغي أن نعمله ، فعلينا أن نرضيه سبحانه . وقصّ علينا ما حدث للأمم السابقة حين عصت أمر ربها وكذّبت رسله الكرام . فمن أطاع جوزي خيراً ، ومن عصى عوقب بشر أعماله . فمن اتقى فقد اتعظ .

ونجده مكرراً بأسلوب قرآني فريد في قوله تعالى في الآية السادسة والأربعين " لقد أنزلنا آيات مبينات ، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم " حين أخبرنا سبحانه عن بعض صور عظمتة في جميل صنعه . وعلى هذا جاءت الآية الأولى مسبوقة بالواو واللام الموطئة للقسم لأن الآيات التي سبقتها كانت حصراً بالمؤمنين وما عليهم أن يفعلوه إذ هو تشريع لهم . وكانت الثانية موضحة نور الله تعالى وبديع صنعه ، ودعوة للإيمان به سبحانه . وأن الهدى هدى الله .

ومن أساليب التربية :

التدرج والخطوات المتتالية :

الشیطان لعنه الله مُربِّ ، نعم هو مُربِّ ، ولكنه شریر یربِّي أتباعه على الكفر والفساد ، ويشدهم بالتدرج إلى المهالك لينكسوا على رؤوسهم في جهنم معه ، ثم يتبرأ منهم كعادة الخبيثين في كل زمان ومكان . يدعی الإصلاح ليقوع أصحاب الأهواء في حباله . يتابعهم خطوة خطوة ويمنيهم مرة وراء مرة ، ويقسم لهم أغلظ الأيمان ليضلهم عن سبيل الله

والله تعالى حذرنا منه ، ومن طريقته فلم يقل لا تتبعوا الشيطان ، إنما قال سبحانه " يا أيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان ، ومن يتبع خطوات الشيطان فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر " وإليك هذا المثال : فالشيطان لا يأمرك بالزنى مباشرة لأنك ستعرف مقصده وتعوذ منه فوراً . وهو يريد ابتداء أن يكسب ثقتك ،

- انظر إلى هذه الفتاة الجميلة .
- أعوذ بالله ، إنه الفساد بعينه .
- ولم يا صاحبي ؟
- إن النظرة سهم قاتل من سهامك يا إبليس .
- هل تراني أسدد السهام إلى قلبك؟!
- إن النظرة بريد الزنى ، يشغل القلب ، ويبعده عن الله .
- أنا لا أريد ان تصل إلى هذا صدقي .
- كيف أصدّقك وأنت تأمرني أن أنظر إليها ، والعين تزني ، وزناها النظر .
- إن الله جميل يحب الجمال ، وأنت رجل مؤمن يزيدك النظر إلى صنع الخالق الجميل إيماناً ، ويزيدك تقوى . فانظر إليها يا رجل واذكر الله تعالى ... ينظر إبليس إليها ، ويذكر الله مظهر الخشوع .
- ينظر الفتى إليها فيشدها جمالها ، ويذكر الله بقلبه ، ثم بلسانه فقط لأن إبليس يتمثل بها ، ويبدأ بإغوائه .
- ابتسم لها يا رجل .

- أعوذ بالله منك ، كيف ابتسم لها ؟
- كيف تبتسم لها؟ ! أتجهل طريقة الابتسام؟!
- لست أقصد هذا ولكن الابتسامة دعوة لها أن تتحلى . وبدء بحديث .
- أنسيت أن تبسمك في وجه أخيك صدقة؟
- هي ليست رجلاً ، إنها امرأة ، وقد أتقدم بالابتسامة خطوة أخرى .
- إنها أختك في الله . بل إن تبسمك في وجهها جزء من الدعوة إلى الله تعالى .
- ويتبسم لها . فتبادله الابتسام ويحييه إبليس المتمثل بها بابتسامة عريضة تأسره وتستجّر قلبه وعقله.
- أرايت الحب الأخوي الطاهر أيها المترمت؟
- نعم إنه لطاهر حقاً - يقولها مشدوداً إليها راغباً بها ، منعطفاً إليها .
- ألا تسلم عليها أيها الأبله ؟!
- لا أبداً
- إنما أدعوك إلى شعيرة إسلامية ضاعت منك .
- يا أيها الشيطان تكاد توقعني في حبالك .
- أنسيت يا رجل قوله تعالى " فسلموا على أنفسكم تحية من الله مباركة طيبة " وهي منكم معشر المسلمين ، ومن أنفسكم .
- يسلم عليها .. و .. و ..
- قال شوقي :

نظرة فابتسامة فسلام فكلام فموعد فلقاء

هذه واحدة من خطوات الشيطان ، والقياس واضح بين أخي الحبيب .



تأملات تربوية في سورة الفرقان (١)

في هذه السورة المباركة معان تربوية رائعة كأخواتها من السور الكريمة منها :

١- الإقرار بفضل الله تعالى : فهو سبحانه أ- هيئاً سبل الهداية ، فأنزل كتاباً هادياً للبشرية ، وأرسل الرسول صلى الله عليه وسلم يحمل هذا المشعل الوضاء يدهم على الطريق الصحيح إلى الخالق العظيم " تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً " . . . فتبارك تحمل معاني الزيادة والفيض والرفعة التي تليق بمقام الربوبية والألوهية العظيم . وسمى القرآن فرقاناً لأنه يفصل بين الحق والباطل ، ويعرّف بهما ليهلك من هلك عن بينة ، ويحيي من حي عن بينة . ورفع أنبياءه إلى مقام العبودية لله ، وهو أعلى مقام يناله الإنسان ، فمحمد رسول الله عبد لله " سبحانه الذي أسرى بعبده " و " تبارك الذي نزل على عبده الكتاب " و " ذكر رحمة ربك عبده زكريا " ووصف أنبياءه نوحاً وهوداً وصالحاً بالعباد الصالحين " إنا كذلك نجزي المحسنين ، إنه من عبادنا المؤمنين " . ومن فضله سبحانه أن يكون رسوله صلى الله عليه وسلم نبياً ورسولاً للعالمين إنسهم وجنهم ، منذ أن بُعث إلى يوم القيامة ، وتوج برسالته الشرائع السابقة كلها .

٢- توضيح الفكرة وتجليتها : فالله تعالى في الآيتين الثانية والثالثة في هذه السورة المباركة مالك السموات والأرض ، الواحد الأحد ، ليس له ولد ، ولا يشاركه في ملكه أحد ، الخالق العظيم ، والعليم بكل شيء ، والقدير على كل شيء ، هو الصمد الذي لا يحتاج أحداً ، وكل المخلوقات تحتاجه سبحانه . فهو الله الكامل كمالاً مطلقاً ، لا إله إلا هو . فإذا أراد سبحانه أن نعبده حق عبادته فقد وضّح لنا بعض صفاته القدسية لنعرفه بها ونقدم له الطاعة التي يرضاها . ونجد في ثنايا السورة المباركة آيات كثيرة تعرفنا بالله تعالى ، فهو المتصرف في الكون ويسير الشمس والأرض :

أ - فإذا بالظل يتحرك بانتظام دالاً على النظام الكوني البديع " ألم تر إلى ربك كيف مد الظل ، ولو شاء لجعله ساكناً ، ثم جعلنا الشمس عليه دليلاً ، ثم قبضناه إلينا قبضاً يسيراً "

ب- وإذا من من علائم تصرفه سبحانه بالكون أن يتتابع الليل والنهار ليكون الأول هدوءاً والثاني حركة وعملاً " وهو الذي جعل لكم الليل لباساً والنوم سباتاً ، وجعل النهار نشوراً "

ج- وإذا حركة الرياح ، مقدمة للخير والماء وإنبات الزرع ونشر الحياة في الأرض " وهو الذي أرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته ، وأنزلنا من السماء ماء طهوراً ، لنحيي به بلدة ميتاً ، ونسقيه مما خلقنا أنعاماً وأناسي كثيراً "

ومن عظيم خلقه أن في الأرض تجاوبف ينتقل فيها الماءان المالح والحلو عشرات الآلاف من الكيلومترات متجاورة متوازية وفوق بعضها بمسارب ضخمة متقاربة إلا أنها بفضل الله لا تختلط ، كي لا تفسد حياة المخلوقات . أليس هذا الصانع المدبر إله عظيم رائع ؟ " وهو الذي مرج البحرين ، هذا عذب فرات ، وهذا ملح أجاج ، وجعل بينهما برزخاً وحجراً محجوراً ؟ كل ذلك دليل على عظمة الله وقدرته ، والبرهان الأكيد على أنه إله عظيم يستحق العبادة والطاعة . وأن على الجميع أن يتوجهوا إليه وحده بالحب والعرفان .

٣- المنطقية في الدعوة : إن التفكير المنطقي في الرد على تحركات الأفاكين تستدعي طرح هذه التقولات وتلك الأكاذيب ، ثم الرد عليها واحدة واحدة ودحضها بروية وعقلانية ، فلا تقوم لها قائمة .

أ . فهؤلاء الكفار ينكرون أن يكون القرآن من عند الله ويقولون هو تأليف رسول الله !! وأعانه عليه قوم آخرون . ولئن كان كذلك فبوسعهم أن يفعلوا مثله إن كانوا صادقين ! وإذا ثبت ضعفهم وعدم قدرتهم على ذلك والقرآن نزل بلغتهم فهم كذابون مفترون " وقال الذين كفروا إن هذا إلا افك افتراه ، وأعانه عليه قوم آخرون ، فقد جاءوا ظلماً وزوراً "

ب - وقائل يزعم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم استكتبها من قوم اعتمدوا الخرافات والأوهام ، يأتونه بها . وهذا إن صحَّ فإن المنكرين يستطيعون أن يفعلوا ذلك ، وإذا عُلِمَ أن كلامهم مغلوط وادعاءهم باطل فقد سقطت الدعوى لأن القرآن من عند الله تعالى " وقالوا : أساطير الأولين اكتتبها ، فهي تملى عليه بكرة وأصيلاً "

ج - وما ينبغي أن يكون الرسول بشراً ، ولئن كان كذلك فالأولى أن يؤيده ملك في دعوته . والمنطقية أن يكون الرسول من جنس المرسل إليهم فهو مثلهم يعيش كما يعيشون ، ويأكل مما يأكلون ، ويشعر بما يشعرون " قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكاً

رسولاً " ولو نزل الله على البشر رسولاً ملكاً لجعله على هيئة البشر كي يكون الإيمان نابعاً من القلب ثابتاً في الضمير عن يقين لا قهر وتخويف " ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً ، وللبسنا عليهم ما يلبسون " . كما أن الملائكة حين تنزل فلمعاقبة المستكبرين الذين ظلموا أنفسهم " يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين ، ويقولون : حجراً محجوراً " .

د - وينبغي - حسب رأي الكفار - أن يكون الرسول غنياً يؤثر بثروته وغناه في الناس " أو يُلقى إليه كنز أو تكون له جنة يأكل منها " إن ضعفاء النفوس يظنون أن النبي يجب أن يكون غنياً يفرض بغناه وثروته مبادئه وأفكاره ، أو يجمع المنتفعين حوله ، ولذلك قالوا " لولا أنزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم " فأجابهم تعالى " أ هم يقسمون رحمة ربك ؟ " فالقناعة في القلب والعقل لا الجيب والمحفظة !

هـ . ومن قائل إن محمداً مسحوراً مكشوفٌ أمره واضح وقد قالوا إنه ساحر مراراً " وقال الظالمون إن تتبعون إلا رجلاً مسحوراً " خبله السحر ، فاختلط عليه أمره يقولون ذلك لِيَنفَرُوا عنه الناس ، فوصفهم الله تعالى بالضلال لأنهم لا يملكون لافتراءاتهم دليلاً .

٤ - التصوير الحسي : استحضار الأفكار المعنوية في قالب حسي ملموس يزيد الفكرة وضوحاً في العقل وتأثيراً في النفس ونبضات حية في القلب . فالكفار حين اقترحوا ما سبق ذكره من ضرورة غنى النبي وامتلاكه الجنات والقصور والكنوز لم يطلب المصطفى عليه الصلاة والسلام هذه الأمور لأنه يعلم أن الخير الحقيقي الدائم في الآخرة التي يكفر بها هؤلاء ، فوعده الله تعالى بكل ذلك في الآخرة " تبارك الذي إن شاء جعل لك خيراً من ذلك : جنات تجري من تحتها الأنهار ، ويجعل لك قصوراً " أما هؤلاء الكفار فلم يقترحوا ما اقترحوه إلا للاستهزاء والتكذيب ، فسوف يلقون غياً لكذبهم وسخريتهم واستكبارهم . ويصور الله تعالى مشاهد البؤس التي تحيط بالكافرين المجرمين كأننا نراها رأي العين ونستعبد بالله أن نراها ، فكيف السقوط في أتونها والخلود فيها ؟ نسأل الله العافية. وتصور النار ترى المجرمين ، فتغتازل منهم ، وتزفر زفرات قوية طويلة تتقعقع لها نفوسهم وتنخلع منها قلوبهم " إذا رأيتم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظاً وزفيراً " ثم تلقيهم الزبانية في زنازين الجحيم الضيقة مقيدتين بالسلاسل وهم يصرخون من هول العذاب يدعون على أنفسهم بالموت ، ولا موت " وإذا ألقوا منها مكاناً ضيقاً

مقرّنين دعوا هنالك ثبوراً " فتجيئهم ملائكة العذاب : أئن دعوتكم بالهلاك قليلاً أو كثيراً فلن يفيدكم فيما أنتم فيه " لا تدعوا اليوم ثبوراً واحداً ، وادعوا ثبوراً كثيراً " يتمنون الموت وليس بآتيهم . يقول النبي صلى الله عليه وسلم : " يجاء بالموت يوم القيامة كأنه كبش أملح ، فيوقف بين الجنة والنار ، فيقال : يا أهل الجنة ! هل تعرفون هذا ؟ فيشرئبون وينظرون ويقولون : نعم . هذا الموت . قال ويقال : يا أهل النار ! هل تعرفون هذا ؟ قال فيشرئبون وينظرون ويقولون : نعم . هذا الموت . قال فيؤمر به ، فيذبح . قال ثم يقال : يا أهل الجنة ! خلود فلا موت . ويا أهل النار ! خلود فلا موت . قال ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم : { وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضي الأمر وهم في غفلة وهم لا يؤمنون } [١٩ / مريم / ٣٩] وأشار بيده إلى الدنيا . "

وكلمة " يوم " في قوله تعالى " ويوم تشقق السماء بالغمام ، وتزل الملائكة تنزيلاً " تنقلنا إلى يوم القيامة في مشهد متحرك ملوّن ، فالسماء غير السماء التي نعرفها ، لقد تشققت وانفطرت ، وانفجرت بالغمام — وهو نور الله الذي يبهر الأبصار ، نرى الملائكة تنزل محيطة بالخلائق يوم الحشر الرهيب ثم يجيء الرب العظيم للفصل والقضاء . إنها صورة تنخلع لها القلوب وترتجف لها الضلوع .

٥- الحوار : طريقة رائعة في إثبات الفكرة في ذاكرة السامع والرائي والقارئ ، وقد استعملها القرآن كثيراً في الوصول إلى الهدف ، وقد ذكرنا أمثلة لها في تأملاتنا التربوية في القرآن وعودة إلى الحوار الطويل الذي أثبتناه بين موسى عليه السلام وفرعون في سورة الشعراء يوضح الفائدة ، ونثبت هنا حواراً قصيراً ممتعاً ... يوم الحشر يقف الكفار في ساحة العرض خزايا مطأطيء الرؤوس ، قد علموا ما اجتروا ، ومعهم ما عبدوه من بشر وحيوانات وأصنام و...و... ويجري هذا الحوار المفحم بين رب العزة والآلهة المزعومة وعبّادها " ... أنتم أضللتم عبادي هؤلاء أم هم ضلوا السبيل ؟

قالوا (الآلهة المزعومة) : سبحانه ، ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك من أولياء (وهذا الجواب إقرار من المتألهين أنهم عبید) . ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر وكانوا قوماً بوراً ... " ويكون التعليق الأخير بخطاب موجه للكافرين يوبخهم ويوضح لهم أن آلهتهم التي كانوا يعبدونها تخلت عنهم " فقد كذبوكم بما تقولون ، فما تستطيعون صرفاً ولا نصراً "

٦- الندم في غير وقته لا يفيد : يروي المفسرون أن عقبة بن أبي معيط ، وَكَانَ صَدِيقًا لِأَبِي

بن خَلَف الجُمَحِيِّ، وَكَانَ قَدْ صَنَعَ وَلِيْمَةً فَدَعَا إِلَيْهَا قَرِيشًا ، وَدَعَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَبَى أَنْ يَأْتِيَهُ إِلَّا أَنْ يَسْلَمَ . وَكَرِهَ عُقْبَةُ أَنْ يَتَأَخَّرَ عَنْ طَعَامِهِ مِنْ أَشْرَافِ قُرَيْشٍ أَحَدٍ فَأَسْلَمَ وَنَطَقَ بالشهادتين ، فأَكَلَ رسول الله من طعامه ، فعاتبه خليله أَبِي بن خلف ، وَكَانَ غَائِبًا . فَقَالَ عُقْبَةُ : رَأَيْتَ عَظِيمًا إِلَّا يَخْضُرُ طَعَامِي رَجُلٌ مِنْ أَشْرَافِ قُرَيْشٍ . فَقَالَ لَهُ خَلِيلُهُ : لَا أَرْضَى حَتَّى تَرْجِعَ وَتَبْصُقَ فِي وَجْهِهِ وَتَطَأَ عُنُقَهُ وتَقُولَ كَيْتَ وَكَيْتَ . فَفَعَلَ عَدُوُّ اللَّهِ مَا أَمَرَهُ بِهِ خَلِيلُهُ ؛ فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : " وَيَوْمَ يَعْصِي الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ " . وَلَمَّا بَصَقَ عُقْبَةُ فِي وَجْهِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَجَعَ بُصَاقُهُ فِي وَجْهِهِ وَشَوَى وَجْهِهِ وَشَفَتَيْهِ ، حَتَّى أَثَرُ فِي وَجْهِهِ وَأُحْرَقَ خَدَّيْهِ ، فَلَمْ يَزَلْ أَثَرُ ذَلِكَ فِي وَجْهِهِ حَتَّى قَتَلَ بَعْدَ بَدْرٍ وَهُوَ أَسِيرٌ . وَيَعْصِي يَدَيْهِ أَسْفًا - بَعْدَ مَوْتِهِ حِينَ يَرَى الْحَقِيقَةَ - لِأَنَّهُ أَطَاعَ خَلِيلَهُ . يَنْدَمُ وَيَتَمَنَّى لَوْ أَطَاعَ رَسُولَ اللَّهِ وَكَانَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، وَلَاتَ حِينَ مَنَدَمٍ ، فَالْآخِرَةُ دَارُ حِسَابٍ لَا دَارَ عَمَلٍ . " وَيَوْمَ يَعْصِي الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ ، يَقُولُ : يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ، يَا وَيْلَتَى ؛ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فَلَانًا خَلِيلًا ، لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي ، وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا " . فَالْندَمُ وَالتَّوْبَةُ فِي الدُّنْيَا ، وَإِلَّا لَمْ يَنْفَعَا صَاحِبَهُمَا . وَعَلَى هَذَا حِينَ قَالَ الْمُشْرِكُونَ : إِنْهُمْ صَبَرُوا عَلَى آلِهَتِهِمْ وَلَمْ يَتْرَكُوها وَيَدْخُلُوا فِي الْإِسْلَامِ " إِنَّ كَادَ لِيُضِلَّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا " أَفَادَهُمُ الْقُرْآنُ أَنَّهُمْ سَيَعْلَمُونَ حِينَ لَا يَنْفَعُ الْعِلْمُ أَنَّهُمْ كَانُوا ضَالِّينَ . وَسَيُنَالُونَ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ " وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرُونَ الْعَذَابَ مِنْ أَضَلِّ سَبِيلًا " وَلَنْ يَنْفَعَهُمْ عِلْمُهُمْ إِذْ ذَاكَ .

٧- لماذا نزل القرآن منجماً ؟ : حِينَ رَأَى الْيَهُودَ وَالْمُشْرِكُونَ الْقُرْآنَ يَنْزِلُ عَلَى ثَلَاثَةِ وَعَشْرِينَ

سَنَةَ أَنْكَرُوا ذَلِكَ ، فَالتَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ وَالزَّبُورُ نَزَلَتْ دَفْعَةً وَاحِدَةً . " وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا : لَوْلَا نَزَّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً " . فَمَا الْفَائِدَةُ فِي نَزُولِ الْقُرْآنِ مَنْجَمًا : وَالْجَوَابُ يَتَحَلَّى فِي أُمُورَ عَدَّةٍ ، مِنْهَا : أ - تَثْبِيتُ فُؤَادِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ يَرَى جِبْرِيلَ يَنْزِلُ كُلَّ فِتْرَةٍ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَيُشْعِرُهُ أَنَّهُ مَعَهُ " كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ "

ب - وَلِأَنَّ الْكُتُبَ الْمُتَقَدِّمَةَ نَزَلَتْ عَلَى أَنْبِيَاءٍ يَقْرَأُونَ وَيَكْتُبُونَ ، وَالْقُرْآنُ أَنْزَلَ عَلَى نَبِيِّ أُمِّيٍّ ؛

ج - وَلِأَنَّ مِنَ الْقُرْآنِ النَّاسِخَ وَالْمَنْسُوخَ ، وَمِنْهُ مَا هُوَ جَوَابٌ لِمَنْ سَأَلَ عَنْ أُمُورٍ ، فَيَكُونُ الْجَوَابُ لِأُمُورٍ تَحْدُثُ فِي عَالَمِ الْمُسْلِمِينَ وَتَوَاكِبَ حَيَاتِهِمْ ،

د - ونزوله مفرقاً أسهل لحفظه والعمل به ، وتقسيم الأمور أدعى لتثبيتها في النفس وحفظها والثبات عليها .

وروي عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : " إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ " قَالَ : أَنْزَلَ الْقُرْآنَ جُمْلَةً وَاحِدَةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَجَلَّ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ إِلَى السَّفَرَةِ الْكَرَامِ الْكَاتِبِينَ فِي السَّمَاءِ ، فَجَمَعَهُ السَّفَرَةُ الْكَرَامُ عَلَى جِبْرِيلَ عَشْرِينَ لَيْلَةً ، وَجَمَعَهُ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثَلَاثًا وَعَشْرِينَ سَنَةً . قَالَ : فَهُوَ قَوْلُهُ " فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ " يَعْنِي نَجُومَ الْقُرْآنِ " وَإِنَّهُ لَقَسَمَ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ . إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ .. " وَهُوَ رَأْيٌ مَقْبُولٌ .

فسبحان الله مالك الملك ومملك الملوك :



تأملات تربوية في سورة الفرقان (٢)

العبد مفرد ، جمعه عباد وعبيد...

فإذا أضيف الجمع إلى الله تعالى ناله الشرف فاستعمل الجمع " عباد " كقوله تعالى : أن أدوا إليّ عبادَ الله يشرب بها عباد الله وعباد الرحمن الذي يمشون على الأرض هوناً ...

- وقد يضاف إلى الله تعالى بلفظ الضمير الدال عليه : ... وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين ... فوجد عبداً من عبادنا... وهو القاهر فوق عباده ... وقل لعبادي يقولوا التي هي أحسن ..

- وقد يحذف الضمير المضاف إليه " الياء " : ... فبشر عباد... يا عباد لا خوف عليكم اليوم...

- وقد يستعمل هذا الجمع معروفاً ، والمقصود به البشر جميعاً . وقد استعمل معروفاً بـ " ال " مرة واحدة في القرآن الكريم ... والله رؤوف بالعباد ...

وقد يضاف الجمع " عباد " إلى ضمير البشر : وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم.

أما الجمع " العبيد " فقد قصد به الذين ظلموا وأشركوا وأساءوا إلى أنفسهم حصراً. وذكر في القرآن خمس مرات فقط . مثاله " وما ربك بظلام للعبيد " .

أما كلمة " عباد الرحمن " فقد ذكرت في القرآن الكريم مرة واحدة ، في الآية الثالثة والستين من سورة الفرقان . فمن هم عباد الرحمن وما صفاتهم ؟

- قبل أن نبدأ الحديث عنهم نريد أن ننبه إلى أن جذر كلمتي " الرحمن والرحيم " هو -رحم - ومع ذلك فإن كل واحدة تمتاز بسمات خاصة ، وهذا من جمال اللغة العربية وروعيتها ، ولهذا مدح الله تعالى هذه اللغة مرات عديدة في كتابه الكريم .

فالرحيم : كلمة تدل على اللطف والرحمة ، والعطف والغفران ، والسماح والصفح .. ونجدها في كل الآيات الداعية إلى الإيمان والاستغفار والتوبة ، ترد مع الحلم والمغفرة والعفو و..... مثال ذلك في الآيات التالية :

- فأولئك أتوب عليهم وأنا التواب الرحيم

- فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم

- أولئك يرجون رحمة الله ، والله غفور رحيم

- واستغفروا ربكم ، ثم توبوا إليه ، إن ربي رحيم ودود

- إن ربكم لرؤوف رحيم

والرحمن : كلمة تدل على القوة والعظمة ، والقدرة والقهر ، والسيطرة والهيمنة . ونجدها ترد مع العذاب وتهديد العاصي والمشرک وتهديد الكافر ، وترد مع الدعوة إلى الإيمان بالرحمن والسجود له .. مثال ذلك :

- وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً

- إنما تنذر من اتبع الذكر وخشي الرحمن بالغيب

- ومن يعيش عن ذكر الرحمن نقیضُ له شیطاناً فهو له قرين

- أمّن هذا الذي ينصرکم من دون الرحمن ؟

- قل : هو الرحمن آمنا به ، وعليه توكلنا .

وقد تردان معاً لتدلا على الأمر كله :

- إنه من سليمان ، وإنه بسم الله الرحمن الرحيم

- الحمد لله رب العالمين ، الرحمن الرحيم

- وإلهمكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم

والملاحظ أن الصفتين حين تجتمعان ترى كلمة الرحمن قبل كلمة الرحيم . فهو الذي يفعل ما يشاء

ويقدر عليه ولا يحتاج لأحد (هو الصمد) ، وهو رحيم بعباده حين يقبلون عليه سبحانه .

صفات عباد الرحمن :

١- الذين يمشون على الأرض هوناً ، والهون بفتح الهاء غير الهون بضمها .. فأما مضمومة الهاء

فمعناها الذل والهوان ، والمؤمنون أعزاء كرام لا يتصفون بذلك . إنما المقصود بالحديث " الهون " وهي

تحتل معاني كثيرة — كما قال المفسرون من تواضع للناس ورحمة بهم بعيداً عن الكبر والطغيان ، يعلمون

أن من له بداية لا بد أن تكون له نهاية ، ومن كان عبداً لله أطاعه وامثل أوامره وانتهى عن نواهيه ، وكان

مثالاً للرجل المذهب والمؤمن التقى الذي يكره التعالي على غيره لأنه داعية يحمل مبادئ سامية يعمل بها ويدعو إليها .

ومن مشى مشية المتكبر المتجبر في الدنيا فُصم ظهره في الآخرة ووطئه الناس احتقاراً ، ولماذا يختال الإنسان في مشيته و" أوله نطفة مذرة ، وآخره جيفة قدرة ، وهو بينهما يحمل العذرة ؟! " ولوسألنا أنفسنا : لم ذكرت الأرض والإنسان لا يمشي إلا عليها؟ فالجواب أن هذا تنبيه إلى أننا منها خلقنا ، وإليها نعود ، ومنها نبعث . فعلام التكبر والتفاخر؟! ألم ينهنا المولى تعالى أن نتهاذى في سيرنا تعاضماً كاذباً في قوله سبحانه " ولا تمش في الأرض مَرَحاً ، إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولاً " . وما أَلطف قول الشاعر المعري :

خفف الوطء ، ما أظن أديم الـ أرض إلا من هذه الأجساد

وقبيح بنا ، وإن قدّم العهد هوانُ الآباء والأجداد

سِرْ إن اسطَعْتَ في الهواء رويدا لا اختيالاً على رفات العباد

وهل يستحسن الإنسان أن يتعاضم على ذرات الأسلاف من آباء وأجداد؟! وسيكون إن عاجلاً أو آجلاً ذرة تراب يدوسها الأحفاد .

ولا يظنّ أحد أن هذه دعوة إلى التماؤت في الحركة والبطء في التنقل والبلادة في العمل فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم ينهى عن ذلك ، وكان في سيره يتقلع كأنما يتحدث من صَبَب ، وكان سريع المشي واسع الخطوات .. إنه صلى الله عليه وسلم ينهى عن الخيلاء والكبر .

٢- وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً، لا بُدَّ من الدعوة إلى الله تعالى بالحكمة والموعظة الحسنة كما يقرر القرآن الكريم . والتلطّف في الحديث والحُسْنُ في المعاملة يجعل العدو صديقاً والمبغضَ محباً . ألم يقل الشاعر الذكي :

أحسِنْ إلى الناس تستعبد قلوبَهُمْ فطالما استعبد الإنسان إحساناً

وقد كان القدوة الأول نبينا صلى الله عليه وسلم المثال الناصع في الرحمة والدمائة وروعة التصرف فمدحه الله تعالى " فبما رحمة من الله لنت لهم ، ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك ، فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر " .

إني لأعلم أن الداعية هو الذي يبدأ الحديث ، ويخاطب الناس ، ويتقرب إليهم ناصحاً رفيقاً ، فكيف نفهم هنا بدء الجاهلين الحديث ؟ " وإذا خاطبهم الجاهلون .. " إن هذا تنويه إلى أكثر من أمر دقيق يجب ملاحظته والترتيب له :

١- إنَّ على الداعية أن يتوقع الردَّ السلبي عليه ابتداءً وقبل أن يدعو الناس ، فللجاهل بدوات وتصرفات عفوية غير مدروسة تدل على النزق والطيش .

٢- إنَّ الصبر على الناس يؤثري بثماره المرجوة ، وكل أمر وإن كان سهلاً فله استحقاقات لا بد من دفعها والتأني في تناولها .

٣- أن ينأى الداعية عن ردِّ الفعل كي يكون المتحكم بزمam الامر ، القادر على تسيير دفتته .

٤- إن استيعاب المدعوين هو المقصود بكلمة " قالوا سلاماً " .

إن تحمل الآخرين والبعد عن ردّة الفعل تجعل الداعية ممسكاً بخيوط الحديث ، ويترك مجالاً لإعادة الكرة والحفاظ على التواصل . أما التسرع فيقطع الخيوط أولاً وينزل بمستوى الداعية ثانياً ، ويجري الآخرين عليه والسخرية منه ثالثاً . وقد نبهنا القرآن الكريم مرات عديدة إلى الصبر في دعوة الناس ومخاطبتهم " من ذلك ما قاله إبراهيم عليه السلام لوالده الذي هدده بالرجم والعذاب إن خالفه " قال سلام عليك ، سأستغفر لك ربي ، إنه كان بي حفيّاً " ومنها أمر الله تعالى لنبيه الكريم محمد عليه الصلاة والسلام " فاصفح عنهم وقل سلام ، فسوف يعلمون " و في سورة ياسين نجد النصيحة الغالية كذلك " سلامٌ قولاً من رب رحيم " وفي سورة القصص نجد التعالي عن الخصام واللغو " وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه ، وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم ، سلام عليكم ، لا نبتغي الجاهلين " .

٣- والذين يبيتون لربهم سُجّداً وقياماً، الأصل في البيات أن يدركني الليل أنمت أم لم أنم .

قال زهير بن أبي سلمى في ذلك :

فبتنا قياماً عند رأس جوادنا يزاولنا عن نفسه ونزاوله

فمن الناس من ينام ملء جفنيه الليل كله ، ومنهم من يسهر في اللعب واللهو، ومنهم - وهؤلاء قليل - من يعبدون الله تعالى ويكثرون من الصلاة والاستغفار " كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون ، وبالأسحار هم يستغفرون " وهؤلاء هم الأتقياء الأولياء :

امنع جفونك أن تذوق مناماً وأذر الدموعَ على الحدود سِجَما
واعلمْ بانك ميّت ومحاسب يا من على سُخط الجليل أقاما
لله قومٌ أخلصوا في حبه فرضي بهم ، واختصَّهم خدّاما
قومٌ إذا جرَّ الظلام عليهم با توا هنالك سُجّداً وقياما

وقال ابن عباس رضي الله عنهما : من صلى ركعتين أو أكثر بعد العشاء فقد بات لله ساجداً وقائماً . ولا شك أن قيام الليل دأب الصالحين وتجارة المؤمنين ، وهؤلاء من سماتهم أنهم " تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً " ويقول النبي صلى الله عليه وسلم محبباً بقيام الليل " عليكم بقيام الليل ، فإنه دأب الصالحين قبلكم ، وقربة إلى الله تعالى ، ومكفرة للسيئات ، ومطردة للداء عن الجسد " ففوائده معنوية ومادية ، دنيوية وأخروية . ومما قاله جبريل للنبي الكريم " واعلم أن شرف المؤمن قيامه بالليل " وقد روى أبو داوود " من قام بعشر آيات لم يُكتب من الغافلين ، ومن قام بمئة آية كتب من القانتين ، ومن قام بألف آية كُتب من المقنطرين " والمقنطرون الذين حازوا قنطاراً من الأجر .

قال الحسن البصري : لم أجد شيئاً من العبادة أشد من الصلاة في جوف الليل .

وكان شداد بن أوس إذا أوى إلى فراشه كأنه حبة على مقلَى ، ثم يقول : اللهم إن جهنم لا تدعني أنام ، فيقوم إلى مصلاه وكان زمعة العابد يصلي كثيراً ثم إذا أسحر نادى بأعلى صوته : أيها الركب المعرّسون ، أكل هذا الليل ترقدون ؟ ... ألا تقومون فترحلون ؟! ... فإذا طلع الفجر نادى : عند الصباح يحمد القوم السرى .

وكان طاووس يثب عن فراشه ، ثم يتطهر ، ويستقبل القبلة ، ويقول : طيّر ذكر جهنم نوم العابدين .
- ٤ - والذين يقولون : ربنا اصرف عنا عذابَ جهنم ، ألم يقل الله تعالى " وإن منكم إلا واردها ، كان على ربك حتماً مقضياً " فالبشر والجن لا بد أن يردوا النار صالحهم وطالحهم ، قد قال علماء التفسير واللغة في بعض ما قالوه :

لا يعني الورودُ الدخولَ فيها ، فإنك تقول : وردتُ الماء أي ذهبته إليه ، فقد تشرب منه وقد لا تشرب . وكذلك يرد البشر والجن النار فتعلق الكافر ، وينجو المؤمن منها .

وقيل : بل يطرح الكفار والمشركون فيها أما المؤمنون برهم وفاجرهم فيجوزون الصراط ، فمن استحق

العقوبة جرجرته كالليها إلى النار فمكثوا فيها ما شاء الله تعالى أن يمكثوا حتى يتطهروا ثم يخرجون منها بإذن الله تعالى ... ويجوز الناجون الصراط كل حسب عمله فمنهم من ينطلق كالبرق الخاطف ، ومنهم كالريح الشديدة ومنهم بسرعة الخيل ، ومنهم ركضاً ، ومنهم مشياً سريعاً ، ومنهم من يمشي حبواً أو يزحف زحفاً تخمشهم كالليها .. نسأل الله العافية والنجاة ، فعذابها أيها الأحباب كما وصفها المولى شديد :

" إن عذابها كان غراماً ، إنها ساءت مستقراً ومقاماً "

وللغرام معان عدة : كالشديد ، والملازم الذي لا يفارق ، والمولع بالشيء لا يدعه ، والغرم عكس الغنم .. وهكذا العذاب فيها - أعاذنا الله منه - خسارة شديدة يأبى العاقل أن يكون من أهلها ، وكيف لا تسوء مقاماً وهي مأوى الظالمين يصطلون بنارها صلياً ، ويُشوون بلظاها شيئاً؟! طعامهم الزقوم ، كأن طلع رؤوس الشياطين ، وشراهم الحميم الآني يُصهر به ما في بطونهم والجلود ، ويتلقاهم الزبانية بمقامع من حديد ، وهي عليهم مؤصدة بعمد ممددة !! ، فبئس المستقر وبئس المقام نسأل الله حسن الختام والفوز بالجنة ورضا الله تعالى ..

وإذا كان هذا قول عباد الرحمن - وهم أعرف بما يقولون لمكانتهم من الله تعالى - حق على الناس أن ينتصحو ، فيقولوا مثل قولهم " ربنا اصرف عنا عذاب جهنم " ويفعلوا مثل فعلهم ، فيعبدوا الله راضين مرضيين يطيعون فيما أمر ونهى سبحانه .

٥- والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ، ولم يقترؤا، وكان بين ذلك قواما :

لا بد من الإنفاق على أن لا يكون إفراط ولا تفريط . ألم يقل الله تعالى معلماً ومسدداً "

ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك

ولا تبسطها كل البسط...

فتتعد ملوماً محسوراً ؟

فما الإسراف وما التقدير ؟

قال ابن عباس : من أنفق مئة ألف في حق فليس بسرف ، ومن أنفق درهماً في غير حقه فهو سرف ، وقاله مجاهد وغيره . ويؤكد ذلك ما رواه عبد الله قال قَالَ رَسُولُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ ، رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا فَسَلَّطَ عَلَى هَلَكَتِهِ فِي الْحَقِّ ، وَآخَرُ آتَاهُ اللَّهُ حِكْمَةً فَهُوَ يَقْضِي بِهَا وَيُعَلِّمُهَا النَّاسَ "

قال النحاس : من أنفق في غير طاعة الله فهو الإسراف ، ومن أمسك عن طاعة الله عز وجل فهو التقتير... وقال عون بن عبد الله : الإسراف أن تنفق مال غيرك .

ولا ينبغي الإفراط في النفقة فيضيع حق الآخرين أو عيالهم ، ولا التضييق والتقتير فيجوع العيال من فرط الشح .

والمطلوب العدل والتوسط وهذا ما يسمى " القوام " وقد وُصف أصحاب رسول الله بأنهم لا يأكلون طعاماً للذة وتنعم ، ولا يلبسون ثياباً للجمال ، ، ولكن كانوا يأكلون ليسدوا جوعتهم ، ويلبسون لستر عورتهم . وقال الخليفة الفاروق في هذا : كفى بالمرء سرفاً ألا يشتهي شيئاً إلا اشتراه فأكله . وفي سنن ابن ماجة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إن من السرف أن تأكل كل ما اشتهيت " .
ولله در الشاعر حين قال :

إذا المرء أعطى نفسه كل ما اشتهت ولم ينهها تاقَتْ إلى كل باطل
وساقتْ إليه الإثمَ والعار بالذي دعتُهُ إليه من حلاوة عاجل

وقال عمر لابنه عاصم : يا بني كل في نصف بطنك ، ولا تطرح ثوباً حتى تستخلقه ، ولا تكن من قوم يجعلون ما رزقهم الله في بطونهم وعلى ظهورهم .

فأين نحن من هؤلاء القوم ؟ وما مدى قربنا أو بعدنا منهم ؟

٦- والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر :

من الظلم أن يكرمك أحدهم فتأكل على مائدته ، وتلبس من ثيابه ، وتنام على فراشه ، ثم تشكر غيره ، وتثني على غير المتفضل ، فهذا ظلم ما بعده ظلم ، وسفاهة ما بعدها سفاهة . فكيف والله تعالى خلقك ، ويسر كل شيء لخدمتك " يا بن آدم خلقت كل شيء لك ، وخلقتك لنفسي " وجعلك سيد المخلوقات ، ووهبك العقل وجعلك أجمعهم " لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم " ثم ترضى لنفسك الضياع والسقوط فتعبدُ إلهاً غير الله ؟ ،

عن ابن مسعود قال: قلت يا رسول الله أي الذنب أكبر ؟ قال: " أن تدعو لله نداً وهو خلقك .. "

وعن أبي الدرداء، عن النبي صلى الله عليه وسلم، عن ربه :

إني والإنس والجن في نبأ عظيم

أخلق ويعبد غيري ، أرزق ويشكر سواي
خيرني إلى العباد نازل ، وشرهم إلي صاعد
أتودد إليهم برحمتي ، وأنا الغني عنهم
ويتبغضون إلي بالمعاصي ، وهم أفقر ما يكونون إلي!
أهل ذكري أهل مجالستي ، فمن أراد أن يجالسيني فليذكرني
أهل طاعتي أهل محبتي
أهل معصيتي لا أقنطهم من رحمتي
إن تابوا إليّ فأنا حسبهم
من أتاني منهم تائباً تلقيته من بعيد
ومن أعرض عني ناديته من قريب
أقول له : ألك رب سواي؟!
الحسنةُ بعشر أمثالها ، وأزيد!
والسيئةُ عندي بمثلها ، وأعفو!
" وعزني وجلالي ، لو استغفروني منها لغفرتها لهم "

رواه البيهقي والحكيم الترمذي

أو تتقرب إلى آلهة ليس لها وجود ، وهل هناك إلهٌ غير الله ؟ تعالى الله عن الشريك -أيّاً كان - علوّاً
كبيراً . أما عباد الرحمن الذين عرفوه فأحبوه ، فعبدوه - سبحانه - يقولون بقلوب مؤمنة وألسنة موحدة "
لا إله إلا الله محمد رسول الله " .

٧- ولا يقتلون النفس التي حرّم الله إلا بالحق :

لا يختلف المسلمون في تحريم الاعتداء على الأنفس المعصومة في دين الإسلام ، والنفس المعصومة في
الإسلام إما أن تكون مسلمة أو لا تكون . فإن كانت مسلمة فلا يجوز بحال الاعتداء عليها وقتلها بغير
حق ومن فعل ذلك فقد ارتكب كبيرة من كبائر الذنوب العظام يقول الله تعالى " ومن يقتل مؤمناً متعمداً
فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذاباً عظيماً " .

ويقول سبحانه " من أجل ذلك كتبنا على بنى إسرائيل أنه من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً .. "

قال مجاهد رحمه الله : وهذا يدل على عظم قتل النفس بغير حق.

ويقول النبي صلى الله عليه وسلم " لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله إلا بإحدى ثلاث : النفس بالنفس والثيب الزاني والمارق من الدين التارك للجماعة " ويقول النبي صلى الله عليه وسلم "أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام وحسابهم على الله " .

وفي سنن النسائي عن عبدالله بن عمرو رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال " لزوال الدنيا أهون عند الله من قتل رجل مسلم " .

ونظر ابن عمر رضى الله عنهما يوماً الى البيت أو الى الكعبة فقال : ما أعظمك وأعظم حرمتك والمؤمن أعظم حرمة عند الله منك .

كل هذه الأدلة وغيرها كثير تدل على عظم حرمة دم المرء المسلم وتحريم قتله لأى سبب من الأسباب إلا ما دلت عليه النصوص الشرعية فلا يحل لأحد أن يعتدى على مسلم بغير حق.

يقول أسامة بن زيد رضى الله عنهما .. بعثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الحرقة فصباحنا القوم فهزمناهم، ولحقت أنا ورجل من الأنصار رجلاً منهم فلما غشينا قال لا إله إلا الله فكف الأنصاري ، فطعنته برمحى حتى قتله فلما قدمنا بلغ النبي صلى الله عليه وسلم فقال " يا أسامة أقتلته بعدما قال لا إله إلا الله " قلت كان متعوذاً . فما زال يكررها حتى تمنيت أنى لم أكن أسلمت قبل ذلك اليوم. متفق عليه. فهذا رجل مشرك وهم مجاهدون فى ساحة القتال لما ظفروا به وتمكنوا منه نطق بالتوحيد فتأول أسامة رضى الله عنه قتله على أنه ما قالها إلا ليكفوا عن قتله ولم يقبل النبي صلى الله عليه وسلم عذره وتأويله. وهذا من أعظم ما يدل على حرمة دم المسلمين وعظيم جرم من يتعرض لها .

ومن الأنفس المعصومة فى الإسلام .. المعاهدون وأهل الذمة والمستأمنون . فعن عبدالله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال " من قتل معاهداً لم يرح رائحة الجنة وإن رجعها توجد من مسيرة أربعين عاماً " أخرجه البخاري .

ولما أجازت أم هانئ رضى الله عنها رجلاً مشركاً عام الفتح وأراد أخوها على بن أبي طالب رضى الله عنه أن يقتله ذهب للنبي صلى الله عليه وسلم فأخبرته فقال صلى الله عليه وسلم " قد أجزنا من أجزت يا أم هانئ " أخرجه البخاري ومسلم .

٨- ولا يزنون : فالزنا مفسدة أيما مفسدة ، ينأى عنها ذوو الأخلاق والشرف والمروءة . ففيه خلال الشر كلها من ذهاب الدين " لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن " وفساد المروءة ، وقلة الورع ، وقتل الحياء ، مع الاتسام بالفجور والصفاقة والوقاحة . كما أن الوجه تعلوه ظلمة وكآبة تنفر منه نفوس المتقين ، وتراه يحتقر نفسه وإن لم يصرح بذلك .

كما أن من صفات الزاني الفقر لما ورد في الأثر " أنا مهلك الطغاة ومفقر الزناة " ، وينظر الناس إليه نظرة الشك والريبة ، ولا يأمنونه على أعراضهم

وقد يعفو أحدنا عن السارق والقاتل . أما هاتك العرض والشرف فليس له إلا العقوبة القاسية التي لا ترحم ، ولو بلغ الرجل المسلم الشريف أن ابنته أو زوجته أو أخته قُتلت أسهل عليه أن يبلغه أنها زنت . ومن عُرف عنه الزنا سقطت مهابته ، وضعفت مهابة حرمة ، ولربما سُهِّل على نسائه بذل أعراضهنَّ إن لم يُرَبِّين التربية الصالحة التي تمنعهن أن يكنَّ مثل رجالهنَّ .

وللزنا أضرار صحية جسيمة يصعب تجنبها أو علاجها والسيطرة عليها ، وهي خطيرة قد تهلك الزاني وتؤدي به إلى الموت والهلاك أمثال الإيدز - ضعف المناعة - والزهري والسيلان والهريس ، وقد حذر النبي صلى الله عليه وسلم من أمراض الزنا فقال : " ما ظهرت الفاحشة في قوم قط ، يعمل بها فيهم علانية إلا ظهر فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن في أسلافهم " وخص مرتكب الزنا إن كان محصناً بالرجم ، كما فعل الرسول صلى الله عليه وسلم بماعز والغامدية . أما غير المحصن فبالجلد مئة جلدة على أعين الناس الأتقياء دون رافة ولا رحمة . " "

الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مئة جلدة

ولا تأخذكم بهما رافة في دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر
وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين " .

ولما كان الشرك بالله وقتل النفس بغير حق والزنا أشدَّ أنواع الاعتداء على الحقوق

فالشرك اعتداء على حق الله تعالى

والقتل اعتداء على حق الآخرين في الحياة

والزنا اعتداء على الشرف والكرامة والنسل

كان الهلاك للمشركين في الدنيا والنار لهم في الآخرة " قال : أما من ظلم فسوف نعذبه ، ثم يُرد إلى ربه فيعذبه عذاباً نُكراً "

وكان القَوْدُ من القاتل الظالم في الدنيا والخلود في النار " ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها ، وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذاباً عظيماً "

وكان الحد رجماً حتى القتل للزاني المحصن ، ومن نجا في الدنيا فأمره إلى الله في الآخرة ، أما عقوبة الزاني غير المحصن فمئة جلدة كما ذكرت آية الجلد في أول سورة النور كما ذكرنا آنفاً وتغريبُ سنة.

ومن ثم يأتي دور التوبة والإيمان والعمل الصالح الذي يقرب غفرانَ الله تعالى ، ويقلب السيئات حسنات . وهذا فضل من الله تعالى على المؤمن التائب " إلا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً فأُولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات ، وكان الله غفوراً رحيماً "

ولعل التبديل يكون في الدنيا ويكون في الآخرة .. فأما في الدنيا فإن الله يبدلهم الإيمان من الشرك والإحصان من الفجور ، والرشاد من الفساد . وأما في الآخرة فنرى الحسنات مكان السيئة والرضا مكان السخط ، والعفو مكان العقوبة . ألم يقل النبي الكريم صلى الله عليه وسلم موضحاً معنى الآية السابقة : " وأتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالق الناس بخُلُق حسن " اللهم اجعلنا ممن ترضى عنهم فتبدل سيئاتنا حسنات ، وتكرمنا بفضلك ومثك يارب ... وتعال معي نقرأ هذا الحديث الشريف الذي يوزن بميزان الذهب ، بل بالنور والضياء ، يقول النبي صلى الله عليه وسلم فيما رواه مسلم عن أبي ذر :

" أني لأعلم آخر أهل الجنة دخولا الجنة ، وآخر أهل النار خروجاً منها ، رجلٌ يُؤتى به يوم القيامة ، فيقال : اعرضوا عليه صغار ذنوبه ، وارفعوا عنه كبارها . فتعرض عليه صغار ذنوبه ، فيقال : عملتَ يوم كذا وكذا وكذا ، فيقول : نعم . لا يستطيع أن ينكر ، وهو مشفق من كبار ذنوبه أن تُعرض عليه . فيقال له : فإن لك مكان كل سيئة حسنة . فيقول : يارب عملتُ أشياء لا أراها ههنا ، فلقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ضحك حتى بدت نواجذه ، فقال أبو طويل - رجل من كندة - : يا رسول الله ،

أرأيت رجلاً عمل الذنوب كلها ولم يترك منها شيئاً ، وهو في ذلك لم يترك حاجة ولا داجة - يعني قطع الطريق على الحجاج - إلا اقتطعها ، فهل له من توبة ؟ قال " هل أسلمت " قال : أنا أشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أنك عبد الله ورسوله . قال : " نعم ، تفعل الخيرات ، وتترك السيئات ، يجعلهن الله كلهن خيرات " قال : وغدراي وفجراي يا نبي الله ؟! قال " نعم " قال : الله أكبر ! فما زال يكررها حتى توارى .

قال عثمان كاتب هذا المقال ، راجي عفو ربه :

ياربّ سبحانك أنت الإله الحق
للمسلم المذنب قول لذاتك رق

÷÷÷÷

من فضلك النار ولت فلا دار
إلا ربا الجنة فلوجهك المنه

÷÷÷÷

أرسلت هادينا يُهدي لنا دينا
نور على نور بالخير منشور

÷÷÷÷

فارفعه مقدارا أعلى الورى دارا
صلى عليه الله من فضله أولاده

٩- والذين لا يشهدون الزور :

إن المسلم التقى من دخل في زمرة " عباد الرحمن " لا يحضر الكذب ولا الزور، فلا يشهدهما ، ولا يشاهدهما . قال تعالى " .. واجتنبوا قول الزور " . وجعله المصطفى صلى الله تعالى عليه وسلم من أكبر الكبائر " ألا أنبئكم بأكبر الكبائر وكان متكئاً فجلس ، فقال : ألا وقول الزور ، ! فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت " وتكرار العبارة تنبيه إلى خطورتها ...

والزور من أشد أنواع الكذب - كما قال ابن العربي المالكي الأندلسي صاحب " العواصم من

القواصم " والزور كما يقول العلماء : كل باطل زورٌ وزُحرفٌ ، وأعظمه الشرك وتعظيم الأنداد . وعلى هذا يقول ابن عباس رضي الله عنهما : الزور أعياد المشركين . وقد حذر منه الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام " من كثّر سوادَ قوم فهو منهم . " .

من الزور القمار والملاهي التي تبعد عن الله تعالى وتوغر الصدور . ومن الزور أيضاً التغّي بالشعر الفاحش . ومنه الشطط في القول الخارج عن الإيمان كقول ابن هانئ الأندلسي يمدح الخليفة الفاطمي :

ما شئت لا ما شاءت الأقدارُ فاحكم فأنت الواحد القهّارُ

فجعل له صفات لا تليق إلا بالله تعالى من وحدانية وقدرة مطلقة في التصرف واستعلاء قاهر !! . وكذلك المبالغة الممجة كقول الشاعر :

لا تغرّك الأشكال والصورُ تسعة أعشار من ترى بقرُ

وسمع أحد الشعراء هذا البيت فزاد المعنى حشفاً وسوء كيلةٍ حين قال :

لا تغرّك الأشكال والصور فجلّ من ترى بل كلهم بقرُ

ولا شك أنه أدخل نفسه في الكل البقريّ ! دون أن يدري ، وانطبق عليه قول مثيله من الشعراء

إن كنت لا تدري فتلك مصيبة أو كنت تدري فالمصيبة أعظمُ

١٠ - وإذا مروا باللغو مروا كراماً : فما اللغو؟ إنه كل سَقَط من قول أو فعل ويدخل فيه كثرة الغناء

واللهو ، والحديث الذي لا فائدة منه .. وقيل : هو المعاصي عامّةً . وقيل : هو الشرك ، قاله الضحّاك .

فما المقصود بكلمة " كراماً " ؟ إنه الإنكار وعدم الرضا ، والبعد عن مجالسة اللاغين ، والنأي عن الدخول

في الباطل وتكريم النفس عما يشينها . وروي أن عبد الله بن مسعود سمع غناء فأسرع وذهب ، فبلغ رسول

الله صلى الله عليه وسلم ما فعله ابن مسعود فقال : " لقد أصبح ابن أم عبد كريماً " .

وكلمة " مروا باللغو " تدل على امتناع المرء أن يقصد مجالس اللغو . فإذا وجد نفسه عرضاً فيها

أسرع مبتعداً كي لا يسمع أو يقول . كما فعل ابن مسعود رضي الله عنه.

ويكفي اللغو مأثماً أنه يضيّع الوقت سدى ، ويبدّر الشقاق ، ويؤدي إلى البغضاء والفراق ، ويفرق

القلوب ، ويكثر الذنوب ، ويهدم الفضيلة ، ويزرع الرذيلة ، ويؤجج التنافس الدميم ، ويفرح الشيطان

الرجيم .

١١ - والذين إذا ذُكِّروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صمّاً وعمياناً :

عباد الرحمن قلوبهم مع الله ، وأعمالهم يبتغون بها وجه الله . يشكرون من يذكرهم بالله ويسعدون بذلك وهم نقيض المنافق ضعيف الإيمان الذي " .. إذا قيل له : اتق الله أخذته العزة بالإثم .. " فمن صفاتهم الإيمانية قوله تعالى " إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ، وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً ، وعلى ربهم يتوكلون " .

وما أدق التعبير " لم يخروا عليها " الدالة على الإعراض وعدم المبالاة والتكبر والإصرار على البعد والتبذّر . فعباد الرحمن يستمعون الذكر فيخرون سجّداً وبكياً " ... إذا ذُكِّروا بآيات ربهم خرّوا سجّداً وسبحوا بحمد ربهم وهم لا يستكبرون " يتمللملون تململ السليم ، ويكون بكاء الشكلى . يذكرون يوماً تتقلب في القلوب والأبصار . ويقولون بلسان الحال والمقال " إنا نخاف من ربنا يوماً عبوساً قمطيراً " فمن خاف أدلج ، ومن أدلج سلم .

ولا بد أن نشير إلى أمر هام نبهنا إليه قوله تعالى " إذا ذُكِّروا بآيات ربهم " فالمسلم داعية إلى الله يذكر نفسه وإخوانه بالله . ألم يأمرنا ربنا بذلك فقال : " فذكر إن نفعت الذكرى " ؟ فمن الذي يتذكر سوى من يحب ربه ويخشاه ويرجو ثوابه ويخاف عقابه؟! " سيذكر من يخشى .. " .

وقد أعذر الله تعالى إلى الناس حين أرسل إليهم الرسل بالآيات والبراهين الناصعة ، يذكرونهم بربهم ويعلمونهم الطريق الموصل إلى رضاه سبحانه ، فوضحوها لهم وأقاموا عليهم الحجة .

١٢ - والذين يقولون : ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرّة أعين واجعلنا للمتقين إماماً .

في هذه الآية نجد فوائد عدة منها:

١ - أن يدعو الإنسان ربه ويبتهل إليه ويطلب منه العون ، فالإنسان ضعيف بنفسه قوي بلجؤه إلى ربه " إياك نعبد وإياك نستعين " " إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله " .

٢ - ما ينال الإنسان من خير فمن الله تعالى . فالرزق الحلال هبة " إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين " والزوجة الصالحة هبة " الدنيا متاع ، وخير متاعها المرأة الصالحة " والذرية الصالحة هبة " وأصلح لي في ذريتي " وهبنا له إسحاق ويعقوب "

٣ - سعادة الإنسان حين تكون أسرته - الزوجة والأبناء - صالحين تفرح بهم عيناه ، فيعيش بهم

في نعيم " قال رب هب لي من الصالحين ، فبشرناه بغلام حليم " وقرة العين بهم كما قال الضحاك أيضاً أن يكونوا طائعين . " قال رب هب لي من لدنك ذرية طيبة " ولا ننس دعاء زكريا عليه السلام " فهب لي من لدنك ولياً " والولي المطيع ، فلم يقل هب لي ولداً. فقد لا يكون الولد مطيعاً . وقد دعا النبي صلى الله عليه وسلم لأنس بن مالك " اللهم أكثر ماله وولده وبارك له فيه " فقرت عينه بأهله وولده وماله.

٤- إلى المسلم أن يكون داعية كي يكون قدوة " واجعلنا للمتقين إماماً " والمسلم يطلب أن يكون قدوة في الدين قبل كل شيء ، فهو سبيل إرضاء المولى عز وجل . ولهذا ينبغي أن يجتهد في طاعة ربه .
٥- يدعو الإنسان بالخير للمسلمين جميعاً ولأهله وقربته قبل الآخرين ، فالأقربون أولى بالمعروف . ومن كان في أهله سعيداً مرتاحاً كان أقدر على الدعوة وأنشط.

عباد الرحمن هؤلاء الذين جمعوا من أوصاف التحلية والتخلية التواضع ، والحلم ، والتهجد ، والخوف ، والاعتدال في النفقات ، والنزاهة عن الشرك والزنا والقتل ، والتوبة والصدق ، والعفو ، وتقبل الموعظة والابتغال إلى الله استحقوا ثواباً من الله تعالى عظيماً .. إنه " الغرفة " أعلى منازل الجنة وأفضلها لأنهم صبروا على طاعة ربهم فابتعدوا عن الحرام ، وقنعوا بالحلال ، " أولئك يُجْزَوْنَ الغرفة بما صبروا " . فالدنيا دار ابتلاء واختبار نجحوا فيه فاستحقوا كرامة الله تعالى لهم .

يخصهم ملائكة ربهم بالتحية والإكبار كلما رأوهم وحيثما تقوهم " والملائكة يدخلون عليهم من كل باب ، سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار " قال تعالى " وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَاماً " .

هل النعيم ينقطع أو هو دائم ؟ لو كان ينقطع فليس نعيماً إنه لو انقطع لأورث الغصة ، وظل أصحابه ينتظرون انقطاعه فتضيغ لذته ... إنه نعيم دائم في كنف الله تعالى ذي الفضل والمنّة ، يرتعون في رضى الجنة أبد الأبد " خالدين فيها ، حسنت مستقراً ومقاماً "

" إن هذا هو الفوز العظيم ، لمثل هذا فليعمل العاملون " صدق الله العظيم

اللهم اجعلنا من عبادك المخلصين الفائزين ، واحشرنا في زمرة عبادك الصالحين ، مع الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين ، وحسن أولئك رفيقاً .



تأملات تربوية في سورة الشعراء (١)

في هذه السورة الكريمة - كبقية أخواتها - مواقف تربوية جمّة تنير الفكر ، وتنشط القلب والعقل ، وتضيف كنوزاً من فيض التربية القرآنية يظهر فيها واضحاً جلياً . من أهمها :

التكرار . فما فائدة التكرار هنا ؟

ذكرت في كتابي " صور من التربية في القرآن الكريم " قريباً من اثني عشر هدفاً للتكرار . وقلت فيما سبق من تأملات : إن التكرار ظاهرة تربوية وأسلوب تعليمي أصيلان ... يدخل إلى النفوس والقلوب من أبواب متعددة ، تفتحها بطرق مختلفة ، قوية حيناً وبسيطة حيناً آخر ، مخيفة تارة ومحبة تارة أخرى . فتحقق الأهداف التربوية والأخلاقية والتعليمية . فأين التكرار في هذه السورة ؟

جاءت السورة في أقسام تسعة تؤصل في قلب الإنسان التوحيد وإفراد المولى عز وجل بالعبادة ، وتنبه إلى اتباع الرسل والأنبياء ، وتدعو إلى تقوى الله ومراقبته سبحانه وتعالى ، وتخوف من نتائج الكفر والعصيان . ففي القسم الأول والأخير يخاطب الله تعالى رسوله الكريم محمداً عليه الصلاة والسلام . وفي الأقسام الأخرى يحدثنا عن الأنبياء الكرام موسى وإبراهيم ونوح وهود وصالح ولوط وشعيب عليهم صلوات الله وسلامه بشكل متتابع ، وما لاقوه من عنت أقوامهم ، وتكذيبهم إياهم حين دعوهم إلى عبادة الله وحده والعمل الصالح ، مع ذكر العقوبة التي كانت فيها نهايتهم .

وفي نهاية الحديث عن كل نبي نجد الخاتمة في قوله تعالى " إن في ذلك لآية ، وما كان أكثرهم مؤمنين ، وإن ربك هو العزيز الحكيم " تكرر سبع مرات توضح :

١ - أن الله تعالى أيد رسله بأدلة وبراهين . ولا بد لإنجاح المهمة أن تزود المكلف بأية مهمة تريد إنجاحها بآيات واضحة وبراهين دامغة .

٢ - وأن أكثر الناس يتبعون أهواءهم ، ويتنكبون طريق الهداية . فالشيطان والهوى يميلان بالنفس إلى التخفف من الأعباء ، ونبد التكاليف ، والانحراف عن الحق .

٣ - وأن الله تعالى قوي عزيز يفعل ما يشاء ، وهذه قمة التهديد . ولأنه سبحانه عزيز قادر على كل شيء فسيعاقبهم إن شاء وقت ما شاء ، كيفما شاء .

٤- وأن الله تعالى يقبل توبة من تاب وأتاب مهما فعل . فهو الرحيم بعباده ، يُقبل عليهم إن أقبلوا ، ويتجاوز عن سيئاتهم إن عادوا إليه ولاذوا بحماه .

٥- كما كانت هذه الآية إيذاناً بانتهاء قصة وبدء أخرى كلاهما متشابه يؤدي إلى المعنى الذي تريده السورة والهدف المنشود منها ، وبمعنى آخر إن هذه الآية الكريمة تعالى " إن في ذلك لآية ، وما كان أكثرهم مؤمنين ، وإن ربك هو العزيز الحكيم " رابط يجمع عمل الأنبياء في عمل واحد وهدف واحد هو الدعوة إلى توحيد الله تعالى .

ونجد في بداية قصص الأنبياء الخمسة الكرام " نوح وهود وصالح ولوط وشعيب " تكراراً في الدعوة إلى التقوى والتعريف بالمهمة " كذّبت ... المرسلين إذ قال لهم أخوهم ألا تتقون ؟ إني لكم رسول أمين فاتقوا الله وأطيعون ، وما أسألكم عليه من أجر ، إن أجري إلا على رب العالمين " تكررت خمس مرات تؤكد فيها

١- وجوب التبليغ " إذ قال.... " وذلك ليقم عليهم الحجة وهذا مصداق قوله تعالى " يا أيها الرسول : بلغ ما أنزل إليك من ربك ، وإن لم تفعل فما بلغت رسالته "
٢- وأنه " أخوهم " يحب لهم الخير ، ويودّهم لهم ، إلا في الحديث عن شعيب فلم تُذكر كلمة الأخ لأن المفسرين قالوا : إن أصحاب الأيكة لم يكونوا من قوم شعيب ، وإن كان قد أرسل إليهم بعد أن دعا قومه . أما قومه الذين أرسل إليهم أولاً فهم أهل مدين . وعلى هذا ذكر القرآن الكريم في سورة هود أنه أخوهم - أي منهم - " وإلى مدين أخاهم شعيباً " .

٣- ولو تتبعنا قوم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب لوجدنا أنهم أرسلوا إلى أقوامهم فقط . فكل نبي أرسل إلى قومه وليس معه رسول آخر. فكل قوم كذبوا نبيهم وحده !! فلماذا أكد الله سبحانه وتعالى أنهم كذبوا المرسلين ؟ الجواب : أنه من يكذب نبياً فقد كذب الأنبياء كلهم ، ومن صدق نبياً فقد صدق الأنبياء جميعهم . فالأنبياء يصدرّون عن مشكاة واحدة . ومن هذا نفهم قوله تعالى يمدح المسلمين أتباع محمد عليه الصلاة والسلام " والمؤمنون .. كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ، لا نفرق بين أحد من رسله ، وقالوا سمعنا وأطعنا ، غفرانك ربنا ، وإليك المصير "

٤- وطلب إليهم أن يتقوا الله ، فالتقوى طريق الإيمان ودعامته. ولا تكون التقوى إلا بطاعة

الرسول ، فالرسل كل الرسل مؤتمنون على الرسالة وصادقون في تبليغها. ولذلك أعلن الرسل جميعهم مقولة واحدة " إني لكم رسول أمين " والأنبياء رمز الأمانة ، ألم يأمر الله تعالى موسى وهارون حين يأتیان فرعون " فقولاً إنا رسول رب العالمين ، أن أرسل معنا بني إسرائيل " ؟ لو لم يكونا أمينين ما اختارهما الله تعالى لقيادة بني إسرائيل إلى بر الأمان .

٥- وأمرهم بالتقوى بأسلوبين يقوّي أحدهما الآخر أما الأول " ألا تتقون ؟ " فقد جاء بأسلوب الاستفهام التحضيضي . وهذا أدعى إلى التفكير واتخاذ القرار دون ضغط ولا إكراه . وأما الثاني " فاتقوا الله .. " فقد جاء بصيغة الأمر بعد التفكير و التعليل وتقرير أمانة الرسل وأنه قد اتضح الأمر وظهر الحق لذي عينين . أما موسى فقد أرسله الله تعالى إلى فرعون وقومه فهم

- ظالمون

- لا يتقون

" وإذ نادى ربك موسى أن ات القوم الظالمين ، قوم فرعون ألا يتقون ؟ !!

٦- وقد يأمرك أحدهم بأمر لك فيه مصلحة وله فيه - منك - مصلحة دنيوية . أما الرسل الكرام فهم يدعون لوجه الله لا يريدون منا جزاء ولا شكوراً " وما أسألكم عليه من أجر ، إن أجري إلا على رب العالمين " وثواب الأنبياء على دعوتهم كبير جداً وعظيم جداً لا يقدر عليه البشر ، ويؤديه إليهم رب البشر واهب النعم ، وجزاؤه خير الجزاء ، ألم يعلمنا النبي عليه الصلاة والسلام أن نقول لمن أدى إلينا معروفاً ونريد له المكافأة الكبيرة " جزاك الله عنا كل خير "؟

أما الآية " فاتقوا الله وأطيعون " فقد وردت في الحديث عن نوح وهود وصالح مرتین وذلك لطغيان قوم نوح وقوم هود وقوم صالح فقد مكث نوح عليه السلام بينهم الف سنة إلا خمسين عاماً يحاجونه ويؤلبون عليه سفهاءهم ويكذبونه .. وطال عليهم الأمد حتى مل منهم .. ويظهر ألمه هذا في سورة القمر " فدعا ربه أني مغلوب فانتصر. وأما قوم هود فلأنهم تجبروا وبطشوا بالمؤمنين وبمن حولهم من القرى ، واعتمادهم على قوة أجسادهم وضخامتها ، ولبطرهم وغناهم وما أمدتهم به الله تعالى من مال وبنين وأنعام وجنات وعيون فكانوا لنعمه جاحدين . وأما قوم صالح فلأن الله تعالى هيأ لهم حياة هنية وغنى فاحشاً وقوة جسدية مكنتهم من حفر الجبال واتخاذها بيوتاً ، ثم طلبوا آية فأرسل الله لهم الناقة فظلموا بها وعتوا

عن أمر ربهم

أما في الحديث عن قوم لوط وعن شعيب مع أصحاب الأيكة فقد وردت الآية " فاتقوا الله وأطيعون " مرة واحدة ولعل المتتبع للسورة يجد أن مفاسدهم كانت فيما بينهم ، وأن مكوث النبيين الكريمين بينهم كان أقل - والله أعلم - .

وثاني التأملات في هذه السورة الكريمة التعليل وذكر السبب :

والتعليل لأسباب كثيرة أيضاً منها :

البراءة والإعذار .

توضيح الأمور وتبianaها .

أن يتحمل المعني مسؤولية قوله وفعله .

أن يكون صاحب القرار الأخير فيما يتصرف .

وسأذكر بعض الأمثلة :

- فسيدنا إبراهيم أعلن عداوته للأصنام ورفض عبادتها ، وأكد عبوديته لله رب العالمين للأسباب

التالية: " الذي خلقتني ، فهو يهديني .

والذي هو يطعمني ويسقيني .

وإذا مرضت فهو يشفيني .

والذي يميتني ثم يحييني .

والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين . "

ولأن الله تعالى صاحب الأمر والنهي الذي يستحق العبادة فأنا أدعوه وحده فهو المحيب الذي يلجأ

إليه كل المخلوقات في الدعاء وهو الذي أسأله " وإذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله " .

فقال : " رب هب لي حكماً ، وألحقني بالصالحين .

واجعل لي لسان صدق في الآخرين .

واجعلني من ورثة جنة النعيم

ولا تخزني يوم يُبعثون ، يوم لا ينفع مال ولا بنون ، إلا

من أتى الله بقلب سليم "

- والشياطين لا يمكنهم أن يسترقوا السمع " وما تنزلت به الشياطين ، وما ينبغي لهم ، وما يستطيعون " فلماذا ؟ وما السبب ؟ " إنهم عن السمع لمعزلون "
- وأمر الله تعالى رسوله الكريم أن يتوكل عليه " وتوكل على العزيز الرحيم " فلماذا؟ السبب: أنه تعالى هو " العزيز الرحيم

الذي يراك حين تقوم ، وتقلبك في الساجدين

إنه هو السميع العليم . "

- ويقول الله تعالى " والشعراء يتبعهم الغاؤون " فلم يارب ؟ الجواب :

" ألم تر أنهم في كل واد يهيمون ؟!

وأنهم يقولون ما لا يفعلون ؟!

وثالث هذه التأملات الاعتبار بمصائر الآخرين

- فمن كان ذا قلب حي وبصيرة نافذة اذكر ووعى ، وعمل صالحاً ونأى عن مواطن الخطأ ، وأقبل على الله تعالى بقلب منيب ... والله تعالى حين يقص علينا مصارع الظالمين ونهايتهم المخيفة يحذرنا أن نسير سيرتهم وأن نسير على منوالهم كي لا ننتهي نهايتهم .
- فكيف كانت نهاية فرعون وملئه؟ " قال سبحانه " فأخرجناهم من جنات وعيون ، وكنوز ومقام كريم " كانوا يتمتعون بها في مصر ثم استدرجهم إلى خليج السويس لينجي المؤمنين بقيادة النبيين موسى وهارون وليقضي عليهم غرقاً " وأنجينا موسى ومن معه أجمعين ثم أغرقنا الآخرين " .
- وكيف قضى على قوم نوح ؟ أغرقهم الله تعالى بالطوفان العظيم فلم يُبقِ منهم أحداً ، ونجّى نوحاً والمؤمنين معه في السفينة التي صنعها النبي الكريم " فأنجيناه ومن معه في الفلك المشحون ، ثم أغرقنا بعدد الباقين "

- أما قوم هود فقد استأصل الله تعالى شأفتهم " فأهلكناهم " وذلك بالريح الشديدة التي دمرتهم يقول تعالى في سورة الذاريات مصوراً نهايتهم المفجعة : " وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية ، سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً ، فترى القوم فيها صرعى ، كأنهم أعجاز نخل خاوية ، فهل ترى لهم

من باقية ؟ "

- وقوم صالح أييدوا كذلك " فأخذهم العذاب " وذلك بالصيحة التي صعقتهم فماتوا لساعتهم .
يقول الله تعالى في سورة القمر " إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر " .

- وأما قوم لوط فأناهم عن بكرة أبيهم ، وكأنهم ما كانوا " ثم دمرنا الآخرين " وكان عقابهم على شقين كما ورد في سورة هود " فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود ، مسومة عند ربك ... "

٦- وأما أصحاب الأيكة فقد أحرقوا بنارٍ انبعثت من سحابة حسبوها تظلمهم من حر الشمس " فكذبوه ، فأخذهم عذاب يوم الظلة ، إنه كان عذاب يوم عظيم "

ورابع هذه التأملات الاستكبار يمنع الإيمان :

فقوم نوح وجدوا ضعاف القوم هم الذين يؤمنون ، فهل يتنازلون ليكونوا مثل عبيدهم ، وفي مصافهم ! لا خاصة أن هؤلاء الضعفاء سبقوهم إلى هذا الدين الجديد ، فهل يرضى السادة أن يكونوا في الصف الثاني ؟! لا وألف لا " قالوا : أنؤمن لك واتبعك الأرذلون ؟!! " فنبههم النبي الكريم نوحاً إلى أن مكانة الإنسان بعمله لا بنسبه وغناه . والداعية لا يفرق بين غني وفقير ، ولا نسيب وغير نسيب ألم يضحك الصحابة رضوان الله تعالى من دقة ساق عبد الله بن مسعود - الذي قطع أبو جهل أذنه ودعاه روبيعي الغنم - فأخبرهم النبي الكريم عليه الصلاة والسلام " أن ساقه عند الله تعالى أثقل من جبل أحد " ؟ فأجابهم نوح عليه السلام .. " وما علمي بما كانوا يعملون ؟ إن حسابهم إلا على ربي لو تشعرون " بل قربهم إليه واعتنى بهم واحتفى بهم لأنهم لبوا دعوته حين أنذر وبشر " وما أنا بطارد المؤمنين ، إن أنا إلا نذير مبين " ويتكرر الأمر بشكل أوضح في سورة هود حين يشتد الجدل بين نوح عليه السلام وبين قومه في الآيات / ٢٥ - ٣١ / ولقد فعل المشركون مع النبي صلى الله عليه وسلم الشيء نفسه حين قالوا له مثل ما قال أسلافهم لنوح فأمره الله تعالى أن يحافظ عليهم ويقربهم ، ويؤدنيهم من مجلسه وأن يترك الغافلين الذين اتبعوا أهواءهم " واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي ، يريدون وجهه .

لا تعُدْ عيناك عنهم تريد زهرة الحياة الدنيا .

ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا ، واتبع هواه ، وكان أمره فرطاً " بل حذر من طردهم فهم عباد

الله الذين يذكرونه في كل وقت ييغون رضاه سبحانه فقال في سورة الأنعام : " ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ، ما عليك من حسابهم من شيء ، وما من حسابك عليهم من شيء ، فطردهم فتكون من الظالمين " . وكان صلى الله عليه وسلم يحتفي بابن أم مكتوم فيقول له : أهلاً بمن عاتبني فيه ربي .

كما أن قوم نوح هددوه بالرجم " قالوا لئن لم تنته يا نوح لتكونن من المرجومين " ومن صيغ الاستكبار الإعراض والتكذيب والاستهزاء : " وما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث إلا كانوا عنه معرضين . فقد كذبوا ، فسيأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون " ومن صيغ الاستكبار وصف فرعون النبي موسى بالسحر والجنون " قال : إن رسولكم الذي أرسل إليكم لجنون " . وقوله للملأ حوله " إن هذا لساحر عليم " ثم تهديده بالسجن وتهديده السحرة بالصلب والتقطيع " لئن اتخذت إلهاً غيري لأجعلنك من المسجونين " " لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ، ولأصلبنكم أجمعين "

كما أن قوم هود استهجنوا الدعوة واعتبروه مخزفاً فقالوا مستهجنين العذاب الذي هددهم به إن كفروا " أن هذا إلا خلق الأولين وما نحن بمعذبين " .

وهؤلاء قوم صالح اعتبروه مسحوراً ، وتحذوه بعقر الناقة " قالوا : إنما أنت من المسحّرين فعقروها "

وقوم لوط هددوه في هذه السورة بطرده من القرية " لئن لم تنته يالوط لتكونن من المخرجين " وأما شعيب فقد نعته أصحاب الأيكة بأنه مسحور ، وأنه كاذب " قالوا : إنما أنت من المسحّرين وإن نظنك لمن الكاذبين " .

وخامس هذه التأملات : مخاطبة المدعويين بلغتهم :

يخاطب الله تعالى العرب أنفسهم حين يخاطب نبيه الكريم بلسان عربي واضح لا لبس فيه " ... لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين " وهذا له فوائد جمّة ، منها : أنه منهم ، يتكلم بلغتهم ، ويخاطبهم بما يفقهون .

وأنه يعرف أساليبهم ولهجاتهم فيجيبهم بأفصح لغة وأعذب بيان.

فيقيم بذلك الحجة عليهم فلا يبقى لهم عذر للإنكار .

وقد جاء هذا المعنى في آيات كثيرة ، منها في سورة يوسف :

" إنا أنزلناه قرآناً عربياً ، لعلكم تعقلون "

وفي سورة الزمر " قرآناً عربياً غير ذي عوج لعلهم يتقون "

وفي سورة الزخرف " إنا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون "

وعلى هذا فينبغي أن يتعلم المسلمون اللغات الأخرى ليوصلوا القرآن الكريم والدين الكامل للأمم

كلها بما يفهمون ليقيموا الحجة علي الناس . وليعذروا إلى ربهم .

كما أن تعلم اللغات يفيد في التعرف إلى الآخرين في أفكارهم ، والدخول إلى قلوبهم ، وأمن مكرهم

. فقد أمر النبي الكريم زيد بن ثابت وغيره أن يتعلم العبرية ففعلوا . وقال صلى الله عليه وسلم : " من تعلم

لغة قوم أمن مكرهم " .



تأملات تربوية في سورة الشعراء (٢)

وحديثنا هنا إن لم يكن كله عن موسى عليه السلام فجّلّه عنه .. وأول ما نقف عليه :

١- تجسيد الفكرة وذلك بالعودة إلى زمان القصة ليعيش المتلقي في أجوائها ، ويتصورها أمامه ، وكأنه يراها . وأداة الانتقال الظرف الماضي المتحرك " إذ " الذي ينقلك إلى الحدث فتصوره أمامك بصرًا وسمعًا فإذا بك تسمع صوت الله تعالى من أعماق قلبك " وإذ نادى ربك موسى " فتصيح السمع .. وأنت لا تملك إلا أن تسمع ، فهو الصوت الحق الذي يمتلك الوجود زمانه ومكانه ... كيف لا وهو خالق الزمان والمكان !!! والنداء الحق لا بد أن يطرق شغاف قلوب المؤمنين ماذا يقول الله تعالى لموسى ؟
إنه يأمره أن:

٢- يدعو الناس إلى تقوى الله عز وجل ، فالتقوى ملاك الحياة وسبيل السالكين إلى مرضاة رب العالمين وعلى المرء السوي أن ينحو في دعوته إلى تحقيق هدفين اثنين
أولهما أن يدعو نفسه التي بين جنبيه إلى البعد عن الهوى وسبل الغواية .
وثانيهما أن يدعو الآخرين إلى ما اعتقده من الحق ليحيوا نقاء الحياة التي يحياها ، وليكونوا عوناً في نشر دعوته التي ارتضاها .

وعلى الدعاة أن يكونوا بين الناس ، وفي حقل الدعوة ، وما أفلح داعية يطل على المدعوين من برجه العاجي ! وكيف يصل إلى قلوبهم فينتزعها من وهدة الضلال وينتشلها من حفر الفساد إذا لم يكن بينهم يقاسمهم هموم حياتهم؟! .. ومن هنا نفهم قوله تعالى " أن أئت القوم ... " فلا غرو أن الاندماج في الوسط الذي ندعوه أول طريق النجاح وقد يسأل سائل : فأين التمايز ؟ وأين المفاصلة ؟ فالجواب : إنهما في القلب ففيه يتجذر الإيمان ، وفي التصرف الذي يدل على صدق التوجه في الدعوة . وهذا كان دأب الأنبياء والمصلحين .

٣- معرفة الهدف : فمن هم هؤلاء الذين على موسى أن يدعوهم ؟ وما صفاتهم ؟
إنهم " ... القوم الظالمين .. قوم فرعون ... " وتصور معي أخي الحبيب أنهم لفسادهم وشدة كفرهم ذُكر وصفهم قبل التعريف بهم فعرفهم بالظلم قبل البوح بهم ليتعرف شرّهم فيعدّ العدة للتعامل معهم ،

وليتطلب من البراهين والأدلة ما يعينه عليهم ، وهنا نقول - كما ذكرنا مراراً - لا بد من التعريف بالهدف ليكون الأمر واضحاً لا لبس فيه ، وليتخذ المنفذ له كل احتياطاته ، ويستعدّ للقيام به على أكمل وجه .
والقرآن بهذا يعلمنا أن على المسؤول أن يكشف الهدف تماماً ، ويقدم الوسائل المعينة على إدائه على الوجه الأفضل ، كما أن على المنفذ أن يطلب ما يراه مناسباً لنجاح المهمة .

وقد عرفنا الهدف : قوم فرعون . فما المهمة ؟ إنها التقوى " ألا يتقون ؟!... " إن التقوى سبيل الحياة الطيبة ، ومدعاة إلى مرضاة المولى سبحانه .. وعودة إلى عشرات الآيات في القرآن الكريم توضح ثمرات التقوى .. الرحمة ، الغفران ، الفلاح ، الرزق ، النجاة من المهالك وقد جاءت التقوى أمراً ونصيحة مشوبين بأسلوب التهديد والوعيد ، وهذا الأسلوب أمضى من الأمر والنصيحة متفرقين .

٤- التوثيق للأمر : ٥- والاستعانة بالموثوقين : موسى عليه السلام بشر :

- يخاف : " قال ربّ إني أخاف أن يكذبون " .

- يضيق صدره : " يضيق صدري .. " .

- يتلعثم في الحديث : " ولا ينطلق لساني ... " .

فيطلب أخاه هارون ليكون معه يؤازره ويعينه في دعوته فهو يثق به ، ومن التوثيق للأمر أن يكون صاحب أميناً موثقاً . وهو يعرف أخاه معرفة تامة فطلب إشراكه في مهمته : " فأرسل إلى هارون " .
فهارون تتوافر في الفصاحة ، وسيتولى عنه توضيح الفكرة -إن ضعف - ودخولهما معاً على فرعون يخفف من وطأة الموقف ، ويخفف من الحرج وضيق الصدر ، وما ينتج عنهما .

ولا ننس أن الخوف يؤدي إلى ضيق الصدر .. كذلك يفعل التكذيب .. وضيق الصدر يؤدي إلى ضعف البيان وتهاوي الحجة ، واستهزاء المدعويين به

- يخاف من القصاص ، فقد قتل القبطي : " ولهم عليّ ذنب ، فأخاف أن يقتلون... " .

قد يستغل فرعون مقتل القبطي والرغبة في القصاص - لا للقصاص فرعون يقتل وقت ما يشاء دون رادع أو سبب- ويرى الفرصة مناسبة لوأد كلمة الحق ، فيقتل الرسول موسى عليه السلام .. إذاً كيف يدخل عرين الأسد برجليه ؟ ويمكّنه من نفسه، وهو الذي هرب منذ سنوات طويلة خوف القصاص؟ صحيح أنه عليه السلام تاب لفعلة لم يكن يقصدها فتاب الله عليه واجتبه .. لكن فرعون سيقتله

ليتخلص من دعوته .

٦- تلبية المطالب المنطقية : مادامت المهمة صعبة لا يقوم بها إلا المخلصون الذين أعدوا لها ، والله

تعالى أعد موسى لها فرباه في رعايته " ولتُصنع على عيني " أجاب الله تعالى مطالب موسى ،

- فأرسل إلى هارون ، فجعله نبياً - والله تعالى يعلم منذ الأزل أن موسى سيطلب أخاه مساعداً

ومعيناً فكان لهارون من الرعاية والعناية ما لموسى فكان يُضرب المثل بعفة هارون عليه السلام وأخلاقه ،
وجمّ أدبه " يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سوء ، وما كانت أمك بغياً "

- وزودهما بالأدلة والبراهين " ... فازدها بآياتنا " . إن الأدلة عنوان القوة ، وداعية إلى الأمان،

وبرهان على صدق المقال والفعال .

- وثبتتهما بالمعينة ، " إنا معكم مستمعون فمن كان الله تعالى معه كان راضياً مطمئن النفس ثابت

القدم ، ومضى في مهمته جريئاً لا يخاف إلا الله .

٧- التصريح بالأمر دون لبس : دخل النبيان الكريمان على فرعون ثابتي الجأش واثقين بالله ، وقالوا

كلمة الحق التي جاءها فذكرا : ١- المرسل والمرسل : " إنا رسول رب العالمين " .

٢- الغاية من الرسالة : " أن أرسل معنا بني إسرائيل " .

إن الوضوح يزيل اللبس ويقوّي الموقف ويمهد للحوار وهنا يبدأ الحوار بين النبي موسى عليه السلام

وفرعون فماذا كان في الحوار ؟

٨- الحوار : فصلت في أسلوب الحوار في مواقف متعددة وأعيدته هنا مختصراً :

فهو أسلوب راق في التربية له فوائد جمّة منها :

سماع الحجج والبراهين من الطرفين المتحاورين ، وإثراء الأفكار ، واعتياد

التفكير الصحيح ، وإشغال أكثر من حاسة في الحوار ، واعتماد الدقة في

الاستنتاج والطرح

وهنا نجد فرعون يلقي التهم جزافاً وبشكل متتابع ليضعف موقف الخصم ويوهن من عزيمته ويزرع فيه

الخوف ويجرئ عليه الآخرين ، ويشكك في دعوته ، ويوحي للسامعين أنه كذاب لا يؤبه له وأن له ماضياً

أسود من قتل وإجرام يمنعه أن يكون داعية صالحاً :

" ألم نريك فينا وليداً ؟!

ولبثت فينا من عمرك سنين ؟!

وفعلت فعلتك التي فعلت وأنت من الكافرين ؟!

وكانت معية الله تعالى تحرس موسى أن يضعف أو يهتز ، فقال ينقض من هذه الاتهامات ما يستحق

النقض والتوضيح :

" فعلتها إذاً وأنا من الضالين " فلم يكن كافراً كما يزعم فرعون ، ولم يعبد له لحظة من اللحظات ، إنما

كان تائهاً عن الحق يبحث عنه فوجده ، والفرق بين الكافر والتائه كبير كبير :

ففررت منكم لما خفتكم " وهذا أكبر دليل على أنه كان منهم بعيداً ، قد صنعه الله على عينه . فلما لا

حقوه هرب منهم إلى بلاد الشام ، وهناك أكرمه الله بالنبوة :

" فوهب لي ربي حكماً ، وجعلني من المرسلين "

ثم رد على اتهام فرعون له بقتل القبطي بأسلوب الهجوم فلهجوم خير وسيلة للدفاع " وتلك نعمة

تمنّاها علي أن عبّدت بني إسرائيل ؟! " وتدبرّ معي أيها الأخ الكريم كلمة " عبّدت بني إسرائيل " تجد

التجبرّ والظلم الشديد وفرض الهيمنة العاتية .

لئن قتل موسى القبطي خطأ ، وما كان يريد ذلك فاستغفر الله تعالى فغفر له إن فرعون كان يقتل

أبناء بني إسرائيل ويستبقي النساء لخدمته وخدمة قومه ، واستعبدهم يفعل بهم ما يشاء دون رادع ... وانظر

معي إلى التهويل في كيل الاتهام " وفعلت فعلتك التي فعلت "

والعجيب أن فرعون وهو القاتل بالجملة عمداً دون رحمة ولا رأفة يرى أن موت القبطي بضربة موسى

ذنّبٌ عظيم يلام فيه سيدنا موسى ويحاسب عليه ! وهنا يحضرنا قول الشاعر :

قتل امرئ في غابة

جرّمة لا تغتفر

وقتل شعب آمن

مسألة فيها نظر

وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ يقول : " يرى أحدكم القذى في عين أخيه ولا يرى الجذع

في عين نفسه " .

هذا دأب المجرمين في كل مكان وزمان ، يرون لأنفسهم من الحق ما يجرّمونه على غيرهم ...

طرح موسى الكليم حجته الدامغة " وتلك منة تمنها عليّ أن عبّدت بني إسرائيل " فأسكتت فرعون وألقمته حجراً ، لقد قابل السخرية بسخرية أشد منها ، فانطلق فرعون إلى سؤال آخر يحوّل فيه مسار الحوار، لكنني أراه قد حُصِر حين ألجأه موسى أن يسأل السؤال الذي ينبغي أن يصل إليه : " قال فرعون : وما رب العالمين ؟! " فأجاب النبي الكريم الإجابة الشافية التي عصفت بفرعون فألجمته : " قال : رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين " فإذا كان الله تعالى رب السموات والأرض وما بينهما فما الذي بقي لفرعون؟ وازداد الجواب إحكاماً حين جاءت الفاصلة المحكّمة " إن كنتم موقنين " لتدفع الحاضرين أن يوقنوا بذلك وكأنه يقول لهم : إن فكرتم التفكير الصحيح عرفتم الإله الحقيقي ، وهذا لا شك تعريض بفرعون الذي شعر بمقصد موسى فحرّض الغوغاء وأثار النعرات والتهيج يستعديهم عليه " قال لمن حوله : ألا تستمعون ؟ " وهنا نبّه موسى الحاضرين إلى أن الله تعالى خلق آباءهم قبل أن يكون فرعون موجوداً وخلقهم كذلك كما خلق فرعون نفسه " قال : ربُّ آبائكم الأولين : فما فرعون إلا واحد ممن خلقهم الله . وهنا يطيش صواب فرعون فيصف موسى عليه السلام بالجنون ، ويصعد الموقف :

" قال إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون " فما الذي نستشف في هذه الآية مما يدل على غضبه الشديد ؟

- ١- بدأ بحرف التوكيد إن .
 - ٢- استهزأ به حين ذكر إرساله إليهم " رسولكم الذي أرسل إليكم " وأراد إهانته ، فهو يرفض أن يكون مرسلاً إليه وانتبهوا إلى كلمة "الذي " الدالة على الاستبعاد.. مع الفعل المبني للمجهول أرسل إليكم وهو بهذا ينكر الله تعالى .
 - ٣- اللام المزحلقة زيادة في تأكيد غضبه وسخريته .
 - ٤- وصرح باتهامه موسى بالجنون .
- ونرى موسى عليه السلام يصعد الموقف أيضاً بجوابه المفحم ليلجم غوغائية الحاضرين وليرد على السخرية بمثلها : " قال : رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون "
- ١- في الآية السابقة أخبرهم أن الله تعالى ربهم ورب آبائهم الأولين وهنا زاد حين أكد أنه رب المشرق والمغرب وما بينهما.

٢- وكما صرح فرعون بجنون موسى صرح موسى عليه السلام أن من لا يعمل عقله ويتفكر ويتدبر هو الجنون الحقيقي .

وهنا يستعمل المتكبر الجبار سلاح البطش والإرهاب ، سلاح التخويف " لئن اتخذت إلهاً غيري لأجعلنك من المسجونين " ونجد أن هذا التهديد بالسجن سلاح المفلسين ممن لا دليل لديهم ولا برهان ، وهذا ما فعله فرعون حين عرف السحرة الحقيقة وفضلوا النعيم الدائم على الدنيا الفانية ، فهددهم بالقتل والصلب فثبتوا ثبات الجبال الرواسي " قالوا لا ضير ، إنا إلى ربنا لمنقلبون ، إنا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا أن كنا أول المؤمنين "

١- وهذا التجبر الفرعوني دأب التافهين الفارغين الذين يعتمدون على القوة والجبروت في وأد الحق وفرض الهوى وما أكثرهم في كل زمان ومكان ، كأنهم اتعدوا على ذلك ، وأوصى به بعضهم بعضاً

٢- ونراه يحقر النبي الكريم موسى ويريد أن يجعله من جملة المساجين الكثر التي تنخر بهم سجونته ، وهذا ما يفعله الطغاة حين يضعون كرام القوم في السجون مع المجرمين والفسقة ليزيدوا عليهم آلامهم .

٣- وهنا دليل على أن الباطل يعتمد الإرهاب واعتقال الرأي وطمس الحقيقة دون اعتبار لبشرية المفكرين وإنسانية الإنسان.

٩- إظهار المعجزة آخر المطاف : فموسى عليه السلام أراد أن يؤمنوا بالعقل والدليل المنطقي ، فلم يظهر العصا أول اللقاء فالأولوية للنقاش وإقامة الحجة ، لكن حين يعمى القلب وتظهر الغوغائية وينسد الطريق ، ويتنادى الظلمة إلى التهديد والوعيد واستعمال القوة بدل الفكر تأتي المعجزة الباهرة . " أولو جئتكم بشيء مبين ؟ فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين ، ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين " وهنا يبلس المجرمون فأيته التي جاء بها باهرة عقلت ألسن الجميع وفي مقدمتهم إلههم الدجال .

تهييج الرعاع واستعانة فرعون - الإله المزيف - بهم - والإله لا يحتاج إلى عباده إلا إذا كان ضعيفاً - جاء ملفتاً للنظر فمن ذلك قول فرعون للملأ حوله " إن هذا لساحر عليم يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره ، فماذا تأمرون ؟! "

إله ديموقراطي !، يستشيرهم " فماذا تأمرون " ويشيرون عليه: " أرجه وأخاه وأرسل في المدائن حاشرين يأتوك بكل سحر عليم " وهل

يخاف الإله سحر الساحرين ؟!

ومن ديموقراطيته أنه قال للملأ حوله في سورة أخرى " إني أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر في الأرض الفساد "

ثم هو إله يترك لعبيده أن يساعده بسحرهم ، ويبدل لهم المال والمناصب إن هم نصره وثبتوا ملكه :
" فلما جاء السحرة قالوا لفرعون أئن لنا لأجراً إن كنا نحن الغالبين ؟ "

فهم سينصرونه لمكاسب يحرزونها ، ليس لأنه إلههم ، وأن عليهم أن يبدلوا الغالي والنفيس لأجله !
ويجيئهم بلهفة المستجير الغارق المتورط :
" قال : نعم وإنكم إذا لمن المقربين "

والعجيب أنهم يرجون انتصار السحرة الذين سيثبتون - بانتصارهم إن فعلوا - ألوهية فرعون !
" لعلنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين " وهذا من وهن العقول وسداجة التفكير .

١٠ - الله أعلى وأجل : قال أبو سفيان بعد معركة أحد : اعلُّ هبلُ اعلُّ هبلُ فرحاً بانتصار قريش على المسلمين ، فيعلم النبي الكريم المسلمين أن يقولوا : الله أعلى وأجل ، ويقول أبو سفيان : لنا عزى ولا عزى لكم ، فيأمر النبي الكريم عليه الصلاة والسلام المسلمين أن يقولوا : الله مولانا ولا مولى لكم . أما سحرة فرعون فقد قالوا حين ألّفوا حبالهم وعصيهم : " بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون " وألقى موسى عصاه بتدبير الإله العظيم " فإذا هي تلقف ما يأفكون " ... وكانت النتيجة أن انقلب السحر على الساحر " فألقي السحرة ساجدين ، قالوا آمنا برب العالمين رب موسى وهارون " .

١١ - نهاية الظلم والظلام : وحين ينطلق ركب المؤمنين نحو بلاد الشام بعيداً عن فرعون وجبروته يحشد فرعون أعوانه وجنوده ليتابعوهم ويستأصلوهم :

" فأرسل فرعون في المدائن حاشرين

إن هؤلاء لشردمة قليلون

وإنهم لنا لغائظون

وإنا لجميع حاذرون " ...

والعجيب أنه يكذب ويكذب ويكذب .. وهذه طبيعة الطغاة الذين يريدون استئصال الدين

والإيمان، ويخافون من المؤمنين الصادقين ويتآمرون عليهم .. فلم الحذر كله ولم حشد القوى كلها للقضاء على الصفوة المؤمنة وأنت تدّعي أنهم قليلون !!؟؟ إن صوت الحق قوي يؤرق ليل الظالمين وترتجف له فرائص المتغترسين فلا بد لهؤلاء أن يبیدوهم حتى يصفو لهم الجو ولكن الله تعالى يجعل في ملاحقة الظالمين المؤمنين الفرج والنصر ، فلا بد بعد الصبر من الظفر ، ولا بد بعد المجاهدة من بلوغ الأرب .. أصحاب موسى يقولون خائفين حين تراءى لهم فرعون بجنوده يحدّون السير نحوهم : " إنا لمدركون " .

فيقول بلهجة المؤمن بربه المعتمد عليه : " كلا ، إن معي ربي سيهدين " ...

كذلك قال إبراهيم عليه السلام : " إني ذاهب إلى ربي سيهدين "

وكذلك قال سيد البشر محمد عليه الصلاة والسلام حين خوفه المنافقون من المشركين بعد أحد : "

الذين قال لهم الناس : إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا : حسبنا الله ونعم الوكيل ، فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء "

ومن كان مع الله كان الله معه ، فنجى الله موسى ومن معه كما نجى إبراهيم ومحمداً عليهم جميعاً

صلوات الله وسلامه .. " وأنجينا موسى ومن معه أجمعين ثم أغرقنا الآخرين " ...



١ - العلم مفتاح الخير :

آتى الله تعالى داوود وابنه سليمان علماً ، والعلم الحق يوصل إلى معرفة الله تعالى المعرفة التي تجعل صاحبها يؤمن به ويحمله تعظيماً وحباً وخشية " إنما يخشى الله من عباده العلماء " و من جهل الحقيقة لم يحفل بها ، ولم يعزها ما تستحق من جلال المقام .. أما داوود وسليمان فإنهما حين أكرمهما الله بالنبوة وفضلهما " ولقد آتينا داوود وسليمان علماً " أقرّا بفضل الله تعالى وحمده على ذلك " وقالوا الحمد لله الذي فضلنا على كثير من عباده المؤمنين " .

فالعلم شرف ، محله منيف ، وأهله وحملته متقدمون . وهو من أجل النعم وأجل القسَم ، ومن أوتيَه فقد تقدم على كثير من عباد الله المؤمنين . والبون شاسع بين الجاهل والعالم ، ذاك يتخبط في جهله في ليل مظلم ، وهذا يسير في أضواء المعرفة وسبل الهداية ، فلا يستويان " قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون؟ إنما يتذكر أولو الألباب " " قل هل يستوي الأعمى والبصير؟ أفلا تتفكرون! " وقال الشاعر في الحث على العلم :

تعلّم فليس المرء يولد عالماً وليس سواءً عالمٌ وجهولٌ

٢ - التحدّث بالنعمة :

وقد علّم النبيّان الكرّيمان منطق الطير " وقال - سليمان عليه السلام - يا أيها الناس علّمنا منطق الطير وأوتينا من كل شيء ، إن هذا هو الفضل المبين " قال تعالى مخاطباً نبيه الكريم محمداً عليه الصلاة والسلام " في وجوب التحدّث بنعمة الله " وأما بنعمة ربك فحدث " ولا يكون الحديث بالمفاخرة والتعاضم ، إنما بالعمل الصالح ، وخدمة العباد ، والسهر على راحتهم . والإقرار بفضل الله عملاً وقولاً ، وإن مساعدة الآخرين وقضاء حوائجهم والسير فيها من التحدّث بنعمة الله .

ولم يبلغ أحد من الأنبياء ما بلغ ملكه ، فإن الله تعالى سخّر له الإنس والجن والطير والوحش وآتاه ما لم يؤت أحداً من العالمين .

يقول القرطبي في تفسير هذه الآية :

" قوله تعالى: " وقال يا أيها الناس " أي قال سليمان لبني إسرائيل على جهة الشكر لنعم الله "

علمنا منطق الطير " ففضل الله علينا على ما ورثنا من داود من العلم والنبوة والخلافة في الأرض في أن فهمنا من أصوات الطير المعاني التي في نفوسها. قال مقاتل في الآية :

كان سليمان جالسا ذات يوم إذ مر به طائر يطوف، فقال لجلسائه : أتدرون ما يقول هذا الطائر؟ إنها قالت لي : السلام عليك أيها الملك المسلط والنبى لبني إسرائيل! أعطاك الله الكرامة، وأظهرك على عدوك، إني منطلق إلى أفرأخي ثم أمر بك الثانية؛ وإنه- الطائر - سيرجع إلينا الثانية ثم رجع؛ فقال إنه يقول : السلام عليك أيها الملك المسلط ، إن شئت أن تأذن لي كيما أكتسب على أفرأخي حتى يشبوا ثم آتيك فافعل بي ما شئت. فأخبرهم سليمان بما قال؛ وأذن له فانطلق.

وقال فرقد السبخي : مر سليمان على بلبل فوق شجرة يحرك رأسه ويميل ذنبه، فقال لأصحابه : أتدرون ما يقول هذا البلبل؟ قالوا لا يا نبى الله. قال إنه يقول : أكلت نصف ثمرة فعلى الدنيا العفاء.

ومر بهدند فوق شجرة وقد نصب له صبي فخا فقال له سليمان : احذر يا هدهد! فقال : يا نبى الله! هذا صبي لا عقل له فأنا أسخر به. ثم رجع سليمان فوجده قد وقع في حباله الصبي وهو في يده، فقال: هدهد ما هذا؟ قال : ما رأيته حتى وقعت فيها يا نبى الله. قال : ويحك! فأنت ترى الماء تحت الأرض أما ترى الفخ! قال : يا نبى الله إذا نزل القضاء عمي البصر.

وقال كعب. صاح ورشان- طائر يشبه الحمام - عند سليمان بن داود فقال : أتدرون ما يقول؟ قالوا : لا. قال : إنه يقول : لدوا للموت وابنوا للخراب.

وصاحت فاختة- وهي ضرب من الحمام المطوق صوّيت - فقال : أتدرون ما تقول؟ قالوا : لا. قال : إنها تقول : ليت هذا الخلق لم يخلقوا ، وليتهم إذ خلقوا علموا لماذا خلقوا.

وصاح عنده طاوس، فقال : أتدرون ما يقول؟ قالوا : لا. قال : إنه يقول : كما تدين تدان. وصاح عنده هدهد فقال : أتدرون ما يقول؟ قالوا : لا. قال : فإنه يقول : من لا يرحم لا يُرحم. وصاح صُرْدُ- طائر فوق العصفور ، كانت العرب تتطير منه - عنده، فقال : أتدرون ما يقول؟ قالوا : لا. قال : إنه يقول : استغفروا الله يا مذنبين!.. فمن ثمّ نهي رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قتله. وقيل : إن الصرد هو الذي دل آدم على مكان البيت. وهو أول من صام؛ ولذلك يقال للصرد الصوم؛ روي عن أبي هريرة.

وصاحت عنده طيطوى - نوع من القطا طوال الأرجل - فقال : أتدرون ما تقول؟ قالوا : لا. قال :
إنها تقول : كلُّ حي ميت وكل جديد بال.

وصاحت خطّافة - عصفور أسود ، وتسميه العامة عصفور الجنة - عنده، فقال : أتدرون ما تقول؟
قالوا : لا. قال : إنها تقول : قدموا خيرا تجدوه؛ فمن ثمّ نهي رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قتلها.
وقيل : إن آدم خرج من الجنة فاشتكى إلى الله الوحشة، فأنسه الله تعالى بالخطاف وألزمها البيوت، فهي لا
تفارق بني آدم أنسا لهم. قال : ومعها أربع آيات من كتاب الله عز وجل {لو أنزلنا هذا القرآن على جبل
لرأيتـه} الحشر ٢١ إلى آخرها وتمد صوتها بقوله {العزیز الحکیم} البقرة ١٢٩.

وهدرت حمامة عند سليمان فقال : أتدرون ما تقول؟ قالوا : لا. قال : إنها تقول : سبحان ربي
الأعلى عدد ما في سماواته وأرضه.

وصاح قُمري عند سليمان، فقال : أتدرون ما يقول؟ قالوا : لا. قال إنه يقول : سبحان ربي العظيم
المهيمن.

وقال كعب : وحدثهم سليمان، فقال : الغراب يقول : اللهم العن العثّار- الذي يأخذ عشر أموال
الناس ويستحله - .

والحدأة تقول {كل شيء هالك إلا وجهه} القصص ٨٨ .

والقطاة تقول : من سكت سلم.

والبيغاء تقول : ويل لمن الدنيا همه.

والضفدع يقول : سبحان ربي القدوس.

والبازي يقول : سبحان ربي وبحمده.

والسرطان يقول : سبحان المذكور بكل لسان في كل مكان.

وقال مكحول : صاح دراج عند سليمان، فقال : أتدرون ما يقول؟ قالوا : لا. قال : إنه
يقول {الرحمن على العرش استوى} .

وقال الحسن قال النبي صلى الله عليه وسلم : (الديك إذا صاح قال اذكروا الله يا غافلين).

وقال الحسن بن علي بن أبي طالب قال النبي صلى الله عليه وسلم : (النسر إذا صاح قال يا ابن

آدم عش ما شئت فأحرك الموت .

وإذا صاح العقاب قال : في البعد من الناس الراحة .

وإذا صاح القنبر قال إلهي العن مبغضي آل محمد .

وإذا صاح الخطاف قرأ { الحمد لله رب العالمين } الفاتحة إلى آخرها فيقول { ولا الضالين } الفاتحة ،

ويمد بها صوته كما يمد القارئ.

قال قتادة والشعبي : إنما هذا الأمر في الطير خاصة، لقوله { علمنا منطق الطير } والنملة طائر إذ قد

يوجد له أجنحة. قال الشعبي : وكذلك كانت هذه النملة ذات جناحين.

وقالت فرقة : بل كان في جميع الحيوان، وإنما ذكر الطير لأنه كان جندا من جند سليمان يحتاجه في

التظليل عن الشمس وفي البعث في الأمور فخص بالذكر لكثرة مداخلته؛ ولأن أمر سائر الحيوان نادر وغير متكرر ترداد أمر الطير.

وقال أبو جعفر النحاس : والمنطق قد يقع لما يفهم بغير كلام، والله جل وعز أعلم بما أراد. قال ابن

العربي : من قال إن سليمان لا يعلم إلا منطق الطير فنقصان عظيم، وقد اتفق الناس على أنه كان يفهم

كلام من لا يتكلم ويخلق له فيه القول من النبات، فكان كل نبت يقول له : أنا شجر كذا، أنفع من كذا وأضر من كذا؛ فما ظنك بالحيوان.

فمن تكرم الله تعالى سليمان أنه عليه السلام

١- نال النبوة .

٢- عُلم منطق الطير والحيوانات .

٣- جنوده من كل المخلوقات ، إنسهم وجنهم وطيرهم ووحشهم .

٤- حمل الريح له ورجوده في ساعات مسيرة شهر " وللسليمان الريح غدوها شهر ورواحها

شهر " .

٥- أسال الله تعالى له النحاس ، فذاب وسال كما تسيل عيون الماء ليستعمله فيما يريد ومن

ثم انتفع الناس به " وأسلنا له عين القطر " .

٣- الداعية مثال الإنسان الواعي :

وكان النبي الكريم سليمان عليه السلام يجند كل جيشه في نشر دعوة الله وبناء صرح الدين في الأرض " وحشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير ، فهم يوزعون " مرتبين ومنظمين . يصله خبرهم وحالهم على كثرتهم ، ولا يغيب عنه - بإذن الله - شاردة منهم ولا واردة . وهكذا يكون المسؤول ، فمن يتسنى أمراً من أمور المسلمين عليه أن يتابعهم ، والعين الساهرة المتابعة تحفظ النظام والبلد وتحيي الأمان والراحة للأمة صغيرها وكبيرها ، قريبها وبعيدها ، ضعيفها وقويها . ومثال ذلك :

أولاً - إيقاف المسير في وادي النمل للحفاظ على حياة النمل ، وخوف أن يباد تحت مداس الجيش الجرار دون أن يشعر بها لضآلتها - وقد توقف العلماء في العصر الحديث عند قوله تعالى : " لا يحطمنكم سليمان وجنوده ... " فذكر التحطيم بدل الدهس والقتل أو الكسر حين اكتشفوا أن في تركيب النمل قدراً من الزجاج ، والزجاج يتحطم ثم يتفتت ويصير كالرمل حين يتكسر تحت وطئه المستمر . . وهذا من بديع بلاغة القرآن

والداعية لا يتكبر ولا يتجبر على غيره حين يمتلك القوة وأسباب الغنى ، إنما يتواضع لله ، ويحافظ على عباده فهو مسؤول أمامه فيما يفعل أي شكر أم يكفر؟ ، أيرحم أم يظلم ؟ .. وكلما ازداد شعوره بفضل الله تعالى عليه تضاعفت همته في العمل الصالح والشكر لله على فضله وكرمه وهكذا سيدنا سليمان عليه السلام ، فبعد أن تبسم ضاحكاً من قولها حين سمعه وفهمه :

١ - سأل الله أن يعينه على أداء المهمة .

٢ - وأن يعينه على حسن شكر النعمة .

٣ - وأن يسدد خطاه في العمل الصالح .

٤ - وأن يرزقه المثابرة عليه بالطريقة التي ترضي الله تعالى

٥ - وان يجعله برحمته في عباده الصالحين .

" فتبسم ضاحكاً من قولها ، وقال : رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليّ وعلى والديّ ،

وأن أعمل صالحاً ترضاه ، وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين "

ولا ننس أن على العاقل أن ينصح أهله وأمتة ، وينبههم إلى الخير ويحذرهم من المهالك كما فعلت

النملة حين حذرت جماعتها من موت محقق إن غاب عنها الحذر ولم تسارع إلى مساكنها تتوقاه . وتعال

معي إلى الحوار بين سليمان والنملة، ففيه - على الشك بصحته لإسرائيليته - فوائد تربوية وحكمة ..
والحكمة ضالة المؤمن أين وجدها التقطها .. يقول القرطبي :

قال أبو إسحاق الثعلبي : ورأيت في بعض الكتب أن سليمان قال للنملة لم حذرت النمل؟ أخفت ظلمي ؟ أما علمت أني نبي عدل؟ فلم قلت " لا يحطمنكم سليمان وجنوده " ؟ فقالت النملة : أما سمعت قولي " وهم لا يشعرون " .. مع أني لم أرد حطم النفوس، وإنما أردت حطم القلوب خشية أن يتمنين مثل ما أعطيت، أو يفتتن بالدنيا، ويشتغل بالنظر إلى ملكك عن التسبيح والذكر. فقال لها سليمان: عظيمي. فقالت النملة : أما علمت لم سمي أبوك داود؟ قال : لا. قالت : لأنه داوى جراحة فؤاده؛... هل علمت لم سميت سليمان؟ قال : لا. قالت : لأنك سليم الناحية على ما أوتيته بسلامة صدرك، وإن لك أن تلحق بأبيك- بالفضل- .. ثم قالت : أتدري لم سخر الله لك الريح؟ قال : لا. قالت : أخبرك أن الدنيا كلها ريح. " فتبسم ضاحكا من قولها " متعجبا ثم مضت مسرعة إلى قومها، فقالت : هل عندكم من شيء نهديه إلى نبي الله؟ قالوا : وما قدر ما نهدي له! والله ما عندنا إلا نبقة واحدة. قالت : حسنة؛ ايتوني بها. فأتوها بها فحملتها بفيها فانطلقت تجرها، فأمر الله الريح فحملتها، وأقبلت تشق الإنس والجن والعلماء والأنبياء على البساط، حتى وقعت بين يديه، ثم وضعت تلك النبقة من فيها في كفه، وأنشأت تقول :

ألم ترنا نهدي إلى الله ماله وإن كان عنه ذا غنى فهو قابله

ولو كان يهدي للجليل بقدره لقصر عنه البحر يوما وساحله

ولكننا نهدي إلى من نجبه فيرضى به عنا ويشكر فاعله

وما ذاك إلا من كريم فعاله وإلا فما في ملكنا ما يشاكلة

فقال لها : بارك الله فيكم؛ فهم- أي النمل - بتلك الدعوة أشكر خلق الله وأكثر خلق الله.

وقال ابن عباس : نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن قتل أربع من الدواب : الهدهد والصدرد والنملة والنحلة؛ خرجة أبو داود وصححه أبو محمد عبدالحق وروي من حديث أبي هريرة. وقد مضى في الأعراف. فالنملة أثنت على سليمان وأخبرت بأحسن ما تقدر عليه بأنهم لا يشعرون إن حطموكم، ولا يفعلون ذلك عن عمد منهم، فنفت عنهم الجور.

ثانياً - قصته مع الهدهد الذي غاب دون إذن من القائد فكانت عقوبته العذاب الشديد أو الذبح .
أو إظهار العذر ، فإن كان له عذر بيّن عفا عنه . وجاء الهدهد بعد قليل ، موضحاً أنه عرف ما لم يكن
النبي سليمان على جلال قدره يعرفه ، فالأنبياء لا يعلمون الغيب ، ولا يحيطون بكل شيء . وجاءه من
بلاد سبأ بخبر يتشوفه النبي الكريم " فقال : أحطت بما لم تحط به ، وجئتك من سبأ نبياً يقين " لم يكن
الهدهد خائفاً فحجته معه ، وسينجو من العذاب فهو واثق بنفسه وبما يحمل من نبأ يسر له الداعية الذي
وهب نفسه لدين الله ودعوته . والهدهد جندي من جنود هذه الدعوة ، فعليه أن يكون له دور في نشرها .
وليؤكد أنه لم يضيع وقته هباءً ففصل فيما رآه ليصدقه النبي سليمان " إني وجدت امرأة تملكهم
وأوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم "

ثم بين تفاهة ما يعبدون من دون الله ، فقد أضلهم الشيطان عن الطريق القويم ، وأزلهم في اعتقادٍ
باطل فضاعوا في متاهة الكفر والفساد " وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله ، وزين لهم
الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون " وتصوروا معي : كم يسقط الإنسان ويتضاءل حين
يكون الطير أكثر منه هدى وبصيرة " .. ألا يسجدوا لله الذي يخرج الخبء في السماوات والأرض ويعلم ما
تخفون وما تعلنون الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم .

٤- التحري عن الحق : أسلوب يدل على الحرص في الوصول إلى العدل ، والحكم به ، والبعد عن
ظلم الرعية ، فسليمان عليه السلام كان أدنى إلى تصديق الهدهد من تكذيبه ، والدليل على ذلك أنه بدأ
في خطابه بكلمة سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين .. ونلاحظ هنا قاعدة تقول : إن الصدق في الناس
قليل ، والكذب كثير بدليل أنه قال : أصدقت - بصيغة المفرد - أم كنت من الكاذبين - بصيغة الجمع .
وليتأكد من ذلك مع التصديق له أرسله بكتابه وحده ، فلم يكن معه شاهد ، وكلفه بأمرين :
أ- إيصال الكتاب ... ب- متابعة الأمر وتقديم تقريره .

وامتاز الكتاب بثلاث صفات مهمة :

أ- البدء بالبسملة : وقد قال نبينا الكريم محمد عليه الصلاة والسلام : " كل كلام لا يُبدأ فيه بسم
الله ، فهو أجذم " والمسلم يبدأ بأعماله كلها باسم الله تعالى . وقد اتفق المسلمون على كتابة " بسم الله
الرحمن الرحيم " في أول الكتب والرسائل لأنه أبعد عن الريبة . ولا يسمى الكتاب كتاباً إلا إذا ختم ،

وعلى هذا اصطنع الرسول عليه الصلاة والسلام خاتماً ونقش عليه " لا إله إلا الله ، محمد رسول الله "

ب-الاختصار غير المخل : " ألا تعلوا عليّ " فهو يخاطبهم بالعقل والقوة .

" واثتوني مسلمين " مؤمنين بالله وحده بعد الفهم والافتناع أو مستسلمين

للحق صاغرين . والمسلم يجب أن يكون عزيزاً قوياً .

ت- التعريف بالمرسل : ليكون الأمر على بينة ، وليُعرف خطؤه ومكانته ، فيُحترم .

وقد شعرت الملكة بعزة المسلم وقوته حين قرأت الكتاب واستشارت بطانتها ثم علقت قائلة " إن

الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها ، وجعلوا أعزة أهلها أذلة ، وكذلك يفعلون "

حين استشارت قومها في أمر سليمان عليه السلام مستنصحة ، أجابوها : نحن أقوياء أشداء ،

فافعلي ما ترينه مناسباً " قالوا : نحن أولو قوة ، وألو بأس شديد ، والأمر إليك فانظري ماذا تأمرين "

وأعتقد أنّ آراءهم خانتهم بهذا الجواب ، فلم يكونوا على دراية بعظم مكانة من أرسل الكتاب ، ولو فكروا

قليلاً معتمدين في تفكيرهم على الطريقة التي وصلهم بها الكتاب إليهم ، وهذا أمر غريب عجيب " إني

أُلقي إليّ كتاب كريم " ولم تعرف من الذي ألقاه ، ولا كيف وصل . ولم تدر أن الرسول الذي ألقى الكتاب

طيرًا يتابع لقاءها ببطانتها دون أن تشعر به .

والحاكم العاقل - ولو كان امرأة - يتدبر الأمر ، ويجنب قومه المهالك . ولا بد من سلوك الأمر الهين

السهل في استكناه ردّة فعل المرسل حين يصله الجواب . وقد فعلت ذلك " وإني مرسله إليهم بهدية ،

فناظرة بما يرجع المرسلون " فإن كان ملكاً طامعاً بالمال بذلناه له ، وإن كان الأمر شيئاً آخر تلافينا ضرره بما

نستطيع وكانت موفقة بما قررت .

وهنا تنتهي قصة الهدهد ، فقد صدق فيما ادّعاه ، وأدى واجبه ، فلم يعاقب .

ه-التصرف الحكيم : يجب أن يكون الفعل وردة الفعل مدروسين بتأنٍّ ورويّة ، قائمين على قواعد

مدروسة ، وخطط سليمة . فالداعية لا ينبهر بالأموال والهدايا التي تأتيه ، إن هدفه أكبر من هذا بل هو

غير ذلك على الإطلاق . ولا يأنس للزخرف الدنيوي .. فماذا فعل النبي سليمان ؟

أ- أظهر الزهد في هداياهم ، فما عند الله خير مما جاءوه به ، وليس هذا هدفه . " فلما

جاء سليمان قال : أتمدوني بمال " ونكّر لفظ المال استهانة به وتحقيراً لشأنه ، ليلقي الرعب في قلوبهم ،

فيفكروا بالإسلام ، والخضوع للحق ، فقد قال لهم من قبل " ألاّ تعلوا عليّ ، وأتوني مسلمين " .

ب- أظهر القوة وهدّد بها " ارجع إليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها "

ت- حاربهم نفسياً حين أكمل قائلاً: " ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون "

وكان لما فعلَ التأثيرُ الإيجابي السريع ، فقد أظهر القوة عملياً حين جيء بعرشها وأدخل الملكة الصرح المبنيّ على الماء فبهرها ، والانبهار دليل الاستسلام والخضوع . وهذا ما يفعله القوي بالضعيف دائماً ، فيستدله إلا المؤمن فإنه يبدي القوة ، ويظهر العدو ليستنقذه من الضلال إلى الهداية ، وينتشله من الكفر إلى الإيمان ، ويكون أحياناً له يحبه ويكرمه .

وهذا ما فعله النبي سليمان عليه السلام بملكة سبأ وأهلها، وهذا ما فعله النبي الكريم صلى الله عليه وسلم حين دخل مكة ، فقد دخلها متواضعاً لله متذللاً لمولاه ، شاكراً فضله ، ولم يعمل السيف في أهلها، بل عفا عنهم وأكرمهم ، إذ قال لهم حين جمعهم في الحرم الشريف : ما تظنون أني فاعل بكم ؟ قالوا خيراً ، أخ كريم وابن أخ كريم . قال : اذهبوا فأنتم الطلقاء .

ومن الحرب النفسية التي بهر الملكة بها المجيء بعرشها - وقد كان عظيماً - بطرفة عين ، جاء به من كان عنده علم من الكتاب ، وكان يعلم اسم الله الأعظم . ، وتراه عليه السلام فاضل بين هذا الرجل ، والمارد القوي الذي عرض حمل عرشها بساعات ، فجاء به الرباني بلحظة خاطفة "

قال : أيكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين ؟

قال عفريت من الجن : أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك ، وإني عليه لقويّ أمين .

قال الذي عنده علم من الكتاب : أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك . "

فهل تعاضم ، وانتفش كما ينتفش أهل الدنيا ممن يتيهون حين يمتلكون ؟! إنه نبي كريم من أنبياء الله تعالى ربّاه على عينه فأحسن تربيته .. لقد قال سليمان مقراً بفضل الله وكرمه ، منبهاً إلى أن كل هذه الكرامات العظام إنما هي ابتلاء للمؤمن واختبار لإيمانه ، وقد فاز من نجح في هذا الامتحان : " قال : هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر أم أكفر ، ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ، ومن كفر فإن ربي غني كريم . "

٦- تعرّف إلى الناس : ينبغي التعرف على قدرات من تعاشرهم حتى تنزلهم منازلهم .. يروى أن

رجلاً جسيماً يرتدي حلة فاخرة جلس بوقار إلى حلقة أبي حنيفة النعمان وهو بين تلاميذه يناقشهم في

بعض المسائل ، وكان يمد رجله متعباً في جلسته متباسطاً معهم ، فجمعها إليه حين جلس هذا الرجل بينهم ، ثم بدا للرجل أن يتكلم فسأل سؤالاً لا يدل على ذكاء وفهم ، فضحك ابو حنيفة ، وقال : آن لأبي حنيفة أن يمد رجله .. وهنا نجد نبي الله سليمان يريد أن يختبر الملكة بلقيس ، ويتعرف جدارتها في حكم أهل سبأ ، فقال لمساعديه : " نكروا لها عرشها ننظر أتهتدي أم تكون من الذين لا يهتدون " فغيروا في عرشها بعض معاملة ، فلما وصلت واستقبلها أشار إلى عرشها يسألها بذكاء الأنبياء ولباقتهم : " أهكذا عرشك " ولم يسألها أهذا عرشك؟ والفرق بين الطريقتين واضح . فالأول فيه شك وجواب الثاني نفي أو إثبات . فكان جوابها على قدر السؤال حين قالت : كأنه هو " فلم تنف ولم تثبت وتركته في دائرة الشك . هذا كان الاختبار الأول .

أما الاختبار الثاني فكان أن طلب إليها دخول الصرح المبني بصفائح الزجاج فوق الماء ، فلم تتبين الزجاج ، فكشفت عن ساقها تظن أنها ستخوض لجنته ، فلما قيل لها " إنه صرح ممر من قوارير " علمت أنه يريد أن يربها ملكاً أعظم من ملكها ففطنت إلى مراده فاستسلمت ، وأذعنت ثم أسلمت بعد أن أقرت بما كانت عليه من الكفر . وقيل كما في القرطبي - بتصرف - : عمله ليختبر قول الجن فيها : إن أمها من الجن، ورجلها رجل حمار؛ قاله وهب بن منبه. فلما رأت اللجة فزعت وظنت أنه قصد بها الغرق : وتعجبت من كون كرسيه على الماء، ورأت ما هالها، ولم يكن لها بد من امتثال الأمر. "وكشفت عن ساقها " فإذا هي أحسن الناس ساقاً؛ سليمة مما قالت الجن، فلما بلغت هذا الحد، قال لها سليمان بعد أن صرف بصره عنها " إنه صرح ممر من قوارير" والممر المحكوك المملس . ولما رأى سليمان عليه السلام قدميها تزوجها عند ذلك وأسكنها الشام .



تأملات تربوية في سورة النمل (٢)

١- **الدعوة إلى التفكير** : خلقنا الله تعالى " .. في أحسن تقويم " فجعل لنا - معشر الإنس والجن لأننا مكلفون - العقول التي تميزنا عن بقية المخلوقات لتدبر ما نجده أمامنا ولتفكر فيه . أما الحيوانات الأخرى فإنها تعيش غريزياً . لا رسالة لها في هذه الحياة سوى ما قدره الله تعالى لها في حياتها الدنيا ثم يقال لها - في الآخرة حين تحشر ليقصص منها ذلك القصص الذي لا يقارن مطلقاً بمثيله من الثقلين - كوني تراباً .. فيتمنى الكافر لما يراه من العذاب الشديد الخالد في نار جهنم أن تكون نهايته مثل نهايتها " يا ليتني كنت تراباً " ولكن هيهات هيهات .

وعلى الرغم أن البشر جميعاً لهم عقول يفكرون بها إلا أن أكثرهم لا يريد أن يعي حقيقة وجوده وسبب خلقه ، فهو يحيا في هذه الدنيا وكأنه خالد فيها ، أو سينتهي دون عودة " وما يهلكنا إلا الدهر " وينكرون حياة أخرى تنتظرهم هي الحياة الحقيقية " وإن الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون " وهؤلاء لأن كانوا بشراً إنهم لينزلقون إلى درجة الأنعام التي لا تعي ولا تعقل ، بل إنهم أقل منها مستوى ، فالحيوانات ليس لها عقول وقد سقط عنها القلم ، وهؤلاء لهم عقول لا يستعملونها في مرضاة الله ، فانحدروا عن مستوى البهيمية بفعلهم - عنادهم وضلالهم - يقول الله تعالى " ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس ، لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها ، أولئك كالأنعام ، بل هم أضل ، أولئك هم الغافلون " .

والقرآن الكريم يدعو المكلف إلى التدبر وإمعان التفكير في مئات الآيات المنبثة فيه ، وفي هذه السورة الجليلة نجد الكثير منها ، وإليك بعضاً منها :

ففي الآية الستين نجده يدعونا إلى معرفة خالق السماوات والأرض الذي أنزل الماء فكان سبباً في الحياة المتجددة الجميلة في الأرض ، وأنه سبحانه واحد لا شريك له " أمّن خلق السماوات والأرض ، وأنزل لكم من السماء ماءً ، فأنبثنا به حدائق ذات بهة ، ما كان لكم أن تنبتوا شجرها ؟ إله مع الله ؟! بل هم قوم يعدلون " . وتأمل التسلسل في " خلق ، وأنزل ، وأنبت " ثم ترى المشركين يميلون عن الحق وينغمسون في الضلال .

وفي الآية الحادية والستين ينبههم إلى بديع صنعه سبحانه ، فالأرض ثابتة صالحة للعيش ، تجري فيها الأنهار ، وتثبتها الجبال الرواسي ، وجعل الماء مالحاً وحلواً فلا يطغى هذا على ذاك - بأمر الله خالقها - بل إن لكل بحر ماءه بخواصه المختلفة عن ماء غيره ،

" أمّن جعل الأرض قراراً ، وجعل خلالها أنهاراً ، وجعل لها رواسي ، وجعل بين البحرين حاجزاً ؟ أإله مع الله ؟! بل أكثرهم لا يعلمون " وانظر معي إلى تكرار كلمة " جعل " التي تدل على جميل صنعه وعظيم حكمته سبحانه ، وأنه الخالق الأوحّد ... ولكن غالب البشر يجهلون هذا فيشركون بالله تعالى ويتوهون في مزارب الضلال .

وفي الآية الثانية والستين يذكرهم برأفة الله تعالى بهم ، وحنوّهم عليهم ، فهو سبحانه يجيب الداعي ، ويتلطف به ، وهو وحده خالقهم ، لكن الدنيا بريقها وزخرفها تنسيهم الحقيقة وتبعدهم عنها " أمّن يجيب المضطر إذا دعاه ، ويكشف السوء ، ويجعلكم خلفاء الأرض أإله مع الله ؟! قليلاً ما تذكرون " .

وهي دعوة صريحة إلى إفراده سبحانه باللجوء إليه والاعتماد عليه ، وانظر إلى المنطقية في العرض ، فهو سبحانه " يجيب المضطر ، ويكشف السوء " لماذا؟ إنه الخالق الوحيد " يجعلكم خلفاء الأرض " وفي الآية الثالثة والستين ينبه أن الله تعالى هو الهادي والحافظ ومدير الحياة في البر والبحر أفلا يستحق الأفراد بالعبادة ؟ " أمّن يهديكم في ظلمات البر والبحر ؟ ومن يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته؟ أإله مع الله ؟! تعالى الله عما يشركون " . وتأمل معي هاتين الكلمتين " يهديكم ، يرسل الرياح "

هداية وعون ، فهو سبحانه لا يدع عباده يتخبطون في حياتهم إنما ييسر لهم السبل ويعينهم .

٢- التصوير الحسي : ذكرت في كتابي " من أساليب التربية في القرآن الكريم " تحت عنوان -

التصوير ص ٣٨٥ : أن التصوير من الأساليب الراقية في التربية ، فالإنسان روح وفكر وقلب .. وهو كذلك عين وسمع وذوق ولمس وشم فهو معنوي ومادي بآن واحد ، فإذا عجز أحياناً عن الوصول إلى الفكرة الشفافة ذهنياً وصل إليها مادة وحسناً .. المهم أن يصل إلى المعلومة ، وتتركز في ذهنه ، ويتفاعل معها .

والصور في هذه السورة ملفتة للنظر إذ جمعت بين اللون والحركة والصوت . من ذلك قوله تعالى :

" أَلَمْ يَرَوْا أَنَا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لَيْسَكُنَا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصَرًا ... "

" وَيَوْمَ يَنْفَخُ فِي الصُّورِ ، فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ، وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ "

" وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ . "

" وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ ... "

" .. وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ .. هَلْ تَحْزُونَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ؟ "

" ... قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطَ مِنْ قَرْيَتِكُمْ ، إِنَّهُمْ أَنْاسٌ يَتَطَهَّرُونَ . "

وانتبه إلى الكلمات التي تحتها خط في الآيات السابقة لـ ترى اللون في الليل والنهار والجبال

والسحاب والنار وتسمع الصوت في النفخ والكلام : قال ويتطهر، تجزى وترى الحركة الفزع وحركة النفخ والسكون والجمود وخروج الدابة والمحيى وكب الوجوه..

والتصوير يثبت الفكرة في الذهن لأن أكثر من حاسة تتضافر في توكيدها ، وقد كان الرسول صلى

الله عليه وسلم كثيراً ما يؤديها في حديثه، وتبعه في ذلك المربون .

٣- الطيرة والتفأل : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعجبه أن يسمع : يا راشد، يا

نجيح . - أخرجه الترمذي - وكان يعجبه الفأل لأن النفس تنشرح له وتستبشر بقضاء الحاجة وبلوغ

الأمَل، فتحسن الظن بالله . وقد قال : " أنا عند ظن عبدي بي " وكان صلى الله عليه وسلم يكره الطيرة

لأنها من سمات أهل الشرك وتجلب سوء الظن بالله تعالى . قال الخطابي كما يروي القرطبي عنه : الفرق بين

الفأل والطيرة أن الفأل إنما هو من طريق حسن الظن بالله ، والطيرة إنما هي من طريق الاتكال على شيء

سواه . وروى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " لا

طيرة ، وخيرها الفأل " . قيل : يا رسول الله وما الفأل ؟ قال : " الكلمة الصالحة يسمعها أحدكم "

فلما قال قوم صالح لنبيهم عليه السلام حين دعاهم إلى الإيمان بالله وحده : " اطيّرنا بك وبمن معك

" رد عليهم مؤنباً وناصحاً " طائركم عند الله ، بل أنتم قوم تُفتنون " فقد تشاءموا ، والشؤم نحس . ولا

شيء أضر بالرأي ولا أفسد للتدبير من اعتقاد الطيرة . ومن ظن أن حوار بقرة أو نعيق غراب يرد قضاء أو

يدفع مقدوراً فقد جهل . وقد قال مقاتل في قوله تعالى في سورة " يس " على لسان الذين كفروا بأنبيائهم "

إنا تطيّرنا بكم " : حبس المطر عنهم ثلاث سنين ، فظنوا أنّ حبسه كان بشؤم الأنبياء عليهم ! فرد

أنبياءهم مصححين منبهين " طائرکم معکم " أي شؤمکم ملازمکم بأعمالکم وفسادکم لا بسببنا ، فأنتم مسرفون في كل شيء حتى التشاؤم . " بل أنتم قوم مسرفون " قال الشاعر :

طيرةُ الدهر لا يرد قضاءً فاعذرِ الدهرَ ، لا تشبه بلوم

أيُّ يومٍ يُخصّه بسعود والمنايا ينزلن في كل يوم

ليس يومٌ إلا وفيه سعودٌ ونحوسٌ تجري لقومٍ فقوم

وقد كانت العرب أكثر الناس طيرةً ، وكانت إذا أرادت سفرًا نفرت طائرًا ، فإذا طار يمنة سارت وتيمّنت ، وإن طار شمالاً تشاءمت ، فنهى النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك وقال : " أَقِرُّوا الطير على وُكُنَّاتِها " .

٤- عاقبة المفسدين : يقول تعالى : " .. ومن جاء بالسيئة فكبت وجوههم في النار ، هل تجزون إلا ماكنتم تعملون ؟ " فنهايتهم في الآخرة الاحتراق في النار والعذاب المهين . أما في الدنيا فقد بين الله تعالى عاقبة كل قوم كفروا بالله ... أما في هذه السورة الكريمة فكان عاقبة الرهط المفسدين الذين عقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم ، ومكروا بنبيهم وأهله والمؤمنين به

" أنا دمرناهم وقومهم أجمعين "

فكانوا عبرة لمن جاء بعدهم " فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا "

وأما قوم لوط الذي استمرءوا فاحشة اللواط ، ففعلوها في أنديتهم - وكانوا يتلذذون بالنظر إلى الفاعلين والعياذ بالله ، وهم يصرون على فعلها على علمهم ببهتان ما يعملون ، بل صمموا على إخراج لوط وآله لأنهم " يتطهرون " والطهارة يكرهها الأبالسة في كل زمان ومكان فقد عاقبهم الله تعالى عقابين شديدين . أما الأول فإرسال الحجارة عليهم تحصيهم حصباً " وأمطرنا عليهم مطراً ، فساء مطر المنذرين " وأما الثاني فقد قلب قراهم رأساً على عقب . وذكر الله تعالى الأمرين في سورة هود " فلما جاء أمرنا... "

١- جعلنا عاليها سافلها

٢- وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود

مسومةً عند ربك "

والعاقل من يستلهم من مصير الغابرين العبر والعظات فيزدجر عن ضلاله وغيه ، وينأى بنفسه وأسرته

وقومه عن نهاية الفاسدين " قل سيروا في الأرض ، فانظروا كيف كان عاقبة المجرمين "

٥ - مهمة الداعية :

والداعية يتوكل على الله تعالى ويدعو إليه ، وهناك من يسمع لكنّ في أذنيه وقرأ فلا يفقه ما يقال ولا ما يُراد . وإذا سمعوا هربوا من الحق الذي تكرهه نفوسهم الآثمة . واستمروا في غيهم وضلالهم ، أما المسلم ذو القلب الشفاف والفؤاد الواعي فإنه يقبل على الداعية يستفيد منه ويتقبل منه ويكون له عوناً في دعوته إلى الله .

: " فتوكل على الله ، إنك على الحق المبين إنك لا تسمع الموتى ، ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولّوا

مدبرين وما أنت بهادي العمي عن ضلالتهم إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون "

والحقيقة أن دور الدعاة التنبيه إلى طرق الخير والتحذير من سبل الغواية ، وأن يبدأوا بأنفسهم أولاً ، فهم القدوة . فمن تبعهم نجا ، ومن استنكف غوى وضل ، وليس لهم عليهم سلطان . هذا ما نبه إليه الله تعالى نبيه الكريم حين قال سبحانه

" ١ - إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذي حرّمها

٢ - وأمرت أن أكون من المسلمين .

٣ - وأن أتلو القرآن

٤ - فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه

٥ - ومن ضل فقل إنما أنا من المندرين . "



تأملات تربوية في سورة القصص (١)

- العلو منقصة وإفساد : علام يستكبر البشر؟! بعضهم على بعض وهم من تراب ، يعتريهم الضعف والمرض ، ونهايتهم إلى التراب ؟ إنه نسيان الحقيقة الذي يولد التكبر والتجبر ويُنْتِج الظلم والقهر والتسلط والإرهاب " إن فرعون علا في الأرض ، وجعل أهلها شيعاً ، يستضعف طائفة منهم ، يذبح أبناءهم ، ويستحيي نساءهم ، إنه كان من المفسدين " وليتمكن الظالم من الناس يفرقهم شيعاً وطوائف ، ويستعدي بعضهم على بعض ، ثم يستعبد الضعفاء . ويزداد تعسفه وظلمه حين يظن أن فناءه على أيديهم، فيتفنن في إيذائهم ، فيقتل الوليد الذكر ويستبقي الأنثى للخدمة . وهذا التفكير وهدة التصرف وقمة العسف .

لقد رأى فرعون فيما يرى النائم أن مولوداً من بني إسرائيل يكون سبب هلاكه . فأمر بقتل المواليد . فلما احتج المملأ من قومه قائلين : من يخدمنا إذا قتل الذكور ؟ أمر بقتل المواليد من الذكور سنة ، وترك من يولد منهم سنة

- العاقبة للمؤمن : يقول الله تعالى في الآية ٢١ الحادية والعشرين من سورة المجادلة " كتب الله لأغلبنّ أنا ورسلي ، إن الله قوي عزيز " كتب : تفيد الإثبات والتأكيد ، كما أن الغلبة تأتي بعد المغالبة والصراع بين الحق والباطل ، والقسم وجوابه المؤكد بالنون تأكيدان قاهران فيهما حتمية انتصار الحق وأهله وانكسار الباطل وجنده . وفي هذه السورة (القصص) تبدو إرادة الحق سبحانه تقرر :

أ- فضله على المستضعفين ووعدهم بما يريدون من عزة ورفعة

ب- وجعلهم القدوة للبشر والأسوة لهم ،

ج - أن الغلبة لهم في الأرض وأنهم يرثون الخلود في الجنة ،

د - وأن نهاية المتكبر الذل والعار وأن حذره لن يفيد : " ونريد أن نمنّ على الذين استضعفوا في

الأرض ، ونجعلهم أئمة ، ونجعلهم الوارثين ، ونمكن لهم في الأرض ، ونري فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون " .

- الخطبة الإلهية : ولد موسى عليه السلام في السنة التي يقتل فيها الذكور من بني إسرائيل .

فماذا تفعل الأم الخائفة على وليدها من مصيره المرعب الذي ينتظره ؟ ولدته في غفلة عن أعين الرقباء

المتربصين بأمثالها ، المتابعين لكل مولود ، فإن كانت أنثى تركوها ، وإن كان ذكراً قتلوه أمام عينيها ! ظلم ما بعده ظلم — ما يزال المجرمون أمثال فرعون يفعلونه بشعوبهم حتى وقتنا هذا ، وإلى قيام الساعة - . يا رب ماذا أفعل بهذا الوليد ؟ وما ذنبه ليقتلوه ؟ .. يا رب أنت وليي ، فاهديني إلى حفظ ولدي . كانت أمه تدعو الله بقلب حزين كئيب ، وتنتظر دخول العسس بين لحظة وأخرى .. وكان الله تعالى يريد لهذا المولود العظيم أن يكون قائد أمتة وأحد أنبيائه أولي العزم . وما أراد الله لا بد أن يكون ، فهو الذي يفعل ما يشاء ، سبحانه من إله عظيم .

أ- ولعل أول ما تفعله الأم حين ينزل ولدها وتنظر إليه بعينها وقلبها أن تضمه إلى صدرها الحاني وتقبله وتهدهده ، وتدعو له بالحياة السعيدة في الدنيا والآخرة ، و تلقمه ثديها ليستقي منه لبناً شهياً يغذوه ويطفئ ظمأه ويفثأ حر جوعته . هذا ما أوحى الله تعالى للأم الوهلى أن تفعل " وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه ... " وستكون هذه الرضعة الأولى والأخيرة على خوف ! لأنها سترضعه آمنة مطمئنة بعد ذلك ، فهو حين ذاق حليب أمه وعرف طعمه فلن يخطئه مرة أخرى ، ولن يرضى أن يتذوق حليب غيرها ، وسيأبى كل المرضعات إلا من أرضعته المرة الأولى ! فلبن الأم لا يعادله لبن الدنيا كله ، وستكون هذه الرضعة كلمة السر في التعرف على أمه ، فلتقر عينها ولا تحزن ، إن الله تعالى خطط للقائه السريع بأمه ، وسيعود إليها بإذن الله ، وتحضنه في قلبها وبين ذراعيها ... لن يكون لغيرها .

ب- هؤلاء الظلمة يشعرون أن الوليد دخل الدنيا ، وسيدهم أمرهم أن يقتلوا كل وليد خوفاً على نفسه أن يُقتل ، إنه الحذر الذي لا ينجي من القدر ، فما أراد الله كائن لا محالة ، فهل من مدكر؟! إن ذوي القلوب المتحجرة والعقول الضالة لا تفقه هذا ، ولا تفهمه ، قد ران على قلوبهم الظلم والظلام ، فلا يعرفون النور ولا يحبون الضياء . وكيف يحبونه وهم لا يدركونه؟ .. الجنود يقتربون من بيت الأم ، وهي خائفة لا تدري ما تفعل ، إلا أن الله تعالى جعل لها من الهم فرجاً ، ومن الخوف على وليدها مخرجاً ... ويتعجب الإنسان حين يعلم أن التخلص من الموت قتلاً إلقاء الوليد في تابوت صغير من الخشب ، يُرمى في نهر النيل العظيم وبين أمواجه تتقاذفه هنا وهناك فيغرق في الماء ليكون غذاء سمكة ، أو لقمة في فم تمساح ، أو تحمله المياه إلى مكان بعيد على الشاطئ ، فيتفسخ وتذوب معالمه ، أو يلتقطه ذئب جائع أو كلب ضال !! لم الهرب من الموت إلى الموت ؟ إنه لأفرج على النفس

أن يُقتل بين يديها فتحسبه من أن يضيع فلا تدري له نهاية !! لكن الله تعالى من بيده الأمر كله أوحى إليها أنه سيعود إليها ، وهي المؤمنة به المتوكله عليه الراغبة في فضله سبحانه ، إنه سيعود إليها ليكون خلاص بني إسرائيل من الظلم على يديه وسيكون له شأن عظيم .! إنها الرسالة ! وهل أكرم للإنسان من أن يكون رسول رب العالمين ؟! فلن تخاف عليه من الموت غرقاً أو ضياعاً ولن تحزن لفراقه فهو عائد إليها معزّزاً مكرّماً : " فإذا خفت عليه فألقيه في اليم ، ولا تخافي ، ولا تحزني ، إنا رادّوه إليك ، وجاعلوه من المرسلين . " .

ت- حين يختبئ المطلوب في مكان مراقب يُحصى فيه كل حركة وسكنة سرعان ما يقع في أيدي طالبيه حين يكون اختباؤه فطرياً عفواً الخاطر وغير محكم . ، ولن يخطر ببال المتكبر المتجبر أن أم الطفل قد ترمي به في الماء إلا إذا طاش صوابها ، فسعت إلى حتف ابنها بيديها . فصدر الأمر الإلهي إلى الأم أن تفعل مالا يخطر على بال الظالم ، ووضع المهد الورقيّ - من ورق البردي - في الماء الذي حمله إلى قصر فرعون . فهل أمر بقتله ؟ هل هشّم جمجمته بقبضته؟ هل قطع رأسه وهو يضحك من سذاجة من ألقاه للموت في الماء؟ لا هذا ولا ذاك ، فمدبر الأمر خطط ، وهو سبحانه أوصل الوليد إلى قصر عدوّه الأول ، فرعون المتأله المستكبر ليرعاه ويعتني به ، فيعيش هذا الوليد الذي حرص فرعون على قتل كل الأطفال ليتخلص منه ، فإذا بمكره وتدييره لا ينفعانه ، وإذا بالمولود الذي صنعه الله على عينه يربيه فرعون بنفسه ، فيعيش موسى في أمن وسلام في عرين الظالم نفسه ويجوّه بعنايته ليكون هلاكه على يديه " فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوّاً وحزناً " وصدق من قال : " من مأمّنه يُؤتى الحذر " .. فلم أراد الله هلاك فرعون وهامان وجنودهما ؟ لقد كانوا منغمسين في الكفر وغارقين في الظلم ، وراعيين في الفساد " إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين " وقد يتساءل بعضنا : لئن كان فرعون ووزيره هامان والعيّن في الفساد إن جنودهما ينفذون الأوامر ، وقد لا يجروون على المخالفة ، فهم ليسوا سوى أدوات تنفذ الأوامر ، لا يملكون لأنفسهم إرادة التغيير أو الرفض ؟ والحقيقة أن للإنسان عقلاً وإرادة ينبغي أن يمنعاه أن يكون ظالماً أو فاسداً ، ومن كان أداة في الإفساد فهو والمفسد الكبير سواء " وقد سأل أحد السجّانين الإمام أحمد فقال : يا إمام ؛ ما أنا إلا حارس يُؤمر فيطيع ، فهل أنا من أعوان الظالم ؟ قال إنما أنت من نسيج الظالم نفسه ، فهو يتقوى بك ،

ويضرب بسيفك . ومن أعان الظالم كان يوم القيامة في النار مع سيده ، واقرأ معي هذه المحاورة بين التابع والمتبوع في النار " وإذ يتحاجّون في النار ، فيقول الضعفاء للذين استكبروا : إنا كنا لكم تبعاً ، فهل أنتم مغنون عنا نصيباً من النار ؟ قال الذين استكبروا : إنا كلّ فيهما ، إن الله قد حكم بين العباد " فالنار مثواهم جميعاً . وفي النار يدعو التابع على سيده بالعذاب الشديد لأنه كان سبب ضلاله وفساده ، لكنّ هذا لا ينفعه في تخفيف العذاب " وقالوا : ربنا ؛ إنا أطعنا ساداتنا وكبراءنا ، فأضلونا السبيلا، ربنا آثم ضعفين من العذاب ، والعنهم لعناً كبيراً " .

ث- يصل المهد الورقي - الثابوت - إلى قصر فرعون ، وترى امرأة فرعون هذا الطفل الجميل فيه، ويلقي الله تعالى حبه في قلبها ، فتطلب إلى فرعون أن يهبها إياه ، فلا يقتله إكراماً لها ، وهو يدري أنه من بني إسرائيل ، فملاحم الإسرائيليين غيرها في القبط . وقالت لفرعون : دعه قرّة عين لي ولك . ولم يكن لها ولد ، فأجابها إلى طلبها لكنه عقّب قائلاً " لئن يكن قرّة عين لك فلن يكون قرّة عين لي " وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " (لَوْ قَالَ فِرْعَوْنُ نَعَمْ لَأَمِنَ بِمُوسَى وَلَكَانَ قَرَّةَ عَيْنٍ لَهُ) لكنّه محروم من الخير لظلمه وتكبره ، فقد آمنت امرأة فرعون بدعوة موسى وكانت من أهل الجنة ، أما فرعون فيسبق قومه إلى النار " يقدّم قومه يوم القيامة ، فأوردهم النار ، وبئس الورد المورود " وقد صور الله تعالى ذلك الموقف الرائع حين ألقى الموج بمهد موسى بين يدي امرأة فرعون " وقالت امرأة فرعون : قرّة عين لي ولك ، لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً " . الهداية بيد رب السموات والأرض ، يهدي من يشاء ، ويضل من يشاء ، نسأل الله تعالى الهداية ورضاه والجنة .

ج- رغبت الأم أن يحملها ماء النهر بعيداً عن المدينة وأهلها ، بعيداً عن فرعون وجبروته إلى مكان آمن لا يصل إليه ، وليعيش بعيداً عنها إلى أن يرزقها الله عودته فتى يا فعاً أو غلاماً جميلاً ، لكنها حين رأت الثابوت يتجه نحو قصر فرعون خافت أشد الخوف ظانة في نفسها أنها سعت إلى حتفه بيديها ، وقلب الأم عطوف رحيم ، كاد يجعلها تعترف بالحقيقة أمام جنود فرعون وليقتلوها ، فهي السبب في هذا المصير الذي ألقت ولدها فيه . اختلج جسمها ، ووهنت مفاصلها ، " وأصبح فؤاد أم موسى فارغاً ، إنّ كادت لتبدي به لولا أن ربطنا على قلبها ، لتكون من المؤمنين " . ورفعت رأسها إلى السماء تسأل الله تعالى العون وحسن الختام . وربط الله على قلبها ، فصبرت ، ومن لجأ إلى

الله وصل إلى حصن حصين ، وملاذ أمين .

ح- حين يثبت القلب يفكر العقل تفكيراً سليماً ، وحين يضعف القلب يطيش العقل ويهذي .
إنها حين لجأت إلى الله تعالى فثبَّتْها وهدّأ من روعها أمرت ابنتها أن تتابع على الطرف الآخر مسيرة أخيها ، وأمرتها أن تقترب من القصر تتشوّف الخبر ، وتطمئن على موسى . " وقالت لأخته : قصّيه ، فبصرت به عن جُنْب ، وهو لا يشعرون . " ولتكن حذرة ، فلا تخبر أحداً أنه أخوها كي تأمن أسرتها غائلة العقوبة . وهكذا فعلت ، فهي ذكية لبية أربية أخت نبين كريمين هما موسى وهارون ، وهي في الآخرة إحدى زوجات النبي الأعظم محمد عليه الصلاة والسلام مع آسية زوجة فرعون ، ومريم بنت عمران فهنّ رضوان الله عليهن بعض زوجاته في الجنة . جاء ذلك في حديث رواه الزبير بن بكار أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلّم قال لحديجة : (أَشَعَرْتُ أَنَّ اللَّهَ زَوَّجَنِي مَعَكَ فِي الْجَنَّةِ مَرِّمَ بِنْتِ عِمْرَانَ وَكُلْثُومَ أُخْتِ مُوسَى وَآسِيَةَ امْرَأَةِ فِرْعَوْنَ) فَقَالَتْ : اللَّهُ أَخْبَرَكَ بِهَذَا ؟ فَقَالَ : (نَعَمْ) فَقَالَتْ : بِالرِّفَاءِ وَالْبَيْنِ .

خ- لما أجاب فرعون طلب زوجته جيء له بالمرضعات ، فلم يتقبل لبن إحداهنّ ، لأن الصدر الذي ضمه أول مرة وشرب من ثدييه ليس منهنّ ، قالت امرأة فرعون : إنهنّ يتحايلن له ، وهو لا يلتقم أثداءهنّ ، ما العمل ؟.. وهنا يأتي دور أخته ، فتتلفظ للملكة ، وتتقدم بثبات وجرأة ، تقول : " هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون ؟ " ومن أكثر حباً وشوقاً ورغبة في موسى من أمه ؟! قيل لها نعم ، فأسرعت إلى أمها ، فجاءت مليبة مشتاقة متلهفة ، جاءته وهو يبكي يطلب الرضاع ، فدفعه فرعون إليها ؛ فلمّا وجد الصبيّ ربح أمّه قبل تديها وبدأ يرضع . فلما رأوه مقبلاً بنهم على لبن أمه قالوا لها: كيف ارتضّع منك ولم يرتضّع من غيرك ؟ قالت توضح الأمر لتذهب ريبتهم : إني امرأة طيبة الرّيح طيبة اللّبن ، لا أكاد أوتى بصبيّ إلا أقبل عليّ وارتضّع مني صدقت في إجابتها ولم تكشف عن نفسها ، من الذكاء الأمني أن تجيب عن السؤال بأقل جواب ممكن وهكذا ردّه الله تعالى إليها تحتضنه وتشمه وتربيّه على عينيها حتى شب فتى يافعاً مؤمناً بالله وحده لا شريك له .



تأملات تربوية في سورة القصص (٢)

- الاهتمام بتربية الأبناء : على الرغم أن موسى الشاب رُبي في قصر فرعون في رفاهية لم يحيا غيره من شباب بني إسرائيل إلا أن أمه - المربية الفاضلة - كانت تتعهد بهم الدين وحب الله تعالى الواحد الأحد والانتماء إلى قومه . فعاش موحداً لله مؤمناً به ، كافراً بفرعون ، يعرفه على حقيقته ، فهو بشر يأكل ويشرب ، وينام ويستيقظ ، ويمرض ويصح . فأنى له أن يكون إلهاً وهو أسير النفس والبطن ، ومحكوم بالنواميس التي تسيطر على الأرض ؟! .. إن موسى رُبي في أحضان أمه التقية الموحدة ، ورضع من لبانها ، وتلمذ على علماء قومه " والعلم في الصغر كالنقش في الحجر " فلما استوى بفضل الله تعالى شاباً مؤمناً آتاه الله تعالى العلم والحكمة وأهله ليكون سيد بني إسرائيل ورسوله إليهم ألم يقل له " وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي؟ " .. إن الوالدين الحريصين على أبنائهما يتابعانهم بالتربية والتعليم ، ويهتمان بهم في هذا الزمن الرديء فهما مسؤولان أمام الله تعالى عن تربيتهم .. ومن حديث النبي صلى الله عليه وسلم في واجب التربية قوله " ... فالرجل راع في بيته وهو مسؤول عن رعيته ، والمرأة راعية في بيت زوجها ، وهي مسؤولة عن رعيته ... "

- نصر المسلم أخاه المسلم : يقول النبي صلى الله عليه وسلم فيما يرويه أنس رضي الله عنه (في الدرر السنية) " انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً ، فإن كان مظلوماً فخذ له ، وإن كان ظالماً فاحجزه عن ظلمه ، فإن ذلك نصره " . موسى الشاب عليه السلام يدخل المدينة ، ولعله كان ممنوعاً من دخولها لأنه لم يوافق فرعون فيما يدعيه ، ولأنه أعلن أن الله واحد وأن فرعون ليس سوى بشر عادي ، وخالف فرعون وعاب عليه وعلى من تبعه عبادتهم فرعون والأصنام ، فأظهروا له العداوة وأخافوه فخافهم . دخل المدينة في غفلة من أهلها وقت القيلولة أو بداية المساء ، فرأى رجلين قبطياً وإسرائيلياً يقتتلان ، فاستغاثه الإسرائيلي طالباً مساعدته ، فلبّاه ، ودفع القبطي بجمع يده في صدره ، فمات لفوره ، ولم يكن موسى يعتمد قتله غير أنه كان يود عون المظلوم المستضعف على الظالم الذي يريد تسخيره لأغراضه وذلك يأبى فعدا عليه فاستغاث موسى ، فنصره .

- الاعتراف بالخطأ فضيلة : وهذا ما كان من موسى إذ سرعان ما استغفر الله تعالى على خطأ ارتكبه " قال : رب إني ظلمت نفسي ، فاغفر لي ، فغفر له ؛ إنه هو الغفور الرحيم " واللجوء إلى الله تعالى أم الفضائل ، فهو العالم بالخال ، وهو غفار الذنوب ومن لجأ إلى الله وأقر بذنبه واعترف به ونوى التوبة

والإقلاع عما فعل غفر الله له وتاب عليه . وعاهد موسى ربه الذي هداه للإسلام وتوحيده أن لا يعين مجرمًا ظالمًا " قال رب بما أنعمت عليّ فلن أكون ظهيراً للمجرمين " ... لا بد أن الذين رأوا موسى يقتل القبطي سيوصلون الخبر إلى فرعون ، وسيأمر بمعاقبته ، وربما بقتله ، فدب الخوف في قلب موسى ، وبدأ يقلّب الأمور ، ماذا يفعل . وبينما هو في هذه الحال رأى الإسرائيلي نفسه يقاتل قبطياً آخر ، فلما رأى موسى يمرّ قربه طلب عونه مرة أخرى ، فما كان من موسى إلا أن وصفه بالغواية وسوء الأخلاق ، لكنه قدم لمساعدته ويرى القبطي أن موسى القوي سيقتله كما قتل غيره أمس فحذره واستعطفه بأن واحد " يا موسى أتريد أن تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس ؟ " هذا عمل الجبابرة المفسدين ، فهل تودّ أن تكون مفسداً وأنت تدّعي الإصلاح ؟! " إن تريد إلا أن تكون جباراً في الأرض ، وما تريد أن تكون من المصلحين " فتنبه موسى إلى صواب ما قاله القبطي ، وتركهما وشأهما ..

ملاحظة : هذا كلام القبطي ، وليس كلام الإسرائيلي ، فقد درج المفسرون على أن الإسرائيلي حين اتهمه موسى بالغواية " إنك لغوي مبين " خاف أن يقتله فقال " أتريد أن تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس ... " والحقيقة التي أرتاح لها أن قتل القبطي الأول لم يكن بالسر ، بل كان وبعض الأقباط موجودون ، وكلمة " في غفلة من أهلها " لا تعني أن المنطقة كانت فارغة من الناس حين قُتل القبطي ، ولن يصف موسى الإسرائيلي بالغواية ثم يساعده لأنه سيكون أشد غواية منه إن فعل ذلك ! ، وهذا غير وارد البتة .

- المسلم أخو المسلم : كان فرعون يستشير ملاًه : ما يفعل بموسى الذي رياه ورعاه ، فعاش في قصره كأحد أبنائه ، ثم يراه ظاهر قومه الإسرائيليين عليه ، وتجراً فقتل أحد الأقباط ؟ ويشيرون عليه بقتله والتخلص منه . . . أحد الأقباط المقربين من آل فرعون - ابن عمه - كان يكتُم إيمانه بالله خوفاً على نفسه - سمع ما قيل وراهم يقررون قتل موسى ، فهل يتركهم وما يريدون ؟ ماذا يفعل يارب ؟ لا بد أن يبحث عن موسى وينبئه إلى شرورهم ، وينصحه بالتواري عن المدينة بل عن مصر كلها ، فلن يألوا أن يبحثوا عن موسى حتى يجدوه ويثأروا منه ،

" وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى ، قال : يا موسى إن الملاء يأتمرون بك ليقتلوك ، فاحرج إني لك من الناصحين " قال: من الناصحين ولم يقل ناصح ، هذا يجعلني أقول إن هذا الرأي الذي نصحه به - الخروج - ليس رأيه وحده وإن جاز ذلك ، إنما هو رأي عدد من الرجال الذين يحبون موسى ويؤازرونه ،

فتداولوا الأمر سريعاً ورأوا أن غيابه عن الأعين في هذا الوقت المتأزم خير لموسى ، فالنفوس مشحونة ، والقلوب متوترة .

ولعل هذا الرجل هو مؤمن آل فرعون الذي مدحه القرآن الكريم في سورة غافر .

كما أن وصفه بالرجولة وسعيه الحثيث من أقصى المدينة حيث كان القوم يأترون بموسى دليل على حبه لأخيه المؤمن وحرصه على نجاته

- التصرف المناسب : يسمع موسى نصيحة الرجل ، ويرى موقفه ضعيفاً إن بقي في المدينة ، وقد يُقتل إن لم يتصرف بسرعة . ولكن إلى أين يذهب ، وهو لم يخرج من مصر قبل هذا ؟ وماذا يفعل وقد فوجئ بالطلب ، فلا هو يدري المكان الآمن ، ولا هو يملك الزاد والراحلة . إن الأمر لجد صعب ، ولكن لا بد من الهرب ، فقد اشتد عليه الطلب .

سار موسى خائفاً ينظر حوله متلفتاً ، ويلجأ إلى الركن الركين والملاذ الأمين ، إلى الله تعالى فهو الذي يرعاه ويحميه ، ويفتح مغاليق الأمور ، ومن توكل على الله فقد كفاه ، ومن قصده فقد لبّاه ، وليدعُوه فهو السميع العليم ، وهو قاضي الحاجات ، رفع يديه إلى السماء قائلاً " ربّ ؛ نجني من القوم الظالمين "

باسم الإله تحرك القلبُ	متشوّقاً ، من دون أن يكبو
فمن المحال تعثّر وهوى	ما دام في درب الهدى يحبو
لما التزمتُ بشرعه الهادي	كان الجزاء لخطوي القربُ
وسألته الغفرانَ تَكْرِمةً	حين اعتراني الخوفُ والرَّهْبُ
وخواطِرُ النفس انطوتْ فزعاً	لما اكتواني الذنبُ والخطْبُ
ناديتُ من أعماق مسكنتي	أنت الرحيم البَرُّ ، ياربّ

وهداه الله تعالى إلى درب النجاة ، فانطلق شرقاً ، ثم شمالاً ، إلى فلسطين الحبيبة أرض الله المباركة ، فيها الأمن والأمان - إن شاء الله تعالى - هي الأرض المقدسة المباركة هي أرض المسلمين ، وليست لغيرهم . ولئن احتلها اليهود المجرمون في حين غفلة من أهلها ، وبُعْد عن الدين ، وضعف في اليقين ، فإنهم الآن عادوا إلى الله تعالى ، يحملون راية الجهاد في سبيل الله ، ويعاهدونه على الالتزام

بشرعه وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، ويذلون الغالي والرخيص في سبيل ذلك .
انطلق المسلم الشاب موسى عليه السلام نحو مدين أول بلاد فلسطين ناحية مصر يطلب
الهداية " عسى ربي أن يهديني سواء السبيل " فهداه الله وحفظه وبلغه دار الأمان .



تأملات تربوية في سورة القصص (٣)

١- انطلق موسى من مصر مسرعاً شرقاً - إلى سَيْناء ، ثم شمالاً إلى دار الهجرة - فلسطين - يسأل الله الأمن والأمان ، فلما بلغ " مدين " وجد على مشارفها مورداً للماء عذباً فاتجه نحوه يروي منه ظمأه ويرتاح ناحيته ، فوجد الرعاة مزدحمين عليه يسقون أغنامهم ، ليعودوا إلى مضاربهم أول الأصيل . كانوا يتنافسون أيهم يسقي أولاً .

٢- وعلى مسافة منهم تقف امرأتان تنتظران أن ينتهوا من سقيهما تلك حتى تتفرغا لأغنامهما فتسقيانها ، فلا طاقة لهما بمدافعة الرجال ، ولا تبغيان ذلك ، وهما تمنعان أغنامهما العطشى أن تدنوا فتختلط بأنعام الرجال ، وتنتظران انتهاء الجميع لتتقدما ، فهما - كما تبدوان - فتاتان مهذبتان لا تختلطان بالرجال كي لا تسمعا ما يسوءهما أو تفتحا باباً للشر هما في غنى عنه .

٣- يتقدم الشاب القوي موسى وقد راعه أن تتأخرا عن بيتهما ، وأن لا يأبه الفتیان لهما ، وكان أولى بهن أن يراعوا ضعفهما فيتركوا المجال لهما أن تسقيا أولاً وتعودا مبكرتين ، وليس من ضير أن يتأخر الرجال ، أما أن تتأخر الفتاتان فهذا نقص في مروءة الرجال لا يرضاه موسى لنفسه إن رضيه الآخرون ، - هذا ما رُبِّي عليه موسى فأعان الإسرائيلي على باطل القبطي . وكان عون سبباً في ملاحقة أعوان فرعون له وهروب موسى خوف بطشهم من مصر .

مهمة الرعي لا يقوم بها إلا الرجال ، فلم هما هنا يا ترى ؟ وأين أبوهما أو أخوهما؟ وأين الأجير الذي يتولى تلك المهمة ؟ يتقدم موسى يسألهما عن كل ما خطر بباله من تساؤلات

٤- كانت إجابتهما قصيرة وواضحة " لا نسقي حتى يُصدر الرعاء ، وأبونا شيخ كبير " اختارتا الجواب المفيد بكلمات يسيرة معبرة تصف الحال بأجلى صورة دون أن تكثرا من الحديث إلى الغريب ، فيفهم كل شيء (أبوهما عجوز لا يقوى على الرعي وليس له غيرها ، وأجرة الراعي مرهقة ، فلا بد أن تقوموا بذلك وحدهما) وقد رباها أبوهما على الأدب والحياء ، فمن الأدب أن تجيبا على الأسئلة ، ومن الحياء أن تقصرا الحديث مع الرجال .

٥- بعض الرجال - وهم في الحياة نادرون نُدرة الجواهر الثمينة - لا يحلو لهم عيش حين يرون الآخرين متعبين يحتاجون العون وهم قادرون على بذله لهم . وموسى الذي رباه الله على عينه ، فأحسن

تربيته ، ووهبه من الشمائل السامية إيذاناً بحمل الرسالة على رأسهم . ألم يقل الشاعر :

إذا القوم قالوا : من فتى ؟ خلت أني عثيث فلم أكسل ولم أتبلد

وموسى يرى أن عليه أن يساعدهما ، فيسرع إلى المورد يشق الزحام ، وينافس الرعاة ، ويملاّ الدلاء، ويسقي الأنعام ، حتى ترتوي ، ثم يعيدها إلى الفتاتين ، وهما تتابعانه فترتاحان لما فعل ، وترياهن يقوم بهذا العمل بنشاط وقوة ، فإذا ما انتهى من ذلك أسرع إلى ظل شجرة يستريح دون أن يسألهما أجراً أو يُدِلّ عليهما بما فعل ويجعله سبيلاً إلى الحديث معهما . إنه لم ينتظر أن يسمع شكرهما ، فقد أنهى مادعته إليه مروءته ، وانتحى من الشجرة ظلاً يخلو فيه إلى نفسه ويناجي ربه أن يرزقه من حاله مخرجاً وأن يرزقه من فضله العميم " فقال : ربّ إني لما أنزلت إليّ من خير فقيرٌ " ومن لجأ إلى ربه وتوكل عليه فقد كفاه .

٦- يقول أهل العلم والدراية من دعا بهذا الدعاء عجل الله جوابه فرزقه زوجة صالحة . والدليل على ذلك أن إحدى الفتاتين جاءته بعد قليل تدعوه إلى لقاء أبيها ، وانظر إلى فاء الترتيب والتعقيب في الآية الكريمة " فجاءته إحداها تمشي على استحياء قالت : إن أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا " . وحين سألهما أبوهما عن سبب عودتهما مبكرتين على غير عادتهما قصتا عليه ما فعله هذا الشاب القوي المهذب، فرأى الأب بثاقب بصيرته أن هذا الشاب بغيته وأنه يمكن أن يكون أحد أركان البيت، فيقوم بعمل ابنتيه .. إن الرعي عمل الرجال ، وما قامت الفتاتان به إلا للحاجة الماسة ، ولعل الله يجعل قدوم هذا الشاب خيراً

٧- وتأمل معي هذه الدعوة بأطيافها الكاملة :

أ- يرسلها أبوها لتدعوه ، فتسرع ، ودليل سرعتها الفعل الذي تعدى للضمير مباشرة " جاءته " ولم يتعد بحرف الجر - جاءت إليه - .

ب- فلما دنت منه غلبها الحياء والدليل على ذلك حرف الجر على والمصدر استحياء " على استحياء " فكأن الحياء طريق تمشي الفتاة عليه .

ج- لم تنكسر في الكلام وإنما ألقت عليه الطلب مباشرة " قالت " فقد جاءت بمهمة تؤديها بكلمات موجزة ، ولم يسبق الفعل حرف الفاء أو الواو بل ألقت الكلام فور وصولها .

د- والداعي أبوها " إن أبي يدعوك " ولم تقل إننا ندعوك . وهذا أدعى لقبول الدعوة ، فوالدهما علم

ما فعله وهو الذي يدعوه إليه ، رجل يدعو رجلاً .

هـ- وبينت الفتاة سبب الدعوة " ليجزيك أجر ما سقيت لنا " والأب هو الذي يجزي مع أن السقي كان للفتاتين ابتداءً ، وهذا يدل على عظم مقام الأب ومكانته عند ابنتيه .

و- يتعرف الأب على الشاب " ... جاءه وقص عليه القصص " ولم يقل: قصته أو القصة فالقصص كل ما حدث لموسى منذ أن ولدته أمه إلى أن وصل إلى الرجل .

ز- ولعل التبسط في الحديث له فوائد كثيرة : منها التعرف الواسع على الإنسان ، والتبسط الذي يرفع الكلفة ، والتحبب بين الفريقين ، وزرع الأمن في نفس الفتى الهارب إذ قال له حين سمع منه قصته كلها " لا تخف ، نجوت من القوم الظالمين " واستعمل الفعل الماضي " نجوت " لتثبيت النجاة من فرعون وجنده . وتطمينه أن سلطان فرعون لا يصل إلى مدين .

٨- يرتاح الرجلان في لقاءهما ، وترغب الفتاتان لأبيهما أن يستأجره ، ليخفف عنهما عبء الخروج في الرعي و ، فحنة المرأة في بيتها ، وعملها فيه أولاً ، وما ينبغي أن تخرج منه إلا مضطرة " قالت إحداها : يا أبتِ استأجره ، إن خير من استأجرت القوي الأمين " إن موسى قوي الجسم ، حسن الأخلاق - فلا حاجة للخوض في خرافات الروايات الإسرائيلية - فقد خبرتا ذلك من سقياه لهما ثم تولّيه إلى الظل دون أن يكلمهما ، ولم يغتنم فضله عليهما - أن خدمهما - في الحديث إليهما . وأسرع الأب إلى الاستجابة إذ كان قد سبقهما إلى التفكير في ذلك . والاستفادة من رجل قوي أمين كموسى غنم كبير ، وكنز ثمين . ويعرض عليه أن يزوجه إحدى ابنتيه ومهرها أن يعمل له ثماني سنوات أو عشرًا ، ويتفقان ، ويتزوج موسى الصغرى ويمكث عنده عشر سنوات كما جاء في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسيما الأنبياء والصالحين إتمام الفضل والإحسان في العمل وصدق الوعد .

٩- ولا ننس أن ننبه إلى دور المرأة الإيجابي في المجتمع والأسرة ، فهاتان الفتاتان كانتا تقومان بدور الرجل حين يغيب ، رعيًا وسقيًا ، وإحداها كانت رسول أبيها إلى موسى . كما أنها نصحت أباهما في استخدام موسى حين رآته قويًا أمينًا .

١٠- من حسن التصرف أن يخطب الرجل لابنته كما يخطب لابنه حين يجد الشاب الصالح اللبيب الذي يحفظ عرضه ويصونه . هذا ما فعله الرجل الصالح في مدين فزوج إحدى ابنتيه من موسى عليه

السلام ، وليس عيباً أو عاراً أن أعرض ابنتي أو أختي على من أتوسّم فيهم الدين والخلق القويم ، بل إن من التصرف السليم أن تخطب المرأة لنفسها من ترتاح لشمائله كما فعلت أمنا خديجة رضي الله عنها حين خطبت رسول الله لما رأت فيه من الصدق والأمانة ، وكما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم مع صهرية الجليلين عثمان وعلي رضي الله عنهما ... لما ماتت أم كلثوم بنت رسول الله قال لعثمان : لو كان لنا ثالثة لزوجتُكها ، أما فاطمة فقد طلبها كثيرون ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم لا يجيب ، حتى طلبها علي فتبسم رسول الله له وزوجه إياها .



تأملات تربوية في سورة القصص (٤)

١-التربية أولاً : قبل أن يُكَلَّف المرء بمهمة يُهيأ لها ويُدرَّب عليها . ولا بد من تحمل التبعات والصبر عليها زمناً حتى يشتد عوده ويكون أهلاً لما يُطلب منه . هذا موسى عليه السلام يعيش عشر سنوات غريباً عن أهله طريداً عن مسقط رأسه انتقل من حياة الرفاهية في قصور فرعون معزلاً مكرماً إلى بلد آخر وحياة أخرى يعمل في مهنة الرعي متنقلاً بأغنائه في السهول والوديان يصبر ويحلب ويسقي ويعلف حيواناته لا يمنعه حر الصيف ولا قرّ الشتاء . وما من نبي - كما أخبرنا المصطفى عليه الصلاة والسلام - إلا رعى الغنم قبل أن يرعى الأمم . والتشابه بين الرعين واضح جداً ، ففي كليهما السهر على المصالح والاهتمام بكل مناحي الحياة مع مراعاة الفرق بين متطلبات البشر وغيرهم من الأمم " وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم " وعشر سنوات من التدريب الحثيث على عين الله ورعايته في مدرسة الحياة وفي بيت الرجل الصالح كفيلة بتأهيل موسى عليه السلام لتحمل الرسالة وأعبائها . إن حكام الأمم في القرن العشرين وما يليه يتدربون في المعاهد البريطانية والأمريكية ليعودوا بعدها أدوات طيعة متدربة لتحكم بلادها باسم من رباهم على مبادئ أرضية ذاق ويلاتها شعوبهم وأممهم ، أما موسى فقد ربي في المدرسة الإلهية لقيادة البشر إلى نور الهداية وإخراج الناس من ظلمات الفساد والقهر إلى ضياء التوحيد والطهر .

٢-التعرف على المهمة ثانياً : ينطلق موسى بأهله عائداً بعد السنوات العشر إلى مصر لا يعرف بقدومه أحد ، يريد لقاء أهله والتعرف على أحوالهم ولعل قضيته التي هرب بسببها ينساها الناس فيعيش بين أهله ، أو يرى عكس ذلك من بحث عنه ما يزال مستمراً فيعود أدراجه لا يشعر به أحد . هذا ما خطط له . لكن الله تعالى أراد له لأمر جليل ومهمة خطيرة لا يقوى عليه إلا النوادر من عظماء الرجال الذين شرفهم الله تعالى واصطفاهم من خلقه ليستنقذوا البشرية من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد . وفي الطريق يحتاج إلى جذوة من نار يحتاجها أهله ، فيعود إليهم بجذوة من نور يحتاجها قومه جميعاً . إنه يقول لزوجته : " إني آنست ناراً لعلي آتيكم منها بخبر أو جذوة من النار لعلكم تصطلون " وينطلق إليها فيلقى ربه سبحانه يكلمه ويكلفه بالرسالة العظيمة " .. يا موسى إني أنا الله رب العالمين " . فما الذي نستفيد من تربية في هذا التكليف ؟

أ- حدد الله تعالى المكان والزمان للقاء والتعارف ، فقد ذهب ليلاً يبحث عن جذوة النار ، ف " نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِي الْأَيْمَنِ " مِنْ جَانِبِ الْوَادِي مِمَّا يَلِي الْجَبَلَ عَنْ يَمِينِهِ مِنْ نَاحِيَةِ الْغَرْبِ كَمَا قَالَ تَعَالَى : " وَمَا كُنْتُ بِجَانِبِ الْعُرِّيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ " وَهَذَا مِمَّا يُرْشَدُ إِلَى أَنَّ مُوسَى قَصَدَ النَّارَ إِلَى جِهَةِ الْقِبْلَةِ ، وَالْجَبَلَ الْعُرِّيَّ عَنْ يَمِينِهِ ، وَوَجَدَ النَّارَ تَضْطَرِّمَ فِي شَجَرَةِ خَضْرَاءٍ فِي نَاحِيَةِ الْجَبَلِ مِمَّا يَلِي الْوَادِي .
ب- نودي باسمه حتى يطمئن إلى أن من يناديه يعرفه ، فيستأنس ويذهب عنه الخوف ، ويتلفت ليرى المنادي ، فيقبل عليه . " يا موسى " .

ج - عرّفه بذاته " إني أنا الله رب العالمين " فأكد بـ " إِنَّ " واسمها الضمير الياء ، ثم ذكر ضمير الفصل " أنا " ثم ذكر الاسم الأعظم " الله " ثم وصف ذاته العلية بأنه " رب العالمين " فالذي يخاطب هو الرب الذي يفعل ما يشاء لا إله غيره ولا رب سواه ، تعالى وتقدس وتنزه عن مُثَالَّةِ المخلوقات في ذاته وَصِفَاتِهِ وَأَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ سُبْحَانَهُ .

د- ولتحقق موسى أن الله تعالى هو الذي يكلمه أمره ربه أن يلقي عصاه " وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ " التي في يده كَمَا نَعْلَمُ ذَلِكَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : " وَمَا تِلْكَ يَمِينُكَ يَا مُوسَى قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأُشْفِّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِي فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى " وَالْمَعْنَى أَمَا هَذِهِ عَصَاكَ الَّتِي تَعْرِفُهَا ؟ " أَلْقِهَا فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى " فَعَرَفَ وَتَحَقَّقَ أَنَّ الَّذِي يُكَلِّمُهُ وَيُخَاطِبُهُ هُوَ الَّذِي يَقُولُ لِلشَّيْءِ كُنْ فَيَكُونُ كَمَا تَقَدَّمَ بَيَانُ ذَلِكَ فِي سُورَةِ طه .

هـ - : " فلما رآها تهتز كأنها جانّ " والجانب حية عظيمة تضطرب وتتحرك ظهرت النفسية الإنسانية الضعيفة التي تخاف من مخلوق عظيم مخيف . هرب لا يلوي على شيء " وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ " فناداه ربه يطمئننه " يا موسى أقبل ولا تخف ؛ إنك من الآمنين " ، فلما عاد ينظر إليها خائفاً علمه ربه كيف يمسك بها مرة أخرى فتعود عصاه التي أَلْفَهَا .

و- وقد ذكرنا في تأملاتنا التربوية في سورة طه أن تحويل العصا حية عظيمة وإعادة عصا كما كانت لتدريب لموسى عليه السلام على استعمالها آية رائعة تؤيده حين يقف أمام فرعون ويدعوه ، فلو أنه لم يتدرب عليها قبل لقائه فرعون قد يرميها فيكون أول من يخافها إذ لا يكون قد رآها تتحرك من قبل . وكذلك إدخال يده في صدره لتخرج لامعة مشرقة كضوء الشمس ، ثم إعادة عصا مرة أخرى إلى صدره فتعود

كأختها " اسلك يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء واطمئن إليك جناحك من الرهب ، فذانك
برهانان من ربك إلى فرعون وقومه ، إنهم كانوا قوماً فاسقين "

و- لا بد من تزويد المكلف بأدلة وبراهين تؤيد الداعية وتعضده في دعوته في الوقت المناسب ،
وتدفع عنه بإذن الله أو تخفف من أذى المفسدين أو تسكتهم إلى حين أو تلجمهم فلا يتكلمون . فأنس
موسى لهاتين الآيتين وهدأت نفسه الخائفة المضطربة .

ز- وحين يضعف الداعية - وهو إنسان ضعيف - لمواقف سابقة كقتل موسى ذلك القبطي والخوف
من أن يقتلوه وقد جاءهم بنفسه " قال : رب؛ إني قتلت منهم نفساً فأخاف أن يقتلون " ، ولأن الجمر
أحرق لسانه صغيراً فهو بحاجة إلى أخيه البين النطق ، القريب إلى نفسه ، المؤمن - مثله - بهذه الدعوة
المباركة فقد أيده الله به وأرسله معه إلى فرعون رسولاً ، والصحبة الصالحة خير معين في الحياة بله المواقف
الصعبة المخرجة . " وأخي هارون هو أفصح مني لساناً فأرسله معي ردءاً يصدقني ، إني أخاف أن يكذبون "
فيحييه الله تعالى إلى طلبه كي يستكمل موسى كل أسباب النجاح ، فلا يترك للفشل في مهمته ثغرة ينفذ
إليه منها . " قال سنشد عضدك بأخيك ، ونجعل لكما سلطاناً ، فلا يصلون إليكما .. "

٣- الاستكبار سبب الكفر والضلال : فهو يؤدّي إلى :

أ- التكذيب " قالوا هذا سحر مفترى ، وما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين "

وكأن عدم سماعهم من آبائهم وحدانية الله يقدر فيها ! ووصفوا ما جاء به موسى وأخوه هارون
عليهما السلام بالتصنع والافتعال ومخالفة الواقع والحقيقة ، ووصموا الآيتين اللتين أخذتا بالبابهم بالسحر ،
وهم يريدون بذلك التكذيب والجحود

ب- الافتراء واستعباد الآخرين " يا أيها الملأ ؛ ما علمت لكم من إله غيري "

أن كُفِرَ فِرْعَوْنُ وطغيانه وافتراءه في دَعْوَاهُ الألوهية لنفسه القبيحة جعله يستخف قومه: " فاستخَفَّ
قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ " ، ومن ضعف عقولهم أنه حين دَعَاهُمْ إِلَى الاعتراف لَهُ بِالْأُلُوْهِيَّةِ أَجَابُوهُ إِلَى ذَلِكَ فَقَالَ :
" يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي " وَقَالَ تَعَالَى إِبْرَاهِيمَ عَنْ اسْتِخْفَافِ فِرْعَوْنَ بِهِمْ وَجَبْرُوتِهِ وَتَسْلُطِهِ
عَلَيْهِمْ " فَحَشَرَ فَنَادَى فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى " فكانت العقوبة أن الله تعالى أخذه أخذ عزيز مقتدر "
فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى " فَجَعَلَهُ عِبْرَةً لِّغَيْرِهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ .

ومن افتراءه واستعباده لقومه أَنَّهُ وَاجِهٌ مُوسَى بِذَلِكَ ، وهَدَّده بالسجن إن اتخذ إلهاً غيره فَقَالَ : " لَئِنْ اتَّخَذْتُ إِلَهًا غَيْرِي لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ " .

ج - الكفر والبطر " واستكبر هو وجنوده في الأرض بغير الحق " فلما استكبر هُوَ وجنوده في الأرض بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُ لَا رَجْعَةَ وَلَا مَعَادَ ، وَلَا حِسَابَ وَلَا عِقَابَ فَطَعَنُوا وَتَجَبَّرُوا وَأَكْثَرُوا فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ كَانَتْ الْعُقُوبَةُ وَاجِبَةً " فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ " .

٣- عقوبة الاستكبار : العقوبة قد تكون في الدنيا بالإضافة إلى عقوبة الآخرة ، كما أن عقوبة الآخرة قد تكون في القبر إضافة إلى عذاب النار .

أ - العذاب الشديد في الدنيا " فأخذناه وجنوده ، فنبدناهم في اليم " وانظر معي إلى الفعل " نبذ " الدال على الطرح باحتقار لهؤلاء المتجبرين وهوانهم على الله .

ب- اللعنة في الدنيا والآخرة " وأتبعناهم في هذه الدنيا لعنة ، ويوم القيامة هم من المقبوحين " فصاروا بأمر الله تعالى ملعونين على ألسنة الأنبياء والمؤمنين إلى يوم القيامة ، بل إنهم يوم القيامة يزدادون قبحاً ولعناً . ومثل هذه الآية قوله تعالى " وأتبعوا في هذه لعنة ، ويوم القيامة بئس الرُفْدُ المرفود " فماذا رجحوا لصلفهم وكبريائهم من هذه اللعنة الدائمة يتجرعون نتاجها خالدين في النار ؟!

ج- عذاب الآخرة " وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار، ويوم القيامة لا ينصرون " فاجتمع عليهم خزي الدنيا والآخرة ، وكانوا مثلاً سيئاً لمن سلك طريقهم ، وباء بخزيهم ، وسيرون الخزي يتابعهم يوم لا ينفعهم أنصارهم ولا يشد على أيديهم أحد ، ومن يجروا أن ينصرهم وقد لعنهم الله وأخزاهم ؟!

د - العذاب في القبر " النار يُعرضون عليها غدواً وعشياً ، ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب " وهذا العذاب للروح كما قال ابن كثير في تفسيره ، فَإِنَّ أَرْوَاحَهُمْ تُعْرَضُ عَلَى النَّارِ صَبَاحاً وَمَسَاءً إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ ، فَإِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ اجْتَمَعَتْ أَرْوَاحُهُمْ وَأَجْسَادُهُمْ فِي النَّارِ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى " وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ " أَيُّ أَشَدَّهُ أَلَمًا وَأَعْظَمَهُ نَكَالًا . وهذه الآية أصل كبير في استدلال أهل السنة على عذاب البرزخ في القبور . نسأل الله الإيمان ، والعافية وحسن الختام .

أقول وبالله العون :

ويوم الحشر من سود الليالي تضعضع فيه دجال المقال

يُرى كالدّرّ مردولاً قمياً
يعيث تجبراً ، ويتيه كبراً
ويمقته المليك فلا نجاح
ويلقى في الجحيم على قفاه
وما الجدوى لإيمان إذا لم
فإن الفعل في الأولى سبيل
ووجه المسلم المرضي نور
وفي يمناه أوراق حسان
وتدخله جنان الخلد يسعى
فما من عاقل يرضى زوالاً
ومن يشري خلوداً من فناء
وقد كان "المكرم" في الرجال!
فصار إلى صغار في المال
وخسران النفوس بلا جدال
ولا أحد بتوبته!! يبالى
يكن تقواه في دنيا الفعال
إلى غرف المكارم والنوال
فكان الشمس من حسن ثلالي
تؤهله إلى تيّل المعالي
إلى الحور الحسان إلى الجمال
بباقية ! فذاك من المحال
لعمر الله ، ذاك من الخبال

فثبتني على الإيمان ربي
وبين يديك فارحمي ؛إلهي
وجوّزي الصراط كلمح طرف
بصحبة سيّدي خير البرايا
وفي قبري على رد السؤال
وتحت العرش في فيء الظلال
وأدخلني الجنان مع الغوالي
فهل ترأف يا ربي بحالي ؟



تأملات تربوية في سورة القصص (٥)

- ١- قارون من قوم موسى ، ولعله ابن عمه كما يروي المفسرون ، كان فقيراً حين آمن بموسى لكنه حين استغنى انتقل إلى صف الكفار المناهضين للدين الجديد ، المعادين له .
- ٢- " إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَافٍ " وهكذا نجد قارون يظلم قومه حين كثرت الأموال بين يديه ، وهذا دليل تفاهة من يغره المال ، فيصرفه عن وجوه الخير ، بل يشتط في الكبر والاستعلاء .
- ٣- وظلم القريب قريبه شديد ، مؤلم ، قاس لئيم .. أتدرون لماذا ؟
 - ١ - يتوقع القريب من قريبه الوجيه الموسر القادر على المساعدة الرحمة ، ويتوقع العون ، وقد لا يتوقع من غيره أن يكون عطوفاً عليه رحيماً به ، فإذا فوجئ منه بالظلم والنكران زاد ألمه ألماً ، وضيقه شدة .
 - ب - إن القريب أو الصديق أعلم بمواطن الضعف عند الآخرين ، فإذا انقلب عدواً كان أذاه أشد لمعرفته بدخائله ، وقد قال الشاعر مصوراً هذه الحالة ومنبهاً من الانكشاف للآخرين ولو كانوا أهلاً وأصدقاء ، فالحفاظ على الخصوصيات لا بد منها حتى عن القريب والحبيب:
احذر عدوك مرة واحذر صديقك ألف مرة
فلربما انقلب الصديق ق ، فكان أعلم بالمضرة
 - ج - وقد يكون عند فقره حاسداً أهل الفضل من قومه يحمل الضغينة لهم ، وهذا دأب كثير من الناس ، وعادة قد تكون متأصلة فيمن دينه ضعيف وقلبه ضيق وعقله قاصر فإذا اغتنى بعد فقر أظهر الكشح وأعلن العداوة والنقمة ، والتشفي . وتراه في صفوف أعداء الله يضرب بسيفهم ويواليهم على قومه
 - د - ومن هذا دأبه يجعله الغنى متكبراً يرى الآخرين دونه ، ويسعى إلى إذلالهم .
- ٤- وهنا نجد الدعاة من قومه ينصحونه - والمؤمن يريد الخير للجميع ويخص قومه بخيره - ويجتهد في النصح لهم ، فهذه مهمته في الحياة ، وكانت النصائح على التوالي :
 - أ - البعد عن البطر فهو من الآفات التي تقصم ظهر صاحبها ، وتهلكه ، فالله تعالى أعلن ذلك حين قال في الحديث " الكبرياء ردائي ، والعظمة إزاري ، فمن نازعني واحدا منهما ، قذفته في النار " (الدرر السنية) ومن ادعى ذلك غضب الله عليه ، وكرهه " إن الله لا يحب الفرحين " البطرين الذين لا يشكرون الله على إنعامه ويتكبرون بأموالهم على عباد الله فما ينبغي لأحد أن يستكبر أو يتعالى .

ب - أن يطلب الدار الآخرة فيما أعطاه الله من الأموال ، " وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة " فيتصدق وينفق على الطاعات ، فهذا من شكر الله تعالى ، وسيجد في الآخرة - إن فعل ذلك - فضلاً من الله كبيراً .

ج - كما أن للإنسان أن يتمتع بالخير الذي وهبه الله إياه في الدنيا دون أن تكون الدنيا همه الأكبر أو الوحيد ، وهذا تنبيه واضح إلى أن العاقل يجعل الآخرة الباقية نصب عينيه وهدفه الأول ، وله أن يتمتع بدنيته " قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق؟ " .

د - أن يحسن إلى الناس ، فالإحسان من التحدث بنعمة الله ، " وأما بنعمة ربك فحدث " وليس الحديث بالتفاخر والتباهي بما أنعم الله علينا فقط ، فهذا إيذاء لمشاعر الناس وإساءة إليهم . ومن أحسن إلى الناس فقد استجلب رضا الله تعالى عليه وحببه له ، ومن أحبه الله فاز وأفلح " الخلق عيال الله ، وأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله " . وكما تدين تدان : فمن أحسن إلى عباد الله أحسن الله إليه ، ومن أحسن الله إليه أحسن إلى عباد الله .

هـ - من الإساءة أن يكون الإنسان فاسداً ، وأشد منه أن يكون مفسداً . والإفساد طرقه كثيرة ، منها: البغي في الأرض ، وكثرة المعاصي ، وصرف المال فيما يغضب الله تعالى ... والبعث عن الإفساد والفساد من سمات العاقل اللبيب ، وعكس ذلك من سمات اللئيم الذميم . والله تعالى يكره هذا الصنف الذي يفسد في الأرض ، ومن كرهه الله تعالى كان من الخاسرين .

٥ - العاقل من اتعظ ، والجاهل من تنكب الطريق السوي ، فأورده موارد الهلاك . وكان قارون من الصنف الثاني الذي أوداه جبروته ، فادّعى ما ليس له ادّعى أن ذكائه وعبقريته كانا السبب في نجاحه هذا النجاح الكبير ، وأن المال جمعه بجده ونشاطه ليس غير !! وهذا مقتل المتكبرين ، وهلاك المتحبرين . هؤلاء الذين لا يتعلمون ممن غبر ، ولا يتعظون من مصائر أمثالهم .

٦ - وقد يتساءل أحدهم : كيف " ولا يُسأل عن ذنوبهم المجرمون " ؟ ألم يقل الله تعالى " فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون " ؟ والأمر ليس فيه تعارض البتة ، إنما هو تصوير لمصيرهم السيئ ، والله تعالى لعلمه بما فرطوا وتجاوزوا لا يسألهم عن كيفية ذنوبهم وكميتها تحقيراً لهم ، وغضباً عليهم . وانظر معي إلى هذا التصوير المخيف في طريقة دخول هؤلاء المجرمين النار - والعياذ بالله - " يُعرف

المجرمون بسيماهم ، فيؤخذ بالنواصي والأقدام " ما أهونهم على الله حين يأمر بهم إلى النار ، فتمسك الزبانية برؤوسهم وأرجلهم ، ويُقذفون بهذه الطريقة المهينة في سواء جهنم !!

٧- قارون وأمثاله - هؤلاء الذين طُمست بصائرهم ، فما عادوا يرون إلا ذواتهم - يستعلون على عباد الله فيخرجون متعاضمين كما فعل قارون حين " خرج على قومه في زينته " متباهياً مفتخراً بأكمل زينته ذات يوم ، يليه أتباعه الكثيرون متحلين بملابس الذهب والحرير ، على خيول موشحة بالذهب والعقيان ، ومعه الجواري والغلمان في موكب حافل باهر فيسي قلوب أهل الدنيا ، فيتمنون أن يكونوا مثله، أو يكون لهم ما له ، ويعتقدون مخطئين أنه ذو حظ عظيم .

٨- أهل الإيمان الذين ينظرون بنور ربهم يعلمون زيف الدنيا وصغارها ، إن الحياة الحققة هي الحياة الباقية ، أما الفانية الزائلة فلا تستهويهم . إنهم قالوا حين سمعوا أهل الدنيا يتمنون هذا الزائل ناسين الآخرة وخلودها :

" ثواب الله خير لمن آمن ، وعمل صالحاً ،.....ولا يُلقَّأها إلا الصابرون "

فالإيمان بالله أولاً ، يليه العمل الصالح ثانياً ، يليه الصبر والرضا بما قسم الله تعالى ثالثاً ثوابُ الله الجزيل الذي يغمر العباد الصالحين .

٩- العقوبة العاجلة للمتكبرين في الدنيا ، فقد خسف الله تعالى بقارون الأرض فهو يتجلى فيها إلى يوم القيامة ، تضيق عليه ويحترق بنيرانها جزاءً وفاقاً هو ومن يسير في ركابه ، فماذا يقول هؤلاء الذين باعوا آجلاً بعاجل ، ورضوا أن يكونوا في صفوف أعداء الله ، يحاربون أولياء الله ؟؟؟!! والمرء مع من أحب ،، أليس كذلك ؟!!



تأملات تربوية في سورة ص (١)

١- شَرَّفَ اللهُ تعالى المسلمين بالقرآن العظيم حين قال سبحانه : " ص والقرآن ذي الذكر " وقد قال عمر رضي الله عنه : نحن قوم أعزنا الله بالإسلام ، ومهما ابتغينا العزة بغيره أذلنا الله . وهل كان العرب قبل الإسلام إلا قبائل متناحرة وأمة مغلوبة يسيطر عليها الروم والفرس ؟ فلما عرفت الإسلام شَرُفَتْ وارتفع شأنها وسادت الدنيا ، ولما تركت الإسلام ولحقت بكل ناعق خمد ذكرها وصار أهلها خَوَلاً .. وقد أكد المولى تعالى ذلك في أكثر من موضع من القرآن الكريم فقال في سورة الأنبياء : " لقد أنزلنا إليكم كتاباً فيه ذكركم " والذكر هو الشرفُ العالي والمكانة السامقة ، وقال تعالى " وإنه لذكر لك ولقومك " فما يدعه إلا غافل جاهل ولا يلتزمه إلا لبيب عاقل . وقد خبرنا وضع أجدادنا وأسلافنا حين حملوه في قلوبهم وسواعدهم ، فخضعت لهم الدنيا ، وها نحن نتركه زاهدين فيه فتنقلب أحوالنا ذلاً وخنوعاً وضعفاً وهواناً .

٢- لماذا يأبى الكافر قوله الحق " بل الذين كفروا في عزة وشقاق " ولم المخالفةُ والحق بين ؟ ولم النفور والإسلام جاء لراحة البشرية والارتقاء بها من وهدة الضلال والقهر والفساد؟ وتأمل معي كلمة العزة وحدها دون كلمة الشقاق قد كانت تلتبس لولا أن كلمة الشقاق وضّحت المعنى المقصود بها ، وهو التعالي عن الحق والنأي عنه ممزوجين بالصلف والكبرياء مدعومين بالجحود والإنكار . فكلمة الشقاق ألقت بظلال المخالفة والرفض للتقوى والرشاد ، دليله في سورة البقرة " وإذا قيل له : اتق الله أخذته العزة بالإثم " .

٣- العاقل من يتعظ بغيره ، ويغتني الفرص ، فلا يضيعها . أما الاعتاظ فلا يدخل قلوب الغافلين ، فهم يرون بعيونهم لا أبصارهم ، " لهم أعين لا يبصرون بها " يؤكد هذا أيضاً قوله تعالى " فإنها لا تعمى الأبصار ، ولكن تعمى القلوب التي في الصدور " وهم بهذه الصفة كالأنعام الضالّة بل هم أضل سبيلاً . " كم أهلكنا قبلهم من قرن " . إنهم يرون مصارع الأمم الغابرة فلا يروعون ، ويمرون عليهم فلا يتعظون " وإنكم لتمرون عليهم مصبحين ، وبالليل أفلا تعقلون " وهم يسيرون في سفرهم وتجارهم في بقايا آثار الأمم البائدة " إن في ذلك لآيات للمتوسمين وإنها لبسبيل مقيم " ولا يتوسم سوى العاقل صاحب القلب النابض والعقل الحي . وأما اغتنام الفرص فللذكيّ الأملعيّ الذي يعلم أن

الفرص عزيزة نادرة لا تأتي إلا بغتة ولا يقتنصها إلا الذي ينتظرها ويتوسّمها . لكنها تمر على الجاهل فلا يحس بها ، فإذا وقعت الواقعة نادى " واحسرتاه ، واتعاستاه " ، ويستغيث ، فلا صريخ . ويلقى صدى صوته ، ويسخر منه النابحون ، فلا فائدة ولا نجاة " ولات حين مناص "

٤- صاحب العقيدة الحقّة والدعوة الصادقة لا يمل من الدعوة إليها والدفاع عنها ، ولا يفتأ يعمل في سبيلها غير آبهٍ بالعوائق ، فالحياة عقيدة وجهاد " يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا ، واتقوا الله لعلكم تفلحون " لا بد من الصبر والمصابرة والثبات مع التحلي بتقوى الله تعالى . وفي هذه السورة نجد تداعياً من الكفار وحضاً على الثبات على عقيدتهم وهي العقيدة الزائغة إذ يقول أئمة الكفر والضلال: " امشوا واصبروا على آلهتكم " ويرفضون التحلي عنها ، وينبهون أتباعهم أن لا يستجيبوا لمن يريد أن يغير قناعاتهم ويزعزع إيمانهم بآلهتهم " ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة ، إن هذا إلا اختلاق " فهم يتعجبون أن تكون الآلهة إلهاً واحداً ، وأن يرسل الإله نبياً بشراً واحداً منهم ولماذا يكون الرسول محمداً ؟ ولا يكون أحد كبراء القوم أصحاب المال والجاه ؟ ، فقالوا " لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ؟ " روى ابن جرير أن زعماء قريش قالوا : هَذَا الَّذِي يَدْعُونَا إِلَيْهِ مُحَمَّدٌ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) مِنْ التَّوْحِيدِ لَشَيْءٍ يُرِيدُ بِهِ الشَّرْفَ عَلَيْكُمْ وَالِاسْتِغْنَاءَ ، وَأَنْ يَكُونَ لَهُ مِنْكُمْ أَتْبَاعٌ ، وَلَسْنَا نُجِيبُهُ إِلَى مَرَادِهِ ... فإذا كان أهل الضلال يبذلون جهدهم في الاحتفاظ بمبادئهم ، أفلا ينبغي على المؤمنين أن يتعاهدوا أنفسهم بالمثابرة والمصابرة على هذه الدعوة المباركة ؟ .

٥- الكفر ملة واحدة ، وكلهم مهزومون أمام الحق بإذن الله تعالى . وفي هذه السورة بين الله تعالى أن قوم نوح وقوم فرعون وأن عاداً وثمود وأصحاب الأيكة حين كذبوا الرسل ذاقوا العذاب وأُبيدوا " إِنْ كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرِّسْلَ فَحَقَّ عِقَابِ " ، وقريش إن كذّبت رسول الله صلى الله عليه وسلم فستذوق المصير نفسه ، وهذا تهديد شديد للهجة " وما ينظر هؤلاء إلا صيحة واحدة ما لها من فَوَاقٍ " إنها الصيحة الأولى والوحيدة القاضية المميّنة فعلام هذا الاستكبار والجحود ؟! ومن سخيف عقول الكافرين أنهم يستعجلون العذاب تحدياً وتمادياً في العناد وجحوداً منهم ليوم المعاد " وقالوا : ربنا ؛ عَجِّلْ لَنَا قِطْنَآ قبل يوم الحساب " وهذا الطلب يتكرر دائماً دالاً على جهلهم بالمصير الأسود المرعب الذي ينتظرهم " يستعجلونك بالعذاب وإن جهنم لمحيطة بالكافرين " فإذا ما عاينوه رأي العين ندموا حيث لا ينفع الندم

. وقد توعدهم الله عز وجل في هذه السورة فقال : " هذا وإن للطاغين لشر مآب " ماهو الشر الذي توعدتهم يا رب ؟ فيجيب سبحانه من عزيز قوي : " جهنم يصلونها ، فبئس المهاد " وتصور أخي كيف يعيش الكافر في النار إذا كانت النار بأشواكها ولهيها المهد الذي يستريح عليه الكافر بعد تعبته وتحواله للذين لا ينقطعان - نسأل الله العافية - " هذا فليذوقوه حميمٌ وغساقٌ ، وآخر من شكله أزواج " فما الحميم والغساق ، وما المثل لهما من طعام وشراب للكافرين في جهنم ، والعياذ بالله

٦- في القرآن الكريم تصوير مخيف لحياة المعذبين في النار ، طعامهم وشرابهم ، ولباسهم وحياتهم في النيران وبين أيدي زبانية العذاب . فتعال معي نعيش بعيداً عنهم مطلعين عليهم ونحن في جنة الله - بإذن الله وفضله وكرمه - فهو الرحيم بعباده المؤمنين الرؤوف بهم ، عسانا ننأى بأنفسنا عن هذا المصير المرعب الذي يحتوي كل عاصٍ كفور.

شجرة الزقوم : وما أدراك ما شجرة الزقوم ! " إنها شجرة تخرج في أصل الجحيم " في قعر النار ، ومنه منشؤها ، ثم هي متفرعة في جهنم . وتصور هذه الشجرة التي تخالف كل أنواع الشجر الذي تلتهمه النار ، وهو وقود لها إلا هذه الشجرة ، فهي لا تنبت ولا تثمر إلا في النار .. فما ثمارها ؟ وماذا يشبه " طلعتها " أي ثمرها ؟ ، - وسمي طلعاً لطلوعه - " كأنه رؤوس الشياطين " فهل رأى أحدنا الشياطين ؟! لا لم يرههم ، فكيف شُبّه ثمر الزقوم بما لم نره ولم نعرفه؟! فالجواب أن نفوس الناس تتصور الشياطين برؤوسهم القبيحة المنقرّة وإن لم يكونوا مرئيين لأنهم مثال كل خبث وسوء وقبح ، كما أن الطيبة والخير والجمال تتمثل في نفوس الناس بالملائكة . ألم يقل صواحب يوسف في وصف جماله حين طلع عليهم " ما هذا بشراً ، إنّ هذا إلّا ملك كريم ؟ " فهذا تشبيه تخيلي . والناس يتشاءمون من الغول وليست مرئية أو موجودة ، فيصفون قباحة الأسنان بها : مسنونةٌ زرقٌ كأنياب الغول لما يُتصور من قبحها وشناعة منظرها . وبعض العرب تنهياً لهم الشياطين كالحيات ، لها رؤوس وأعراف ، وهي من أقبح الحيات وأخبثها وأخفها .

لما نزلت هذه الآية سخر فرعون هذه الأمة ، وقال : أتدرون ما الزقوم ؟ إن محمداً يعدنا أن في جهنم الزقوم ؛! إنما هو الثريد بالزبد والتمر . فبين الله خلاف ما قال .

" إن شجرة الزقوم طعام الأثيم " . كم يأكلون منها؟ أقليلاً أم كثيراً على شدة مرارتها؟ " فإنهم

لأكلون منها ، فمالئون منها البطون " يأكلون منها بشره لأنهم لا يصلون إليها متى شاءوا ، ولا يأتونها إلا جائعين ، والجائع حين يرى الأكل يهيم فيه أكان الأكل طيباً أم خبيثاً ، والزقوم طعامهم وفاكهتهم ، وشجرة الزقوم التي خلقها الله تعالى في جهنم سماها القرآن " الشجرة الملعونة ... " فحين يأكلها أهل النار تغلي بطونهم كما يغلي الماء الحار ، وشبهه ما يصير منها إلى بطونهم بـ " المهل " : وهو النحاس المذاب .

كما أن الضريع طعامهم . " ليس لهم طعام إلا من ضريع " فما الضريع ؟ إنه نبت ذو شوك لاصق بالأرض ، لا تقربه دابة ولا بهيمة ، ولا ترعاه ، وهو سم قاتل ، من أخصب الطعام وأشنعه ويسمى الشبرق حين يكون رطباً . وقال ابن عباس : إنه شجر من نار ، ولو كانت في الدنيا لأحرقت الأرض وما عليها . وروى القرطبي في تفسيره عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " الضريع شيء يكون في النار يشبه الشوك ، أشد مرارة من الصبر ، وأنتن من الجيفة ، وأحر من النار ، سماه الله ضريعاً " وقال بعض المفسرين : هو طعام لنتنه يضرعون عنده ويدلون ، وقيل : " إن الغسلين " ولا طعام إلا من غسلين " هو الضريع . هذا الضريع يأكله أهل النار فلا يشبعون " لا يُسمن ولا يُغني من جوع " فكأنه للعذاب فقط والعياذ بالله .

" ثم إنَّ لهم عليها لشوباً من حميم " والشوب : الخلط . والحميم : الماء الحار المغلي . .. قال المفسرون : يُمزج لهم الزقوم بالماء المغلي الذي يقطع الأمعاء ليجمع لهم بين مرارة الزقوم وحرارة الحميم ، تغليظاً لعذابهم وتجديداً لبلائهم ،

أما شراهم فهو بلية أخرى ، فماذا يشربون ؟ وما أثر الشرب على الجسم ؟! يقول تعالى " وسقوا ماءً حميماً ، فقطع أمعاءهم " ويشاب هذا الماء المغلي بغساق أعينهم وصديد من قبحهم ودمائهم " هذا فليذوقوه ، حميم وغساق " .. إذا ليس هناك ماء يروي الظمأ بل حميم يلهب الأجساد ، ويمزق الأمعاء " لا يذوقون فيها برداً ولا شرباً إلا حميماً وغساقاً " .

ثم يأتي دور العذاب الشديد المتجدد " فالكفار ليس لهم مساكن كمساكن الدنيا بل ينتقلون كقطعان البهائم ، تساق بين أطباق النار السبعة ، فهل أسوأ من عيش البهائم ؟! بل إن البهائم في الدنيا لها حظائر لوقايتها من البرد والحر ، ويقدم لها ما يناسبها من الأعشاب وغيرها ، ويعتني بها أصحابها ،

ويحافظون عليها فهي مالم وتجارهم وعليها تقوم حياتهم .

أما أصحاب النار فهم قطعان تساق إلى الزقوم لتأكل منه في مكان غير مكان إقامتهم ، ثم يُعادون إلى جهنم " ثم إن مرجعهم إلى الجحيم " والدليل على ذلك قوله تعالى " يطوفون بينها وبين حميم آن " فلاأكل مكان ، وللشرب مكان ، فبعد أكلهم الزقوم يُدفع المجرمون إلى جهنم بقسوة ، ويجرون إلى جهنم مهانين محتقرين " خذوه فاعتلوه إلى سواء الجحيم " والعَتل أن يُجذب المعاقب جذباً عنيفاً دون رحمة . يجرونه إلى منتصف النار . وهناك يبدأ العذاب بفنونه " ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم " يضرب الملك من الزبانية رأس الكافر فيفتته ثم يصب فيه حميماً قد انتهى حره إلى غايته ، فيقع في بطنه " يصب من فوق رؤوسهم الحميم " وكأنه يصب في قارورة ، فيملؤها فماذا يحصل ؟! " يُصهر به ما في بطونهم " فيسلت ما في الجوف حتى يمزق من القدمين . وهل ينصهر ما في البطون فقط ؟ لا بل الجلود كذلك تحترق ، أو تُشوى " والجلود .. " ، ثم يُعاد كما كان . فما هذا الطعام وما هذا الشراب ؟ وما هذه الحياة المقيتة ؟ نسأل الله العافية وحسن الختام .

روى القرطبي عن قتادة أن الآية الكريمة في سورة الدخان " ذق إنك أنت العزيز الكريم " نزلت في أبي جهل ، وكان قد قال : ما فيها - مكة - أعز مني ولا أكرم ، فلذلك قيل له تلك الآية السابقة . وقد التقى النبي صلى الله عليه وسلم وأبو جهل ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم " إن الله أمرني أن أقول لك : أولى لك فأولى " قال أبو جهل : بأي شيء تهددني ! والله ما تستطيع أنت ولا ربك أن تفعل بي شيئاً ، إني لمن أعز هذا الوادي وأكرمه . فقتله الله يوم بدر وأذله ، وقيل له هذه الآية على لسان سيد ملائكة العذاب " مالك " خازن النار الذي يضربه على رأسه بمقمع من حديد ، فيفتت رأسه عن دماغه ، فيجري دماغه على جسده ثم يصب فيه الماء المغلي ويقال له على سبيل السخرية والتوبيخ " ذق ؛ إنك أنت العزيز الكريم " .

أما لباس الكفار في جهنم فهو النار - والعياذ بالله منها - دليل ذلك قوله تعالى " والذين كفروا قُطِّعت لهم ثياب من نار " فخيطة وسويت . وشُبَّهت النار بالثياب لأنها لباس لهم كالثياب ، وتأمل قوله تعالى " قُطِّعت " وهو فعل ماض لما يستقبل من الزمان لأن الموعود منه محقق كالواقع لا محال ، ولعلها أعدت الآن ليلبسها أصحابها وقت دخولهم النار - اللهم عفوك ورحمتك - .. قال سعيد بن جبیر : " من

نار " من نحاس قد أذيب وهي السراويل المذكورة في " قَطْرَان " وليس أحمى من النحاس إن أذيب . . . وقيل : إن النار حين تحيط بهم كإحاطة الثياب إذا لبسوها عليهم . صارت من هذا الوجه ثياباً . ألم يقل الله تعالى : " وجعلنا الليل لباساً " .

وتصوّر مقامع الحديد التي تقهر وتذل ، وهي بيد الزبانية ملائكة العذاب وتسمى سياطاً كذلك " ولهم مقامع من حديد " وفي الحديث : " بيد كل ملك من خزنة جهنم مرزبة لها شُعبتان ، فيضرب - أي الملك - الضربة ، فيهوي بها سبعون ألفاً - من أهل النار - " .

ويحاول الكفار - حين تجيش النار بهم وتنفور فتلقي من فيها إلى أعلى أبوابها - أن يفرّوا منها إلى الخارج ، فتعيدهم الحزنة إليها بالمقامع المصاحبة بالتوبيخ والسخرية " كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غمّ أعيدوا فيها ، وذوقوا عذاب الحريق " .

فما هذه الحياة التي يعيشها الكافر العاصي ؟ يأكل النار ، ويشرب النار ، ويلبس النار ، ويعذب بالنار . . . وهل تستحق هذه الحياة الفانية القصيرة أن يفسق فيها الإنسان لحظاته وسويعاته ، ويتكبر ويتجبر ويكفر بربه ، فيغضب منه الجبار ، فيخلد في النار ؟!

اللهم نعوذ برضاك من سخطك ، وبمعافاتك من عقوبتك ، وبك منك ، لا نخصي ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك .

اللهم اجعل خير أعمالنا خواتيمها ، وخير أيامنا يوم نلقاك وأنت راض عنا .

اللهم صل على عبدك ونبيك محمد ، وشفّعه فينا .

اللهم لك الحمد حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك .



تأملات تربوية في سورة ص (٢)

- ليس الكفار في عهد النبي صلى الله عليه وسلم بدعاً من غيرهم ممن هم على شاكلتهم ، فملة الكفر واحدة . إنهم حين دعاهم عليه الصلاة والسلام إلى الإيمان بالله وحده - كما ذكر في هذه السورة تكبروا عن قبول الحق ، وأخذتهم العزة بالإثم ، فتعجبوا أن يكون النذير بشيراً رجالاً منهم وكانوا يظنون أنه - إن صدق بما يقول - أن يكون ملكاً ، ثم رموه بالسحر والكذب ، " وقال الكافرون هذا ساحر كذاب " وكيف اختزل - بسفاهة رأيهم - الآلهة كلها في إله واحد - وقد كان حول الكعبة أكثر من ثلاث مئة صنم ، كما أن لكل واحد منهم إلهاً يحمله معه ينصبه بين يديه ثم يعبدونه ! ثم لو كان الرسول من البشر فلماذا اختار الله تعالى محمداً من بينهم ؟! فتساءلوا متعجبين " أنزل عليه الذكر من بيننا ؟! " . فلما أصروا على النأي عن الإيمان ، وصابر بعضهم بعضاً في التمسك بباطلهم كان من البدهي أن يصبر الداعية الصادق على دعوته فهو أولى بذلك ، وأهل الحق أجدر أن يصبروا على رسالتهم التي كلفهم الله بها . ولا بد من الحث والمصابرة والتخلق بأخلاق الدعاة السابقين ممن سلكوا طريق الدعوة الشائك ، فصبروا ، وهم قدوة لنا جميعاً " فبهدهم اقتده " فنبه الله تعالى رسوله الكريم - في هذه السورة - إلى عدد منهم ، بدأهم بكلمة " اذكر "

أ- فكان أولهم شيخ الصابرين من أنبياء الله أيوب عليه السلام " واذكر عبدنا أيوب إذ نادى ربه أني مسني الشيطان بنصب وعذاب " فكرمه الله تعالى على صبره إذ شفاه من مرضه ووهب له أهله ومثلهم معهم ، وأغناه من فضله .

ب- ثم واسأى نبيه بأبي الأنبياء إبراهيم وابنه إسحاق وحفيده يعقوب عليهم السلام ، ومدحهم الله على صبرهم " واذكر عبادنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب أولي الأيدي والأبصار ، إنا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار ، وإنهم عندنا لمن المصطفين الأخيار " . فجعل قلوبهم معلقة بالآخرة يعملون لها وجعل ذكرهم على لسان أهل الدنيا طيباً زاكياً .

ت- كما واساه بذكر إسماعيل واليسع وذي الكفل عليهم السلام ووصفهم بالخيرية لصبرهم على الدعوة فكان هذا شرفاً لهم في الدنيا يُذكرون به " واذكر إسماعيل واليسع وذا الكفل ، وكلّ من

الأخيار " .

وكل من سار على درهم وأتسى بهم فهو ذو ذكر طيب مشهود له بالتقوى وله الجنة مأوى " هذا ذكر، وإن للمتقين لحسن مآب جنات عدن مفتحة لهم الأبواب " .

- أما داود عليه السلام فقد أُفرد له في هذه السورة اثنتا عشرة آية ، فقد وصفه الله تعالى بصفات عدة رائعة أولهنّ : أنه عبد لله تعالى ، وصفة العبودية لله أسمى وسام على جبين الرجل ، وأعلى تاج على رأسه " واذكر عبدنا داود " .

وثانيهنّ : القوة في الجسم والطاعة والعلم والعمل " ذا الأيد " فقد كان يقوم ثلث الليل ويصوم نصف الدهر . " وقد ثبت في الصحيحين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنّه قال " أَحَبُّ الصَّلَاةِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى صَلَاةُ دَاوُدَ وَأَحَبُّ الصِّيَامِ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ صِيَامُ دَاوُدَ كَانَ يَنَامُ نِصْفَ اللَّيْلِ وَيَقُومُ ثُلُثَهُ وَيَنَامُ سُدُسَهُ وَكَانَ يَصُومُ يَوْمًا وَيُفْطِرُ يَوْمًا وَلَا يَفِرُّ إِذَا لَاقَى " .

وثالثهنّ : " إنه أواب " ، والأواب أن يرجع المرء إلى الله تعالى في كل شؤونه وأموره . وهذا غاية التعلق بالله تعالى والاتصاف به .

ورابعهنّ : أنّه تَعَالَى سَخَّرَ الْجِبَالَ تُسَبِّحُ مَعَهُ عِنْدَ إِشْرَاقِ الشَّمْسِ وَآخِرَ النَّهَارِ كَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ " يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرُ " وَكَذَلِكَ كَانَتْ الطَّيْرُ تُسَبِّحُ بِتَسْبِيحِهِ وَتُرْجَعُ بِرُجْعِهِ ، فَإِذَا مَرَّ بِهِ الطَّيْرُ وَهُوَ سَابِحٌ فِي الْهَوَاءِ فَسَمِعَهُ وَهُوَ يَتَرَنَّمُ بِقِرَاءَةِ الزُّبُورِ لَا يَسْتَطِيعُ الدَّهَابُ بَلَّ يَلْفَ فِي الْهَوَاءِ وَيُسَبِّحُ مَعَهُ وَتَجِيهُ الْجِبَالُ الشَّجَاحَاتِ تُرْجَعُ مَعَهُ وَتُسَبِّحُ تَبَعًا لَهُ ، وهذا دليل على عظيم إيمانه وتقواه عليه السلام " إنا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ، وَالطَّيْرُ مُحْشُورَةٌ كُلٌّ لَهُ أَوَابٌ " .

وخامسهنّ : أنه على ورعه وتقواه - فهو نبي - كان أقوى ملوك الدنيا في زمنه له الكثير من الجند " وشدّدنا مُلْكَهُ " وكانت مملكته أقوى الممالك يهابه الملوك وتخشى بأسه .

وسادسهنّ : أنه ذو فهم وعقل وفطنة وعادل في حكمه - وهذا دأب الأنبياء ، فقد رباهم الله تعالى على عينه ، واصطفاهم من خيرة خلقه . " وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب " .

قصة الخصمين اللذين دخلا عليه خلوته

يروى القرآن الكريم القصة التالية :

كان داوود عليه السلام يصلي الليل وحده إذ دخل عليه مجموعة من الناس فيهما رجلان متخاصمان يشتكي أحدهما الآخر " وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوّروا المحراب " فالخصم اسم جنس يدل على واحد واثنين وأكثر ، وكلمة تسوّروا دليل على أن جمعاً جاءوا يشهدون قضية هذين الرجلين المتخاصمين وكذلك كلمة دخلوا فالتسوّرون الداخلون كثيرون ، ...ولا ننس أسلوب التشويق " هل أتاك " إن القصة لا يعرفها الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ، والقرآن الكريم يخبره بها ، إلا أن الاستفهام يجذب الانتباه ويشوق لمعرفة الخبر .

يفزع النبي داوود عليه السلام من فجأة دخولهم ، وهو الذي أمر أن لا يدخل عليه أحد ، والحرس يحيطون به من كل مكان ، فكيف ظهر هؤلاء فجأة ، ومن أين دخلوا فلم ينتبه إليهم أحد ؟! إنه لأمر مخيف حقاً ولعل هؤلاء يريدون به الشر ، وهو وإن كان قوياً وحده في بيته يصلي بأمان ولا يحمل سلاحاً ، إنهم متحلّقون حوله ، ويرون فيه الفزع فيطمئنونه إلى أنهم يريدون أن يحكم بالحق بين رجلين منهم ، ظلم أحدهما الآخر وبغى عليه ، ولن يعترف أحد منهما بأنه باغ قبل الحكم ، فمن الذي كان يتكلم إذا ؟ إن هذا دليل على أن المتكلم حتى الآن غير الخصمين " خصمان بغى بعضنا على بعض " ثم يطلب كبيرهم من داوود أن يحكم بالحق بلا زيادة ولا نقصان ، وأن يرشدهم إلى السبيل القويم ، فذكر أموراً ثلاثة ينبغي أن تكون في الحاكم وقاضيه " الحكم بالحق ، والبعد من الشطط ، وأن يدل المخطئين إلى الطريق المستقيم ، فهو داعية " .

وتقدم المتظلم فقال : إن أخاه يملك تسعاً وتسعين نعجة بينما يملك هو واحدة فقط ، ويريدها أخوه ليكمل بها المئة ، وقد شدد عليه وضايقه في الطلب ، أفليس هذا ظلماً ما بعده ظلم ، وتعدّياً كبيراً يدل على الأنانية وحبّ الذات وعدم مراعاة الآخرين ؟!! فأسرع داوود يحكم له إذ تعاطف معه فوراً " لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه " .

وكان الخطأ الذي وقع فيه داوود - عليه السلام - أنه لم يسأل الطرف الآخر عن صدق دعوى أخيه . وسرعان ما حكم بظلم أخيه له ، وكأنه عليه - وهو القاضي العادل أن يسمع الطرف الآخر ، فقد يكون الأول كاذباً . وكان عليه أن يسمع حجته في ذلك إن كان المدّعي صادقاً . لا بد من البينة أو الإقرار ، ولا بد من الاستقصاء إن لزم الأمر .

وينظر داوود عليه السلام حوله بعد أن نطق بالحكم متسرعاً ، فلا يرى أحداً ، لقد اختفوا فجأة كما دخلوا فجأة ، فيعلم أن من كان عنده قبل قليل ملائكة جاءت بأمر الله تعلمه كيف يكون قاضياً عادلاً ، وأنهم ما اختفوا فجأة إلا حين عدل عن الصواب في حكمه هذا ..

ويعترف بالخطأ - وهذا سمت الصالحين الذين يقرون بخطئهم ويسرعون للاستغفار ويعلمون التوبة ، ويطلبون الصفح " وظن داوود أنما فتنّاه ، فاستغفر ربه وخر راکعاً وأناب " .

ومن يسرع إلى الاعتراف بذلته ويلجأ إلى ربه ويعلن توبته يقبله الله عز وجل ويسدّد خطاه بعد ذلك ، وهذا ما أكرم به الله تعالى عبده داوود عليه السلام ، أفلا يكون المؤمن كذلك فيقتدي بالصالحين ويسير على هداهم ؟.

يروى المفسرون عن الأخبار الإسرائيلية قصة غريبة تقول : إن داوود الملك - فهو ليس نبياً عندهم - رأى من نافذة قصره امرأة جميلة فأعجبته ، فأراد أن يضمها إلى نسائه ، فلما قيل له : إنها زوجة قائده " أوريا " اغتم ، وقرر أن يتخلص من هذا البطل ، فأمره أن ينطلق إلى مدينة عمّان القريبة من عاصمته القدس - وكانت حصناً متين الأسوار ، وأوصاه أن يهاجمها بجيش قليل العدد ، وأن يدق أبوابها بنفسه وأن لا يعود إلا فاتحاً أو يلقي ربه شهيداً ، فقتل أمام حصونها القوية ، فتخلص منه وتزوج امرأته ، فجاءت الملائكة تعاتبه بطريقة مهذبة ، ففهم ذلك اللوم والعتاب وأحس بخطئه فتاب ..

والقصة لا تجوز في رجل عادي فيه بقية من شهامة ، أفتصح في نبي كريم من أنبياء الله تعالى ، وقد ذكرنا قبل قليل ما مدحه به الله تعالى من صفات كريمة ؟!

إن في وسط إيطاليا وفي مدينة فلورنسا وفي حي من أحيائها الجنوبية المطلة على النهر الذي يتوسط المدينة فيشطرها شطرين وفي مكان مرتفع من هذا الحي تمثال كبير يمثل النبي داوود رجلاً قويا عارياً ذا عضلات متناسقة التقاطيع ، تظهر عورته بشكل بارز يدل - حسب زعمهم - على الخصب والنماء .

وحاشا لنبي كريم من نبياء الله تعالى أن يتصرف بما لا يليق برجل عادي ، فهو الذي نذر نفسه لله وعاش مثلاً للأخلاق وحسن السيرة والعدل في القضاء ، وما جاءته الملائكة تمتحنه إلا لتعلمه كيف يقضي بالحق . قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما في شرح الآية - كما ذكر القرطبي رحمه الله - : إِنَّ إِرْتَفَعَ لَكَ الْخُصْمَانِ فَكَانَ لَكَ فِي أَحَدِهِمَا هَوًى ، فَلَا تَشْتِهِ فِي نَفْسِكَ الْحَقَّ لَهُ لِيَفْلُجَ عَلَى صَاحِبِهِ ، فَإِنْ فَعَلْتَ

مَحْوُتُ اسْمِكَ مِنْ نُبُوتِي ، ثُمَّ لَا تَكُونُ خَلِيفَتِي وَلَا أَهْلَ كِرَامَتِي . قَدْ لَ هَذَا عَلَى بَيَانٍ وَجُوبِ الْحُكْمِ بِالْحَقِّ ،
وَأَلَا يَمِيلُ - الْقَاضِي - إِلَى أَحَدِ الْخَصْمَيْنِ لِقَرَابَةٍ أَوْ رَجَاءِ نَفْعٍ ، أَوْ سَبَبٍ يَقْتَضِي الْمِيلَ مِنْ صُحْبَةٍ أَوْ
صَدَاقَةٍ ، أَوْ غَيْرِهِمَا . وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : إِنَّمَا أُبْتُلِيَ سُلَيْمَانُ ابْنُ دَاوُودَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ؛ لِأَنَّهُ تَقَدَّمَ إِلَيْهِ خَصْمَانِ
فَهَوِيَ أَنْ يَكُونَ الْحَقُّ لِأَحَدِهِمَا .

فَلَا يَكُونُ حُكْمٌ بِهَوَى ، وَإِلَّا ضَلَّ الْحَاكِمُ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَكَانَ الْعَذَابُ الشَّدِيدَ عِقَابًا لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، لَا
بَدَ مِنْ التَّحَرِّيِ عَنِ الْحَقِّ وَالصَّوَابِ لِيَرْضَى اللَّهُ عَنِ الْقَاضِي وَالْحَاكِمِ الْعَادِلِينَ " وَمَا أَعْظَمَ أَنْ نَضَعَ هَذِهِ الْآيَةَ
الْكَرِيمَةَ نَصَبَ أَعْيُنِنَا لِنَكُونَ مِنَ الْفَائِزِينَ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ثُمَّ خَافَ اللَّهُ
فَلَمْ يَظْلَمْ أَحَدًا : " يَا دَاوُودَ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ ، فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ ، وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى
فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ، إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ "



تأملات تربوية في سورة ص (٣)

- الهبة كما يقول اللغويون : عطاء دون مقابل ، وهي - الهبة - نوع من الإكرام يحظى به الموهوب
- أ- إما مكافأة على نجاحه في اختبار كما حصل لسيدنا إبراهيم عليه السلام " فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له إسحاق ويعقوب ، وكلاً جعلنا نبياً " ومثله سيدنا داود حين وهبه الله تعالى ابنه سليمان " ووهبنا لداود سليمان ، نعم العبد إنه أواب "
- ب - وإما استجابة لدعاء حين وهب الله سيدنا زكريا ابنه يحيى " فاستجبنا له ، ووهبنا له يحيى ، وأصلحنا له زوجه " واستجاب دعاء سليمان حين سأله ملكاً يخصه به وحده دون البشر " قال : رب اغفر لي وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي " . ودعاء المسلمين بهم " ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا ، وهب لنا من لدنك رحمة ، إنك أنت الوهاب " .
- ج - وإما عوناً وإزراً إذ طلب موسى عليه السلام أن يؤازره أخوه في دعوته فأجابه الله تعالى إلى طلبه " ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبياً " .
- د- وإما للتفضيل والاختيار ، والله يفعل ما يشاء " يهب لمن يشاء إناثاً ، ويهب لمن يشاء الذكور ، أو يزوجهم ذكراناً وإناثاً ، ويجعل من يشاء عقيماً " ومنها اختياره سبحانه عيسى عليه السلام نبياً " إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكياً " ففوجئت السيدة مريم بهبة ربها لها ولداً طيباً زكياً .
- هـ - وإما أن تكون الهبة تقرباً من أدنى لأعلى كما فعلت المرأة حين وهبت نفسها للنبي صلى الله عليه وسلم " وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي " .
- من سعادة الأب أن يكون أبنؤه صالحين بارّين تفرح بهم عيناه ، وينشرح بهم فؤاده ، ومن سعادة الابن أن يرث عن والده الصالح صفاته ، وتزداد سعادته حين يرث النبوة عنه ، وهي أعلى درجات البشر عند الله تعالى " ووهبنا لداود سليمان ، نعم العبد ، إنه أواب " والأواب كثير الطاعة والعبادة والإنابة لله عز وجل . والأنبياء لا يورثون مالا ولا عقاراً إنما يرث السعيد عن والده تلك المكانة العليا " مقام النبوة وقد أخبرنا تعالى أَنَّهُ وَهَبَ لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ فَجَعَلَهُ نَبِيًّا كَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ " وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ " فِي نَبُوءَتِهِ وَإِلَّا فَقَدْ كَانَ لَهُ بَنُونَ غَيْرُهُ فَلَهُ مِنَ الزَّوْجَاتِ مِائَةٌ امْرَأَةً حَرَائِرَ ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى " نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ " ثَنَاءٌ عَلَى

سَلِيمَانُ بِأَنَّهُ كَثِيرُ الطَّاعَةِ وَالْعِبَادَةِ وَالْإِنَابَةِ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَقَدْ رُويَ أَنَّهُ لَمَّا وَهَبَ اللَّهُ تَعَالَى لِداوُدَ سَلِيمَانَ قَالَ لَهُ يَا بُنَيَّ مَا أَحْسَنُ؟ قَالَ سَكِينَةُ اللَّهِ وَالْإِيمَانُ . قَالَ فَمَا أَقْبَحُ؟ قَالَ كَفَرُ بَعْدَ إِيْمَانٍ . قَالَ فَمَا أَحْلَى؟ قَالَ رُوحُ اللَّهِ بَيْنَ عِبَادِهِ . قَالَ فَمَا أَبْرَدُ؟ قَالَ عَفْوُ اللَّهِ عَنِ النَّاسِ وَعَفْوُ النَّاسِ بَعْضُهُمْ عَنْ بَعْضٍ . قَالَ داوُدُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَأَنْتَ نَبِيٌّ. فالذكاء الشديد كان صفة في سليمان عليه السلام نفّاذة .

وصفة ثانية كانت مدحاً لسليمان عليه السلام ، إنه مجاهد في سبيل الله تعالى يحب كل ما يعينه على القتال في سبيله وإعلاء رايته . ومن ذلك أنه يحب الخيول الأصيلة - سلاح الفرسان ، وهي القوة الضاربة في قتال العدو ، فأمر أن تعرض عليه الخيول ليستمتع بها ويطمئن إليها ، فعرضت أمامه وهو يتابعها شغوباً بها حتى غابت عنه " حتى توارت بالحجاب " فلم يرد شوقه لها ، فأمر أن يعيدها إليه ، ثم نزل إلى ساحة العرض يتلمّس الخيول ويمسح أعناقها وسوقها ، ويتحجب إليها ، والمقصود بقوله تعالى " إني أحببت حب الخير عن ذكر ربي " أن حبه للخيول صادر عن أمر الله تعالى . وهذا هو المعنى الحقيقي لهذه الآية . أما الرواية الإسرائيلية فتدليس واستخفاف بعقول الناس لأسباب عدة هي :

أ- إن التأويل عادة يتبع الكلام الذي بين أيدينا ، فما التي توارت بالحجاب ؟ إنها الخيول التي غابت عن ناظره إذ مرت أمامه وهو يستعرضها حتى غابت عن عينيه ، لا الشمس التي تعسفتها التأويلات الإسرائيلية ، إذ قالوا : أنه انشغل بالخيول حتى غابت الشمس ففاته صلاة العصر .

ب - إن سليمان عليه السلام شعر أنه لم يفِ الخيول حقها بالاستعراض السريع ، فأمر أن يردوها إليه ليلمسها بيديه ويكرمها بالترتيب على أعناقها وسوقها ، لأنه لو جاز أن يكون الضمير في " توارت بالحجاب " عائداً على الشمس لوجب أن يكون الضمير في " ردها علي " عائداً على الشمس نفسها، أما القفز هنا وهناك للوصول إلى الشمس فلا يليق بنص رزين ، ناهيك عن كتاب الله الكريم .

ج - وهل تتصور عاقلاً كان يُعَدُّ ماله ، فانشغل به حتى ضيع صلاته ، فأحرق المال يعاقب بذلك نفسه؟! فإذا كان ما يفعله سفهاً وطيشاً فالنبي سليمان عليه السلام منزّه عن قطع أعناق الخيول وسوقها لأنها - على زعم الإسرائيليات - شغلته عن الصلاة !! ما ذنب الخيول المسكينة لتذبح وتقتل ، والخطأ ليس خطأها؟!!

والصفة الثالثة كانت مدحاً له - عليه السلام - وهي الإنابة والطاعة ، إذ اختبره ربه سبحانه فأخطأ ،

فلما عرف ذلك استغفر ربه وأتاب إليه طائعاً ، فما هو الخطأ ؟

فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ وَمُسْلِمٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : (قَالَ سُلَيْمَانُ لِأَطُوفَ اللَّيْلَةَ عَلَى تِسْعِينَ امْرَأَةً كُلَّهُنَّ تَأْتِي بِفَارِسٍ يُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَقَالَ لَهُ صَاحِبُهُ قُلْ إِنَّ شَاءَ اللَّهِ ، فَلَمْ يَقُلْ "إِنْ شَاءَ اللَّهُ" ، فَطَافَ عَلَيْهِنَّ جَمِيعًا فَلَمْ تَحْمِلْ مِنْهُنَّ إِلَّا امْرَأَةً وَاحِدَةً جَاءَتْ بِشِقِّ رَجُلٍ ، وَائِمُّ الَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوْ قَالَ إِنَّ شَاءَ اللَّهُ لَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَرَسَانًا أَجْمَعُونَ) فقد كانت رغبته جامحة في أن يكون له أبناء رجال يجاهدون في سبيل الله ، فلما نسي مشيئة الله تعالى لم تستجب دعوته ، ولم تحمل منه نساؤه إلا واحدة جاءت به (سقط)وضعت على كرسيه تريه إياه . فما من أمر إلا بيد الله سبحانه " ولا تقولنَّ لشيءٍ إني فاعلٌ ذلك غداً إلا أن يشاء الله ، واذكر ربك إذا نسيت " وقد سئل النبي صلى الله عليه وسلم ثلاثة أسئلة فوعد أن يجيب عنها في الغد ، ولم يقل : (إن شاء الله) فلم يأتته جبريل أياماً عدة. وكذلك قال موسى عليه السلام لفتهاه " لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضي حقباً " ولم يقل إن شاء الله فنسيا حوتهما . ، وعودة إلى تأملاتي التي كتبتها تحت عنوان (تأملات تربوية في قصة موسى والخضر) توضح الفكرة بإسهاب .

أما ما روته الأساطير الإسرائيلية في شرح قوله تعالى " ولقد فتننا سليمان ، وألقينا على كرسيه جسداً ، ثم أناب " فدليل على الخرافات التي ملأت عقيدة اليهود وعقولهم ، فماذا تروي أساطيرهم ؟ ! الأساطير في ذلك كثيرة ، نذكر منها واحدة :

كَانَ سُلَيْمَانٌ قَدْ وَضَعَ خَاتَمَهُ تَحْتَ فِرَاشِهِ ، فَأَخَذَهُ الشَّيْطَانُ مِنْ تَحْتِهِ . وَقِيلَ : أَخَذَهُ الشَّيْطَانُ مِنْ يَدِ سُلَيْمَانَ ؛ لِأَنَّ سُلَيْمَانَ سَأَلَ الشَّيْطَانُ ، وَاسْمَهُ صَخْر : كَيْفَ تُضِلُّونَ النَّاسَ ؟ فَقَالَ لَهُ الشَّيْطَانُ : أَعْطِنِي خَاتَمَكَ حَتَّى أُخْبِرَكَ . فَأَعْطَاهُ خَاتَمَهُ ، فَلَمَّا أَخَذَ الشَّيْطَانُ الْخَاتَمَ جَلَسَ عَلَى كُرْسِيِّ سُلَيْمَانَ ، مَتَشَبِّهًا بِصُورَتِهِ ، دَاخِلًا عَلَى نِسَائِهِ ، يَأْتِيَهُنَّ فِي حَيْضِهِنَّ . يَقْضِي بَغَيْرِ الْحَقِّ ، وَيَأْمُرُ بِغَيْرِ الصَّوَابِ ، وَزَالَ عَنِ سُلَيْمَانَ مُلْكُهُ فَخَرَجَ هَارِبًا إِلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ يَتَضَيَّفُ النَّاسَ ؛ وَيَحْمِلُ سُمُوكَ الصَّيَادِينَ بِالْأَجْرِ ، وَإِذَا أَخْبَرَ النَّاسَ أَنَّهُ سُلَيْمَانٌ كَذَّبُوهُ . ثُمَّ إِنَّ سُلَيْمَانَ بَعْدَ أَنْ اسْتَنْكَرَ بَنُو إِسْرَائِيلَ حُكْمَ الشَّيْطَانِ صَادَ سَمَكَةً فَلَمَّا شَقَّ بَطْنَهَا وَجَدَ خَاتَمَهُ فِيهَا ، وَذَلِكَ بَعْدَ أَرْبَعِينَ يَوْمًا مِنْ زَوَالِ مُلْكِهِ ، وَجَدَ الْخَاتَمَ فِي بَطْنِ الْحَوْتِ ؛ لِأَنَّ الشَّيْطَانَ الَّذِي أَخَذَهُ أَلْقَاهُ فِي الْبَحْرِ ، فَهُوَ لَا يَحْتَاجُ شَيْطَانًا أَقْلَ مِنْهُ أَوْ مِثْلَهُ . وَكَانَ مُلْكُ

سليمان في خاتمته . ولما رد الله على سليمان ملكه أَقْبَلَتْ إِلَيْهِ الشَّيَاطِينُ وَالْجِنُّ وَالْإِنْسُ وَالطَّيْرُ وَالْوَحْشُ وَالرَّيْحُ ، وَهَرَبَ الشَّيْطَانُ ، فَأَتَى جَزِيرَةَ فِي الْبَحْرِ ، فَبَعَثَ إِلَيْهِ الشَّيَاطِينُ فَقَالُوا : لَا نَقْدِرُ عَلَيْهِ ، وَلَكِنَّهُ يَرِدُ عَيْنًا فِي الْجَزِيرَةِ فِي كُلِّ سَبْعَةِ أَيَّامٍ يَوْمًا ، وَلَا نَقْدِرُ عَلَيْهِ حَتَّى يَسْكُرَ ! قَالَ : فَنَزَحَ سُلَيْمَانُ مَاءَهَا وَجَعَلَ فِيهَا خَمْرًا ، فَجَاءَ يَوْمٌ وَزُودِهِ ، فَإِذَا هُوَ بِالْخَمْرِ ، فَقَالَ : وَاللَّهِ إِنَّكَ لَشَرَابٌ طَيِّبٌ إِلَّا أَنَّكَ تُطِيشِينَ الْحَلِيمَ ، وَتَزِيدِينَ الْجَاهِلَ جَهْلًا . ثُمَّ عَطَشَ عَطَشًا شَدِيدًا ، فَأَتَاهُ فَقَالَ مِثْلَ قَالَتِهِ ، ثُمَّ شَرِبَهَا فغلبت عَلَى عقله ؛ فَأَرْوَهُ خَاتَمُ الْاِسْتِدْعَاءِ فَقَالَ : سَمْعًا وَطَاعَةً . فَأَتَوْا بِهِ سُلَيْمَانَ فَأَوْثَقَهُ وَبَعَثَ بِهِ إِلَى جَبَلٍ ، فَذَكَّرُوا أَنَّهُ جَبَلُ الدُّخَانِ فَقَالُوا : إِنَّ الدُّخَانَ الَّذِي تَرَوْنَ مِنْ نَفْسِهِ ، وَالْمَاءَ الَّذِي يَخْرُجُ مِنَ الْجَبَلِ مِنْ بَوْلِهِ . وَأَمَّا قِصَّةُ الْجَسَدِ فَإِنَّهُ وَلَدَ سُلَيْمَانَ الَّذِي كَرِهَتْهُ الشَّيَاطِينُ ؛ وَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ : إِنَّ عَاشَ لَهُ ابْنٌ لَمْ نَنفِكْ نَحْنُ مِنَ السَّخَرَةِ وَالذَّلِّ ، فَتَعَالَوْا نَقْتُلْ وَلَدَهُ أَوْ نَحْبُلَهُ . فَعَلِمَ سُلَيْمَانُ بِذَلِكَ فَأَمَرَ الرِّيحَ حَتَّى حَمَلَتْهُ إِلَى السَّحَابِ ، وَغَدَا ابْنُهُ فِي السَّحَابِ خَوْفًا مِنْ مَضَرَّةِ الشَّيَاطِينِ ، فَعَاقَبَهُ اللَّهُ بِخَوْفِهِ مِنْ الشَّيَاطِينِ ، فَلَمْ يَشْعُرْ إِلَّا وَقَدْ وَقَعَ وَلَدُهُ عَلَى كُرْسِيِّهِ مَيِّتًا . فَهُوَ الْجَسَدُ الَّذِي قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : " وَالْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا " .

ولا يخفى على المسلم هذه الخرافات العجيبة في عقيدة اليهود ، فسليمان عليه السلام يأمن للشيطان ، فيعطيه خاتمته ، وهو ملك وليس نبياً ! وملكه في خاتمته ، ولا حرمة للنبي حين يزني الشيطان بنسائه ويأتيهن كذلك في حيضهن ، ويهرب سليمان من الناس الذين أنكروه هائماً على وجهه ، ثم يرى خاتمته في بطن سمكة يصطادها! وحين يضع خاتمته في إصبعه يعرفه الناس والطير والجن!! وانظر إلى الطريقة التي استجر بها الشيطان مع أن سليمان يقتل الجني أو الشيطان كما جاء في الأثر بقوله بسم الله الرحمن الرحيم ويشير إلى الشيطان ، فيموت ، كما أن دخان الجبل من زفير الشيطان المحبوس وماء الجبل بوله!! .. إنها قصة من قصص ألف ليلة وليلة ليس فيها من الصدق قيدُ أنملة .. فالحمد لله على نعمة الدين الصحيح (الإسلام) .

ومن المضحك المبكي : أنني كنت أحاضر في أحد مساجد عمّان في تأملات تربوية في قصة النبيين الكريمين داوود وابنه سليمان عليهما السلام رمضان ١٤٢٨ للهجرة ، وتطرقْتُ للروايات الإسرائيلية الخرافية ووجوب النأي عنها وتحري الروايات الصحيحة . ففوجئت بعد يومين بإمام المسجد

يخبرني بأن إدارة الأوقاف تطلب مني التوقف عن الخواطر والدروس بحجة أنني أتحدث في السياسة التي
تخالف التوجه العام للسلام في أيامنا هذه !!!



تأملات تربوية في سورة ص (٤)

١- لا بد من الثواب والعقاب لأسباب منطقية ، منها :

أ- أن يأخذ العدل مجراه ، فيعاقب المقصر والمهمل ، ويثاب المجد والملتزم .

ب- أن لا يتساوى المتضادان في المعاملة فيُصاب الإيجابي بالإحباط ، ويزداد السلبي تقاعساً.

ت- أن يتأثر المحسن بالثواب فيزداد في الإحسان ، ويرتدع المسيء عن إساءاته.

ولهذا جاءت القاعدة الإلهية " أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، كالمفسدين في الأرض ، أم

نجعل المتقين كالفجار " توضح وجوب الثواب لمن أحسن ، والعقاب لمن أساء .

٢- خلق الله تعالى الإنسان ذا عقل وفؤاد ليتحمل المسؤولية المناطة به " إنا هديناه السبيل ، إما

شاكراً وإما كفوراً " ولم يُترك الإنسان ليصل بنفسه إلى الحق - فهو ضعيف - فأرسل الله الرسل وأنزل

معهم الكتب الهادية ليكون الطريق إلى الله تعالى بيّناً لا لبس فيه . وهنا يأتي دور التفكير والتدبر واتخاذ

القرار ، فلم يعد عذر لمعتذر ، ولا حجة لمقصر : " كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدّبروا آياته ، وليتذكر

أولو الألباب " فلئن حوسب الإنسان - إذا استبان الطريق ، ووضّح السبيل - بعد هذا فلا يلومن إلا

نفسه " من عمل صالحاً فلنفسه ، ومن أساء فعليها " .

٣- لو دخل أحدنا إلى بناء شامخ كبير ، فيه نظام دقيق يدل على حكمة وحكمة وحسن

تقدير ، وفيه ترتيب رائع لكل ما يحتاجه الداخل من أدق الأمور وأصغرهما إلى أعظمها وأكبرها فلا

شك أنه لن يتساءل عن سبب هذا ، فالبداهة تعرف أن من أنشأ هذا المكان وصرف عليه المال

الكثير، واعتنى بمداخله ومخارجه ، وحاول تأمين رغبات الناس يسعى من وراء ذلك إلى كسب ثقة

الزبائن وتحقيق الربح الوفير . والله المثل الأعلى حين نعرف أنه سبحانه خلق السماوات والأرض فأحسن

كل شيء خلقه ، وخلق الإنسان في أحسن تقويم وهياً له كل وسائل الحياة ، ثم بين له سبب خلقه

والحكمة من خلقه " وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون " وهداه السبيل ، ثم ترك له الخيار في الإيمان

والكفر ، ومن كان له عقل ولب تحمّل مسؤولية تصرفه، وخاض الامتحان لينجح أو يرسب . لكنّ

رحمة الله في امتحانه للبشر أنه وضع الأجوبة إزاء أسئلتها - على خلاف اختبارات الدنيا - فما على

الإنسان إلا أن يلتزم الأجوبة المقررة الواضحة ، فإن لم يفعل فقد ظلم نفسه وكان رسوبه نهائياً وجزاؤه

عسيراً " وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً ، ذلك ظن الذين كفروا ، فويل للذين كفروا من النار "

٤- ألم يقل الله تعالى محذراً من الشيطان وأحاييله " إن الشيطان لكم عدو ، فاتخذوه عدواً ، إنما يدعو حزيه ليكونوا من أصحاب السعير؟ " فما على العاقل إلا أن يحذر هذا العدو الأزلي الذي عصى الله تعالى، وآلى على نفسه أن يُغوي البشرية كلها ليكونوا معه في النار، فأقسم بالله ليسلكن كل سهل وصعب ليفسد الناس ، ولن ينجو من حبائله سوى اللاتذ بالله المتمسك بشرعه القويم . وتعال معي أخي الكريم نقرأ هذا الحوار بين رب العالمين الذي خلق الإنسان فأكرمه حين أمر الملائكة ومن كان معهم بالسجود لآدم عليه السلام ولذريته من بعده ، واستكبر إبليس أن يسجد فكان ملعوناً .. إنه حوار يدل على مكانة الإنسان المسلم في ميزان الله "

إذ قال ربك للملائكة إني خالق بشراً من طين

فإذا سوّيته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين

فسجد الملائكة كلهم أجمعون إلا إبليس استكبر وكان من الكافرين

قال: يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي؟ أستكبرت أم كنت من العالين؟

قال : أنا خير منه خلقتني من نار ، وخلقته من طين .

قال: فاخرج منها ، فإنك رجيم ، وإن عليك لعنتي إلى يوم الدين

قال : ربّ ؛ فأنظرني إلى يوم يُبعثون

قال : فإنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم

قال : فبعزتك ؛ لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين "

قال : فالحقّ ، والحقّ أقول : لأملأنّ جهنّم منك وممن تبعك منهم جمعين "

فمن أسلم قياده للشيطان أدخله النار معه . إن العاقل من اتعظ، وعرف عدوه فنأى عنه ، ولن

ينفعه الندم حين يقع في مصيدة الشيطان ويموت على ذلك .. إن الشيطان نفسه سيخبره - في جهنم

حين يُلقى معه - أنه كان يكذب عليه ليكون من الهالكين أصحاب السعير " وقال الشيطان لما قُضي

الأمر : إن الله وعدكم وعد الحق ، ووعدتكم ، فأخلفتكم .

وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم ، فاستجبتم لي ،
فلا تلوموني ، ولوموا أنفسكم ، ما أنا بمصرخكم ، وما انتم بمصرخي ،
إني كفرت بما أشركتموني من قبل ، إن الظالمين لهم عذاب أليم . "

٥- التوسط في الأمور ، وعدم التكلف سمة المسلم ، هذا حبينا المصطفى صلى الله عليه وسلم يقول: (لِلْمُتَكَلِّفِ ثَلَاثُ عِلَامَاتٍ : ١- يُنَازِعُ مَنْ فَوْقَهُ ، ٢- وَيَتَعَاطَى مَا لَا يَنَالُ ٣- وَيَقُولُ مَا لَا يَعْلَمُ) . وَرَوَى الدَّارَقُطْنِيُّ مِنْ حَدِيثِ نَافِعٍ عَنْ ابْنِ عُمَرَ قَالَ : خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ ، فَسَارَ لَيْلًا فَمَرُوا عَلَى رَجُلٍ جَالِسٍ عِنْدَ مَقْرَآةٍ لَهُ ، فَقَالَ لَهُ عُمرُ : يَا صَاحِبَ الْمَقْرَآةِ أَوَلَعَتِ السَّبَاعُ اللَّيْلَةَ فِي مَقْرَأَتِكَ ؟ فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : (يَا صَاحِبَ الْمَقْرَآةِ لَا تُخْبِرْهُ ، هَذَا مُتَكَلِّفٌ ، لَهَا مَا حَمَلَتْ فِي بَطُونِهَا ، وَلَنَا مَا بَقِيَ شَرَابٌ وَطَهُورٌ) . وَفِي الْمَوْطِئِ عَنْ يَحْيَى بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ حَاطِبٍ : أَنَّ عُمرَ بْنَ الْخَطَّابِ خَرَجَ فِي رَكْبٍ فِيهِمْ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ حَتَّى وَرَدُوا حَوْضًا ، فَقَالَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ : يَا صَاحِبَ الْحَوْضِ هَلْ تَرِدُ حَوْضَكَ السَّبَاعُ ؟ فَقَالَ عُمرُ : يَا صَاحِبَ الْحَوْضِ لَا تُخْبِرْنَا فَإِنَّا نَرُدُّ عَلَى السَّبَاعِ وَتَرِدُ عَلَيْنَا ، فَكَانَ عَمْرُو بْنُ الْخَطَّابِ تَلْمِيزًا لِلرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَجِيًّا . (المقرة : حوض فيه ماء) .

وعلى هذا تأتي القاعد البسيطة المريحة " وما أنا من المتكلفين " . والقاعدة القرآنية في عدم التكلف مشهورة . يقول الله تعالى " لا يكلف الله نفساً إلا وسعها .. "

٦ الإخاء في الله وحده الذي يدوم . وما عداه زائل . بل ينتقل عداوة شديدة في الدنيا قبل الآخرة . ألم يقل الله تعالى " الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين ؟ " فتعال معي إلى هذه المحاورة بين من كانوا يداً واحدة في الدنيا تقتل وتبطش ، فلما تداركوا في النار كانت الخصومة بينهم على أشدها ، لننظر إليهم في النار وهم يتخاصمون وتعلو أصواتهم :

" هذا فوج مقتحم معكم . لا مرحباً بهم ، إنهم صالوا النار " فيسمع هذا القول من جاء ، فيتحفر للجواب القوي المناهض يردون عليهم موبخينهم ، فالأولون سبب دخول من بعدهم النار " قالوا : بل أنتم لا مرحباً بكم ، أنتم قدّمتموه لنا ، فبئس القرار " ويشدد خصامهم ، فلا يبقى لهم إلا أن يدعوا بعضهم على بعض " قالوا ربنا ، من قدّم لنا هذا فردّه عذاباً ضعفاً في النار " أما أهل الجنة من إخوان الإيمان

والتقوى فهم " على سرر موضونة ، متكئين عليها متقابلين ، يطوف عليهم ولدان مخلدون بأكواب وأباريق وكأس من معين ، لا يُصَدَّعون عنها ولا يُنْزَفون ... " جعلنا الله من أهل الجنة الفردوس الأعلى .

٧- وأخيراً نجد في هذه السورة المباركة تكراراً لاسم الإشارة " هذا " مع اختلاف القصد والمعنى . وهذا التكرار نوع من جذب الانتباه وتثبيت المعنى في الذهن والقلب ليتمثل القارئ الأفكار ، ويعرف أي صنف ينبغي أن يكونه :

" هذا ذكر . وإن للمتقين لحسن مآب " هذا الذي قصصناه عليك يا رسول الله ...

" هذا ما توعدون ليوم الحساب " هذا جزاؤكم الذي وُعدتم به في الدنيا تلقونه الآن .

" إن هذا لرزقنا ما له من نفاد " هذا النعيم عطاؤنا لأهل الجنة ، لا ينفد .

" هذا وإن للطاغين لشرّ مآب " هذا بمعنى أما بعد ، فقد انتهى حديثنا بها عن أهل الجنة .

" هذا فليذوقوه ، حميم وغساق " هذا هو العذاب ، فليذوقوه.

" هذا فوج مقتحم معكم لا مرحباً بهم " هذا جمع كثيف أدخل النار لا مرحباً به .

وعودة إلى كتابي (من أساليب التربية في القرآن الكريم) يوضح للدارس اثني عشر هدفاً للتكرار بصيغ مختلفة .

نسأل الله تعالى أن يجعل عملنا خالصاً لوجهه الكريم ، وأن يتقبله منا ، إنه سبحانه خير مسؤول.

اقول مستعيناً بالله :

ياربنا

سعادة وخصنا	هيئ لنا من أمرنا
في الأفق من تقصيرنا	بالفضل منك إن بدا
وأنت يا سيدنا	زلُّ ، فنحن الضعفا
رضاك مفتاح الهنا	برّ رحيم غافر
هذي الحياة عمنا	وبرك الفائض في

تأملات تربوية في سورة الزخرف (١)

- سورة الزخرف في الجزء الخامس والعشرين ، وترتيبها في القرآن الثالثة والأربعون . آياتها تسع وثمانون ، قبلها (الشورى) وبعدها (الدخان) . واكتسبت اسمها الذي خصها الله تعالى به منذ الأزل من الآية الخامسة والثلاثين المتابعة لمعنى الآيتين الثالثة والثلاثين والرابعة والثلاثين في قوله تعالى " ولولا أن يكون الناس أمة واحدة وزخرفاً وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا "

- أورد القرطبي في معنى الزخرف : " الذهب " (وَزُخْرُفًا " أَي وَذَهَبًا قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُهُ . ثُمَّ بَيَّنَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّ ذَلِكَ مِنَ الدُّنْيَا الْفَانِيَةِ الزَّائِلَةِ الْحَقِيرَةِ عِنْدَهُ سَبْحَانَهُ ، فَعَجَّلَ بِجَسَنَاتِ الْكَافِرِينَ فِي الدُّنْيَا مِنْ مَأْكَلٍ وَمَشْرَبٍ وَمَلْبَسٍ لِيُؤَفِّقُوا الْآخِرَةَ وَلَيْسَ لَهُمْ عِنْدَهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى حَسَنَةٌ يَجْزِيهِمْ بِهَا كَمَا وَرَدَ بِهِ الْحَدِيثُ الصَّحِيحُ " لَوْ أَنَّ الدُّنْيَا تَزِنُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بُعُوضَةٍ مَا سَقَى مِنْهَا كَافِرًا شَرْبَةَ مَاءٍ " وَفِي رِوَايَةِ الطَّبْرَانِيِّ يَقُولُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ " لَوْ عَدَلْتُ الدُّنْيَا عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بُعُوضَةٍ مَا أُعْطِيَ كَافِرًا مِنْهَا شَيْئًا " وَأَكَّدَ ذَلِكَ سَبْحَانَهُ حِينَ قَالَ : " وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا " ثُمَّ صَرَّحَ سَبْحَانَهُ أَنَّ ثَوَابَ الْآخِرَةِ الْعَظِيمَ لِلْمُؤْمِنِينَ الْأَتْقِيَاءِ فَقَطْ ، فَقَالَ : " وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ " فَالثَّوَابُ لَهُمْ خَاصَّةٌ لَا يُشَارِكُهُمْ فِيهِ أَحَدٌ غَيْرُهُمْ . وَلِهَذَا نَفْهَمُ قَوْلَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ صَعِدَ إِلَيْهِ فِي الْمُشْرَةِ لَمَّا آلَى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ نِسَائِهِ فَرَأَاهُ عَلَى رِمَالٍ حَصِيرٍ قَدْ أَثَّرَ بِجَنْبِهِ فَاِبْتَدَرَتْ عَيْنَاهُ بِالْبُكَاءِ وَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ هَذَا كِسْرَى وَقَيَّصَرُ فِيمَا هُمَا فِيهِ - مِنَ النِّعَمِ - وَأَنْتَ صَفْوَةُ اللَّهِ مِنْ خَلْقِهِ وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُتَّكِئًا فَجَلَسَ وَقَالَ " أَوْ فِي شَكِّ أَنْتَ يَا ابْنَ الْخَطَّابِ ؟ " ثُمَّ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ " أُولَئِكَ قَوْمٌ عَجَّلَتْ لَهُمْ طَبِيبَاتُهُمْ فِي حَيَاتِهِمُ الدُّنْيَا " وَفِي رِوَايَةٍ " أَمَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ لَهُمُ الدُّنْيَا وَلَنَا الْآخِرَةُ ؟ " وَفِي الصَّحِيحِ أَيْضًا وَغَيْرُهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ " لَا تَشْرَبُوا فِي آنِيَةِ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ . وَلَا تَأْكُلُوا فِي صِحَافِهَا فَإِنَّهَا لَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَنَا فِي الْآخِرَةِ " وَإِنَّمَا حَوَّلَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى فِي الدُّنْيَا لِحَقَاقَتِهَا .

والأساليب التربوية في هذه السورة المباركة كثيرة ورائعة نقف على ثمانية منها

في هذا المقال الأول مستعينين بالله سبحانه ، فنقول :

- الأسلوب التربوي الأول : جذب الانتباه كي لا يضيع شيء مما يقال ، فلا نبدأ بالحديث قبل أن ينتبه الحاضرون فلا تفوتهم فكرة ولا جملة ، وأساليب التنبيه كثيرة كما مرّ معنا في التأمّلات السابقة ، نذكر منها السؤال الذي لا يحتاج جواباً ، وتثبيت النظرات في وجوه السامعين مع التحية والسلام ، الجمل المفتاحية التي اعتاد الآخرون سماعها في بدء الحديث ، ،،، وهنا نجد الآية الأولى التي حملت حرفين تكررًا " حم " في سور سميها " الحواميم " كما يجتمع في " حم " أسلوب آخر هو التعظيم ، لما ورد أنّها من أسماء الله الحسنى قالها بعض المفسرين .

- الأسلوب التربوي الثاني : القسم ، ونجد القسم في القرآن الكريم عشرات المرات ، ووظيفته التأكيد ودفع الشكّ والريبة . ويؤيّد القسم أكله حين يصدر عن عظيم لا شك في صدق قوله وصواب حديثه " والكتاب المبين " ولله سبحانه أن يحلف بما شاء فهو خالق الأشياء ومبدعها ، وهنا يحلف الله تعالى بالقرآن الكريم كلام الله تعالى الذي لا يأتيه الباطل ، المنزل على رسوله الكريم بالوحي الصادق المتعبّد به ، الذي عرّفنا بالله تعالى فأما به وأقرنا بربوبيته وألوهيته فرضينا به رباً . وللعبد أن يقسم فقط بالله الخالق سبحانه لقول النبي صلى الله عليه وسلم " من كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت " فلا يُحلف إلا بالعظيم لتأكيد الصدق أولاً وليخاف الإنسان من الكذب حين يقسم بمن يعلم السرّ وأخفى ، فيتجنب الكذب . أما كثرة الحلفان بسبب وغير سبب فدليل النفاق والادّعاء الكاذب . وأما الحلف بغير الله كالشرف والمروءة والغوالي وما شابه ذلك من أمور تخالف الشرع فلا قيمة لها عند المسلم الحق .

- الأسلوب التربوي الثالث : أن تخاطب الآخرين بلغة يفهمونها وكلام مناسب لأفهامهم . فمهمة الحديث الإعلام والإفهام وتقريب المراد والوصول إلى الإيمان به وتصديقه ثم العمل له والدعوة إليه . ولن يكون هذا إلا بمراعاة مقتضى الحال ، وهذه حقيقة البلاغة . وتقول الحكمة " خاطبوا الناس بما يفهمون " ، ولكل سنّ أسلوب خطاب ، ولكل مستوى أسلوب حديث ، فلا يُبسّط الحديث ولا يُكرّر مع الذكي فيملّ ، ولا يُجترأ مع البسيط فيُغلق عليه . والداعية الناجح من عرف كيف يخاطب الناس جميعاً فيجذبهم ويتفاعلون معه . يقول تعالى " وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه " لماذا أرسل النبي بلسان قومه؟ " ليبيّن لهم " .

- الأسلوب التربوي الرابع : التعظيم والتوقير هذا ما وجدناه قبل قليل في الأسلوب الأول حين أشرنا إلى عظمة الحرفين " حم " ونجد التعظيم كذلك في قوله تعالى " " وإنه في أم الكتاب لدينا لعليّ حكيم " فقدم القرآن الكريم للسامع بطريقة فيها هيبة وتعظيم وتوقير ، فهو مثبت في اللوح المحفوظ عند رب العالمين ، فلا يتطرق إليه الفساد والبطلان والتحريف والضياع ، ولا التغير والتبديل ولا الاختلاف والتناقض ، وقد وصفه بالعلوّ والحكمة ، كيف لا وهو عند الله تعالى في أم الكتاب ؟! . وبهذا التعبير الواضح البين يقدمه للبشر قاطبة معظماً مكرماً .

- الأسلوب التربوي الخامس : المتابعة وعدم اليأس . إن من يؤمن بهدف كريم مفيد يعمل على إيصاله للناس ليستفيدوا منه ، فكيف لا يبذل جهده في ذلك وقد كُلف به ؟ والذي كُلف به رب العزة سبحانه ؟ هذا من ناحية . ومن ناحية أخرى نجد من يزهد في أمر مُهمّ لجهله به ، فيضيعه عليه . وعلى المسلم الداعية أن يعمل جاهداً لتعريف هؤلاء الزاهدين بخطأ انصرافهم عن الخير وتضييعهم إياه ، وهناك ناحية ثالثة لا بد من توضيحها ، فالداعية حريص على الناس يريد لهم أن يعرفوا الحق فيلتزموه في الدنيا لينجوا في الآخرة من عذاب أليم . وليبين لهم أنه " أنذر فأعذر " فلا يعتذرون حين تقع الواقعة أنه لم يأتهم نذير ، ولم ينصحهم ناصح ، ولم يدلمهم على الخير محب شفوق . كما أنه - أخيراً - لا ينبغي لأحد أن يئس من الدعوة إلى الحق ولو كان المدعوّ مجافياً مجانباً لا يهتم ولا يكثرث " أنضرب عنكم الذكر صفحاً أن كنتم قوماً مسرفين؟ "

- الأسلوب التربوي السادس : التحذير من الخطأ . يقول تعالى " وكم أرسلنا من نبي في الأولين " هذه كم الخبرة التي توضح تتابع المصلحين يحذرون وينبهون ويدعون البشرية للصواب وإلى النهج الحق . فلما استهزأ الكافر المدعوّ وأبى الإجابة وقع في المحذور وندم حيث لا ينفع الندم . " فأهلكنا أشدّ منهم بطشاً " ولعلّ القويّ المغرور بقوته وماله يظن الحال المؤقتة - التي هو فيها من عز وغنى - دائمة فيبطر ويتكبر على الحق ويشتط في الضلال ، فيُنبّه إلى أن من سبقه كان أعنى منه وأشدّ ، فانتهى إلى خزي وعار ، فلا يقعنّ فيما وقع فيه سابقوه ، والعاقل من اتعظ بغيره ، والغبي من اتعظ بنفسه ، فسقط في الهاوية على أمّه فلا نجاة .

- الأسلوب التربوي السابع : الحوار الهادف . ويكون الحوار هادفاً حين يبدأ من المسلّمات

، ويتدرّج إلى غيرها ، فالكفار يعرفون أن الله تعالى خالق السموات والأرض وهو الذي ملأهما بالخير الذي يعيشه الناس وأن الله تعالى خلق في الأرض من كل شيء زوجين للتكاثر وخلق ما يستعمله الناس وما سخره الله لهم وهم يقرون بذلك ، فينتقل الحوار إلى وجوب شكر المنعم وحده وعدم ظلم الله في وحدانيته وفي عبادتهم إياه ونرى هذا جلياً في الآية التاسعة إلى الآية الرابعة عشرة ، وفي آيات بعدها متفرقة إلى آخر السورة لا تخفى على النبيه .

- الأسلوب التربوي الثامن : الذي يؤكد القرآن فيه وهو يحاورهم على التفكير المنطقي

الذي يقود صاحبه العاقل إلى الحق فيلتزمه ، مثال ذلك أن من بيده الأمر لا يرضى لنفسه الدونية ولا يترك لعباده الاستئثار بما يريدون فالكافر يجعل الملائكة إناثاً ويفتتتها بنات الله ، ويطلب في الوقت نفسه الذكور ويكره الإناث ، فإذا كان الإنسان يكره الإناث ويطلب الذكور - وهو العبد الضعيف - فلماذا يرضى الله لنفسه الإناث التي يمحقتها العبد الضعيف؟ ولماذا يعبد الإنسان الملائكة وهم في ظنه إناث وهو يكره الإناث ؟ بل إن الله تعالى يؤكد أن الملائكة عباد الله ليسوا من جنس البشر ولا يتوالدون كتوالدهم ، وهم خلق آخر لا علاقة لهم بكل أوهام البشر وتحيّئاتهم . وهذا ما نجد بعضه في الآيات الخامسة عشرة إلى الآية العشرين ، وقد يشوب الحوار تهديد كما في قوله تعالى في عبادة الملائكة وتأنيتهم " سئكتب شهداتهم ويسألون " " ما لهم بذلك من علم إنهم إلا يخزؤون " . وفي نقاش الكافرين فيما يعبدون لأنهم وجدوا آباءهم كذلك يفعلون دون التدبر والتفكير فيما يعبدون حتى نهاية الآية الخامسة والعشرين .. إن التفكير المنطقي يقود إلى فهم الحقيقة ومن ثم يقود إلى الإيمان الصحيح بالحقيقة الثابتة



تأملات تربوية في سورة الزخرف (٢)

١- الأسلوب التربوي الأول : العدل قوام الحياة ، فلا ينبغي أن يكون للمحبة أثر في العطاء — وإن كان هذا دأب الناس لأنهم عاطفيون — فللناس حقوق لا يصح أن نمنعها عنهم لكرهنا لهم ، أو أن نزيد في عطائهم على حساب غيرهم لحبنا إياهم ، فهذا ضد العدل الذي أمرنا المولى سبحانه أن نسير على هديه ، فقد قال تعالى في الآية الثامنة من سورة المائدة أمراً بالعدل " يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله ، شهداء بالقسط ، ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى ، واتقوا الله ، إن الله خبير بما تعملون " فالعدل أساس الحياة ، وبه تقوم الممالك وتستقيم أمور الدنيا ، وبالعدل نمتلك قلوب العباد ونواصيهم ، والأكبر من ذلك أننا نرضي الملك سبحانه . ومن أساسيات العدل أن الكافر إنسان فيه نوازع من الخير ينبغي أن يُثاب عليها في الدنيا ، فما له في الآخرة من نصيب ، وعلى هذا نجد غير المسلمين — في الغالب — أكثر أموالاً ، يعيشون في مجبوحة ويسر جزاء هذا الخير الذي يعملونه ، ويخبرنا المولى سبحانه أنه لولا أن يُفتن الناس فيما بين أيدي الكفار — في الدنيا — من وسائل العيش المتقدمة والرخاء الذي يرفلون فيه لأعطاهم أكثر وجعل يبوئهم قمة في الترف والهناء الزائل بعد حين " وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِيُؤْتِيَهُمْ سُقُفًا مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ (٣٣) وَلِيُؤْتِيَهُمْ أَثْوَابًا وَسُرُورًا عَلَيْهَا يُتَكَثُونَ (٣٤) وَزُخْرَفًا ۚ وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ (٣٥) " يقول القرطبي رحمه الله تعالى : ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى حَقَارَةَ الدُّنْيَا وَقِلَّةَ خَطَرِهَا ، وَأَنَّهَا عِنْدَهُ مِنَ الْهُوَانِ بِحَيْثُ كَانَ يَجْعَلُ بُيُوتَ الْكَفَرَةِ وَدَرَجَهَا ذَهَبًا وَفِضَّةً لَوْلَا غَلَبَةُ حُبِّ الدُّنْيَا عَلَى الْقُلُوبِ ؛ فَيَحْمِلُ ذَلِكَ عَلَى الْكُفْرِ . وَقَالَ الْحَسَنُ : الْمَعْنَى لَوْلَا أَنْ يَكْفُرَ النَّاسُ جَمِيعًا بِسَبَبِ مِيلِهِمْ إِلَى الدُّنْيَا وَتَرْكِهِمُ الْآخِرَةَ لِأَعْطَيْنَاهُمْ فِي الدُّنْيَا مَا وَصَفْنَاهُ ؛ لِهَوَانِ الدُّنْيَا عِنْدَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ

٢- الأسلوب التربوي الثاني : درء المفاتن والمفاسد في المقابل نجد رحمة المولى تعالى في تثبيت قلوب المؤمنين الذين يرون الكفار يمتلكون وسائل الرفاهية في الدنيا — وهم كفار — فلا يمد للكافرين ما كان يودّ زيادتهم فيه خشية أن يفتن المسلم ما يراه عندهم ، فيظن أنهم على حق ، فيتفنن شيطانه في

غوايته ويزين له الكفر والعصيان ، والدنيا - كما نعلم - مرحلة الاختبار والفتنة ، وموطن الامتحان فلا بد أن يمتحن الإنسان بما يناسب قدرته في التحمل . إذ يضعف حين يُحْمَل ما لا طاقة له به . فيُعْطَى الكافر نصيبه في الدنيا - كما ذكرنا آنفاً - بما يناسب صبر المسلم على لأواء الحياة وشدتها . ولن ينجح أحد في امتحان أكبر من إمكاناته .

٣- الأسلوب التربوي الثالث : الرجل المناسب في المكان المناسب . كبير مكة : الوليد ابن

المغيرة ، وكبير الطائف : عروة بن مسعود الثقفي كانا ثريين يقصدهما الناس لغناهما ومكانتهما في قومهما ، ويظن الناس أن كثرة المال تكريم لصاحبه ، وقتله إهانة له ، ونسوا أن العطاء قد يكون محنة ، وقد يكون منحة وقد صوّر القرآن مفهوم الناس هذا في معرض التصويب حين قال في سورة الفجر " فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول : ربي أكرمّن، وأما إذا ما ابتلاه ، فقد ر عليه رزقه فيقول : ربي أهاننّ ، كلاً " . فلما بُعث النبي صلى الله عليه وسلم ، ولم يكن ذا مال اعترضوا " وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١) " يقصدون الرجلين الوليد وعروة . وغاب عنهم أن الرزق أنواع ، فقد يكون مالاً وقد يكون فهماً أو جمالاً في الصورة أو الأخلاق أو كليهما أو في كل ما ذكرناها . ورحم الله الشاعر حافظ إبراهيم إذ تنبه لهذا الأمر فقال :

فالناس هذا حظه مال وذا علم وذاك مكارم الأخلاق

وقد ربى الله تعالى نبيه الكريم على الشمائل الحميدة وجعله كاملاً المظهر والمخبر أهلاً لحمل الرسالة العظيمة . وما لأحد أن يفرض ما يريد ، فله سبحانه الأمر كله يصطفي من يشاء من عباده لما يريد من الكرامة وحمل الأمانة " أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (٣٢) " . وما على العباد إلا أن يقولوا " سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير " .

٤- الأسلوب التربوي الرابع : الاستكبار يمنع اتباع الحق : وقرأ معي هذا الحوار القصير الذي

يدل على العناد والاستكبار عن الحق والتمادي في الضلال الذي يقود إلى الهلاك : " بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُّهْتَدُونَ (٢٢) وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُّقْتَدُونَ (٢٣) قَالَ أُولُو جِثَّتِكُمْ بَأْهَدَىٰ مِمَّا

وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ ۖ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (٢٤) فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ ۖ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ (٢٥)"

فهم يَنَافُونَ عن الإيمان لما جاءهم حين يَأْتُونَ الحق ومخالفة كفر الآباء ، ويدعون أنهم " مهتدون " و بهم " مقتدون " . والمترف - في كل زمان - يقود من دونه إلى الكفر والضلال وسوء الخاتمة ، " وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِإِلقاءِ الْآخِرَةِ وَأَتَرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ (٣٣) سورة " المؤمنون " فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ ، وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مجرمين ١١٦ " سورة هود " وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (٣٤) " سور سبأ

" إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ (٤٥) سورة الواقعة " وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا (١٦) "

إن الترف مفسدة أي مفسدة ، والغنى - إلا من رحم ربي - قد يقود إلى الطغيان والجبروت ، ألم يقل الله تعالى مقررًا هذه السمة " إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى " سورة العلق .

فهؤلاء المترفون لا يرومون البعد عن ضلال آبائهم ، فإذا ما نبههم الرسول الكريم إلى أن آباءهم كانوا على ضلال وأنه يدعوهم إلى الحق وإلى طريق مستقيم ردّوا بصلف واستعلاء : إنهم سادرون في غيهم ولن يبرحوا ما كان عليه آباؤهم . فكان في تدميرهم هلاكهم . وهذا مصير مل متكبر عنيد .

٥-الأسلوب التربوي الخامس يداك أوتكتا وفوك نفخ : من سار على درب تحمّل تبعته ، ومن طلب الهدى أعين عليه ومن أراد الغواية سهّلت له . هذه قاعدة قرآنية نجدها في قوله تعالى " وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ (٣٦) " ويعضدها قوله تعالى في سورة الإسراء " مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا (١٨) وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا (١٩) كَلَّا تُمَدِّدُ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا (٢٠) " فمن طلب الدنيا أعطي منها بما يقدره الله تعالى ، ومن طلب الآخرة وعمل لها أدركها ، والله يمد الطرفين بما يطلبان . ومن يتعالم ويتعافل

وَيُعْرِضُ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ يُوَكَّلُ إِلَى شَيْطَانٍ رَجِيمٍ يَقُودُهُ إِلَى هَلَاكِهِ ، ويستمر معه إلى النار ، فهو قريبه في الدارين كَقَوْلِهِ تَعَالَى " فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ " وَكَقَوْلِهِ جَلَّ جَلَالُهُ " وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ " . فإذا ما سقط في الهاوية تنبّه حيث لا يفيد التنبّه ، وندم حيث لا ينفع الندم " حَتَّى إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ (٣٨) " إنه رضي بصحبة الشيطان وسار على رأيه فاستحق صحبته في النار شاء أم أبى . فبئس القرين .

٦- **الأسلوب التربوي السادس : القرآن شرف المؤمن :** أراد الله تعالى أن يعلي من شأن المؤمن فكان القرآن أداة الشرف والسؤدد والكرامة ، ألم يقل الله تعالى " لقد أنزلنا إليكم كتاباً فيه ذكركم ، أفلا تعقلون ؟ " الأنبياء (١٠) والذكر علوٌ في المكانة وسموٌ فيها ، فمن عمل بما فيه فقد استوى مسلماً رضيعاً ، وكان سيد الأمم . كانت العرب قبائل متفرقة متناحرة فجمعها الله بالقرآن وأعزّها به فسادت الدنيا ، فلما تركته ذلّت وتناولتها الأمم تمزيقاً وتقسيماً . ومن عجيب التعبير ذلك القسم الرائع في سورة (ص) إذ يقسم الله تعالى بالقرآن الذي يرفع قدر صاحبه " ص ، والقرآن ذي الذكر " وهنا - في سورة الزخرف - يؤكد القرآن القاعدة نفسها حين أنزله بلسان العرب " إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٣) " ثم أعلن أن هذا القرآن يرفع ذكر من عمل به ودعا إليه ، ولسوف يحاسب الناس عما فعلوه في خدمة هذا الكتاب الكريم . وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ (٤٤)

إن العاقل من يسعى للشرف والمكانة السامية ، وهذا القرآن يقدمها له على طبق من نور فيسرع إليه وليتخذ نبراساً .

٧- **الأسلوب التربوي السابع : وجوب التفكير والتدبر :** الفرق بين الإنسان والحيوان أن الأول عقلاً ولثاني غريزة ، وأن الحر يفهم ويتدبر ، والعبد يسر وراء كل ناعق . هذا سيدنا موسى يدعو قومه إلى توحيد الله سبحانه ، ويعلن أنه رسول الله إليهم ، فيؤمن به القلة ، ويسخر منه الهالك ذو الهوى ، فيأتيهم بالأدلة والبراهين ، فيزدادون بعداً وسفاهة ، فيأخذهم الله بشيء من العذاب - القمّل والضفادع والدم - لعلمهم يرعون ، فيراوغون ويسوّفون ، ويسمونه بالسحر والشعوذة ويتعالى فرعون مدّعياً الألوهية ، وبطالبه بحقير من الأدلة على رسالته "

فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ (٥٣)، " والبراهين الدامغة تترى من حوله دون أن يعقل، أو يفهم الغاؤون حوله ، لقد أسلموه قيادهم فاستحكم فيهم، واستعلى عليهم ، ولو أنهم تدبروا الآيات والبراهين التي يعيشونها - ليل ونهار وشمس وقمر وماء وشجر وحياة وموت- لوصلوا إلى الحق الأبلج . ولكنهم استجابوا لكبيرهم فرعون وخافوا سلطانه وهيمنته فأطاعوه ، وسكنوا إليه . وتخلوا عن الهداية وغاصوا في لجج الفساد والهوى " فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَطَاعُوهُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (٥٤) " وما يطغى طاغية إلا بذل أتباعه وتخليهم عن آدميتهم ، وانغماسهم في الفساد والرذائل . فكانوا معه في وهدة الباطل وحمأة الجهالة . لن ترى أمة قوية إلا إذا قالت للظالم يا ظالم ، وكان أفرادها بعضهم عوناً لبعض في السير على النهج القويم .



تأملات تربوية في سورة الحجرات

يا أيها الذين آمنوا: لماذا ناداهم ولم ينادِ غيرهم؟ حين يكون في الأمر شرع ونظام للمسلمين ينادون وحدهم لأنهم المكلفون بالتنفيذ ، وقد ورد النداء (يا أيها الذين آمنوا) في القرآن تسعاً وثمانين مرة ، وحين يكون الدعاء للدعوة والإيمان بالله نسمع (يا أيها الناس).

- إطاعة الله والرسول فرض ن وهذا ما رأيناه في جوابه للرسول صلى الله عليه وسلم حين أرسله إلى اليمن حاكماً : بم تحكم يا معاذ؟ فقدم القرآن ثم سنة النبي ثم يقول برأيه الذي لا يخالف الشرع والسنة .

- ولا يرأي لاحدٍ خلاف السنّة ولا يُقال بين يديه صلى الله عليه وسلم قبل كلامه.

- الإدلاء بالرأي بعد الإذن / نحن أتباعه ونصدر عن سنته وشرعه/ فلا يتكلم أحد من أصحابه صلى الله عليه وسلم إلا بإذن رسول الله ، ومن بعده لا رأي إلا بما يوافق سنته.

- التقوى من سمات المسلم، وقد كرر ذكر التقوى في هذه السورة دلالة على التحلي بها.

- مراقبة الله تعالى فهو يرانا، ومن الإحسان أن نعبد الله كأننا نراه فغن لم نكن نراه فإنه سبحانه يرانا

- عدم رفع الصوت أمام النبي وفي مسجد النبي صلى الله عليه وسلم، عمر يكاد يضرب غريبين علا صوتهما في المسجد.

- احترام العلماء والكبار ، وخاصة الآباء والأمهات ومن فوقهم. من فعل ذلك نال الأجر الكبير.

- علا صوت الصديق والفاروق في حضرة النبي صلى الله عليه وسلم حين جاء بنو تميم فاقترح

الصديق أن يكون القعقاع بن معبد أميرهم وقال الفاروق بل الأقرع بن حابس ، فنزل قوله سبحانه

يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي. فكان الصديق لا يتحدث إلا كأخي

السرار وكان الفاروق يهمس حتى يستبين الرسول كلامه مرات ومرات.

- والأنصاري ثابت بن قيس (صوته جهوري): هو من أهل الجنة قتل يوم اليمامة ، ترك مجلس النبي

صلى الله عليه وسلم خوف أن يحبط عمله ، فلما افتقده رسول الله صلى الله عليه وسلم وعرف

السبب أدناه وقال له: تعيش حميدا وتموت شهيداً .

- قد يجبط العمل دون الإحساس به. (أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون.) فعلى المرء أن يكون حذراً
- في انتظار العالم للاستفادة منه والصبر عليه أجر كبير ، وهذا ما رأيناه في قوله تعالى (ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيراً لهم.)
- البحث عن الحقيقة ووضوحها (إن جاءكم فاسق) - هذا ما نراه في عودة الوليد بن عقبة الذي أرسله النبي صلى الله عليه وسلم إلى بني المصطلق يجي زكواتهم وصدقاتهم فعاد خائفاً منهم يقول غير الحق فقدم ضرار بن الحارث والد أم المؤمنين جويرية وزعيم بني المصطلق يحمل الزكاة ، ويوضح خطأ الوليد ، فمن حكم دون دليل قد يندم إذ يقع في الخطأ ، ويقدم صورة غير حقيقية لما يجري.
- طاعة المسؤول المسلم واجبة فما يصدر منه بعد الاستشارة إلا الحكم الأقرب للصواب " ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السماوات والأرض ومن فيهن بل أتيناهم بذكرهم فهم عن ذكرهم معرضون " وعلى المرءوس أن يطيع الحاكم المسلم فتقوم الحياة بالقسط والراحة والأمان.
- عن أبي رفاعة الزرقني عن أبيه قال لما كان يوم أحد وانكفأ المشركون قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " استوتوا حتى أثني على ربي عز وجل " فصاروا خلفه صفوفاً فقال صلى الله عليه وسلم " اللهم لك الحمد كله اللهم لا قابض لما بسطت ولا باسط لما قبضت ولا هادي لمن أضللت ولا مضل لمن هديت ولا معطي لما منعت ولا مانع لما أعطيت ولا مقرب لما باعدت ولا مباعد لما قربت اللهم ابسط علينا من بركاتك ورحمتك وفضلك ورزقك اللهم إني أسألك النعيم المقيم الذي لا يحول ولا يزول اللهم إني أسألك النعيم يوم العيلة ، والأمن يوم الخوف اللهم إني عائد بك من شر ما أعطيتنا ومن شر ما منعنا ، اللهم حبب إلينا الإيمان وزينه في قلوبنا وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان واجعلنا من الراشدين ، اللهم توفنا مسلمين وأحينا مسلمين وألحقنا بالصالحين غير خزايا ولا مفتونين اللهم قاتل الكفرة الذين يكذبون رسلك ويصدون عن سبيلك واجعل عليهم رجزك وعذابك ، اللهم قاتل الكفرة الذين أوتوا الكتاب ، إله الحق " ورواه النسائي.
- كل الخير من الله ، وهو سبحانه يعلم الهداة من الضالين (فضلاً من الله ونعمة والله عليم حكيم). ومن اطاع ربه نال الخير في الدارين.

- قد تتخاصم فئتان من المسلمين فيجب الإصلاح بينهما، فإن فجرت إحداهما فإنه ينبغي قتالها لتعود إلى الحق وتخضع له، ولا بدّ من العدل والعمل به فالله يحب العدل وأهله. " إن المقسطين في الدنيا على منابر من لؤلؤ بين يدي الرحمن عز وجل بما أقسطوا في الدنيا " ولا ينبغي للحاكم أن يجابي في الحق أحداً .
- (لا تحاسدوا ، ولا تناجشوا (الزيادة في ثمن السلعة لا يُريد شراءها) ، ولا تباغضوا ، ولا تدابروا ، ولا يبيع بعضكم على بيع بعض ، وكونوا عبادَ اللَّهِ إخواناً المسلم أخو المسلم ، لا يظلمُهُ ولا يخذله ، ولا يحقرُهُ التَّقوى ههنا ويشيرُ إلى صدره ثلاثَ مرَّاتٍ بحسبِ امرئٍ منَ الشَّيْءِ أن يحقرَ أخاهُ المسلمَ ، كلُّ المسلمِ على المسلمِ حرامٌ ، دُمُهُ ، وماله ، وعِرْضُهُ وفي روايةٍ : قَالَ رسولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ : فَذَكَرَ نحوَ حديثِ داودَ ، وزادَ ، ونقصَ وممَّا زادَ فيه إنَّ اللَّهَ لا ينظرُ إلى أجسادِكُم ، ولا إلى صورِكُم ، ولكنَّ ينظرُ إلى قلوبِكُم وأشارَ بأصابعِهِ إلى صدرِهِ .)إنها تعاليم الحق التي تبني مجتمعاً مسلماً منظماً متآلفاً.
- النهي عن السخرية : السخرية بالناس وهو احتقارهم والاستهزاء بهم كما ثبت في الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال " الكبر بطر الحق وغمص الناس - ويروى - وغمط الناس " والمراد من ذلك احتقارهم واستصغارهم وهذا حرام فإنه قد يكون المحتقر أعظم قدرا عند الله تعالى وأحب إليه من الساخر منه المحتقر له ؛ ولهذا قال تعالى " يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن " فنص على نهي الرجال وعطف بنهي النساء وقوله تبارك وتعالى " ولا تلمزوا أنفسكم " أي لا تلمزوا الناس والهماز اللماز من الرجال مذموم ملعون كما قال تعالى " ويل لكل همزة لمزة " والهمز بالفعل واللمز بالقول كما قال عز وجل " هماز مشاء بنميم " أي يحتقر الناس ويهمزهم طاغيا عليهم ويمشي بينهم بالنميمة وهي اللمز بالمقال ولهذا قال ههنا " ولا تلمزوا أنفسكم "
- البعد عن اللمز من سمات المسلم " ولا تلمزوا أنفسكم " أي لا يطعن بعضكم على بعض وقوله تعالى " ولا تنازروا بالألقاب " أي لا تداعوا بالألقاب وهي التي يسوء الشخص سماعها قال الإمام أحمد حدثنا إسماعيل حدثنا داود بن أبي هند عن الشعبي قال حدثني أبو جيرة بن الضحاك قال

فينا نزلت في بني سلمة " ولا تنابزوا بالألقاب " قال قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة وليس فينا رجل إلا وله اسمان أو ثلاثة فكان إذا دعا أحدا منهم باسم من تلك الأسماء قالوا يا رسول الله إنه يغضب من هذا فنزلت " ولا تنابزوا بالألقاب "

- وهناك تهديد ووعيد (بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان). وينبغي للمرء أن ينادي أخاه بما يحب ويرضى، وهذا يقرب النفوس ويُذهب الأحقاد والضغائن.
- الظن وهو التهمة والتخون للأهل والأقارب والناس في غير محله لأن بعض ذلك يكون إثما محضاً فليُجتنب كثير منه احتياطاً . قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه " ولا تظن بكلمة خرجت من أخيك المؤمن إلا خيراً وأنت تجد لها في الخير محملاً ، وقال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال رأيت النبي صلى الله عليه وسلم يطوف بالكعبة ويقول " ما أطيبك وأطيب ريحك ما أعظمك وأعظم حرمتك والذي نفس محمد بيده لحرمة المؤمن أعظم عند الله تعالى حرمة منك ماله ودمه وأن يُظن به إلا خيراً " وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث ولا تجسسوا ولا تحسسوا ولا تنافسوا ولا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخواناً "

- وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " ثلاث لازمات لأمتي : الطيرة والحسد وسوء الظن " فقال رجل وما يذهبهن يا رسول الله ممن هن فيه ؟ قال صلى الله عليه وسلم " إذا حسدت فاستغفر الله وإذا ظننت فلا تحقق وإذا تطيرت فامض " ويقول " إنك إن اتبعت عورات الناس أفسدتهم أو كدت أن تفسدهم " ما أروع هذه الكلمات المضيئة.

- ولا تجسسوا " على بعضكم بعضاً، والتجسس غالباً يطلق في الشر ومنه الجاسوس وأما التجسس فيكون غالباً في الخير كما قال عز وجل إخباراً عن يعقوب أنه قال " يا بني اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا من روح الله " وقد يستعمل كل منهما في الشر كما ثبت في الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال " لا تجسسوا ولا تحسسوا ولا تباغضوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخواناً " وقال الأوزاعي التجسس البحث عن الشيء والتجسس الاستماع إلى حديث القوم وهم له كارهون أو يتسمع على أبوابهم

- وفي السورة النهي عن التدابر : وهو الصرم .رواه ابن أبي حاتم عنه وقوله تعالى " ولا يغتب بعضكم بعضا " فيه نهي عن الغيبة. قيل يا رسول الله ما الغيبة ؟ قال : صلى الله عليه وسلم " ذكرك أخاك بما يكره " قيل أفرأيت إن كان في أخي ما أقول ؟ قال صلى الله عليه وسلم " إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته " والبهتان : الكذب الشديد.
- عن عائشة رضي الله عنها قالت : قلت للنبي صلى الله عليه وسلم حسبك من صفية كذا وكذا قال غير مسدد تعني قصيرة فقال صلى الله عليه وسلم " لقد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته " فكم نفع هذه الأيام في بحار الغيبة !؟
- قالت وحكيت له إنسانا (قلّدتُه) فقال صلى الله عليه وسلم " ما أحب أني حكيت إنسانا وأن لي كذا وكذا " وكم نفعل هذا قصداً ومن غير قصد حتى صارت فينا والعياذ بالله عادة.
- والغيبة محرمة بالإجماع لا يستثنى من ذلك إلا ما رجحت مصلحته كما في الجرح والتعديل والنصيحة كقوله صلى الله عليه وسلم لما استأذن عليه ذلك الرجل الفاجر " ائذنوا له بئس أخو العشيرة " وكقوله صلى الله عليه وسلم لفاطمة بنت قيس رضي الله عنها وقد خطبها معاوية وأبو الجهم " أما معاوية فصعلوك، وأما أبو الجهم فلا يضع عصاه عن عاتقه " وكذا ما جرى مجرى ذلك ، ثم بقيتها على التحريم الشديد وقد ورد فيها الزجر الأكيد ؛
- ولهذا شبهها تبارك وتعالى بأكل اللحم من الإنسان الميت كما قال عز وجل " أوجب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه " فكما تكرهون هذا طبعاً فأكروهوا ذاك شرعاً فإن عقوبته أشد من هذا. وهذا من التنفير عنها والتحذير منها كما قال صلى الله عليه وسلم في العائد في هبته " كالكلب يقيء ثم يرجع في قيئه " وقد قال " ليس لنا مثل السوء "
- قال صلى الله عليه وسلم في خطبة حجة الوداع " إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا " وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " كل المسلم على المسلم حرام ماله وعرضه ودمه حسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم " ورواه الترمذي وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه لا

تغتابوا المسلمين ، ولا تتبعوا عوراتهم فإنه من يتبع عوراتهم يتبع الله عورته ومن يتبع الله عورته
يفضحه في بيته "

- قال النبي صلى الله عليه وسلم قال " من أكل برجلٍ مسلم أكلة فإن الله يطعمه مثلها في جهنم
ومن كسا ثوبا برجلٍ مسلمٍ فإن الله يكسوه مثله في جهنم ومن قام برجلٍ مقام سمعة ورياء فإن الله
تعالى يقوم به مقام سمعة ورياء يوم القيامة "

- قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لما عرج بي مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون
وجوههم وصدورهم قلت من هؤلاء يا جبرائيل ؟ قال هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون في
أعراضهم "

- حدّث عبيد مولى رسول الله ﷺ أن امرأتين صامتا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأن
رجلا أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله إن ههنا امرأتين صامتا وإنهما كادتا
تموتان من العطش أراه قال بالهاجرة فأعرض عنه أو سكت عنه فقال يا نبي الله إنهما والله قد ماتتا
أو كادتا تموتان فقال " ادعهما " فجاءتا قال فجيء بقدرح أو عس فقال لإحدهما " قيئي " فقاءت
من قيح ودم وصديد حتى قاءت نصف القدرح ثم قال للأخرى " قيئي " فقاءت قيحا ودم وصديدا
ولحما ودم عبيطا وغيره حتى ملأت القدرح ثم قال " إن هاتين صامتا عما أحل الله تعالى لهما
وأفطرتا على ما حرم الله عليهما جلست إحدهما إلى الأخرى فجعلتا تأكلان لحوم الناس " وهكذا
رواه الإمام أحمد عن يزيد بن هارون وابن أبي عدي كلاهما عن سليمان بن صوعان التيمي به مثله
أو نحوه ثم رواه أيضا من حديث مسدد عن يحيى القطان عن عثمان بن غياث حدثني رجل أظنه في
حلقة أبي عثمان عن سعد مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم أنهم أمروا بصيام فجاء رجل في
نصف النهار فقال يا رسول الله فلانة وفلانة قد بلغتا الجهد فأعرض عنه مرتين أو ثلاثا ثم قال "
ادعهما " فجاء بعس أو قدرح فقال لإحدهما : قيئي فقاءت لحما ودم عبيطا وقيحا وقال للأخرى
مثل ذلك ثم قال " إن هاتين صامتا عما أحل الله لهما وأفطرتا على ما حرم الله عليهما أتت
إحدهما للأخرى فلم تزالا تأكلان لحوم الناس حتى امتلأت أجوافهما قيحا " قال البيهقي كذا قال

- وعن سعد كنا مع النبي الله فارتفعت ريح جيفة منتنة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " أتدرون ما هذه الريح ؟ هذه ريح الذين يغتابون الناس ؟ " " طريق أخرى " قال عبد بن حميد في مسنده حدثنا إبراهيم بن الأشعث حدثنا الفضيل بن عياض عن سليمان عن أبي سفيان وهو طلحة بن نافع عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم في سفر فهاجت ريح منتنة فقال النبي صلى الله عليه وسلم " إن نفرا من المنافقين اغتابوا أناسا من المسلمين فلذلك بعثت هذه الريح " وربما قال " فلذلك هاجت هذه الريح "
- قال الجمهور من العلماء طريق المغتاب للناس في توبته أن يقلع عن ذلك ويعزم على أن لا يعود وهل يشترط الندم على ما فات ؟ فيه نزاع وأن يتحلل من الذي اغتابه ، وقال آخرون : لا يشترط أن يتحلله فإنه إذا أعلمه بذلك ربما تأذى أشد مما إذا لم يعلم بما كان منه فطريقه إذا أن يثني عليه بما فيه في المجالس التي كان يذمه فيها وأن يرد عنه الغيبة بحسبه وطاقته لتكون تلك بتلك
- عن النبي صلى الله عليه وسلم قال " من حمى مؤمنا من منافق يغتابه بعث الله تعالى إليه ملكا يحمي لحمه يوم القيامة من نار جهنم ومن رمى مؤمنا بشيء يريد سبه حبسه الله تعالى على جسر جهنم حتى يخرج مما قال " وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " ما من امرئ يخذل امرأ مسلما في موضع تنتهك فيه حرمة وينتقص فيه من عرضه إلا خذله الله تعالى في مواطن يحب فيها نصرته وما من امرئ ينصر امرأ مسلما في موضع ينتقص فيه من عرضه وينتهك فيه من حرمة إلا نصره الله عز وجل في مواطن يحب فيها نصرته " . وهذا ما ينبغي فعله ليرتدع الفاسق أن يذكر أخاه بسوء.
- وقد خلقنا الله تعالى من ذكر وأنثى : من رجل وامرأة فكلكم لآدم وآدم من تراب قعلام التكبر؟. وعلام التعاضم على الآخرين؟!
- الادعاء والامتنان مذمومان (قالت الأعراب آمنا ..) فعلمهم التواضع والوقوف على الحق، يكون الإسلام أولاً ، فإن التزم المسلم أمر الله وعمل بما يُرضيه صار مؤمناً وإن اجتهد في الخير والتزمه صار محسناً . إنه التدرُّج في الارتقاء ولعلنا نذكر الحديث الثاني في الأربعين النووية الذي رواه

الفاروق رضي الله عنه حين جاء جبريل يعلم الصحابة دينهم، فسأل عن الإسلام ثم الإيمان ثم الإحسان.

- لا ينقص الله من ثوابنا شيئاً ، قال تعالى: (وإن تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم من أعمالكم شيئاً " أي لا ينقصكم من أجوركم شيئاً كقوله عز وجل " ولعلنا نذكر قوله تعالى يؤكد هذا في سورة الطور حين قال عز من قائل: (والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شيء) .

- من هم المؤمنون الصادقون؟ "إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (١٥) الإيمان الصادق والثبات عليه ثم الجهاد في سبيل الله بالمال والنفس . إذ ذاك يستحق المرء صفة (الصادق) .

- ما ينبغي لأحد أن يتعالم بشيء لا يحسنه ولا يعلمه ، إنما يحيل العلم لصاحبه والأمر لذويه ، والله تعالى الذي نزل الكتاب هو العالم بالأمور يعلم نبيه وهو صلى الله عليه وسلم يعلمنا ، والدين دين الله وهو صاحب الأمر والنهي (قُلْ أَتَعْلَمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٦) لا يخفى عليه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر) " والله بكل شيء عليم " .

- " يمينون عليك أن أسلموا قل لا تمنوا علي إسلامكم " من الأعراب بإسلامهم ومتابعتهم ونصرتهم على الرسول صلى الله عليه وسلم ، فردَّ الله تعالى عليهم " قل لا تمنوا علي إسلامكم " فإن نفع ذلك إنما يعود عليكم ، والله المنة عليكم فيه " بل الله يمين عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين " في دعواكم ذلك كما قال النبي صلى الله عليه وسلم للأَنْصار يوم حنين " يا معشر الأنصار ألم أجدكم ضاللاً فهداكم الله بي ؟ وكنتم متفرقين فألفكم الله بي ؟ وكنتم عالة فأغناكم الله بي ؟ " كلما قال شيئاً قالوا : الله ورسوله أمّن . فالمنُّ لله ولرسوله .

- جاءت بنو أسد إلى رسول الله فقالوا يا رسول الله أسلمنا وقاتلتك العرب ولم نقاتلك فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إن فقهم قليل وإن الشيطان ينطق على ألسنتهم " ونزلت هذه الآية " يمينون عليك أن أسلموا قل لا تمنوا علي إسلامكم بل الله يمين عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين " .

تأملات تربوية في سورة القمر

" اقتربت الساعة وانشق القمر " ... لقد انشق القمر فلتتين حقيقة حين سأل أهل مكة النبي صلى الله عليه وسلم آيةً ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " إن فعلتُ تؤمنون ؟ " قالوا : نعم . وكانت ليلة بدر ، فسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم ربه أن يعطيه ما قالوا ، فانشق القمر فلتتين ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم ينادي المشركين : " يا فلان يا فلان اشهدوا " . فما بقي أحد في مكة إلا رأى نصف القمر على أبي قبيس ، ونصفه الآخر على ثعيقعان . فقال الكفار : هذا من سحر ابن أبي كبشة — يريدون النبي صلى الله عليه وسلم — سحرهم ، فاسألوا السفار ، فلما قدم المسافرون سألهم أهل قريش هل رأوا القمر فلتتين في يوم انشقاقه ؟ قالوا : قد رأينا . فثبت صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم . وازداد الكفار عتوّاً واستكباراً وقالوا " سحرٌ مستمر " أي شديد ، سحرهم محمد بسحره القوي المتمكن ... وقد روى بعض المؤرخين العرب في العصر الحديث اعتماداً على مؤرخ صيني قديم روى في تاريخه — وقد عاصر النبي صلى الله عليه وسلم — أنهم في الصين تعجبوا من رؤية القمر قسمين أحدهما في الشرق والآخر في الغرب فترة من الليل ثم عاد قسماً واحداً بل إن دارسي جيولوجيا القمر يعتقدون أن القمر قسمان ملتصقان .. فسبحان الله العظيم .

انشق القمر ، ولما تبدأ الساعة ، ولكنها قريبة كما أخبر المصطفى عليه الصلاة والسلام . ولو رتبنا الأمر حسب حدوثه أو تسلسل الحدوث حين تقوم الساعة لقلنا " انشق القمر واقتربت الساعة " . فلماذا قدم الساعة — ولم تحدث — على انشقاق القمر وقد حدث ؟. والجواب أنه تقدم ذكر الساعة — أ : لأهمية اليوم الآخر وضرورة الإيمان به .

- ب : ولأن من شق القمر — سبحانه — صادق في وعده بمجيء اليوم الآخر .

- ج : ولتنبيه الناس إلى خطورة الأمر ، والاستعداد لما هو آت .

لكن من ينظر ببصره لا ببصيرته ويتبع هواه لا يرى الحقيقة أبداً إنما يركب رأسه ويزداد عتوّاً واستكباراً وبعداً عن الحق وكفرّاً به . أعرضوا عن الحق واتبعوا أهواءهم وكذبوا الرسول فضلوا وزاغوا " وكذبوا واتبعوا أهواءهم " ومن تبع هواه ضيّع الطريق وتاه ، وغاص في أحواله " و من أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من

الله " .

وما أرسل الله من رسول إلا ونبهه إلى مصارع الكافرين ليعتبر الناس ويرعوا ، ويتفكروا ويتدبروا . وقد قص الله تعالى في هذه السورة الكريمة قصة نوح وهود وصالح ولوط وموسى مع أقوامهم . وحدد نهاية الكافرين المخيفة ليعتبر الإنسان ويختار الطريق الذي يرتثيه ، فإذا نال القصاص العادل والعذاب الذي ينتظر الكافر فقد أعذر من أنذر .

فالكفار من قوم نوح أغرقهم الله ، ونجى المؤمنين .

وقوم هود الكافرون اقتلعتهم الريح الشديدة ، وطوّحت بهم .

وقوم صالح المستكبرون أخذتهم الصيحة - الصاعقة - فكانوا كالقش اليابس المتفتت .

والكافرون قوم لوط طمس الله أعينهم ، ورجمهم ملائكته بالحجارة ثم قلبت بهم الأرض .

أما فرعون وجنده فأغرقهم الله تعالى في البحر ، فلم ينجُ منهم أحد .

وتدبر معي الجملة المكررة عند نهاية كل من قصص قوم نوح وهود وصالح " فكيف كان عذابي ونذر " للدلالة على شدة أخذ ربك للعاصين المتمردين حين يأخذهم أخذ عزيز مقتدر ، فيستأصلهم ، ويقطع دابرهم ، وكأنهم ما كانوا . وتأمل الآية حين تأتي بأسلوب آخر " فذوقوا عذابي ونذر " فالتذوق قمة السخرية والاستهزاء من قوم لوط فإن فعلتهم شنيعة مقرفة تستحق قبل الاستئصال أن يذوقوا العذاب ألواناً ، فطمس الله أبصارهم ، ثم رجموا بحجارة من سجيل منضود مسومة عند الله الممنتقم ، ثم جعل الله الجبار عالي قراهم سافلها .

وتدبر كذلك الآية الرائعة المكررة أربع مرات بعد القصص الأربع الأولى " ولقد يسرنا القرآن للذكر ، فهل من مدكر " ليحث الله تعالى الناس على قراءة القرآن ودراسته وفهمه للعمل به . فقد يسره للناس وأعانهم على فهمه ، وقص عليهم أنباء الأمم الغابرة مع أنبيائهم ، وعقبى أمورهم وأمور المرسلين ، لتكون حجة عليهم ، والتكرار أسلوب تربوي رائع لتثبيت المعنى في النفوس وتأصيله فيهاو " هل " حرف استفهام قال العلماء فيها : اللام للاستعراض ، والهاء للاستخراج . فالمفروض على أولي العقول أن يستعرضوا مصير الأمم فيؤمنوا بالله ، وينالوا الخير في الدارين . .. إن المسلم لا يرقى في درجات الفضل والكرامة إلا إذا أمعن في الفهم والتدبر .

وقد يخطر في بال أحدهم حين يقرأ " فتولَّ عنهم " أن يتركهم فلا يدعوهم إلى الله ، وهذا فهم خاطئ ، إن واجب الدعاة أن لا يوفروا طريقة في الدعوة إلى الله تعالى إلا سلوكها ، هذا واجبهم . لكن ليس عليهم أن يفرضوا على أحد أن يؤمن ، فالإيمان هبة من الله تعالى للسعداء " إنك لا تهدي من أحببت ، ولكن الله يهدي من يشاء " كيف هذا ؟! فالجواب : " وهو أعلم بالمهتدين " وهذا أمر دقيق ينبغي أن نفهمه فهماً صحيحاً .. فالله تعالى يعلم من يستجيب للإيمان ويتقبله فيهديه إليه . ولهذا كانت القاعدة الدعوية الواضحة " لا إكراه في الدين ، قد تبين الرشد من الغي " . وسيعلم الكفار سوء صنيعهم حين يخرجون من الأحداث استجابة للنفخ الثاني في الصور - ولات حين مندم - " يوم يدعو الداع إلى شيء نُكِّر " و " التَّكْرُ " هنا على قول بعض المفسرين : العذاب الشديد ، وأعتقد - كذلك - أنه يوم القيامة الذي كان الكفار ينكرونه ويأبون الإيمان به ، فيرون أنفسهم فيه فيخشعون ويدلون حين يعرفون الحقيقة " يقول الكافرون : هذا يوم عسر " وتأكيده في سورة المدثر " فذلك يومئذ يوم عسير ، على الكافرين غير يسير " . ويؤيد ذلك قراءة مجاهد وقتادة " نُكِّر " بصيغة المبني للمجهول .

وتصور ذلك الخروج الرهيب من القبور الذي يقشعر له جلدي كلما ذكرته وعشت في ظلاله - جعلنا الله من الآمنين - ففي هذه السورة " كأنهم جراد منتشر " وفي سورة القارعة " يوم يكون الناس كالفرش المبثوث " نجد موقفين مختلفين ، أحدهما : عند الخروج من القبور ، يخرجون فرعين لا يهتدون إلى أين يتوجهون ، فيدخل بعضهم في بعض ، فهم حينئذ كالفرش المبثوث بعضه في بعض ، لا جهة له يقصدها . ثانيهما : فإذا سمعوا المنادي قصده فصاروا كالجراد المنتشر ، فللجراد جهة يقصدها .

وتأمل كلمتي خشعاً... ومهطعين أما الخشوع فالذلة في النظر والخضوع للأمر والاستسلام لما هو آتٍ . وأضاف الخشوع للأبصار لأن أثر العز والذل يتبين في ناظر الإنسان . قال الله تعالى " خاشعة أبصارهم " وقال كذلك حين تظهر لهم النار ويعرفون أنهم إليها صائرون فلا يتجرؤون أن ينظروا إليها : " خاشعين من الذل ، ينظرون من طرف خفي " . وأما الإهطاع فالإسراع إلى مصدر الصوت مع فتح الآذان ومد العنق وتصويب الرأس والنظر إلى مصدر الصوت . . . مرحلة لا بد أن يجتازها الثقلان من إنس وجن . نسأل الله السلامة والنجاة .

حين دعا نبي الله نوح عليه الصلاة والسلام " أني مغلوب ، فانتصر " جاءه الفرج .. وهكذا يكون

المسلم مع ربه محباً له ، عائداً به ، معتمداً عليه . وقد نادى إبراهيم عليه صلوات الله ربه حين ألقاه الكفار في النار ، فصارت عليه برداً وسلاماً . وقال موسى واثقاً بربه متوكلاً عليه - حين أبدى قومه يأسهم من النجاة " إنا لمدركون " لما رأوا فرعون يجد إليهم السير بجنوده - " كلا ، إن معي ربي سيهدين . " فنجاهم الله وأغرق فرعون وجنده . وهذا الحبيب المصطفى عائداً من الطائف بعد أن طرده أهلها وآذوه ينادي ربه ، ويخاطبه بالدعاء المعروف الذي يأخذ بالقلوب " اللهم إني أشكو إليك ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس برحمتك يارب العالمين، أنت رب المستضعفين وأنت ربي إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهمني أم إلى عدو ملكته أمري؟ إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي، ولكن عافيتك أوسع لي ، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة أن يحل بي سخطك أو ينزل علي غضبك لك العتبي حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك "

فيرسل الله تعالى إليه جبريل مع ملك الجبال يستأذنه أن يطبق على أهل مكة الأخشبين ... ينادي النبي الكريم نوح ربه فيأتيه الفرج " ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر ، وفجرنا الأرض عيوناً ، فالتقى الماء على أمر قد قُدر ، وحملناه على ذات ألواح ودسرٍ " وتصور معي بقلب بصيرتك كيف تدفق الماء من السماء بما لا يتخيله البشر ، وأن الأرض كلها تفجرت أنهاراً ضخمة تخرج ما في بطنها من ماء يعلو ويعلو .. إن أكبر السفن لتغوص مهما كانت ضخمة الحجم ومحكمة الصنع حين تتجاوزها أمواج كالجبال ، بل تكسرهما بلطمة من موجة عملاقة فتحطمهما ، فكيف وأنهارٌ بل بحارٌ من ماء السماء تتصل ببحار الأرض؟! وأنى لهذه السفينة البدائية إذا ما قورنت بسفن هذا العصر العملاقة أن تظل فوق الماء وبين الماء دون أن تتلاشى؟! ... إن رب الماء والأرض والسماء يقول : " فاصنع الفلك بأعيننا ووحينا " وقال في مسير الفلك بأمانه سبحانه " تجري بأعيننا " إنها رعاية الله وعنايته ورحمته بالمؤمنين .. ألم يقل الله تعالى لموسى عليه السلام " واصطنعتك لنفسي " ألم يقل له كذلك : " ولتُصنع على عيني " ألم يقل لحبيبه محمد : " واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا ؟! فمن كان الله معه فممن يخافُ ولم يخافُ ، وعلام يخافُ؟ .

وتأمل معي الردَّ القاصم على تخرصات المشركين حين وصفوا نبي الله صالح بالكذب والتكبر والتعاضم في قوله تعالى : " ... بل هو كذاب أشترٌ ، سيعلمون غداً من الكذاب الأشر " إنه تهديد ووعيد ، وصفعة أليمة على وجوههم .. ثم هو رد اعتبار لنبي كريم افترى قومه عليه .

وانظر معي إلى شديد العذاب الذي كرر مرات عديدة بأسلوب خيف " فكيف كان عذابي ونُدُر " إنه والله عذاب شديد وقاس جداً بما لا يُتصور .

وما أقوى التهديد في قوله تعالى بلغة مهيمنة صادرة عن قوي جبار " سيهزم الجمع ويولون الدُّبُر ، بل الساعة موعدهم ، والساعة أدهى وامرّ إن المجرمين في ضلال وسُعُر يوم يُسحبون في النار على وجوههم : ذوقوا مسّ سقر " وما دامت آثار الأقوام الغابرين واضحة فلم لا يعتبر أصحاب العقول ؟ ألم يقل الله تعالى منبهاً أهل مكة وغيرهم إلى بقايا عاد وقوم شعيب يمرون عليها في أسفارهم وتجاراتهم " وإنهما لبإمام مبين " وهذا القرآن لنا وللعالم أجمع ، أفلا ينتبه الغافلون ويتدبر بنو البشر ؟

لنضع في شغاف قلوبنا قوله تعالى في إحصائه لحركاتنا وسكناتنا وتصوير كل أعمالنا :

" وكل شيء فعلوه في الزُّبُر "

وكل صغير وكبير مستطر "

فهل يخفى على الله شيء ؟ حاشا وكلا .. فمن كان ذا لب وقلب سليم وعقل حكيم كان من المتقين .. فما للمتقين يارب ؟

" إن المتقين في جنات ونهر " والجنات عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين .. "

في مقعد صدق عند مليك مقتدر " . فهنيئاً لمن كان للرحمن مصيره في رضا منه وفضل ورضوان ...



لقاء للدكتور عثمان قدرى مكانسي في قناة بغداد الفضائية آب ٢٠٠٩

برنامج (بين السطور)

تأملات تربوية في سور من القرآن الكريم

المقدم : تحية طيبة لكم مشاهدينا الكرام واهلا وسهلا بكم في حلقة جديدة في برنامج بين السطور نناقش اهل الثقافة والفكر نطلع على مكونات مؤلفاتهم نسلط الضوء على ما بين كتبهم وبين سطورهم انحاورهم ولنقدم لكم انتم ايضا مشاهدينا الكرام الجديد والمفيد عبر المكتبة الاسلامية كتابنا في هذه الحلقة تأملات تربوية في سور من القرآن الكريم للأستاذ الدكتور عثمان قدرى مكانسي والدكتور عثمان من مواليد حلب سنة سبعين وأربعمئة وتسعة مئة والف له اجازة في اللغة العربية من جامعة حلب وله ماجستير في اللغة العربية من جامعة البنجاب وكذلك دكتوراه في اللغة العربية من معهد الاستشراق في باكو أذربيجان .

له مؤلفات عديدة مشاهدينا الكرام في الشعر ديوان نبضات قلب وكذلك ديوان وميض قلب وديوان دفعه قلب وله ايضا مؤلفات في القصة : مدفع الافطار وقصص رواها النبي (صلى الله عليه وسلم) وقصص رواها الصحابة رضوان الله عليهم وفي رياض المصطفى (صلى الله عليه وسلم) كما أن له أيضاً كتباً - مشاهدينا الكرام - في التربية ، منها :

١- التربية النبوية ٢- ومن أساليب التربية في القرآن الكريم ٣- وصور من تأذي النبي في القرآن الكريم ٤- وتأملات في سور من القرآن . وها هي المجموعة التي سنناقشها في الحلقة من برنامج بين السطور وينشر ايضا في العديد من المواقع مثل موقع رابطة أدباء الشام وموقع صيد الفوائد . وله الكثير من المقالات في مواقع عديدة أمثال المختار الاسلامي ورابطة ادباء الشام والمركز الاعلامي للإخوان المسلمين السوريين واخبار الشرق ،ومركز الدراسات العربية والشرقية وجريدتي العروبة والزيتونة ونال جائزة جمعية المعلمين في الامارات سنة ١٩٩٥ عن كتابه التربية النبوية .

فرحبوا مشاهدينا الكرام بالأستاذ الدكتور عثمان مكانسي ...حياك ضيفا في برنامج بين السطور ...
دكتور ؛ (تأملات تربوية في سور من القرآن الكريم) استقصيت في هذا الكتاب مجموعة من السور بلغت ١٤ سورة ، سلطت فيها الضوء على جوانب تربوية في البداية نحب ان نسال عن احتواء الجوانب التربوية للسور المكية .

الدكتور عثمان قدرى: بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين وأفضل الصلاة وأتم التسليم على حبيبنا محمد اللهم صلي على سيدنا محمد.. يا اخي الكريم كان نبينا (صلى الله عليه وسلم) حينما بعث في مكة يربي الناس لم يكن هناك دولة وانما كان هناك مجموعات تزداد واحداً اثر واحد يربهم النبي (صلى الله عليه وسلم) على الدين الجديد يربهم كيف يكونون مسلمين يعلمهم كيف يكونون مؤمنين ، فكان التركيز على التربية والتركيز على الإيمان والتركيز على الإحسان ، وعلى هذا نجد السور المكية إنما كانت محتشدة بالسور التربوية والمعاني التربوية فاذا ما انتقل النبي (صلى الله عليه وسلم) الى المدينة المنورة كان هناك دولة وكان هناك مجتمع اسلامي لا بد لهذا وهذا من تربوية ، ثم من تشريع وكان هناك توازن ، وكان هناك تشريع اكثر ليواكب هذه الدولة الاسلامية الناشئة وبهذا لا غر وأننا نجد المرحلة المكية مليئة بالسور التربوية والأساليب التربوية .

المقدم: دكتور انت استقصيت في هذا الكتاب الذي أسميته تأملات تربوية عرضت فيه كثيراً من السور ابتداء من سورة هود ، يوسف ، مريم ، طه ، القصص ، الحجر وغيرها من السور سناتي اليها في درج الحديث عن هذه الجوانب التربوية . ولنبدأ من طوفان نوح وما ذكره الله سبحانه وتعالى في سورة هود ، فقد ذكرت في هذا الكتاب أن الانبياء كلهم رحماء بأقوامهم ، فاين هذه الرحمة من سيدنا نوح (عليه السلام) عندما دعا على قومه ؟ وأين نجد هذا الملمح التربوي الذي أشرت اليه في كتابك .

الدكتور عثمان قدرى: لعلك سيدي قصدت أن سيدنا نوحا عليه السلام قال " رب لا تذر على الارض من الكافرين ديارا إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يجدوا الا فاجرا كفارا " هذا ما قاله سيدنا نوح عليه السلام حينما شعر انهم كانوا معاندين وهذا ما يقوله أي انسان عندما ينزعج ، فيدعو لكننا نستشف رحمة الأنبياء بأقوامهم ان لم يكن بالجميل الصريحة فإننا نلمحها في قول الله سبحانه وتعالى لنوح " ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون " والله عز وجل ما ذكر هذه الآية الا لأنه سبحانه وتعالى - وهو يعلم الغيب - يعلم أن نوحا في اللحظة الاخيرة قد يتشفع فيهم حين يراهم يغرقون في الأمواج المتلاطمة واذا اراد الله عز وجل امرا فلا بد أن يكون . قال " ولا تخاطبني في الذين ظلموا " بماذا يخاطبه سيقول يا ربي هؤلاء قومي الذي عشت فيهم هؤلاء الذين دعوتهم ، فكانوا معاندين وكانوا كفارا ، إنهم قومي يارب فيا ربي أرجو ان تمدد لهم في الأجل لعلهم يرفعون هبهم فترة من الزمن وهكذا الانبياء وعلى رأسهم سيدنا نبينا

عليه الصلاة والسلام ، ولو نظرنا في سيرته المطهرة صلى الله عليه وسلم وجدنا الكثير من الرحمة فهو نبي الرحمة ولسوف آتيك بمثال في غزوته صلى الله عليه وسلم وهو يريد ان يفتح الطائف (بلاد ثقيف) ولم يستطع في بداية الامر أن يفتحها بل جاءه أهلها بعد عشرة اشهر مؤمنين مسلمين حاربوه ولم يؤمنوا . قال له اصحابه يا رسول الله ادعُ عليهم ، قال : لقد بعثت داعيا ، ولم ابعث لعاناً ، وهكذا كان أخوه سيدنا نوح (عليه السلام) كان رحيمًا بقومه بل إنه بقي فيهم تسع مئة وخمسين عاما وهذا الزمن الذي قضاه بينهم طويل ، كفروا به وآذوه ، ولم يدعُ عليهم ، وهذا من أعظم الدلائل على رحمته بهم ، صلى الله عليه وسلم

المقدم : هو انت ايضا استدعيت نماذج من خطابه ربما بعد ان اسنفذ كل الطرق حين دعاهم ليلا ونهارا ولم يزد هم دعاؤه لهم الا فرارا

الدكتور عثمان قدرى: " وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في أذانهم " هذا دليل على أنه صلى الله عليه وسلم لقي منهم الأمرين ، ولكن ما قاله دليل رحمة الانبياء بأقوامهم .

المقدم : تريد أن تقول : إن الدعاء بالخير للناس ورجاء الرحمة لهم أسلوب تربوي

الأستاذ الدكتور عثمان قدرى مكانسي : لا شك في ذلك ، لا شك في ذلك وأنا في كتاب " من

أساليب التربية في القرآن الكريم " استنبطت من القرآن تسعين أسلوبا تربويا ولكن بعد ذلك حاولت ان أقرب القريب فصار في الكتاب سبعون أسلوبا .

المقدم : هل الاهتمام بالتربية اختصاصك الدراسي ؟

الدكتور عثمان قدرى مكانسي : الحقيقة اني مختص بالأدب وأحب اللغة العربية كثيرا واهتمامي بها

شديد إلا انني اتجهت الى دراستي التربوية لأنني تربوي وظللت مدرسا أكثر من ثلاثين سنة .

المقدم : طيب دكتور، من خلال استدعاء النصوص التي ظهرت من خلال تأملات تربوية في صور

من القرآن الكريم يستوقفنا ايضا شيء في سورة يوسف (عليه السلام) هذا الشيء يتعلق بما جرى بين

سيدنا يوسف وإخوته من جهة وبينما جرى من سيدنا يعقوب وأبنائه الباقيين واخذ الحظوة ربما يوسف الاخ

الثاني بنيامين اريد ان اسال عن معاملة الاخوان على قدر المساواة التي اشترت اليها في كتابك كيف نجد

الملح التربوي من هذا المنطلق

الدكتور عثمان قدرى: بسم الله الرحمن الرحيم ، الحقيقة أن أحد الآباء سئل : أيّ أبنائك أحب إليك ؟ قال : الصغير حتى يكبر ، والبعيد حتى يعود ، والمريض حتى يشفى . فهو يحبهم جميعا وقلبه معلق بهم ، ولا شك انه اظهر حبه ليوسف واخيه بنيامين أكثر مما أظهره من حبه للآخرين ، وربما زاد هذا الامر فما كان منهم إلا أن أرادوا أن يزعموه ، أو يأخذوا حقهم ، فسلخوا طريقا غير صالح ، وحينما يرى الإخوة ان اباهم يحبهم جميعا على قدر المساواة فانهم يحب بعضهم بعضاً ويتآلفون أكثر ، أما حين يجدون أباهم يفضل أحداً عليهم لسبب ما فقد يأكلهم الحسد ، وتراهم يحاولون ان يستعيدوا ما فقدوه بكل السبل ، وحينما يفكر الكبار بأن يقتلوه او يبيعوه فما هذا الا تأكيد على احتدام الامر في نفوسهم ، فهم يريدون ان ينتقموا باي طريقة كانت ، بكل تأكيد لا ينبغي لنا ان نتحدث بمقام النبوة لكنني استشف ان هؤلاء لم يفعلوا ما فعلوه ، ولم يفكروا بما فكروا فيه إلا لأنهم وجدوا من أبيهم اهتماما أكثر بغيرهم ، وبدأ الحسد وبدأت البغضاء ، وعلى هذا - يا أخي الكريم يفضل دائما أن يعدل الإنسان من أبنائه . والنعمان ابن بشير رضي الله عنهما يذكر أن أباه جاء الى النبي صلى الله عليه وسلم بطلب من أمه التي قالت له أريد ان تعطي ابني هذا جارية واشهد على ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم . فماذا قال له المربي العظيم صلى الله عليه وسلم ؟ أكلّ ولدك نخلته مثل هذا ؟ قال لا قال انا لا اشهد على ظلم . انا لا اشهد على زور . وعلمه ان يعطي جميع أبنائه على قدم المساواة . فاذا كان هناك عدل بين الأبناء كانت هناك أسرة متحابة

المقدم : لكن هناك بعض الاحيان قد تكون ثمة فروق فردية بين هؤلاء الأبناء تجعل الأب ينظر لهذا الابن نظرة ربما تختلف عن الثاني .

الدكتور عثمان قدرى: هذا لا اشك فيه ، غير أنه لا ينبغي أن يشعر أحدهم بالغبن فيقول انا مظلوم ويحاول ان يؤذي الآخرين الذين يعتبرهم قد اخذوا نصيبه ، وكأنني مقتنع ان يعقوب عليه السلام مع جليل فضله كان منحازا بقلبه إلى يوسف ، واعطاه الكثير من الحب والاهتمام فأثار إخوته وكان ما كان.

المقدم : دكتور ايضا ، دعنا نذهب إلى موضوع آخر ذكرته في كتابك متعلق بسيدنا زكريا عليه السلام وذكرت قصته في سورة مريم كما نعرف ، فذكرت ملامح تربوية وتأملات تربوية يمكن ان يستفيد منها الإنسان في واقعنا العملي من هذه القصة التي وردت في القرآن الكريم ، فأين الأساليب التربوية التي تناولتها في قصة سيدنا زكريا عليه السلام ؟

الدكتور عثمان قدرى: جزاك الله خيرا ؛ إن في قصة سيدنا زكريا ملامح تربوية مثيرة جدا ، منها أنه

نادى ربه نداء خفيا . احد الصحابة يقول للنبي صلى الله عليه وسلم يا رسول الله ؛ أريك بعيد فنناديه ، ام قريب فنناجيه ؟ فأجابه : انه قريب ، وقرأ قوله تعالى " واذا سالك عبادي عني فاني قريب اجيب دعوة الداعي اذا دعان " فهنا نجد سيدنا زكريا عليه السلام ينادي ربه نداء الأدب ، إن القرآن يعلمنا أن الذين نادوا النبي صلى الله عليه وسلم من وراء الجدار أكثرهم لا يعقلون . فكيف الحديث مع الله سبحانه وتعالى جل جلاله ؟ إن سيدنا زكريا لما رجا ان يكون له ولد ماذا قال ؟ ذكر كلمة ربي ست مرات ف " قال ربّ إني وهن العظم مني ، واشتعل الرأس شيباً ولم اكن بدعائك ربّ شقيا .. " وهكذا ذكر كلمة ربي كثيرا ، وهذا نوع من التذلل والتحبب الى الله سبحانه وتعالى . إن الانسان إذا أراد أن يتقرب إلى إنسان وأن يطلب منه شيئا تحبب اليه . فلما عرض حاله ولم يطلب شيئا في البداية انما عرض حالته يريد ان يستجدي الإشفاق والعطف عليه ، والله عز وجل عالم بحاله ، أقول إنك تطلب من مثيلك بعد أن تُبدي ضعفك وقلة حيلتك فماذا قال زكريا لله الكريم سبحانه؟ " قال ربي اني وهن العظم مني " فبين حقيقة ولم يكذب فيها ، صدق حين ذكر أن الكثير من عظمه وهن وضعف ، لكن فيه بقية لم تضعف . وكان صادقا كذلك حين أعلن أن كل رأسه قد شاب " واشتعل الرأس شيبا " إن كل رأس الإنسان يصبح ثغاماً أبيض حين يتجاوز السبعين على الأغلب ومنهم سيدنا زكريا ، ثم تدلل قائلاً " ولم اكن دعائك ربّ شقيا " وتذلل العبد لربه قمة العبودية ..

ولم يطلب النبي زكريا أمورا عادية كأن يقول : أريد ربي ان ترزقني بناء أو سيارة لا لا لم يطلب هذا وانما طلب امرا فيه فائدة المسلمين . فماذا قال " واني خفت الموالي من ورائي " فهو داعية يهمله أمر الدعوة ويريد ان يكون هناك من يحملها من بعده ، وعلى الرغم أنه بلغ من العمر العتيّ وامراته اصبحت عاقرا فلم يئس من رحمة الله وفضله ، فقال " فهب لي من لدنك وليا " .. لم يقل : هب لي من لدنك ولدا فالولد قد يكون عاقا وقد يكون صالحا ، فطلب الولي المناصر والمؤيد فالولي حصرا هو الانسان الصالح .. إن زكريا عليه السلام عرف كيف يدعو، وعرف ماذا يطلب " يرثني " بكل شيء " ويرث من آل يعقوب " الدعوة ، فلم يقل : " ويرث آل يعقوب " فالرجل لا يرث من قريبه البعيد كل شيء ، إنه يرث كل شيء من أبيه وولده ، يرثه في كل شيء ويرث من آل يعقوب العلم والادب والاخلاق والدعوة ثم بعد ذلك

طلب الى الله عز وجل ان يكون ابنه " رضىا " لم يقل راضيا ولم يقل مرضيا ، فلم يأتِ باسم الفاعل ولم يأتِ باسم المفعول وانما جاء بكلمة " رضىا " التي تجمع بين هذا وذاك .

هنا نجد ان الله سبحانه وتعالى الجواب سريعا ومباشرا ، فلم يقل : قلنا يا زكريا انا نبشرك .. إنما جاء النداء سريعا مع البشرى بالغلام " يا زكريا انا نبشرك بغلام " وسماه الله تعالى يحيى ، وأنعم به من اسم " بغلام اسمه يحيى لن نجعل له من قبل سميا "

إنّ الانسان مهما سما وعلا فانه يبقى انساناً ، وانظر معي ما قاله سيدنا زكريا ابتداءً ، قال ابتداءً اشتعل شيب راسي وكانت زوجتي عاقرا ، فقدّم عذره على عذر امرأته ، ولما بُشِّرَ بيحيى تعجب وقدّم عذر امرأته على عذره قائلاً " أئنّى يكون لي غلام وكانت امرأتى عاقراً وقد بلغت من الكبر عتياً ؟ " ولعله ظنّ أن عليه أن يتزوج امرأة صغيرة تنجب له طفلاً ، فزوجته اجتمع فيها خصلتان تجعلانها لا تنجب : عاقر وعجوز ، فنبهه الله تعالى أنه قادر على كل شيء وعلى الإنسان المسلم وغير المسلم أن يعلم أن من خلقك من نطفة قادر على أن يفعل ما يريد " قال ربك هو عليّ هين . وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا . " إن الله عز وجل يفعل ما يشاء

هذه بعض الملامح التربوية الرائعة ، وقصة سيدنا زكريا رائعة ماثرة ... بقي شيء أريد ان اقله : إن العامل قد يأخذ إجازة يرتاح فيها من وعثاء العمل لكن الداعية لا يعرف الراحة في إجازته ، بل إن العمل بالدعوة ديدنه وزكريا عليه السلام حين لم يستطع أن يتكلم حين حملت زوجته - وهذا إيذان بحملها - قال ربّ اجعل لي آية ، قال آيتك ألاّ تكلم الناس ثلاث ليالٍ سوياً " لم يسترح بل ظل يدعو بالإشارة " فخرج على قومه من المحراب فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشيّاً " هو ما يزال في عمل ، وفعله هذا لا يكون إلا من الانسان الذي سكن الايمان قلبه .

المقدم : وهذا ما جرى لسيدنا زكريا كان قمة الادب وقمة المناجاة مع الله سبحانه وتعالى بأسلوب قرآني فريد عبّر عنه الله سبحانه وتعالى - ...دكتور هناك أمور كثيرة تتعلق بسيدنا موسى عليه السلام هناك أمور تتعلق بسيدنا داود وسليمان أشرت اليها في كتاب تأملات تربوية في سور من القرآن الكريم سنأتي اليها إن شاء الله ، لكن اسمح لنا بفواصل مشاهدين الكرام ثم نواصل ابقوا معنا .

من جديد أهلا بكم مشاهدين الكرام لنناقش في هذه الحلقة من برنامج (بين السطور) كتاب

تأملات تربوية في سور من القرآن الكريم للأستاذ الدكتور عثمان مكانسي. - دكتور قبل الفاصل قلنا سنتطرق إلى أمور ذكرتها في كتاب تأملات تربوية ، من هذه الأمور التي أشرت إليها والتي ركزت عليها في الكتاب حوارٌ جرى بين موسى وفرعون ، وكما نعلم فإن هذه الحوارات التي جرت في سور كثيرة وفيها تفصيلات كثيرة لكن لماذا استهدفت سورة الشعراء في هذا الحوار وما جرى بين سيدنا موسى (عليه السلام) وبين فرعون

الدكتور عثمان قدرى : بسم الله الرحمن الرحيم ، قلت ك إن الحوار أسلوب تربوي رائع وتناولته في مواقف عدة في القرآن الكريم ، لكنني هنا رأيته رائعاً جداً وكل القرآن رائع طبعاً ، أخي الكريم إذا أردت أن ترسل إنساناً فلا بد من أن تختاره ولا بد من تحديد الهدف ولا بد من تحديد المرسل اليه لذلك قال الله تعالى فأتيا فرعون الحديث لموسى وهارون (عليهما السلام) حدد الرسولان وهم اثنان ، وقال : اتيا فرعون ، فالمرسل اليه فرعون ، فقولا إنا رسول رب العالمين ، فالذي ارسلنا رب العالمين ، ما الأهداف ؟ إنها : أن ارسل معنا بني اسرائيل .

وبدأ الحوار الظالم المستبد ، يريد أن يتصيد ، يريد أن يكون عالياً دائماً ، فماذا قال ؟ " ألم نربك فيك وليداً ولبثت فينا من عمرك سنين وفعلت وفعلتك التي فعلت وأنت من الكافرين " ؟فاجأه فرعون بطلقات كثيرة ، فالأولى أننا نعرفك فمن أين جئت بهذه الرسالة ؟ نحن الذين ربيناك هذه واحدة ، ونعرف أخلاقك نعرف من أنت لأنك عشت معنا سنين طويلة ، ثم قابلت العمل الحسن والتربية بان قتلت واحداً منا . والفرق بين فعلتك بفتح الفاء وفعلتك بكسر الفاء كبير فالأولى تدل على الفعلة المعروفة - قتل القبطي - والثانية مصدر للفعل قتل ، وفتح الفاء " فعلتك " أشد وقعا وإيلاما لقتلت فرعون يصفه بالقاتل الذي عمل فعلاً شنيعاً وفرز هارباً ، ومن يفعل جرماً كهذا لا يستحق أن يكون نبياً ويدّعي صفات لا ينبغي أن تكون له !

ثم قال : وانت كافر تريد الان أن تكون رسولا لإله لا نعرفه ؟! أنا الإله هو الإله ! وهاجمه هجوماً عنيفاً . " ألم نربك فينا وليداً ولبثت فينا من عمرك سنين ، وفعلت فعلتك التي فعلت وأنت من الكافرين ! " فماذا كان جواب سيدنا موسى ؟ " قال فعلتها إذاً وأنا من الضالين ففررت منكم لما خفتكم فوهب لي ربي حكماً وجعلني من المرسلين " إن الاعتراف بالخطأ فضيلة وفي سورة القصص " قال ربي إني ظلمت

نفسى فاعفر لي فغفر له انه هو الغفور الرحيم " إلا أنه ردّ التهمة بذكاء نبوي رائع فقال : لم أكن كافرا إنما كنت ضالا والفرق كبير بين الضال والكافر ، فالضال هو الذي يبحث عن الحقيقة والنبى عليه الصلاة والسلام كان ضالا ووجدك ضالا فهدى فهو يبحث عن الحقيقة إلى أن هداه الله إليها ودلّه عليها ، كما هدى الله عز وجل الأنبياء جميعا وفي مقدمتهم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم .. وانا من الضالين ففررت منكم لما خفتكم ، ولمّ خاف ؟ لان فرعون كان ظالما ، يقتل دون تبين للحقيقة . " فوهب لي ربي حكما وجعلني من المرسلين " وما يوهب الحكم - النبوة والحكمة - الا حينما يكون الانسان مؤهلا ويملا قلبه الايمان . ثم ثنى عليه قائلاً " وتلك نعمة تمنّٰها عليّ أنّ عبّدت بني اسرائيل ؟! " إنني قتلت واحداً خطأ أما أنت فاستعبدت بني اسرائيل جميعا ، وقتلت عشرات الآلاف منهم ! أفكّل الذي فعلته أنت يا فرعون من الظلم يُنسى وأنا الذي قتلت هذا الفتى دون قصد أعاقب ؟! هذا يذكرني بقول الشاعر

قتل أمرئ في غابة جريمة لا تغتفر

وقتل شعب آمن مسألة فيها نظر

هذا ما يفعله المجرمون في بلادنا من الشرق الى الغرب هذه الأيام ... إن موسى عليه السلام رد عليه فافحمه ، ورأيناه يعرف من أين يؤكل الكتف .

ويريد فرعون أن يهزأ بموسى وربّ موسى ، وهذا دأب الفارغين المتسلطين ، فيسأل : " وما رب العالمين " فاستفهم بما - وهي لغير العاقل - ولم يقل : من رب العالمين ، وتناسى موسى الأمر ، فهو لا يريد أن يفتح أبواباً من اللجاج لا حاجة لفتحها، بل يريد أن يصل إلى هدفه ، فقال مجيئاً : " رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين " فاذا كان الله عز وجل رب السموات والأرض وما بينهما لم يبق شيء لفرعون ، وعلى هذا فموسى أفحم فرعون وعزّاه ، فجعله عبدا حينما قال إن الله هو رب السموات والأرض وما بينهما ، ثم قال ان كنتم موقنين وهو يريد من الناس ان تفكر بعقلها ، وان تتحدث بقلبها ، فلو كانوا موقنين لعرفوا أن الله هو الله . وهنا نرى فرعون يستنجد بعبده! وإله يطلب النجدة من عباده ليس إلهاً . فالتفت إلى ملئه يقول لهم ألا تستمعون ، هذه القضية قضيتكم ، فأجيبوه . يريد أن يستثير هذه الغوغاء حوله ليكونوا معه في صف واحد ضد موسى لا يريد ان يكونوا متفرجين ، فالضعيف دائما يريد أن يكون الآخرون معه ، أما القوي الحجة فانه يقف صامدا ولو كان الجميع أمامه وضده ، فسيدنا

موسى عرف ذلك من موقفهم ومن استعانة فرعون بهم فأردف : " قال ربكم ورب آبائكم الأولين " فالله تعالى ليس ربكم فقط ، إنه عز وجل رب الآباء جميعا ...

لم يبقَ لفرعون شيء يقوله هنا ، فبدأ يسخر من موسى ، ويتهمه بالجنون - دأب كل مفلس خانه الفهم وسقط في مضمار الحوار " قال ان رسولكم الذي أرسل اليكم لجنون " وفرعون بدّعي أن موسى يريد أن يزلّ الناس عن عبادة فرعون - الإله الحق!! وأن فرعون يعرف أساليب موسى في إضلال الناس فلينتبهوا !! انا اعرفه انا الله او انا الرب هو يريد ان يغير دينكم لذا فانه رسولكم الذي أرسل إليكم !

لم يرد موسى عليه مباشرة ، اتجه إلى الملاء يخاطبهم كما فعل فرعون حين خاطبهم ، ولو قال له - مباشرة - بل انت مجنون لانتهى القاء فوراً كما يخطط فرعون أن ينتهي ، لقد رد له الصاع صاعين بطريقة أخرى ، فماذا قال ؟ " قال رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون " ولم يق : إن كنتم تدرون أو ان كنتم تعلمون فأعطى المعنى نفسه فقال : إن كنتم تعقلون. ولا يقابل الجنون إلا العقلانية ، فقال ان كنتم تعقلون ، فاعقلوا واعلموا أن فرعون ليس إلها .

المقدم : دكتور ، عفوا، انّ من طبيعة موسى (عليه السلام) أنه كان ربما حاداً في التعامل مع فرعون فأتعجب أنه لم يرد عليه في حين انه في بعض المواقف قال : " إني لأظنك يا فرعون مثبورا " عندما قال له مسحور، فلماذا؟.

الدكتور عثمان قدرى: هي مواقف يا سيدي و ليست موقفاً واحداً بين فرعون وموسى (عليه السلام) وهارون (عليه السلام) وما قال اني لأظنك يا فرعون مثبورا إلا حينما غسل يده منه ، فهنا حتى اللحظة الأخيرة كان يدعو بالعقل لأنه يريد من الناس أن يؤمنوا قلبا وعقلا .

لم يستعمل موسى عليه السلام المعجزتين اللتين جاء بهما دليلاً على نبوته إلا حين رأى من فرعون وملئه جحوداً وإنكاراً ، ولم تتحرك القلوب ولم تتفكر العقول ، إنه كان يريد أن يؤمنوا قلوباً وعقولاً ، لا تعجباً لمعجزة أو خوفاً منها ، ولما هدد فرعون موسى بالسجن إن دعا إلى معتقده الجديد وسار على هديه اضطر موسى أن يخرج الآيتين اللتين تسلّح بهما ، لقد قال فرعون بعنجهية : " لئن اتخذت إلهاً غيري لأجعلنك من المسجونين " ولم يقل سأسجنك . إنه يسجن الكثير من الناس دون أن يأبه لحقوقهم الآدمية أو يكثرث لها ، لقد علم موسى رأى موسى (عليه السلام) أن الناقد والحوار لم يصل إلى نتيجة ، فلا بدّ

من آية مبينة ، إنني أريد أن أقول : ما ينبغي للداعية إذا كان معه حجة قوية غير عقلية أو منطقية أن يظهرها فوراً ، بل فليدعها للأخير ، ربما لا يحتاج إليها ، ف " قال أولو جئتكم بشيء مبین " هنا توقف فرعون كاجماً شططه وكبرياءه ، " قال فأت به إن كنت من الصادقين " حتى هذه اللحظة يكذبه صراحة ، وهذا أسلوب المتكبر المتعجرف . " فألقى موسى عصاه فاذا هي ثعبان مبین ونزع يده فاذا هي بيضاء للناظرين "

إن المنطق يقول : بعد ذاك النقاش الحر العقلاني ان يكون إيمان وبعد هذه الحجة المبهرة أن يكون إيمان لكن المتكبر المتكبر لا يلقي سلاحه فوراً ، فالكفر معشعش في قلبه ، إن فرعون بعد رأى المعجزتين الباهرتين وصم موسى عليه السلام بالسحر ، " إنه لساحر عليم يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره ، فماذا تأمرون " وانظر معي إلى الإله " الديموقراطي " الذي يستشير جماعته ويقول ماذا تأمرون ، رب يستعين بمخلوقاته ليس إلهاً ...

و تبدأ القصة الأخرى ويبدأ الحوار الآخر فأنظر يا اخي الكريم هذا الحوار الذي اخترته لك لترى أن موسى عليه الصلاة والسلام في هذه الآيات كان يجب إجابات تدل عن ذكاء لا نقول عبقرية ، فالعباقرة غير الأنبياء ، إن الأنبياء لا يتكلمون ألا كلام الله وبعلم الله سبحانه وتعالى لأنهم لا ينطقون عن الهوى .

المقدم : طيب دكتور بعد كل هذا الحوار الذي جرى بين سيدنا موسى عليه السلام وبين فرعون و ما كانت النتائج ؟ تجد أن خطاب سيدنا موسى قمة في الادب وكان في قمة العقلانية وأتى بالحجة تلو الحجج لكن الإنسان كما ذكرت قفل عقله ولا يستطيع أن يدرك ما يريد منه القائل ... فإذا انتقلنا — دكتور — من خلال كتابك وانتقالك من سورة لأخرى لهذه التأملات التربوية التي أشرت اليها في كتابك أيضاً استوقفتنا قصة تتعلق بنبيين من أنبياء الله عز وجل هما داود وسليمان عليهما السلام وطلب أن يجعل أحدهما خليفة أن تكون له تلك المكانة عند الله سبحانه وتعالى خليفة في الارض وبعد ذلك استجاب الله سبحانه وتعالى أين نجد الملمح التربوي الذي أشرت اليه في كتابك في هذه القصة

الدكتور عثمان قدرى : هي ملامح وليس ملمحاً واحداً تبدأ بان داود عليه السلام كان يتعبد وحوله الجند لا يدخلون أو لا يسمحون بان يدخل أحد عليه

المقدم: سيدنا سليمان؟

الدكتور عثمان قدرى : سيدنا داوود عليه السلام تسألني عن سيدنا داوود

المقدم : اذا بدأنا بداوود او سليمان ما في مشكلة

الدكتور عثمان قدرى : سيدنا داوود عليه السلام كان يتعبد فدخل عليه أناس " وهل أتاك نبأ

الخصم إذ تسوروا المحراب " ، ليس الداخِل واحداً واحداً والخصم اسم جنس والدليل على ذلك قوله " تسوروا " المحراب فجاءوا مجموعة بأمر من الله يختبرونه لانه خليفة في الارض فلا بد أن يحكم بالعدل فأمروه أن يحكم به ولا يشطط وقالوا اهدنا الى سواء الصراط ، فطالبوه أن يستمع اليهم وان يحكم بالعدل وان لا يميل يميناً أو شمالاً .. من الذي كان يتكلم هذا الكلام لم يكونا اثنين فقط ، وكانوا مجموعة جاءت جاهة ، وتصور أن هناك جاهة خمسة ستة ، رئيس القوم يتكلم فلما انتهى جاء الأول يتكلم ويشتكى أخاه فله تسع وتسعون نعجة ولي نعجة واحدة فقط وطمع بالواحدة يضمها إلى قطيعه وشدد عليّ في الطلب .. قبل قليل قيل له اعدل ، ولا تشطط ، وادرس الأمر دراسة جيدة ، فنسي تلك الوصايا ، وحكم قائلاً : " قال لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه " والمعروف لدى القضاة أنه إن جاءك رجل فقئت عينه فلا تحكم له إلا بعد أن ترى الخصم وتسمع له ، فلربما فقئت عيناه . فأن كثير من الخلطاء ليظلم بعضهم بعضاً.

لم يستفد داوود من النصيحة ، فحكم فرل في حكمه ، وخرج الجميع سريعاً كما دخلوا سريعاً فعرف أنهم ملائكة جاءوا يختبرونه ، فخر ساجداً يسأل الله تعالى العفو والمغفرة ، إن على القاضي او الحاكم ان يكون عادلا ، أذكر ان أحد التابعين اختصم إليه اثنان أحدهما صاحب له أو قريب ، فتمنى ان يكون الحق لقريبه أو صاحبه ، وحكم بالحق دون أن يميل إلى صاحبه فكان الحق للآخر ، إلا أن القاضي كان يشعر أن ميله هذا كان خطأ جسيماً .

المقدم : طيب دكتور بالانتقال الى السور التي ذكرتها في الكتاب ضمن تأملات تربوية هناك سؤال

فعلا استوقفني أثناء قراءتي لهذا الكتاب يتعلق بقضية علاقة بين التصوير والتربية

الدكتور عثمان قدرى : التصوير الفني هو جزء من البلاغة وكلما كانت الصورة جلية واضحة وصل

من تكلمه إلى الفكرة ببساطة وسهولة . إنك في التصوير تعرض الموضوع بالصورة والصوت والحركة . ولتوضيح أثر الصورة في التربية تعالَ معي سيدي الكريم إلى وصف المنافقين في سورة البقرة : " مثلهم

كمثل الذي استوقد نارا فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون " ذلك أن المنافقين امنوا ، فوصلوا إلى مستوى مضيء من الإيمان ولكنه سرعان ما ذهب وهنا يمثل هذه الومضة الإيمانية بضوء تلاشى فأعقب ظلاماً شديداً ، وانظر إلى سورة أخرى في وصف المنافقين " كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق فتكاتف على الإنسان امور ثلاث أتعبته ، يومض البرق فلا يرى لأن الإنسان يغمض عينيه في البريق الشديد الضوء الذي يكاد يعميه ، فإذا ما ذهب البرق اشتد الظلام فالإنسان ان كان يرى في الظلام قليلا ما عاد يرى مطلقا لأن الشبكة تكبر وتصغر و وقد يصاب بالعمى فهذا المنافق في هذه الحال التي يعيش فيها من نفاق وكذب وافئدت على الله سبحانه وتعالى مثله في ذبذباته بين الإيمان والكفر قبل أن يستقر على الكفر كهذه الصورة التي ترسم البرق والظلام والرعد ، فيعيش حياة ظلم وفساد مخيفين.

المقدم : وهذه التصويرات القرآنية في الجوانب التربية لها وقع اكثر من جانب تربوية ربما يكون مجرد

لتشبيه صورة معينة تكون اقرب الى ذهن القراء ولهذا يستخدمها القرآن

الدكتور عثمان قدرى : ونحن نعيشها ، نعيش البرق والرعد ونعرفه فعندما يصور القرآن حالة المنافق

بصورة قريبة إلينا نعرفها ، ولعلنا عايشناها كثيراً ، عرفنا نفسية المنافق وفهمناها واضحة .

المقدم : دكتور بالانتقال الى سورة اخرى من سور القرآن الكريم التي أشرت اليها بكتاب " تأملات تربوية في

سور من القرآن الكريم " وهي سورة النور ما كنت أظن في يوم من الأيام أن أقرأ في كتاب من الكتب أن

الاثارة تعتبر أسلوباً تربوياً من الأساليب التي استخدمها القرآن الكريم وجاءت آيات في سورة النور تدل على

هذا الشيء وأنت ذكرت هذا في كتابك

الدكتور عثمان قدرى : نعم يا سيدي نعم هناك آيات كثيرة منها مثلاً " لولا جاءوا عليه بأربعة

شهداء فإذا لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون " فحينما قال الله فأولئك عند الله هم الكاذبون

قلت : لا أحب أن أكون كاذباً فهذه الجملة أثارت فيّ حباً للصدق ، واخترت الصدق لنفسى " ولولا اذ

سمعتهم قتلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانه هذا بهتان عظيم يعظكم الله أن تعودوا لمثله ان كنتم

مؤمنين " ان كنتم مؤمنين !! ينبغي عليكم ان لا تعودوا لمثله .. يا رب نحن مؤمنون ، ولن نعود لمثله هذا

الذي أحببت أن أوصله للقارئ ، إنه فنّ الإثارة " ألا تحبون أن يغفر الله لكم " بلى يارب نحن أن تغفر

المقدم : يعني التساؤلات كثيرة ، وللسامع أن يجد إجابة مقنعة .

الدكتور عثمان قدرى : لا بد إن لم يجد الإجابة في الآية أن يجد الإجابة في نفسه لان الانسان المؤمن دائما حريص على إرضاء الله سبحانه ألا ترانا حين نقرأ قوله تعالى " الخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات والطيبات للطيبين والطيبون للطيبات " قلت في نفسك يا ربّ إني أرجو أن لا أكون من الخبيثين، وأود من كل قلبي أن أكون من الطيبين . إن للإثارة دورها في التربية فهي تجعلك ترفض السوء وتبحث عن الصواب ، إنها نوع من التحديس ، أو من التهيج كما يقول القرطبي رحمه الله

المقدم : طيب دكتور ايضاً في كتابك وانت تتحول بين سور القرآن الكريم استوقفتك في الكتاب سورة الفرقان ليس معظم سورة الفرقان وانما استوقفتك الجزء الاخير من سورة الفرقان الذي يذكر الله سبحانه وتعالى فيه صفات عباد الرحمن الملامح التربوية نريد ان نتمثل هذه الصفات التي ذكرتها في الكتاب والتي علقت عليها يعني هنالك من يقول ان الانسان المسلم يقوم بالعبادة و " خلص " ويروح يجلس في بيته فهذه الصفات كيف يمكن ان ننزلها على ارض الواقع ان تكون قرانا يشمي على الارض .

الدكتور عثمان قدرى : حقيقة في هذا الزمن الكئيب يرضى الانسان بالقليل ، الا يقول الشاعر :

دع المكارم لا ترحل لبغيتهما واقعد فانك انت الطاعم الكاسي

يعني لو سألتني الآن أو سألت أي إنسان : كيف انت ؟ قال : الحمد لله ويقبل يده ويضعها على راسه ويقول بخير أعمل واصرف على نفسي ، ولا أحتاج أحداً سوى الله تعالى ، وعندي أولادي ن وبيتنا ملك ولا أريد أكثر من هذا ... ونسي دور المسلم دور المسلم ان يكون انسانا يدعو الى الله عز وجل يظهر الصورة الايجابية المشرقة للإنسان المسلم ، فيساعد إخوانه ، ويساعد الناس ، ويقدم المعونة ، ويكون له اثر كبير في هذا المجتمع ... هكذا ينبغي ان يكون الانسان المسلم .. فأين نحن من هؤلاء يا أخي الفاضل؟!!

المقدم : وجمالية النسبة كما اشرت في كتابك جمالية النسبة الى الله سبحانه وتعالى عباد الرحمن تأتي

الى صفاتهم نأخذ صفة صفة.

الدكتور عثمان قدرى : لنتذكر أن كلمتي الرحمن والرحيم جذرها واحد ، إلا أن من جمال اللغة

العربية - لغة القرآن - أن كلاً منهما تعطي معنى آخر ، فالرحمن تعطي معاني القوة والجبروت والعظمة والجلال واليمنة والسيطرة .. وكلمة الرحيم تعطي معاني اللطف والحنان والرحمة واللين والغفران ... وعلى هذا لم يقل وعباد الرحيم ، إنما قال عباد الرحمن . وكأن الرحمن تساوي كلمة الله في معناها الكبير .؟

المقدم : دكتور سوف نأخذ صفتين بسبب ضيق الوقت

الدكتور عثمان قدرى : صفتين نمسك الأولى مثلاً " وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً "

فليس المقصود بالهون التهاون والتماوت فالمسلم عزيز الجانب ، كما أنه ليس من الأدب أن يشمخ المسلم فيمشي باستعلاء يضرب الأرض بقدميه ، وما أجمل قول المعري يخاطب المسلم الواعي العاقل :

خفف الوطأ ، ما أظنّ أديم الـ أرض إلا من هذه الأجساد

وقبيح بنا وإن قدّم العهد هواناً الآباء والأجداد

سر إن اسطعت في الهواء رويداً لا اختيالاً على رفات العباد

أول صفة لعباد الرحمن أنهم لطيفون يمشون دون تكبر، هونا على الأرض ، وقد يقول أحدهم : وهل يمشي الإنسان على غير الأرض فأقول : أرى ذكر كلمة الأرض يوحي باننا منها خلقنا وإليها نعود ومنها نبعث . فهي أمانة الكبيرة التي ينبغي أن لا نتكبر على ظهرها .

والصفة الثانية أن الجاهلين حين يُخطئون بحقهم يصفحون عنهم ويحسنون صحبتهم ، فإن قيل إن بدء الحديث من الداعية ، فنحن الدعاة نبدأ دعوة الناس ومنهم الجاهلون ، فلماذا ذكر القرآن أن الجاهلين هم الذين يخاطبون الداعية المسلم - ابتداء - ويغلظون له القول ؟ أقول : إن للجاهل بداوة أحيانا قبل ان تدعوه ، فيسمعك قارص الكلام ويسب ويشتتم فاذا بدا منه ذلك فاصمت إلى أن ينتهي ، فإنك إن نزلت إلى مستواه كنت مثله ، ولم تستطع بعد ذلك أن ترقى إلى أن تكون داعية يسمع لك .

المقدم: دكتور ، إننا مضطرون لإنهاء هذه الحلقة بسبب انتهاء الوقت لكن هناك تأملات كثيرة

اشرت اليها في كتابك ضمن ١٤ سورة التي تعرفت اليها كنا نتمنى ان نتكلم عن التصوير المخيف وكنا نتمنى ايضا ان نتكلم عن التكرار ... إنه كتاب ممتع ومفيد استمتعت خلال هذه الفترة وانا اقرا هذا

الكتاب الدكتور عثمان مكانسي شكرا جزيلا لك على هذه المشاركة

الدكتور عثمان قدرى : شكر الله لكم وأحسن اليكم وبارك الله فيكم .

الفهرس العام

٣ المقدمة
٦	❖ تأملات تربوية في سورة هود (١)
١٢	❖ تأملات تربوية في سورة هود (٢)
١٨	❖ تأملات تربوية في سورة هود (٣)
٢٤	❖ تأملات تربوية في سورة يوسف (١)
٣١	❖ تأملات تربوية في سورة يوسف (٢)
٣٦	❖ تأملات تربوية في سورة يوسف (٣)
٤٣	❖ تأملات تربوية في سورة يوسف (٤)
٤٧	❖ تأملات تربوية في سورة الحجر (١)
٥٢	❖ تأملات تربوية في سورة الحجر (٢)
٥٩	❖ تأملات تربوية في سورة الكهف
٦٠	● المحور الأول: تأملات تربوية في قصة أهل الكهف
٦٥	● المحور الثاني : تأملات تربوية في (صاحب الجنتين)
٦٩	● المحور الثالث: تأملات تربوية في قصة موسى والرجل الصالح
٧٦	● المحور الرابع: تأملات تربوية في قصة ذي القرنين
٨٣	❖ تأملات تربوية في سورة مريم (١)
٨٩	❖ تأملات في سورة مريم (٢)
٩٤	❖ تأملات تربوية في سورة مريم (٣)
٩٨	❖ تأملات تربوية في سورة مريم (٤)
١٠٣	❖ تأملات تربوية في سورة طه (١)
١٠٩	❖ تأملات في سورة طه (٢)
١١٤	❖ تأملات تربوية في سورة طه (٣)
١١٩	❖ تأملات تربوية في سورة طه (٤)
١٢٥	❖ تأملات تربوية في سورة الأنبياء (١)

١٣٠	❖ تأملات في سورة الأنبياء (٢)
١٣٤	❖ تأملات تربوية في سورة النور (١)
١٤٤	❖ تأملات تربوية في سورة النور (٢)
١٥٢	❖ تأملات تربوية في سورة الفرقان (١)
١٥٨	❖ تأملات تربوية في سورة الفرقان (٢)
١٧٣	❖ تأملات تربوية في سورة الشعراء (١)
١٨١	❖ تأملات تربوية في سورة الشعراء (٢)
١٨٩	❖ تأملات تربوية في سورة النمل (١)
١٩٩	❖ تأملات تربوية في سورة النمل (٢)
٢٠٤	❖ تأملات تربوية في سورة القصص (١)
٢٠٩	❖ تأملات تربوية في سورة القصص (٢)
٢١٣	❖ تأملات تربوية في سورة القصص (٣)
٢١٧	❖ تأملات تربوية في سورة القصص (٤)
٢٢١	❖ تأملات تربوية في سورة القصص (٥)
٢٢٥	❖ تأملات تربوية في سورة ص (١)
٢٣١	❖ تأملات تربوية في سورة ص (٢)
٢٣٦	❖ تأملات تربوية في سورة ص (٣)
٢٤١	❖ تأملات تربوية في سورة ص (٤)
٢٤٥	❖ تأملات تربوية في سورة الزخرف (١)
٢٤٩	❖ تأملات تربوية في سورة الزخرف (٢)
٢٥٤	❖ تأملات تربوية في سورة الحجرات
٢٦٢	❖ تأملات تربوية في سورة القمر
٢٦٧	❖ لقاء للدكتور عثمان قدرى مكناسي في قناة بغداد الفضائية آب ٢٠٠٩
٢٨١	الفهرس العام